Revolution

الثورة



الجزء الخامس
من
ملحمة القفقاس

محي الدين قندور

رواية
NOVEL

محي الدين قندور

الثورة

الكتاب الخامس من الملحمة الشركسية

الجزء الخامس
من

ملحمة القفقاس

الثورة / رواية
محيي الدين قندور / مؤلف من الأردن
الطبعة الأولى، 2006
حقوق الطبع محفوظة

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم،
ص. ب: 5460 - 11، العنوان البرقي: موكيّالي،
هاتفاكس: 752308/ 751438

التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان، ص. ب: 9157، هاتف: 5605432، هاتفاكس: 5685501
E-mail: mkayyali@nets.com.jo

تصميم الغلاف والإشراف الفني:
محمود الوزني
لوحة الغلاف:
م. م. غورلوف / روسيا
الصف الضوئيّ:
سمير اليوسف
ترجمة:
محمد أزوقه

ISBN 953-36-831-7

صدر للمؤلف

محيي الدين عزت قندور

في الرواية

- عملية اختطاف الطائرة
- الصدع
- سيوف الشيشان
- كازبك
- المؤامرة الثلاثية
- قصة البلقان
- الثورة
- الأسطورة
- تحالفات خطرة
- ضياع في بلاد الشيشان

دراسات

- المريدية، دراسة الحروب القفقاسية (1819-185)

الثورة

تستمر قصة عائلة ناخو بالكتاب الخامس للملحمة الشركسية. يتبع خروج العائلة من القفقاس الروسية الى تركيا العثمانية قيام ثورات سياسية وعسكرية في كلا البلدين. يتوجب على العائلة أن تستمر في العيش والمثابرة في وجه ضغوطات وصعوبات هائلة.

جرى اعطاء العديد من المهاجرين الشراكسة الذين صاحبوا عائلة ناخو في خروجها من القفقاس اراضي واعيد اسكانهم في المقاطعات الجنوبية للامبراطورية العثمانية. وبهذا انضموا الى المستوطنين الشابسوغ الذين سبقوهم خارجين من اقليم البلقان الى الأردن, ليواجهوا نفس الصعوبات مع البدو القاطنين في المنطقة والتي بلغت ذروتها بحرب البلقاوية التي دامت ثلاثة أيام.

في هذه الاثناء, تتشكل مأساة أخرى في بلاد القفقاس بعد الهزيمة الساحقة للجبليين القفقاسيين واحتلال اراضيهم من قبل البلاشفة. وهكذا فان الحرية التي قاتل الجبليون من اجلها أثناء الثورة الروسية, قصيرة الأجل, وتفلت من أيديهم.

استبدلت دكتاتورية القياصرة بنظام أشد قصوة: هو نظام الحزب الشيوعي.

تلخيص

كتب الملحمة الشركسية السابقة

بدأت قصتنا عن الأمة الشركسية بالكتاب الأول للثلاثية الشركسية "سيوف بلاد الشيشان" في ثمانينات القرن الثامن عشر. بدأت بحركة الشيخ منصور في بلاد الشيشان وأول الغزوات الخطيرة للقفقاس من قبل جيوش الإمبراطورة كاثرين العظيمة.

تابعنا حياة أحد الشباب القباردي، واسمه أحمد الكوباني، الذي ترك موطنه على نهر الكوبان في القفقاس الغربي وارتحل باتجاه الشرق حيث انتهى به التطواف في بلاد الشيشان.

يمر أحمد بتجربة التعرض لبدايات الهجمات الروسية على بلاد الشيشان، وبعد أن يتزوج امرأة شيشانية (تسيما)، يرتحل إلى القباردا حيث يؤسس سلالة عائلية تعمل على تربية الخيول.

يستمر الكتاب الثاني من الثلاثية مع ابنه كازبك في القباردا ويشتمل على الفترة من 1805 وحتى 1840 والغزوات الروسية للقفقاس الغربي. ويعيد الكتاب الثالث "المؤامرة الثلاثية" (1840-1865) سرد السنوات الطويلة من الغزوات الروسية في القفقاس الغربي، ويشكل كازبك وحفيده ناخو الشخصيتين الرئيستين. تنتهي هذه الحرب الطويلة بالتهجير القسري لحوالي مليوني شركسي من القفقاس إلى تركيا العثمانية.

ويروي الكتاب الرابع "قصة البلقان" قصة الشراكسة الغربيين، الشابسوغ (حوالي 250000 نسمة) الذين أعيد إسكانهم في دول البلقان من قبل السلطات العثمانية عامي 1864-1865 للعمل كحواجز في الصراعات التالية مع الصرب والبلغار. من هؤلاء الشابسوغ لم ينج سوى 50000 ليعودوا إلى تركيا نفسها بعد حروب البلقان في سبعينات القرن التاسع عشر.

يتحدث الكتاب عن مصير حوالي مئة عائلة تمكنت من الفرار من دول البلقان إلى فلسطين وشرق الأردن (1878).

أما الكتاب الخامس، وهو "الثورة" الحالي، فيستمر في رواية قصة الشابسوغ الذين استقروا في شرق الأردن والقباردي الآخرين الذي هجروا إلى المنطقة من تركيا. كذلك يسرد الكتاب حكاية الثورتين العظميين لذلك القرن (العشرين) اللتين أثرتا على الأمة الشركسية.

الثورة الروسية وآثارها في القفقاس، وانهيار الإمبراطورية العثمانية.

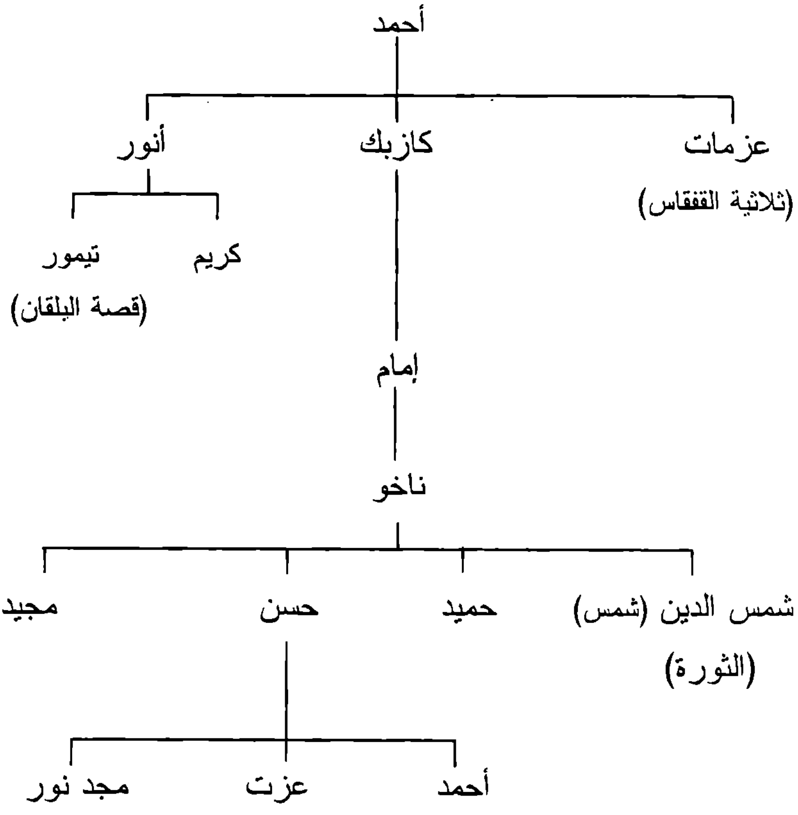
"إذا سخنته أكثر مما يجب، فحتى الصخر ينفجر"

"ليس كل الأخوة مولودين من الأم نفسها"

"ليس كل الأبناء المولودين من الأم نفسها إخوة"

أمثال شركسية

شجرة العائلة



ملاحظات

1- الشراكسة والشركس هم نفس الناس. يسميهم العالمان اللذان يتحدثان اللغتين الإنجليزية والفرنسية بالشراكسة ويعرفون في بقية العالم بما فيه اللغات العربية، التركية والروسية بالشركس. ويعرف الشركس بعضهم بعضاً بالأديغه (وتلفظ أديَّه).

أثناء الحقبة السوفييتيه، جرى تقسيم الشركس أو الشراكسة إلى ثلاثة أقاليم جغرافية مختلفة وأجبروا على الاتحاد مع قوميات أخرى طبقاً لسياسة ستالينية محددة لتحويل شعوب الأقليات العرقية الموجودة في الاتحاد السوفييتي إلى القومية الروسية. كنتيجة لذلك فإن أسم الشركس يشير اليوم إلى شعب الشراكسة المتواجدين في جمهورية القرشاي الشركسية، بينما تشير تسمية الأديغه أو الأديغ إلى شراكسة جمهورية الأديغي. وبنفس الأسلوب، فقد جرى تدريس القبارديين الذين أقحموا مع البلقر في جمهورية قباردينو بلقاريا، للسنوات السبعين الماضية، على الافتراض بأنهم شعب يختلف عن بقية شراكسة القفقاس. وتؤدي كل هذه الإجراءات إلى درجة من البلبلة لدى القراء من غير القفقاسيين.

في الحقيقة وفيما يخص الوعي القومي، فإن شراكسة الجمهوريات الثلاث هم جميعهم أمة واحدة ذات لهجات مختلفة. إنهم جميعاً الشراكسة أو الشركس الذين كانوا فيما مضى شعباً واحداً متماسكاً. أكثر من ذلك، فإنهم جميعاً يحملون تطلعات في أن يعودوا ليشكلوا وحدة جغرافية وسياسية واحدة في يوم من الأيام. وقد بدأ هذا الأمر يحدث بعقد اجتماعات البرلمانات الثلاثة في جلسات موحدة كخطوة أولى باتجاه تلك التطلعات.

2- القبائل الرئيسة للشركس هي القباردي، الشابسوغ والبجادوغ. وهذه بدورها مقسمة إلى عشائر قبلية مثل قباردي

الجلاخستني، الذين يعيشون حول ضفاف نهر التيريك في قباردا الصغرى في شمال القفقاس.

3- يعرف القفقاس في اللغات العربية، الروسية، التركية والشركسية بالكافكاز –القفقاس–.

4- تستعمل كلمات شركس وشراكسة، القفقاس والكافكاز بدون تمييز في هذه الرواية بما يتناسب مع السرد الذي يشير باستمرار إلى نفس المكان ونفس الشعب.

١

المقدمة

هذا الكتاب هو الرواية التاريخية الخامسة في مسلسل تاريخ الشعب الشركسي. وهو يوالي سرد الأحداث التي أثرت في هؤلاء الناس (خاصة قبيلة القباردي) في القفقاس وفي المنفى خلال الثورتين الرئيستين وما بعدهما في المنطقة. هاتين الثورتين هما الثورة الروسية وتفكك وانهيار الإمبراطورية العثمانية الذي أدى إلى قيام ثورة الأتراك الشباب وتشكيل وقيام الجمهورية التركية الأولى.

لقد كان من الصعوبة بمكان دمج المادة التاريخية المتعلقة ببلاد القباردي وشمال القفقاس خلال حقبة الرواية الزمنية بسبب الروايات العديدة المتناقضة وطبيعة الدعاية المغرضة للأعمال الروسية وسجلات الأرشيف، التي كتبت خلال الحقبة السوفيتية. لذلك لا شك عندي في أن هذه الرواية (وهي قطعاً رواية وليست تأريخاً!) ستخلق الكثير من الجدل المتناقض وربما يتضح أنها لن تكون مرغوبة أو مقبولة من قبل الحرس القديم المحافظ لدى مثقفي القبارديين.

أستطيع أن أتفهم إذا اعترض بعض أفراد الجيل القديم من جمهور القراء القبارديين أو الروس على بعض التأويلات والحقائق التاريخية التي قدمت في هذه الرواية. إذ ليس من السهل تغيير عقول وقلوب الناس الذين جرى تدريسهم على مدى سبعين عاماً للإيمان بتفسير معين للأحداث، كان يتماشى بشكل قطعي كلي مع الفكر الشيوعي والغايات الشيوعية. إن الأبطال الذين جرى ابتداعهم لهذه الحقبة هم أبطال حقيقيون هذا اليوم بغض النظر عن أية وثائق تخالف هذه الحقيقة. وإن الأحداث التاريخية المكتوبة خلال نفس الفترة هي الحقيقة، كما جرى تلقينها لهؤلاء الناس، ولأطفالهم ولأحفادهم. لا يستطيع هذا الكتاب أن يأمل في تغيير مثل

هذه المواقف. وعليه فإنني لا أقدم أي اعتذار. لأنني أرى واجبي كمفسر للأحداث التاريخية أن أكتب ما أعتقد أنه يمثل الحقيقة.

وصفني شيوعي قوقازي مسن في أحد الأيام بأنني معاد للشيوعية. هذا غير صحيح. أنا لست معادياً لأي شيء. فقد ظلت عواطفي دائماً مع شعبي وأمتي، الشراكسة. إنني أعتبر مهمة أي كاتب هي كشف الحقيقة حول تاريخ شعبنا، بغض النظر عن درجة ظهورها بشكل مؤلم أو "بعيد عن الذوق" بالنسبة لبعض الجماعات السياسية.

أحد أهم الحقائق التي اكتشفتها خلال سنوات إقامتي وعملي في شمال القفقاس هي أن الجيل الأقدم من القفقاسيين ما زال يؤمن بأن خلاصهم ودخولهم معترك الحضارة قد بدأ مع وصول الروس إلى عتبات بيوتهم وبدء تطبيق الشيوعية. لا شك في أن الشيوعية قد فعلت الكثير لتحسين البنية التحتية واقتصاديات شمال القفقاس (في مجالات فتح وتعبيد الطرق، البناء والتعليم). الأمر الذي لا يفهمونه (وليس لديهم مدخل إلى المعلومات لفهم تلك الحقيقة) هو أن ما منحته لهم موسكو كقيمة اقتصادية حقيقية، مجرد جزء صغير مما استخرجته موسكو من شمال القفقاس من معادن، على شكل مواد خام، فلزات ثمينة نادرة، محاصيل زراعية وكنوز أخرى.

أكثر من ذلك، فإن السياسة الوقحة الغامضة للاتحاد السوفييتي، تلك المسماة "سياسة القوميات"، وقد جرى التخطيط لها وتنفيذها بالمشاركة والتعاون الكامل من القيادات الوطنية العرقية للقفقاسيين أنفسهم. لقد كان الهدف الأسمى لتلك السياسة هو تدمير هويتهم، لغاتهم وثقافاتهم في نهاية المطاف. لقد نجحت تلك السياسة إلى درجة كبيرة بحيث أن العديد من اللغات الأصلية الوطنية لمواطني شمال القفقاس قد تخففت إلى حوالي 40% أو أكثر بواسطة المفردات الروسية. لم يتم الاكتفاء بتشجيع الزواج المتبادل بين مواطني القفقاس من النساء الروسيات بل أصبح هذا مطلباً أساسياً للتقدم المهني أو الحصول على وظائف بدرجات عليا. فقد

كان الهدف الأسمى هو تحويل الأقليات العرقية إلى القومية الروسية بشكل كامل واختفاء ثقافاتها ولغاتها.

ومع أن أحداث عام 1991 وضعت نهاية رسمية لتلك السياسات، إلا أن أنظمة السياسات المؤسسة لغايات "الترويس" قبل حوالي خمسين عاماً، تستمر حتى يومنا هذا بدون أي تغيير، مع وجود القليل من التشجيع للآداب القومية، اللغات، والثقافات أو حتى الغياب الكلي لذلك التشجيع. فقد بقي النظام التعليمي ومواد التدريس في المدارس والجامعات بدون تغيير. فإن كتب المراجع والقواميس المستخدمة حالياً هي نفسها مثل خمسين سنة مضت. يجري تعليم اللغات القومية المحلية في المدارس على اعتبارها لغات أجنبية مع بقاء كتب التعليم والكراريس باللغة الروسية.

وعليه، فإن تفسير الأحداث، سواء كانت تاريخية أو غيرها يبقى لسوء الحظ على ما هو، بطبيعته الدعائية والرقابة الصارمة عليه. على سبيل المثال، فإن المؤسسة الأدبية في جمهورية قباردينو بلقاريا، تستمر في السيطرة على كل كلمة تنتشر والرقابة عليها حتى تنسجم مع السياسات الستالينية التي تأسست قبل حوالي خمسين سنة. حتى الأشعار يجري تعديلها وتغيير معانيها من أجل الحفاظ على السيطرة الاحتكارية للتعبير الأدبي. لا يحدث هذا كنتيجة للتعليمات والأوامر الصادرة من النخبة الحاكمة أو من الحكومة. بل يحدث لأن الحرس القديم نفسه من الشيوعين القدامى باقون في مراكز إدارية، وبناء عليه فهم يقمعون أي أمل للتغيير أو التقدم بالنسبة للأدب الشركسي.

ما يدعو إلى السخرية في هذا الموقف هو أنه بينما يتمنى هذا الحرس القديم من النخبة القفقاسية أن يتم اعتباره منتمياً إلى روسيا الأم والاعتراف به من قبلها، فإن الروس أنفسهم لا يقبلونهم إلا على أساس مواطنين من الدرجة الثانية. إذ يشار إلى القفقاسيين الشماليين في الدوائر الروسية على أنهم "تشورني"، ومعناها الروس السود.

لي تعليق آخر حول المادة التاريخية المتعلقة بأدهم الشركسي في تركيا: فقد يكون هناك بعض الجدل والاختلاف أيضاً.

كتب العديد من الكتب حول أدهم بعد الحروب وبعد أن قامت تركيا بتبسيط إجراءات برامجها الرقابية الصارمة قبل بضع سنوات كجزء من مسعاها للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. هنا أيضاً نجد العديد من المثقفين الأتراك يستجيبون لنوازع الوطنية التركية العرقية البحتة ويلوحون بالراية الرسمية بنفس الطريقة التي أملاها الحزب الشيوعي في روسيا حول ما يجب كتابته وما يجب الامتناع عن كتابته. على سبيل المثال، وللحصول على الحقيقة الأصلية للأحداث التي أدت إلى هروب أدهم من الخدمة العسكرية، يضطر المرء إلى الخوض في متاهة من المراجع المتناقضة بدون أن يتمكن من الحصول على الصورة الصحيحة. لأن الواقع، والرواية والدعاية تفسر الرؤية. في غمرة شعورهم بالإحباط تجاه محاولة الثأر لأدهم وتبرئة ساحته، يميل المؤلفون الشراكسة إلى الانحياز. ويذهب الأكاديميون الأتراك في الاتجاه المعاكس وهم يرددون الموقف الأتاتوركي الرسمي.

لقد كنت محظوظاً خلال أبحاثي في العثور على مصدر غير اعتيادي للمعلومات الأصلية: رجل شركسي عجوز من الأردن (يعيش حالياً في نالتشك) اسمه أمين دوغجوقه. قضى هذا الرجل سنتين في خدمة أدهم الشركسي والإقامة معه أثناء احتجازه في عمان أثناء الحرب العالمية الثانية. إن المعلومات الشخصية التي أفضى بها هذا الرجل المحترم فيما يخص حياة أدهم وأنشطته في تركيا ليست متوفرة في أي من السير التاريخية الموجودة في تركيا.

إنه مما يثلج الصدر ويبعث على الاطمئنان أن الرجل الذي سمي "خائناً" لمدة نصف قرن يعاد الآن تصنيفه على أنه "بطل" لتركيا وهناك حديث في البرلمان التركي حول إعادة جثمان أدهم من الأردن ليتم دفنه في مقبرة "الأبطال" في تركيا نفسها.

لم يكن تجميع المعلومات عن الأردن في أوائل القرن العشرين سهلاً بدوره. لأن تاريخ الأردن الحديث يبدأ بوصول السلالة الهاشمية في أوائل عشرينات القرن. لم يكتب عن الحقبة السابقة لتلك إلا أقل القليل. ومع ذلك فقد عاش العديد من القبائل البدوية الكبيرة في منطقة الأردن الحديث وكان لها تاريخ حافل ممتع ومثير للاهتمام خلال الحقبة العثمانية.

إن الأبحاث المتوفرة في الأردن، على كونها مفيدة، إلا أنها إحصائية في طبيعتها على الأغلب. لذلك اضطررت إلى الاعتماد بشكل كبير على المصادر الغربية لرسم لوحة معقولة عن الحياة في هذا الإقليم خلال فترة الرواية الزمنية.

يأتي في مقدمة هذه المصادر "خطابات" جيرترود بيل الواقعة في مجلدين (نشرت عام 1927) التي توثق لتجاربها ومغامراتها في صحارى الأردن، العراق، والمملكة العربية السعودية.

***

الفصل الأول

شرق الأردن

حوالي عام 1905

جاءت طلقة البندقية من المجهول. قبلها لم يكن أي صوت أكثر من حفيف الأنسام خلال الأشجار وطنين الحشرات تحت شمس ما بعد الظهيرة الدافئ. لا بد وأن القناص قد تحرك بصمت يعادل هدوء انسياب المياه في الجدول القريب واتخذ لنفسه موقع اختباء جيد بين الشجيرات المحيطة. لم تكن لدى أكبر أبناء عائلة نالبي أية فكرة عما أصابه أثناء عمله الدؤوب في الحقول، فقد كان عقله يتجول بعيداً في ذكرياته عن البلقان والصعوبات التي تحملتها عائلته قبل أن تصل إلى هذه الصحراء. ما كان له أن يكون قد سمع صوت الطلقة قبل أن يسقط إلى الأرض صريعاً. لكن عائلته سمعتها.

في الوقت الذي خرجت فيه أمه من البيت راكضة حيث كانت تهيئ وجبة المساء، كان شقيقه الأصغر وشقيقته قد وصلا إليها، من حيث كانا يلعبان على ضفة الجدول، وانضما إلى اندفاعها المجنون خلال الحقل. ألقى والده الفأس التي كان يحتطب بها حطب النار ومضى يجري عبر الحقل باتجاه المكان الذي كان نجله واقفاً فيه قبل بضع لحظات. أخبر الجميع تيمور فيما بعد أنهم واثقين من أنهم شاهدوا رجلا ًيركب مبتعداً، وأنه على ما يبدو بدوي، تتطاير عباءته خلفه أثناء هروبه من غايته الشريرة، وأن وجهه كان غير مرئي خلف الغترة. في الحقيقة هم لم يكونوا واثقين مما شاهدوه، لأنهم كانوا مشدودين بلهفة للوصول إلى جثة ولدهم وشقيقهم المصروع. لكنهم اكتفوا بإدراك أن الجريمة حتماً من فعل أحد أبناء البدو المحليين.

كانت أمه أول الواصلين إليه وأدركت على الفور أنه متوفى وانه لن تتوفر لها فرصة الدقيقة الأخيرة لتخبره فيها كم تحبه وكم هي فخورة بالطريقة التي شب فيها عن الطوق. بعد كل الأشهر الطويلة من المصاعب التي نجا منها كطفل، بعد الإفلات من الحرب الشرسة في أوروبا، بعد كل الحرص الذي مارسته لتبقيه حياً وسط تلك المجاعات، البرد والأمراض، لتغتاله في ثانية واحدة طلقة من مغير واحد.

ركعت في التراب وحملت رأسه المعفر إلى حجرها، فلطخت الدماء ثوبها وتلوى وجهها في عذابه الصامت بينما كل جسمها يحاول أن يطلق النحيب الذي ظل حبيساً بداخلها. وقف زوجها ساكناً مثل جبل، غير قادر على أن يضم طفليه الباقيين بذراعيه. لم يستطع الطفلان أن يرفعا عيونهم الجافة، المفتوحة على اتساعها، عن أخيهما الأكبر الذي ظل، وحتى ساعة سابقة، يتلقى منهما صفوف الإغاظة، إلى أن يئس من محاولة جعلهما يعملان أكثر مما فعلا تحت الشمس اللاهبة وطردهما ليذهبا للعب في مياه السيل.

بدأت زوجته تصرخ فيه عند هذه اللحظة "لقد قلت لك أنه يتوجب علينا مغادرة هذا المكان" وقد عثرت على صوتها بين نوبات النحيب التي تقطع قلبها، لكن الرجل لم يقو على عمل أي شيء أكثر من هز رأسه في موافقة خرساء "علينا أن نعود إلى القفقاس قبل أن يقتلونا كلنا, كم يلزم حتى تقتنع؟ هل يجب علينا أن نشاهد جميع أطفالنا مقتولين من قبل هؤلاء العصاة قبل أن تعترف بأننا غير مرغوب فينا هنا؟ هذا ليس موطننا. ولن يكون موطننا أبداً."

بدأت الدموع تتجمع خلف مآقي الرجل الضخم في نهاية الأمر، كانت سريرته الداخلية تخبره أن زوجته على حق، لكنه كثيراً ما استمع إلى تيمور والرجال الآخرين يخبرونه عن الإمكانيات الكامنة في الأرض التي وصلوا إليها والمخاطر التي ينطوي عليها الرجوع. لقد كانوا في غاية الامتنان للعثمانيين على

إعطائهم مكاناً يسكنونه: حتى ولو أنه مكان موحش وغير متمدن ولا آمن مثل هذا. لقد عملوا بجهد ومشقة لمحاولة إيجاد مصدر رزق لهم في هذه الأرض وباتوا مستعدين للاستمرار في عملهم الشاق حتى يسقطوا من الإعياء إذا كان ذلك هو ما يتطلبه الأمر، ولكن كيف يمكنهم الاستمرار إذا كانوا سيظلوا يتعرضون لإطلاق النار أثناء عملهم؟

بات يلوم نفسه. فقد حذرهم تيمور من خطورة العمل لوحدهم في الحقول، وأنه يتوجب أن يكون هناك شخص يقوم بواجب الحراسة بينما الآخرون يعملون، حتى لو كان ذلك الشخص غير مسلح. فالبدو انتهازيون: وهم يطلقون النار على شخص ما إذا كان الظرف سهلاً عليهم. لم يقع أي حادث لأسابيع عديدة وقد أصبح متهاوناً . وها هو الآن يدفع الثمن.

في هذه اللحظة، بدأ أناس آخرون يهرولون باتجاههم مشرعين بنادق عثمانية قديمة وسيوفاً شركسية. فقد سمع بعضهم الطلقة ولم يتأكد من مصدرها بالضبط، وسمع آخرون صرخات الأم الملتاعة وأدرك الحزن الذي يحيون في ظلال الخوف منه.

كان تيمور من أوائل الذين وصلوا إلى هناك. ومع أنه لم يكن يتمتع بأي منصب أو لقب رسمي، إلا أنه كان القائد غير المنازع للمجموعة، وهو الذي أحضرهم جميعاً إلى هذا الملاذ الآمن نسبياً والشخص الذي فاوض السلطات العثمانية والبدو نيابة عنهم.

تضافرت عليه سنوات الحرمان الطويلة مع هموم ومسؤوليات موقعه الحالي بحيث شاخ قبل أوانه، مما جعله يبدو أكبر سناً من سنيه الخمس والأربعين. فقد خطت المآسي التي شهدها في بلاد البلقان، والمذابح، والتصفية العرقية والمعاناة، خطوطاً عميقة في وجهه الوسيم حتى أقفر من المرح.

يدرك تيمور تماماً إلى أية درجة يمكن للحياة أن تكون رهيبة وكم هو الموت والألم قريبين في كل لحظة. فقد شهد بأم عينه

مباشرة قدرة الإنسان الهائلة على العنف، وشهوته لإسالة الدماء. ورغم ذلك، ولأنه يدرك أبعاد هذه الأمور من تجاربه الشخصية، فقد ظل دوماً يحرض على قبول التسويات واختيار الحلول السلمية لجميع الصراعات. فهو يعرف أنه بمجرد انفجار العنف لن يكون هناك سبيل لإيقافه إلا بعد أن تشرب الأرض كفايتها من الدماء.

كان يستعير المثل الذي كان يطلقه أصلان، صديقه القديم ومعلمه في البلقان "من السهل أن تسحب السيف، لكن بمجرد أن تسحبه، يصبح من الصعب جداً أن تعيده إلى غمده مرة أخرى." ظل تيمور، شأنه في ذلك شأن عائلة نالبي، يحن للعودة إلى القفقاس حيث ظلت بقية أقاربه، ولكنه خلافاً لهم كان يدرك أن المخاطر هناك أكبر بكثير وأن فرصة بناء مستقبل مزدهر هناك أقل بكثير.

بالنسبة له شخصياً، فقد كان قرار العودة إلى القفقاس متخذاً منذ زمن طويل. لكن السؤال بقي متى؟ عمل تيمور بمشقة في التفاوض مع البدو بالنيابة عن قومه وقد توصل منذ وقت إلى تفاهمات مع قبيلة بني صخر. لكن هذا العمل الوحشي الأخير كان من صنع البلقاوية، القبيلة الأشد تأثراً بوصول الشركس إلى المنطقة، وتبعاً لذلك كانوا أكثر الناقمين. أدرك أن عمله ما يزال بعيداً عن الاكتمال، وأنه لن يتمكن من العودة إلى وطنه قبل أن يتأكد من أن المستوطنين الشركس باتوا آمنين من مثل هذا النوع من الهجمات. ركع إلى جانب المرأة "اسمحي لي أن أحمله لك إلى داخل البيت" قال بهدوء. حدقت في عينيه الزرقاوين الحادتين للحظات عديدة، غير قادرة فيما يبدو على فهم كلماته. كرر تيمور قائلاً "اسمحي لي أن آخذه عنك" فتركت رأس ولدها، مكتفية بالتحديق في الدماء التي لطخت كفيها المتيبستين.

حمل تيمور الجثة بدون أي جهد ظاهر ومشى عبر الحقل عائداً إلى البيت الصغير. تبعه الحشد الصغير الحزين، وكل شخص فيهم يدرك أن دوره قد يحين في المرة القادمة ليعاني الموت الإجباري أو الحزن العميق على أيدي السفاحين غير المرئيين الذين

كانوا يتعاملون مع جريمة القتل وكأنها رياضة، إذ يصطادون المهاجرين الشراكسة كما يمكن أن يصطادوا الحيوانات البرية.

كان الكوخ الذي يسكنونه متواضعاً، مثل باقي الأكواخ، مبنياً بالطين والقش على الطراز العربي، لكنه أفضل بما لا يقارن من الكهوف الرومانية التي احتلوها فوق المسرح الدائري المحفوظ بحالة جيدة ملفتة للنظر، حين أرسل العثمانيون الشراكسة بادئ الأمر لاستيطان المنطقة. في ذلك الوقت بدت الكهوف نفسها مكاناً مريحاً مرحباً به من وعثاء السفر، من الطرد من موطنهم في القفقاس وتشريدهم بكل قسوة في بلاد البلقان أولاً، ثم إلى فلسطين وفي النهاية عبر نهر الأردن إلى الخرائب الرومانية في فيلادلفيا، والتي سميت حديثاً عمان من قبل الغساسنة.

في البداية، عندما شرح تيمور للآخرين كيف سيقومون ببناء بيوتهم، شكك العديد من الشركس في الطريقة، وهم يتخيلون كيف يحتمل أن تذوب اللبنات الطينية تحت أمطار بلادهم. ولكنهم سرعان ما عرفوا أن مثل تلك الأمطار نادراً ما تهطل في الصحاري، وأن الشمس اللاهبة سوف تشوي تلك اللبنات البدائية حتى تجعلها صلبة إلى درجة أنها ستصمد قروناً من الزمن. بسبب انعدام وجود الزجاج، فقد غطوا الشبابيك بالمصاريع الخشبية لمنع تسرب الغبار إلى الداخل عندما تهب الرياح ولتمكينهم من النوم في فراشهم بأمان في الليل. سرعان ما اكتشفوا أن البناء بهذه الطريقة القديمة قدم التاريخ حسب التقاليد المغرقة في القدم توفر لهم الفائدة المزدوجة المتمثلة في الإبقاء على بيوتهم رطبة ومريحة في حرارة منتصف النهار ودافئة في الليالي الشديدة البرودة.

في البداية، كانوا خائفين من أن يقتلهم البدو العدائيون أثناء نومهم، واضطروا إلى البقاء صاحين في كل الأوقات، لكن الخبرة علمتهم أن سكان الخيام لا يحبون الظلام وأنهم يحددون هجماتهم بساعات الضياء. كان موضوع القتال مسألة في منتهى الجدية

بالنسبة للشركس، أما بالنسبة للبدو فقد كانت المسألة أقرب إلى الرياضة.

لاقى تيمور قدراً هائلاً من الصعوبة في الإجابة على الاتهامات، التي قرأها في عيني والدة الصبي القتيل. فعلى الرغم من الساعات الطويلة التي قضاها في خيامهم، محاولاً التعرف عليهم نيابة عن قومه، لا يزال يجد أساليب البدو غريبة ويستحيل عليه فهمها. لقد عمل جاهداً للتفاوض مع جميع البدو البلقاوية المحليين، وليس فقط بني صخر وبني الهدب، ولكن أيضاً الدعجة والزبن، الذين كانوا أفخاذاً من القبائل الرئيسة ولكن لديهم مجالسهم العشائرية الخاصة بهم. فكلما افترق عنهم كان يشعر أنه أحرز تقدماً، وأنه بدأ يفهم عقلية الصحراء أكثر قليلاً ثم يجيء حادث آخر مثل هذا ويجعله يشك في صحة حكمه على الأمور.

كان بمقدوره أن يتعاطف كلياً مع البدو الذين يعتبرون مياه السيل وأراضي الرعي المحاذية له مجالهم الحيوي. فقد ظلت كذلك لقرون عديدة، وكان أمراً طبيعيا جداً أن ينقموا من تدخل الشركس ومن الخط الحديدي الحجازي الذي يقوم العثمانيون ببنائه عبر الصحراء باتجاه مكة المكرمة، والذي أراد العثمانيون من الشركس أن يعملوا فيه ويحرسوه. كانت السلطات العثمانية في دمشق بعيدة جداً ومنهمكة حتى أذنيها في المشاكل الأكبر والمتعلقة بإمبراطوريتهم المتهاوية، بحيث لم تتمكن تلك السلطات من تقديم أية حماية للشركس أو تخصص بعض الوقت في محاولة للتفاوض على حل سلمي مع العرب المحليين نيابة عنهم.

لم يكن الشراكسة قادرين على حماية أنفسهم إطلاقاً من الهجمات على عائلاتهم، وأراضيهم ومواشيهم في أول فترات قدومهم من البلقان، عن طريق فلسطين. فقد ظلوا باستمرار يعانون من التهديد ولكنهم لم يكن لديهم أي مكان آخر ليذهبوا إليه. ما من أحد يستطيع أن يستمر في الحياة داخل الصحراء بدون ماء، حتماً ليس شعباً يعتمد على الأرض والماشية في معيشته. ولم يكن هناك

أي مصدر آخر للمياه على بعد أميال عديدة من حولهم. فاضطروا إلى البقاء هناك والبقاء متجاورين. حصلوا على الأسلحة تدريجياً وبدأوا يدافعون عن أنفسهم. عندما جوبه البدو بالمقاومة غيروا أساليبهم وخفت الهجمات في الحال، بحيث أصبحت انتهازية صرفة، وبدأ الشركس يؤمنون بأن الهجمات ستتوقف كلياً في يوم من الأيام. نتيجة لذلك بقوا حيث هم وكبر المجتمع تدريجياً بوصول جماعات جديدة قادمة من القفقاس عن طريق تركيا، انتشرت إلى مسافات أبعد على ضفتي السيل، مما جعل البدو أكثر نقمة وغضباً من ذي قبل.

مع أن الهجمات أصبحت أقل تكراراً أو متقطعة، إلا أنها ظلت مصدر قلق وانزعاج بالنسبة للشركس الذين لم يكونوا يريدون أكثر من أن يتركوا بحالهم في سلام ليفلحوا الأرض وينشئوا عائلاتهم في هذا الوادي الأخضر الذي يحيط بمياه السيل، محمياً من الصحراء بالجبال المحيطة.

لم تكن عشائر بني صخر تعارض السلطات العثمانية بقدر معارضة بعض البدو البلقاوية. فقد كان العديد منهم مستخدماً من قبل العثمانيين لنقل الحجاج والمؤن الغذائية واللوازم العسكرية خلال الصحراء فوق ظهور جمالهم وفي حماية الحجاج من القبائل الأخرى. كانت هناك حوالي اثنتي عشرة مجموعة من بني صخر في المنطقة يبلغ تعدادها أكثر من خمسة آلاف نسمة، ولكل مجموعة منها شيخها الخاص بها.

وكان هؤلاء يسيطرون على جزء مهم وواضح من طريق الحجاج.

كانت فكرة إنشاء خط حديدي، قادر على الإتيان بالجنود لمراقبتهم، تحمل في طياتها التهديد لأناس جالوا المنطقة لقرون طويلة، تماماً كما كانت فكرة تقاسم المياه، التي كانت ملكاً لهم قبل أية حقبة يستطيع أي راوية أن يتذكرها. لكنهم لم يكونوا كلهم

معادين للقادمين الجدد. فقد أدرك الشيوخ الأكثر انفتاحاً أن بإمكانهم التعلم من الشراكسة القادمين بقدر ما يستطيع الشراكسة التعلم منهم. فراقبوا باهتمام بينما قام القادمون الجدد بريٍّ التربة وتسميدها ونشروا الخضرة مع انتشارهم على ضفتي المياه. لكنهم جميعاً ظلوا يخشون أنه مع تحول الوادي المحيط بعمان إلى المزيد من الخصب، فمن المؤكد أن المزيد من الناس سيتبعون قادمين وأنهم سيجبرون على الخروج من الأراضي التي طالما اعتبروها ملكاً خالصاً لهم.

أقطع المستوطنون قطعاً من الأراضي من قبل العثمانيين مقابل خدماتهم في الخط الحديدي وفي محاولة للتخفيف من أعداد المهاجرين الفقراء المكافحين للبقاء على قيد الحياة في المناطق الأكثر ازدحاماً بالسكان من الإمبراطورية. بات العثمانيون على استعداد لعمل أي شيء لمساعدة المستوطنين على التوصل إلى تفاهم مع القبائل المحلية. لكنهم لم يكونوا قادرين على تقديم أية ضمانات للحماية. كان مركز السلطة في المنطقة بلدة صغيرة تسمى السلط، على بعد حوالي ثلاثين كيلو متراً إلى الغرب من عمان. لكن هذه السلطة لم تكن لديها قوة شرطة ملائمة أو أية قوة عسكرية ظاهرة لتقديم الحماية المناسبة في منطقة الصحراء الواسعة. لأن القوات كانت متمركزة في أمكنة بعيدة مثل دمشق أو القدس.

على أية حال، فإن رجلاً مثل تيمور، القادر على أن يخاطب السلطات التركية والبدو على حد سواء، كان يساوي ضعفي مقدار وزنه ذهباً. فقد خدم تيمور في الجيش العثماني بالبلقان وكان خبيراً بأساليب البيروقراطية. وكان فوق ذلك قد تعلم اللغة العربية في السنوات القليلة الأخيرة، وأصبح قادراً ليس فقط على التحدث بها بطلاقة، بل أيضاً يكتبها ويقرأها جيداً. ولذلك فقد أصبح غير قابل على الاستغناء عنه بالنسبة لكافة الأطراف.

بعد أن سجي الفتى القتيل في البيت الصغير، تفرق الرجال والنساء بمبادرات واعية، فقد انهمكت النساء في مواساة الأم

الملتاعة بينما وقف الرجال في الصفوف الخلفية غير مرتاحين، وغير قادرين على إيجاد الكلمات التي تلائم المناسبة الحزينة.

سأل أحد الرجال تيمور "ألن يقبلوا بوجودنا هنا على الإطلاق؟"

أجابه تيمور "في يوم من الأيام، ولكن ربما ليس أثناء حياتي أو حياتك. سنضطر إلى البقاء حذرين على الدوام. إذا استطعنا أن نصعب الأمر عليهم في مفاجأتنا ونحن غافلين، فربما يدركون في نهاية المطاف بأنهم لن يكسبوا شيئاً من قتلنا بقدر ما سيكسبوا لو أنهم يعملون إلى جانبنا يداً بيد."

فحَّ شاب غاضب بصوت خفيض، لم يشأ أن تسمعه عائلته "يجب أن نركب إلى مخيمهم ونذيقهم طعم المرارة التي يتسببون بها لنا."

"كلا" هز تيمور رأسه رافضاً، وقد تذكر أياماً كان سيتخذ فيها نفس ذلك الموقف "إن ذلك لن يتسبب إلا في قيام جرب سنخسر فيها حتماً العديد من أفضل رجالنا. هناك الآلاف المؤلفة منهم ونحن قد شهدنا في السنوات القليلة الأخيرة من سفك الدماء ما يكفينا لحياة كاملة. لا تنسوا أننا ضيوف في أراضيهم. يجب أن نتحلى بالصبر، والحذر، والمثابرة. يجب أن نستمر في التحدث حتى لا يبقى لدينا المزيد لنقوله وبعدها يجب أن نقول الأشياء نفسها مرة أخرى إلى أن يسود العقل والمنطق. لقد دعيت إلى السلط لمقابلة السلطات. سوف أغادر بعد مراسم الدفن. سوف أتحادث معهم لأرى إن كانت هناك أية طريقة لتحسين الموقف. ربما نتمكن أخيراً من تعيين بعض "الدرك" في عمان."

بعد يومين نهض تيمور قبيل الفجر وأخذ يجهز نفسه للركوب الطويل إلى السلط. كان الشركس الشابسوغ الأصليون مسالمين إلى درجة مقبولة فقد شهدوا ما يكفي من سفك الدماء لجعلهم يتوقون إلى السلام ويقدرونه حق قدره. سوف يستمعون إلى نصيحته. لكن

القادمين الجدد، الذين كانوا من البجادوغ والقباردي على الأغلب، نوعية أخرى مختلفة كل الاختلاف: فهم لم يمروا بتجارب عذابات وإذلال مناطق البلقان. وعليه فهم ذوو أمزجة حادة ولا مانع لديهم من القفز داخل النار في سبيل حماية عائلاتهم. بات تيمور قلقاً من أن هذه الحوادث المشابهة لما عانته عائلة نالبي قبل يومين قد تؤدي إلى مجابهات واشتباكات واسعة رسمية. وذلك سيكون حتماً كارثياً للشركس في عمان. وعليه فهو مضطر إلى الاحتياط لمنع حدوث مثل تلك الوقائع.

بحلول وقت انطلاقه كان الضوء قد بدأ ينتشر وكانت النساء قد نزلن إلى ضفاف السيل مع غسيلهن. بدت الدنيا نشيطة وجديدة بحيث كان من الصعب التخيل كم أصبح الكفاح من أجل الحياة صعباً بينما أشرقت الشمس وارتفعت عبر الحقول الخضراء وجعلت مياه السيل تترقرق متلألئة.

تيمور فارس بالسليقة، وقد جرى تدريبه على الطريقة العسكرية في الركوب خلال سنوات خدمته في الجيش العثماني. بدا مظهره جريئاً مهيباً في سراويل الفروسية والسترة ذات التصميم القوزاقي وحذائه الجلدي الطويل الرقبة. ارتدى غطاء رأس عربياً لأجل الرحلة لأبعاد الرمل والغبار عن فمه وأنفه. نهضت بضع نساء وتوقفن عن أعمالهن ليلوحن له بأيديهن، لوَّح لهن بالرد، بجدية وسمع قهقهاتهن المكبوتة أثناء مروره راكباً. كان مدركاً لحقيقة أن الجميع يعتقدون أن الوقت قد حان لتزويجه. كان سيحب أن يبدأ في تكوين أسرة لنفسه لكنه لم يشأ أن يرتبط بهذه الأرض. بمجرد أن ينتهي عمله وتتولَّد لديه القناعة أن المستوطنين أصبحوا قادرين على تولي شؤونهم والعناية بأنفسهم، سوف يتوجه عائداً إلى قومه في القفقاس. لأن حرارة الصحراء وتعقيدات الشخصية البدوية لم تلائم طبيعته الصادقة المباشرة.

استغرقته الرحلة يومين لأنه كان يضطر للتوقف عند مضارب كل عشيرة بدوية لقضاء بعض الوقت مع شيخها والتأكد من أنه

سيحصل على مرور آمن في منطقة نفوذها. في كل توقف كان الحديث سرعان ما ينتقل إلى المخاوف العربية من أن يتم الضغط عليهم ويحرموا من الوصول إلى مصدر الماء. وفي كل مرة يطمئنهم تيمور أن المستوطنين لن يقدموا على الاعتداء على الخط الذي رسم لهم عند جسر المصدار، وبأن مياه النبع عند "رأس العين" ستبقى على الدوام مفتوحة حتى يستمروا في سوق أغنامهم وجمالهم لتشرب بحرية. شعر جميع الشيوخ أن تيمور رجل ذو كبرياء واحترموه. لم يحترموا العثمانيين، رغم أنهم كانوا سعداء بتلقي أموالهم، لكن تيمور كان رجلاً شريفاً وكانوا يحترمونه على كل اختلافاته عنهم.

تأكد من التوقف ليقدم احتراماته لزعيم عشيرة الفايز من بني صخر الذين كانوا مخيمين في الطنيب على الطريق إلى مادبا، وقبل الدعوة للاستراحة لديهم لتلك الليلة.

بدأ البدو يحضرون القهوة لحظة وصوله، قاموا بتحميص حبوب البن التي ملأت الأجواء بنكهة الضيافة العربية التي تدغدغ الحواس.

كانت خيمة الشيخ الهائلة محيكة من شعر الماعز الأسود ومقسومة في منتصفها لفصل الرجال عن النساء. كان أحد جوانب الخيمة مرفوعاً ومفتوحاً لإدخال النور والدفء من نار الشجيرات التي أوقدت في حفرة قليلة الغور خارجها، كما أن الدخان انتشر إلى داخل الخيمة، وجعل أعينهم تدمع.

كان الشيخ مقاتلاً عجوزاً محترماً، وجهه الناحل ذو العظام الناتئة يعطي الانطباع بأنه منحوت من الصخر، وقد اكتسبت بشرته سمرة كالجلد المدبوغ نتيجة طول التعرض للشمس والرياح.

تألف العشاء من اللحم، اللبن الحامض وأكوام من الأرز المقدم فوق أرغفة من الخبز "الشراك". بعد تناول الطعام، جلسوا في حلقة

على الوسائد والسجاجيد الملقاة في أنحاء الخيمة، يشربون القهوة ويدخنون السجائر، ثم بدأ تيمور يشرح وجهة سفره.

"ينبغي علي أن أقابل "القائمقام" في السلط، ولا بد أن نتطرق إلى موضوع المشاكل بين المستوطنين الشركس وبدو بني هدب."

أحنى الشيخ رأسه بحكمة "أعرف ذلك، لقد سمعت عن المتاعب التي تعرضتم لها مع بني هدب. يجب أن تظهروا لهم مقداراً أكبر من القوة: سوف يتركونكم لشأنكم إذا أعتقدوا أنكم ستقومون بشن الحرب عليهم. لقد نجح بنو الهدب في طرد قبيلة الرّولَه عن نبع المياه، قبل أن تصلوا، وهم يعتقدون أنهم سينجحون بنفس القدر في ترهيب أبناء قبيلتكم ذوي الشعور الشقراء وبنفس الطريقة."

أجابه تيمور "نحن قادمون جدد في المنطقة، ولا نرى من مصلحتنا أن نتسبب في المزيد من المشاعر السيئة بشن الحرب. أنا لا أريد أن تعتقد قبائل الصحراء بأننا نتآمر مع العثمانيين لمصادرة حقوقهم المتوارثة. ولكنهم سيضطرون إلى قتل كل واحد منا إذا أرادوا أن يتخلصوا منا. ليس لدينا أي مكان آخر نتجه إليه ونحن بحاجة إلى البقاء بجانب المياه." توقف لحظة يرشف قهوته. "فهل ترسل معي شخصاً لمقابلة "القائمقام"، شخص يمكنه الاستماع إلى ما يقال ويمكنه أن يعود ليخبر باقي القبائل ويشرح لهم أنه ليست هناك أية مؤامرة؟"

وافقه الشيخ بقوله "سيكون ذلك إجراءً احترازياً حكيماً. خذ معك، ابني، قبطان." وأشار إلى ابنه البكر، شاب وسيم الهيئة كان يجلس إلى جانبهما، أحنى قبطان رأسه مشيراً إلى أنه سيعتبر السفر مع رجل في مرتبة تيمور وسمعته الطيبة، شرفاً له.

ركبا في اليوم التالي باتجاه السلط في صمت رفاقي وتوجها مباشرة إلى بيت المسؤول العثماني، الواقف بأناقة فوق تلة، مشرفة على بقية البلدة.

بنيت السلط داخل واد أخضر، يقطعه سيل آخر غزير المياه. كانت البيوت الطينية الصغيرة منظمة على طول جانبي المسيل، مع وجود بعض منها مقاماً، كأنها أعشاش النسور، على التلال المحيطة بالوادي. فوجئ القائمقام، وهو سياسي بارع زاد وزنه كما زادت ثروته الشخصية جراء التحكم والتلاعب بالناس على الطريقة التي تناسبه، بوجود الشيخ الشاب الآتي من بني صخر يخطو إلى جانب صديقه القديم. فقد أبرم العديد من الصفقات مع تيمور عبر السنوات، كان يعرف موقفه مع تيمور. لكنه لم يكن يعرف أين يقف مع البدو مطلقاً.

جلسوا جميعاً على الوسائد المريحة ثم جيء بالشاي. بينما كان القائمقام يخوض في أحاديث جانبية مؤدبة بات واضحاً أن هناك أمراً ما يشغل باله ويجد صعوبة في قوله أمام قبطان.

فطن تيمور إلى أنه لو استأذن الشيخ الشاب ليسمح له ببضع دقائق مع المسؤول العثماني فسوف ينكشف له كل شيء، لكنه صمم على أن لا يفعل ذلك، وعليه استمر الرجال الثلاثة في التكلم حول الموضوع بدون التطرق إلى صلبه. في نهاية الأمر نفذ صبر تيمور.

ارتكز إلى الخلف متظاهراً بالاسترخاء. "وهكذا، لا بد وأنك سمعت عن مقتل الفتى الشركسي مؤخراً. إن وضعنا في عمان يتحول إلى الخطورة. فهل هناك بصيص أمل في إرسال "الدرك" لحمايتنا؟" سأل تيمور بشيء من الفضول.

أجابه الوالي "نعم، لقد سمعت عن هذا الحادث المؤسف، لكنك تعرف موقفنا هنا. يجب على قومك أن يحموا أنفسهم. ليس هناك ما يمكنني عمله رسمياً. إن أفراد قبيلة بني هدب يقومون بإطلاق العيارات النارية أحياناً على عسكرنا أنفسهم ونحن نتحمل ذلك لأن قيامنا بتوجيه حملة تأديبية على بني هدب سوف يتصاعد ليصبح حرباً قذرة في الصحراء. ولا أحد يرغب في ذلك."

"إن قومي يقتربون من نفاذ الصبر وهم على وشك القيام بأعمال انتقامية،وهم لن يتحملوا وقوع حادثة أخرى، لأنهم في حالة غليان. أعتقد أنه يجب عليك أن تأخذ بحسبانك احتمال اندلاع أعمال عدائية جدية خطيرة هناك ما لم تتدخل." أجابه تيمور بحدة.

بقي قبطان على صمته. اكتفى المسؤول بهز رأسه لكنه بقي صامتاً هو الآخر. في النهاية، قام تيمور بكسر الجليد مرة أخرى. "ما الذي استدعيتني إلى هنا لأبحثه معك، يا صديقي؟" تحرك المسؤول في مجلسه بانزعاج، سحب نفساً عميقاً ثم تكلم "لقد تم تخصيص ستاً وثلاثين عائلة أخرى من القفقاس من منطقتك من قبل السلطات في استنبول، وسيصلون إلى هنا خلال شهر. نحن بحاجة إلى اتخاذ قرار بشأن المكان الذي سيتم إسكانهم فيه."

"لم يعد هناك متسع على امتداد شريط الضفة التي نسكنها" أبقى تيمور صوته هادئاً، حريصاً على أن لا يخلق جواً من التوتر أكثر مما هو ضروري "لقد أعطيت كلمتي إلى البدو بأننا لن نتعدى بمسافة أكبر على المنبع، المسمى "رأس العين". لقد قطعت لهم وعداً صارماً مطلقاً. يجب عليك أن تعثر على مكان آخر لإيواء وتوطين هاته العائلات. من أين هم قادمون؟"

ألقى القائمقام نظرة عابرة على الأوراق الرسمية التي أمامه للحظات قصيرة. "إنهم من القبارديي، مثلك. لقد رست بهم السفينة من القفقاس مؤخراً ويجري إرسالهم مباشرة إلى هنا عن طريق السكة الحديدية."

تكلم المسؤول بهدوء وشعر بالارتياح عند رؤيته لتغير التعبير على وجه تيمور. فقد كان متلهفاً على إقناع القائد الشركسي بتقبل المسؤولية عن هذه المشكلة الجديدة،حتى يزيلها عن كتفيه. "المكان الآخر الوحيد الذي يمكننا أن نؤويهم فيه سيكون على نهر الأزرق، الذي يقع على مسافة ركوب ثلاثة أو أربعة أيام بعيداً عن مستوطنتكم."

"يستحسن أن تطلق النار عليهم حيث يقفون" قال تيمور "لأن البدو هناك سوف يقتلونهم جميعاً خلال أسابيع."

وافقه القائمقام، رافعاً كفيه في إشارة عجز واستسلام "إن ذلك الخطر قائم على الدوام" التفت تيمور إلى قبطان، الذي احتفظ وجهه بتعابير محايدة خلال تبادل الحديث بطوله.

"هؤلاء هم قومي، يا قبطان، ويجب علي أن جد طريقة لمساعدتهم."

أدرك تيمور أن احتمال عودته إلى القفقاس يتراجع أمام عينيه. إذ كيف سيتمكن من ترك ستاً وثلاثين عائلة من الأصدقاء حتى يتدبروا أنفسهم في بلاد غريبة؟ فمع أنه ينتمي إلى قبيلة القباردي إلا أنه بقي يعيش بين شراكسة الشابسوغ ويساعدهم سنوات عديدة. حتى أنه بات يتحدث بلهجتهم. والآن هذه فرصته ليشاهد أبناء جلدته مرة أخرى بعد كل هذا الزمن الطويل. سيتحتم عليه أن يؤجل مغادرته مرة أخرى.

***

الفصل الثاني

استنبول

قبل مقتل فتى عائلة نالبي في عمان بحوالي أسبوعين، رست السفينة التي تحمل عائلات الحابساي من القباردي تحت مآذن المدينة المتلألئة التي ما زال العالم الخارجي يعرفها باسم القسطنطينية. كان ميناء استنبول يعج بالناس بينما تقوم السفن بإفراغ حمولاتها من المهاجرين، الماشية والمحاصيل على الأرصفة المزدحمة. يقوم التجار بتسليم البضائع ليتم رفعها إلى العنابر ثم تشحن إلى أنحاء أخرى من الإمبراطورية.

كان الجميع يصرخون ويتجادلون، والتجار الصغار العصبيون يتعرقون في الطقس الحار بينما تبرم الصفقات التي من شأنها أن ترفع من شأنهم أو تدمرهم. قام الوسطاء الواثقون، الناجحون في أعمالهم بإبرام الصفقات حاملين أكياساً ممتلئة بالنقود، صفقات من شأنها أن تزيد في ثرائهم بينما هم يضحكون بأسنان ذهبية عند كل نصر جديد.

تكومت العائلات القباردية سوية في إحدى الزوايا بين صناديق الدجاج وجبال السجاد بينما كان المارة يتخطونهم، ولا يكادوا يشعرون بوجودهم. كان معظمهم جالساً على الأرض يراقبون الضجيج والحركة من حولهم بأعين قلقة،مذهولة، مفتوحة على اتساعها، وقد امتلأت خياشيمهم بنتانة القاذورات المتعفنة في المياه المحيطة بالسفن. بينما كانت السفن نفسها تتزاحم بحثاً عن مساحة لها في قلب الإمبراطورية العثمانية العظيمة.

تميزت مجموعة ناخو عن البقية. ليس فقط بسبب الجياد السبعة الرائعة التي أحضرها معه والتي كانت مقيدة إلى حاجز، ويجري إطعامها لقماً من الأعشاب من قبل الأطفال، وهي تضرب

الأرض بحوافرها بنفاذ صبر وتنفث الهواء من مناخيرها الجميلة، المخروطية الشكل، ولكن أيضاً بفضل وقفته. فقد كان ناخو رجلاً ميسور الحال وصل إلى هذه البلاد الغريبة يحمل ثروة من الذهب إضافة إلى سلالة قيمة من الخيل. كذلك كان له أقارب ذوي شأن في المدينة. خلافاً لمعظم القادمين الجدد، لم يكن مضطراً لأن يلقي بنفسه إلى رحمة السلطات، بحيث يذهب إلى أي مكان يؤمر بالذهاب إليه أو يعرض عليه فيه سقف يظلله. هذا رجل يمتلك شيئاً من السيطرة على مصيره ومصير عائلته.

غادرت والدة ناخو القفقاس قبل سنوات عديدة لتتزوج من شامرزا عمر، الذي هاجر إلى استنبول، بعد أن قُتل زوجها، تاركة ابنها ليتربى حسب الأساليب التقليدية من قبل جده كازبك. وقد أثبتت تلك التربية أنها ذات فائدة عظيمة وأكسبته منزلة رفيعة.

تبوأ شامرزا عمر، زوج والدة ناخو، وظيفة رفيعة في الحكومة العثمانية وتبعاً لذلك فإن ناخو لم يكن لديه ما يخشاه، من هذه البلاد الأجنبية، لأن مشكلته الوحيدة هي اتخاذ القرار فيما سيفعله تالياً بكل الخيارات المفتوحة أمامه.

أكثر من ذلك فقد كان ناخو قد زار استنبول قبل بضع سنوات بصحبة الجنرال الروسي موسى كندوكوف وأسس عدة اتصالات وصداقات. وعليه فلم يكن غريباً كلياً في هذه البلاد. شعرت بقية عائلات الحابساي، التي عانت من الصدمات والإصابات منذ أن غادرت بيوتها، بالسعادة لتسليم زمام أمورها إلى ناخو أيضاً. لم يكن هؤلاء الناس ممن أجبروا على مغادرة بيوتهم على أثر الحروب الروسية مثل القبائل الأخرى، بسبب الحروب نفسها أو لأسباب دينية. ومع ذلك فقد كانوا لاجئين بلا حول ولا طول، شأنهم في ذلك شأن اللاجئين الآخرين. فهؤلاء مسلمون متمسكون بدينهم وقد دأب الوعاظ العثمانيون على حثهم وباتوا نتيجة لذلك مقتنعين كلياً بمغادرة الحكومة المسيحية للقيصر والهجرة إلى تركيا المسلمة.

المسافر الآخر ذو الأهمية في هذه المجموعة هو إمامها، تاب أنور، الزعيم الديني المسن وصديق ناخو لسنوات طويلة، والذي يسافر أيضاً مع عائلته. كان تاب أنور قد درس الشريعة وعلوم الدين في استنبول أثناء شبابه، ولدى عودته إلى القباردي، ظل يعظ بني قومه حول مفهوم الهجرة إلى أرض إسلامية، وإلى تركيا العثمانية تحديداً. وقد شعر في هذه الآونة أن مهمته قد أنجزت. لم يكن يعي بعد أن السلطات العثمانية قد استخدمته بمهارة، حتى تحقق مهامها وأهدافها هي الأخرى.

انتظرت العائلات على الرصيف بينما اختفى ناخو داخل مدينة المآذن العظيمة وأسواق الشوارع، ابتلعته الحشود وروائح الطبخ ونتانة المجاري. لم تكن لدى أحد منهم أية شكوك في أنه سيعود وأنه سيكون قد رتب أمور رعايتهم. فقد كان ناخو رجلاً يحظى بالاحترام ويفرض هيبته على كل من يقابله، فهو قائد طبيعي بين الرجال. ولذلك انتظروا، محاطين بالبحارة والتجار الأتراك المنهمكين في تحميل وتفريغ البضائع التي تغني الإمبراطورية، إلى أن عاد ناخو إلى الظهور بعد بضع ساعات مصحوباً برجل ذي هيئة متميزة يرتدي ملابس غربيه. كان تاب أنور أول من شاهدهما قادمين ونهض واقفاً على رجليه لتحية الرجل الغريب. كذلك تحامل كبار العوائل الأخرى على أنفسهم ونهضوا، وقد أظهر بعضهم علائم الإجهاد الذي كان يعاني منه كل فرد فيهم، بحيث تصلبت مفاصلهم حتى آلمتهم، واشتكت أمعاؤهم الخاوية حتى تسببت بالدوار والخواء.

قال ناخو "أيها الأصدقاء، دعوني أقدم لكم شامرزا برهان، أخي في استنبول. لقد جاء ليمد لنا يد العون." ولم تظهر على ناخو أي من علائم التعب الذي كان يحس به بالضرورة. تقدم تاب أنور إلى الأمام وصافح يد برهان بقوة "إننا في غاية السعادة لرؤيتك" وأكدت الابتسامات التي علت وجوه الجمع صدق كلماته "إننا ضائعون لا محالة في هذا المكان بدون بعض المساعدة."

فتح برهان ذراعيه كأنما يبغي معانقتهم جميعاً "أيها الأخوة والأخوات، يؤسفني أنكم قد عانيتم إلى هذا الحد، لكن محنتكم قد انتهت. "إن شاء الله"، سوف يتم إسكانكم وتحديد وجهاتكم عما قريب. لقد كنت وأخي لتونا في مكتب المدير وقد اقترح أنكم ربما ترغبون في الانضمام إلى العديد من عائلات القباردي الذين استقروا حالياً في الأقاليم الجنوبية وأسسوا مجتمعا مزدهراً في قرية تسمى عمان."

هزَّ ناخو رأسه وابتسم، سعيداً بقدرته على أن يقدم بعض الأمل لزملائه المسافرين، فخوراً بأخيه غير الشقيق، الوسيم الأصغر منه سناً، ببذلته البيضاء وقميصه المكوي النظيف وربطة عنقه الأنيقة. ولكن، على أية حال، لم يكن هو وزوجته ديسا ينويان أخذ عائلتهما إلى مكان بعيد مثل عمان، فقد كانت لديهما خطط أخرى ولم يكونا بحاجة إلى صَدَقَة حكومة تبحث عن قوة عمال لبناء خط سكة حديد. كذلك قرر تاب أنور أن صحته لن تحتمل المزيد من الأسفار خلال الأشهر القليلة القادمة وقرر البقاء في استنبول مع صديقه. "لقد أخبرتنا السلطات أنها ستمنحكم الأراضي وتوفر لأبنائكم العمل في الخط الحديدي الحجازي." استمر برهان في القول "حتى أنه سيمكنكم السفر إلى ذلك المكان بواسطة القطار، وهكذا فلن تتعرضوا للمزيد من المصاعب التي عانيتم منها على الدروب في الأشهر الفائتة."

طرح أحد الشباب السؤال الذي كان بالضرورة يدور في أذهان الجميع. "وهل ستحضر معنا يا ناخو؟"

"كلا" وكان بمقدور ناخو أن يشعر بخيبة أملهم "لأن لدى عائلتنا أقارب في سيواس، مهاجرين قدماء من عامي 1864-1865 استقروا في أواسط تركيا."

سأل الشاب "هل يمكننا أن نسافر معك بدلاً من التوجه إلى الجنوب؟"

"طبعاً، ولكن وقتها لن تهبكم الحكومة المساعدة ولا الأراضي. سوف تضطرون إلى شراء أرضكم بأنفسكم وتبنوا عليها بيوتكم."

بدأ أفراد المجموعة يتحدثون مع بعضهم لعدة دقائق بينما تمشى ناخو وأخيه بين الجياد، يمتعان ناظريهما بتكويناتها وألوانها الرائعة، ويطمئنان الجياد التي أصبحت قلقة من جراء التبديل الكبير في ظروف حياتها.

في نهاية المطاف، تقدم نفس الشاب وتكلم بالنيابة عنهم جميعاً. لقد قرروا البقاء سوية وقبول عرض الحكومة العثمانية القاضي بتقديم الأرض، الوظائف والدعم المالي في الجنوب.

انهمرت دموع أفراد عائلتي ناخو وتاب أنور أثناء توديعهم الناس الذين خاضوا معهم كل تلك المعاناة. كان بإمكان ناخو أن يشعر بأن بعضهم أحسّ بأنه إنما يتخلى عنهم، لكنه كان واثقاً من أنهم سيكونون بأمان الآن وأن مسؤوليته الأولى تنحصر في إعادة تأسيس ثروة عائلته بالعثور على مكان ما يستطيع فيه أن يؤوي جياده ويعيد تأسيس برنامج الاستيلاد الذي جعل منه إنساناً في قمة النجاح في الموطن القديم.

لديه رأس المال الكافي لشراء القطيع الذي يحتاجه، فهو قد باع جميع فحوله في القفقاس إلى الكونت ستروجانوف. وقد أحضر معه سبعة من أفضل الأفراس العربية من مزرعته الأصلية ليستعملها كقطيع تأسيس. وكذلك كان لديه ثلاثة أبناء ذوي أجسام صلبة قوية هم حسن، مجيد، وحميد، وكلهم خبراء في التعامل مع الخيل وقادرون على مساعدته في العمل. أما ابنه الرابع شمس الدين، والمكنى شمس، فهو ما زال في الثانية عشرة من عمره، وسيبقى في استنبول حيث يتم إلحاقه بإحدى المدارس حيث يتسنى له تعلم اللغة التركية.

كذلك كان للأخوة شقيقة صغيرة تدعى بابيشكا وستكون قادرة على أن تساعد أمها في شؤون المنزل.

بمجرد انتهاء الترتيبات لرعاية اللاجئين الآخرين وتنظيم شؤونهم، اتخذ ناخو وعائلته وجياده طريقهم نحو منزل زوج أمه بصحبة أخيه غير الشقيق.

مع أن شامرزا عمر كان قد بدأ يهرم بحيث أخذ الوهن يتسرب إلى كيانه، إلا أنه ما يزال صاحب نفوذ قوي، حتى أن العديد من المقيمين الشراكسة زاروه في بيته للسلام على ناخو ومقابلته. جلسوا معه في الساحات الرطبة إلى جانب الحدائق المائية الغنَّاء يتكلمون في السياسة وشؤون الجيش، تربية الخيول وامتلاك الأراضي على خلفية تساقط مياه النوافير والشلالات الصغيرة، أثناء احتساء الشاي أو القهوة. فعندما يصل رجل ذو أهمية إلى بلاد جديدة، حتى عندما يسافر مع حشد من المهاجرين الفقراء ذوي الأسمال الرثة، فإن الناس يتلهفون على مقابلته والبحث عن مسائل مشتركة يمكنهم من خلالها عقد الصفقات أو إجراء صلات اجتماعية تنفعهم في المستقبل.

حاول زوج والدة ناخو جاهداً أن يقنعه بالبقاء في استنبول. اعترف له "إنني أتقدم في السن، والعائلة بحاجة إلى شخص مثلك ليقودها عبر السنوات القادمة. كذلك فإن والدتك تحب لو أنك تكون قريباً منها في سنواتها الأخيرة: ينبغي عليك التفكير في الأمر. هنالك أشياء كثيرة يستطيع رجل مثلك أن يفعلها في مدينة عظيمة كهذه. هنالك فرص تجارية هائلة، ثم هنالك المعترك السياسي..."

"كلا" رفع ناخو يده ليوقف تيار أفكار الرجل العجوز "إنني ممتن وأشعر بالإطراء لكونك تقول مثل هذه الأشياء، لكن الخيل ظلت عمل حياتي كلها. إنها نوع العمل الذي أحبه وأجيده بامتياز. إنها العمل الذي ألفه ابنائي واعتادوه. لا أعرف شيئاً عن التجارة ولا أفقه السياسة، إلا فيما يتعلق بعملي وعائلتي وينطبق عليهما. أحب أن أقضي بعض الوقت مع والدتي، ولكن يجب أيضاً أن أفكر في ديسا والأولاد ومستقبلهم."

أجرى تدابير مستعجلة لإيداع الجياد التي أحضرها معه في إسطبلات في الريف خارج المدينة وتناوب أولاده الثلاثة الأكبر في الخروج إليها والعناية بها.

حذَّر أحد الزوار ناخو "إن رجلاً لديه أربعة أبناء سيكون محط اهتمام ومصلحة كبيرين للعسكر، يجب أن تكون مستعداً لخسارة أولادك عما قريب بمجرد أن يأخذ الجيش علماً بوجودهم هنا."

ذعر ناخو من احتمال فقدان حسن لأنه كان يعتمد على خبرة ولده البكر لمساعدته في إعادة تأسيس مزرعة الاستيلاد في تركيا. لأن حسن كان في مثل مهارة ناخو نفسه وكان مجيد وحميد أيضاً غير قابلين للاستغناء عنهما. ربما، فكر، يمكنه أن يقدم بعض التبرعات إلى مسؤولي التجنيد وإبقائهم سعداء حتى ينهي شمس دراسته ثم يعدهم أن بإمكانهم تجنيده.

أحسَّ ناخو بعد أسابيع قليلة أنه قد استراح بما يكفي لأن يقوم بالرحلة إلى منطقة سيواس في جنوب شرق تركيا، إلى قرية الحابساي الجديدة، والتي سميت بهذا الاسم من قبل المستوطنين الذين سبقوه تيمناً بموطنه القديم في القباردا. توجه جنوباً عبر منطقة الجبال الوعرة بعد أن ترك عائلته تحت حماية زوج والدته في استنبول. رحب الناس الذين عرفوا اسم ناخو وسمعته في المستوطنة الصغيرة حابساي في إقليم سيواس، وأعدوا له جولة في انحاء القرية التي أوجدوها بأنفسهم. شعر ناخو بالراحة وأنه في موطنه وبيته على الفور. فهؤلاء هم قومه وهذه هي المنطقة التي أيقن أنه يمكنه أن يربي أولاده وأحفاده فيها وينمي ثروة العائلة. فالمراعي الخصيبة مثالية لتربية الخيول. كان هناك امتداد من الأرض المنبسطة على مرمى البصر وهي أرض "ميري" مما يعني أنها أراضي رعي مجاني تابعة لأملاك الحكومة. الأعشاب كثيفة وهناك العديد من الجداول تجري خلالها، متلوية لتشكل بحيرات صغيرة وأحواضاً مائية طبيعية.

حذره كبار السن في القرية من أن فصول الشتاء ستكون قاسية هنا لكنهم أضافوا أن بإمكانه أن يسوق القطعان إلى مناخات أكثر دفئاً باتجاه الجنوب خلال الشتاء. قدَّر ناخو كل هذه المعلومات تقديراً عالياً وشجعته على المضي قدماً بخططه لإنشاء مزرعة استيلاد عائلية. فقد اشتهر فيما مضى بكونه مربي خيول ذي سمعة طيبة في إقليم التيريك في القفقاس وعليه فقد بات متلهفاً على إعادة تأسيس نفسه في ذات العمل.

خلال بضعة أيام، قام بشراء قطعة كبيرة من الأرض ضمن حدود القرية وباشر في بناء بيت واسع للعائلة ومزرعة للجياد، تحتوي على أقسام مكتملة للولادات وأجنحة خاصة بالفحول. استغرقه العمل عاماً كاملاً، عانى فيه من الحرارة اللاهبة صيفاً والثلوج السميكة في الشتاء، لكن المزرعة بدأت تتخذ شكلاً مميزاً تحت إدارته. عاد بعد مضي اثني عشر شهراً إلى استنبول لاصطحاب عائلته وأخذهم جميعاً باتجاه الجنوب إلى بيتهم الجديد، تاركاً ابنه الأصغر شمس، في استنبول لإنهاء دراسته الثانوية.

وجد ناخو أنه أصبح عضواً بارزاً في مجتمع قرية الحابساي بشكل آلي خلال أشهر قليلة من تقديم نفسه إلى القرويين، بل سرعان ما أصبح قائداً لكبار القرية أنفسهم الذين أصبحوا يطلبون رأيه ويتوقعون منه الهداية واتخاذ القرارات. فالمقيم الجديد في قرية الحابساي هو بلا شك أعظم سكانها ثراءً وكان الناس ممتنين لفرص العمل التي خلقها وجوده بينهم أثناء بنائه لمزرعته.

سرعان ما اثرى نواة القطيع من الجياد، مستعملاً بعضاً من الذهب الذي أحضره معه من القباردا وأسس بذلك برنامجاً ناجحاً للاستيلاد والتربية.

عندما سمع ممثلو سلاح الفرسان العثماني بوجود مصدر جديد للجياد الطيبة، بدأوا في التوافد بحثاً عن أصول كريمة، تماماً كما كان القوزاق يفعلون في القفقاس، وأخذت احتياطيات ناخو من

الذهب تتزايد وتنمو مرة أخرى. لأنه إذا كان هناك شيء واحد لا يمكن لأي جيش أن يستغني عنه في ذلك الوقت، فهو المصدر المستمر للخيول الكريمة، فأصبح لزاماً على الرجل الذي يمكنه توفير تلك الحاجة أن يعامل باحترام من قبل زبائنه.

جذب وصول عائلة من مرتبة ناخو الانتباه بشكل قسري في تلك المنطقة الريفية ولم يطل الزمن قبل أن يصل ضابطان من الجيش التركي ويقرعا باب بيت المزرعة بينما كانت العائلة تتناول طعام العشاء، في القاعة الرئيسة للبيت. حضر بصحبتهم مسؤول حكومي بملابس مدنية، وهو رجل قصير خلقته تثير الحنق، صلعته لامعة وعيناه دامعتان. أحسّ ناخو برعدة من التوجس لمرآهم لكنه أخفاها خلف ابتسامة ترحيب.

أدخلهم إلى البيت وأجلسهم بينما قامت ديسا، زوجته، بتحضير الشاي وتقديم الحلويات. ظهرت على الرجال ملامح الخطورة والتهديد، لكنهم استجابوا لأدب ناخو بالاحترام، وخاضوا في أحاديث هامشية لبضع دقائق حول معارفهم المشتركة في الجيش، إلى أن جرى تقديم الشاي، فاضطروا إلى التطرق لموضوع الغرض من زيارتهم. ظل ناخو يأمل في أنه إذا ذكر أسماء ما يكفي من الضباط ذوي الرتب العالية الذين زاروا مزرعته لشراء الجياد، فقد يشعر الزوار بدرجة أقل من الميل إلى محاولة ترهيبه. لكن أسماء الجنرالات والعقداء الذين ذكرهم وعدَّدهم لم تؤثر في الوجوه الحجرية للعسكر. أما المسؤول الحكومي، فعلى الرغم من تحوير وجهه إلى تعابير تنم عن الخضوع، إلا أنه لم يظهر عليه أنه يعرف أياً من الأسماء الرفيعة التي كان ناخو يطرحها أمامهم.

قال المسؤول، عندما بدا الوقت ملائماً لطرح الغرض من زيارتهم:

"يا ناخو بك، يفترض فينا أن ننفذ التزاماتنا تجاه حكومة صاحب الجلالة العظمى السلطان. لديك أبناء بالغون ونحن الآن بحاجة إلى أن يتقدم واحد منهم فوراً ليلحق بالجيش كمجند."

فتح دفتراً في حجره وبدأ يستعرض الأسماء الموجودة أمامه "أعتقد أن حسن هو ابنك البكر".

وافق ناخو "هو ابني البكر فعلاً، ولكن كما يمكنكم أن تروا، لدي مشروع عمل ضخم هنا وهو ما زال في طور التأسيس، وأنا بحاجة إلى حسن ليساعدني."

احتفظ المسؤول بلهجة مؤدبة، لكن مؤداها ظل مصراً "لديك أبناء آخرون". فحيثما ذهب يوجد لدى كل من يقابله سبب وجيه يمنع ولده من الانضمام إلى الجيش. أصبح معتاداً على دحض كل نقاش والإصرار على أنه رغم كون الأمر مؤسفاً، فإن كل أب لديه أبناء بالغين ملزم بواجب توفير الجنود لصالح قضية الإمبراطورية التي يعتبرونها حامية لهم.

"لكنني أعتمد عليه، فهو مدرب على إدارة شؤون الخيل.."

"وذلك سيقدم لنا نحن أيضاً خدمة جلى" أشار الجندي ذو الرتبة العالية، وجاءت نبرته أقل احتراماً من نبرة زميله.

مال ناخو إلى الأمام بطريقة تآمرية "إذا كانت هناك أية طريقة تساعدني على الاحتفاظ به، فسوف أظل ممتناً إلى الأبد."

"ممتناً؟" ارتفع حاجبا المسؤول قليلاً "اسمح لنا بلحظة واحدة".

تحادث الرجال الثلاثة همساً لبضع لحظات بينما أشغل ناخو نفسه بسكب الشاي بيدٍ ثابتة. بعد أن استقرت الفناجين أمام كل منهم، قال الرجل الأصلع "هناك طريقة رسمية يمكننا اتباعها إذا كان القائد يسمح بها" وأشار إلى الضابط الأعلى رتبة.

"يسمح قانون الخدمة العسكرية بأن تدفع مبلغاً من المال للاحتفاظ بابنك، لكن هذا ينطبق فقط على الابن الوحيد. أنت لديك أربعة أبناء. ولكن، على أية حال، أعتقد أن بإمكاننا أن نجعل من هذه الحالة استثناءً. الكلفة هي" ومال إلى الأمام ليعرض على ناخو رقماً مكتوباً على قطعة ورق. هزَّ ناخو رأسه مظهراً تفهمه. "طبعاً ستكون هناك بضعة نفقات أخرى أقل قيمة، هذا إذا كنت توافق...."

"أنا موافق" داهم ناخو شعور بالانفراج لكون محنته قد قاربت على الانتهاء، رغم أنها ستكلفه مبلغاً رهيباً. إذا تمكن من الاحتفاظ بأبنائه لمجرد سنة واحدة أخرى، فإن ذلك سيشكل فارقاً كبيراً في عدد الجياد التي سيتمكن من إنتاجها وتدريبها. أخرج ناخو جراب الذهب وسلمهم المبلغ المتفق عليه، مغموراً بالتعاسة. ابتسم الضابط الأعلى رتبة ببراءة، بعد أن حشر الذهب في جيوبه. "طبعاً، سنظل بحاجة إلى أخذ ابنك الآخر" ونظر إلى سجل المسؤول من فوق كتفه "حميد".

ظهرت الدهشة على وجه المسؤول من هذا الطلب الإضافي بقدر ظهورها على وجه ناخو، لكن الضابط كان قد وقَّت إعلانه بشكل مثالي بحيث لم يكن ناخو ليتمكن من الاعتراض بدون أن يخسر حسن أيضاً. أحنى رأسه بالموافقة بدون أن ينطق بحرف، إذ لم يكن واثقاً من ألاّ تخونه الكلمات ويتحشرج صوته. شعر بأنه قد جرى استغفاله من قبل رجل أقل منه شأناً.

كان حسن يستمع إلى المفاوضات بين أبيه والزوار من خلف ستارة. كانت لديه أسباب تدعوه إلى عدم الرغبة في أن يأخذه الجيش تفوق ما لدى أبيه، خاصة في تلك اللحظة. فقد جعل إدراكه أن أباه لن يستطيع أن يفعل شيئاً ليمنع سحبه بعيداً عن بيت العائلة، قلبه يتحطم بين ضلوعه بينما هو يصيخ السمع بأقصى قدراته ليسمع كلماتهم المبهمة.

فهو يستمتع بعمله مع الجياد ويحب أسرته حباً جماً، ولذلك لم تكن لديه رغبة في الابتعاد وخوض القتال في حروب لا تعني له شيئاً، لكنه كان مستعداً لعمل كل ذلك لو أن أباه أخبره بوجوب عمله. وعلى أية حال، فقد تقارب كثيراً، خلال السنة التي قضاها في استنبول، مع ابنة تاب أنور، نورسان. إذ أثرت فيه قواها الهادئة طيلة الأوقات التي قضوها مسافرين ومتجشمين عناء كل أنواع المصاعب، والتي لا يستطيع معظم الناس حتى أن يتخيلوها.

لم تشتكِ مطلقاً حينما كانت تشعر بالإعياء أو الجوع، أو عندما كان الموظفون الصغار يدفعون بها من مكان إلى آخر، من بلد إلى التالي، مستغلين لحظاتهم الصغيرة التافهة من الجبروت بدون أي شعور بالكرامة. حتى أنها، على أية حال، لم تنكس عينيها إلى الأرض وتتحول إلى إنسانة خاضعة ذليلة كما فعل البعض الآخرون، وكأنما يتخلين عن تفردهن وخصوصيتهم قانعات بأنهن قطيع من الماشية يجري تحريكه حسب نزوات الآخرين. ظلت نورسان رافعة رأسها إلى الأعلى، بغض النظر عن الألم والتعاسة اللذين كانا يثقلان عليها، محدقة في وجه العالم بعينيها الخضراوين الجادتين.

ظلت بدورها تراقب حسن أثناء عمله بجدية واجتهاد وهدوء في رعاية جياد أبيه أثناء ارتحالها فوق البر والبحر. تتقابل عيناهما أحياناً فيتبادلان الابتسامات، وكل منهما يعي أن الآخر صديق مخلص وفي، قريب حميم إلى درجة أبناء العمومة ولكن بدون رابطة الدم، شخص لا يمكن أن يخذلها أو تخذله أبداً.

استطاعا أثناء وجودهما في استنبول، وفي أجواء منزل زوج والدة ناخو المريحة، أن يسترخيا قليلاً. فقد توفر لهما المأكل الكافي ولم يضطرا إلى العمل كل ساعة من ساعات النهار لمجرد رعاية نفسيهما وأعضاء عائلتيهما الآخرين. مع توفر الوقت للجلوس واللهو الغزلي البريء، تعرفا إلى بعضهما بعضاً بشكل أفضل. كانت نورسان تعزف على الأكورديون وتغني مثل ملاك بينما يكاد

حسن يقتله القلق عندما يجيء شبان آخرون إلى البيت ليخطبوا ودها.

أحسَّ كل من تاب أنور وناخو بالسعادة لمرأى نجليهما متآلفين وعملا كل ما بوسعهما للتأكد من أن يقضيا بعض الوقت سوية. كان العديد من خاطبي نورسان أكثر وسامة من حسن، وبعضهم ضباط في الجيش، آخرون شبان من المدينة، لكن أحداً منهم لم يمتلك مثل جديته ولم يكن أحد منهم ينحدر من عائلة في مثل ثراء عائلته.

بعد انتقالهم إلى وسط تركيا، بدأ نمط الحياة يتجه أكثر نحو الوضوح. لقد كانت سنة الإقامة في استنبول بمثابة إجازة: فرصة أخيرة للشباب والطفولة قبل أن تبدأ شؤون الحياة الجدية. تجلس نورسان تراقب حسن أثناء عمله مع الجياد في الحقول وتعجب بمهارته وأساليبه. كانت الجياد تبدو وكأنها تفهم كل لمسة وكل كلمة منه، ويفيض قلبه بالسعادة حين يحس بوقع عينيها عليه أثناء عمله.

لم يستطع أن يحتمل فكرة إبعاده وافتراقه عنها لشهور أو ربما سنوات من قبل الجيش، وعليه، فرغم إحساسه بوخزة من الذنب، إلا أنه حين سمع أنهم سيأخذوا حميد بدلاً عنه، فقد كان بمثابة ثقل يزاح عن روحه. لو أنه استطاع أن يلقي نظرة في المستقبل ويستشرف القدر الذي كان ينتظر شقيقه فربما تغير شعوره. ربما حتى خرج من خلف الستارة وأصر على أن يأخذه العسكر بدلاً من شقيقه، لكن أحداً لم يكن يستطيع أن يتكهن بالآتي.

أثناء مغادرة المسؤول الحكومي والضابطين، وجيوبهم تخشخش بذهب ناخو، أدرك الجميع أنهم سرعان ما سيعودوا لمرات عديدة خاصة وأنهم علموا بأنهم تعثروا برجل لديه العديد من الأولاد وجاهز لأن يستغني عن المال بتلك السهولة.

***

الفصل الثالث

القفقاس

عائلة بيطال غارقة في الكراهية. فقد شاهد والده أوليغ ما حدث لجد بيطال، داوت، وقد زرعت تلك الحادثة بذور السخط التي نمت عبر السنين وتضاعفت خلال مجتمع الفلاحين وسوف تؤدي في نهاية الأمر إلى تدمير واحدة من أضخم وأقوى الإمبراطوريات في العالم.

سوف يتم محو روسيا القيصرية عن الوجود بواسطة كراهية حارقة نقية أشعلوها هم في قلوب أناس مثل والد بيطال، والتي كبرت لتصبح حريق غابات لا يمكن وقفه في قلب بيطال نفسه.

كان داوت، جد الصبي قد عمل كأجير في مزرعة الأمير حسنبي حاتقشوقة، الذي لم يكن يدفع له شيئاً يذكر وكثيراً ما لم يكن يعطى من الطعام ما يقيم أوده. كان وضعه أفضل من مرتبة العبد بقليل، في غياب تام لأية سلطة له على مصيره. رفض أوليغ أن يقبل حياة والده بهذه الطريقة، فاضطر إلى التنازل عن كل أملاكه الخاصة إلى الأمير حتى يحرر داوت من وضعه كقن. وهكذا، فإن الأمير الذي كان في الأصل رجلاً غنياً وقوياً، أصبح أكثر غنى، وأصبح أوليغ، الأب لأحد عشر طفلاً، الأفقر بين الفلاحين المحليين. إذ ظلت عائلته تكشط رزقها بصعوبة بالغة من قعر الكومة، إذ يذهب الأطفال إلى نومهم جائعين في معظم الليالي ويضطرون إلى العمل لمجرد إبعاد غائلة البرد الذي ينخر عظامهم معظم أيام السنة.

كانت طبقة الفلاحين في روسيا الكبرى تحيا في ظروف معاناة أشد هولاً حتى من معظم العبيد السود في أمريكا. فهم يشكلون الطبقة الأكثر انسحاقاً وحزناً في الدنيا، وكان الأرستقراطيون الذين

يمتلكون الأراضي الشاسعة، الممتدة في اتساع هائل من أوروبا الغربية وحتى آسيا، من بين أكثر الناس الذين رآهم العالم قسوة واستهتاراً. وعليه أصبح من المستحيل أن لا تتوهج جمرات الحقد والكراهية في مثل هذه الظروف.

على الرغم من فقره المدقع، أدرك أوليغ أن ابنه بيطال يتمتع بشخصية ذات صفات متميزة، واستطاع، عندما بلغ الصبي العاشرة من عمره، أن يدخله إلى مدرسة مخصصة لأبناء الرجال الأثرياء. لم يعرف بيطال أبداً كيف استطاع والده أن يتدبر الأمر، لكنه لم يستطع أن يبقى في تلك المدرسة أكثر من سنتين قبل أن يجره فقر العائلة خارجها حتى يتمكن من العمل في رعاية الخيل، ليساعد على الإبقاء على حياة الآخرين.

كانت روسيا قد وطنت العديد من القوزاق في "ستانيتزا" (قرى) في شمال القفقاس، على ضفاف أنهر شمال القفقاس العظيمة بشكل خاص، مطلقة بذلك حملة استعمار على نطاق واسع للأراضي التي هُجِّر عنها أكثر من مليون شركسي، إلى تركيا العثمانية. استولى الروس على الغالبية العظمى من المراعي الغنية والأراضي الخصبة في المناطق المنخفضة وأجبرت المستوطنات الشركسية المتبقية على الاستقرار في مناطق أكثر ارتفاعاً وأقرب إلى الجبال.

كانت إدارة المناطق عسكرية، من قبل حاكم عسكري مدعوم بقوات من القوزاق، التي كانت تنعم بالعطايا والامتيازات على السكان القوزاق المحليين. بالإضافة إلى قطع الأراضي الكبيرة وأراضي الدولة، فقد أعطيت أفضل الحقول والأحراش إلى الأمراء الشركس الذين أظهروا الولاء لروسيا،وذهبت أرباح الأعمال الزراعية إلى الصناديق الخاصة للجيش القوزاقي.

كنتيجة لذلك، أصبح لدى القوزاق الكثير جداً من الأراضي التي لم يعودوا قادرين على فلاحتها بأنفسهم، بينما ترك الشراكسة

على قطع صغيرة جداً من الأرض لا تكفي لإعالتهم. بعد ذلك، انطلقت الحكومة الروسية، التي لم تقتنع بكل ما فعلته لخلق الكراهية والانقسامات، في اصطناع نزاعات مختلفة برعايتها ومحاباتها لبعض المجتمعات على حساب الأخرى، مغذية بذلك المواقد التي سرعان ما ستحرقهم جميعاً. إذ قاموا بتفضيل بعض الأمراء والنبلاء القباردي على الآخرين.

أجبر معظم الشراكسة على الانضمام إلى الجيش الروسي لمجرد البقاء على قيد الحياة، حيث جرى شحنهم إلى مناطق الشرق الأقصى لمحاربة اليابانيين. تم تشكيل الفيلق القباردي ووعدت الحكومة القيصرية بمساعدة عائلات جميع الأشخاص الذين يتطوعون. خاضوا عدة معارك في منشوريا، وقد تميز الفرسان القبارديون بشجاعتهم، حتى أن ثمانية وأربعين فارساً منهم حصلوا على ميدالية صليب جريجو ريفسكي العسكرية الرفيعة. بعد أن وضعت الحرب أوزارها عام 1905 وعاد الجنود إلى أوطانهم وبيوتهم، اكتشفوا أن كل وعود الحكومة كانت خاوية وأنه لن يتغير شيء ما لم يقوم الفلاحون بتولي زمام مصائرهم بأيديهم. كان الفتية مثل بيطال الأوائل في إدراك حقيقة أن مستقبلهم يعتمد على جهودهم في تحرير أنفسهم.

بعد أن فقد بيطال الرغبة في إتمام تعليمه، قضى أيامه ولياليه في التخطيط للغارات على أملاك الأغنياء وتنفيذها ضمن مجموعة من الأصدقاء الشباب العصاة. كانت الأملاك شاسعة وأصحابها من القلة إلى درجة أنه لم يصعب على مجموعة من الفتية المغيرين أن يعثروا على فرص سانحة لسرقة حظائر التخزين وإحراقها وتسويتها بالأرض. فقد كان سهلاً عليهم التسلل في الليل البهيم، قريباً من جدران بيوت الأثرياء وإشعال الحرائق التي سرعان ما تجعل الحراس يركضون هنا وهناك في الظلام حاملين المكانس ودلاء الماء، بينما يراقبهم الفتية متضاحكين من مخابئهم في الأحراش.

أصبح بيطال فارساً لا مثيل له منذ نعومة أظفاره، يجيد الركوب على ظهر الجواد العاري مثل إجادته الركوب في السرج، قادراً على السيطرة على جواد عمل منهك مثل قدرته السيطرة على مفخرة أي ضابط قوزاقي وقرَّة عينه. كان حسنبي يمتلك أكرم الجياد في المنطقة، لكنها محروسة بتشديد في إسطبلات قريبة من البيت الرئيس. كان بيطال وأصدقاؤه قد راقبوا تلك الحيوانات الجميلة حين يخرج بها سائسوها الشباب للمران يومياً، خيول رائعة، عضلات متناسقة وجلود لماعة، تتقافز في خيلاء. كان منظرها يسبب لبيطال ما يشبه التنويم المغنطيسي وهو يراقبها ويتخيل نفسه في مكان السوَّاس، حيث تستدير الجياد وترفع قوائمها الأمامية، تعدو وتقفز عبر الأراضي الريفية المنبسطة بينما تعبث الريح بشعورها وشعره، والأرض تبرق تحت حوافر مطيّته الراعدة بسرعة هائلة.

انتقى بيطال جواداً كميت اللون أدهمه، فحل يرفع قائمتيه الأماميتين تحت فارسه في إيماءة غرور مطلق قبل أن ينطلق سابقاً الآخرين في تمرينه اليومي. "ذلك هو الجواد الذي يناسبني. إنه من رسن القباردين النقي. تخيلوا، كم من الأرض أستطيع أن أطوي فوق مثل ذلك الحيوان".

سخر منه صديقه جوركا فينكو ضاحكاً "فكر كم قرناً من الزمان يتعين عليك أن تعمل لمجرد شراء مخلوق مثل ذلك، ابق على أحلامك، يا بيطال."

استدار بيطال ليحدق فيه فماتت الضحكة في حلق جوركا فينكو. فقد كانت عينا صديقه مشتعلتين في وجهه بشراسة لم يكن قد رآها قبل ذلك مطلقاً. فحَّ فيه بيطال "سوف نحصل عليه هذه الليلة، وجواداً آخر لك ولكل شخص آخر يجرؤ على القدوم معنا".

ازدرد جوركا فينكو ريقه بصعوبة "الليلة؟ لكن هذه خيول ثمينة، وسوف تكون محروسة بكثافة وتشديد."

"إذن سوف نتغلب على الحراس ونهزمهم، فهل تجرؤ؟"

رفع جوركا فينكو قامته ذات الثلاثة عشر ربيعاً إلى منتهاها "نعم، طبعاً أنا أجرؤ"

قاما بتجنيد أربعة فتيان آخرين لأجل المهمة وباتوا جميعاً جاهزين للانطلاق بمجرد هبوط الليل. كانت ليلة قارسة البرد ويستحيل في ظروفها على أي شخص أن يرى هؤلاء الفتية إلا بصورة رجال بالغين في أرديتهم السميكة، وطواقيهم وبناطيلهم. لم يظهر على بيطال أي توتر بينما حرص الآخرون على أن لا يرى في أي واحد منهم إمارات العصبية. كانت جرأة الفتيان ستبدو مفتعلة لو سمعها أي من البالغين، لكن بيطال لم يشارك في مرحهم المصطنع، فقد احتفظ بهدوئه واستعداده لأي طارئ يمكن لهذه المغامرة أن تلقي به في وجهه. ساهم هدوؤه في جعل الآخرين أكثر توتراً وعصبية.

بات أصدقاؤه متشوقين للانطلاق في اللحظة التي هبط فيها الظلام. لكن بيطال عرف أن الحراس سيكونون في أقل درجات درجات يقظتهم عند ساعات الصباح الأولى، وربما حتى يكونون نائمين، لذلك اضطر الأصدقاء إلى التحلق حول النار وسرد القصص للإبقاء على صحوهم بينما الساعات تجر بعضها ثقيلة بطيئة. في كل مرة يقفز فيها أحدهم على رجليه قائلاً "هلموا بنا، لنذهب الآن." يشير له بيطال بيده بالعودة إلى الجلوس ويهز رأسه رافضاً. في نهاية المطاف، صمتت حتى الذئاب البعيدة بدورها وظهر العالم كله نائماً فيما عداهم.

نهض بيطال واقفاً على رجليه "الآن، لن يكونوا يتوقعون أي زائرين."

انطلقت المجموعة الصغيرة على مهل في ظلمة الليل الدامسة. ساروا لمدة ساعتين، ومع اقترابهم من أراضي الأمير، بدأ الأدرينالين يتدفق في عروقهم موقظاً أطرافهم المتعبة ومنبهاً

عقولهم بحدة مرة أخرى. توقف بيطال عند طرف الحرش الذي يمتد إلى جانبي الحقول، حيث يجري تمرين الجياد يومياً، وتجمع الآخرون حوله.

"إذا أراد أي منكم أن يغير رأيه، فليقرر الآن. لأنه بمجرد أن نخرج من تحت غطاء الأشجار لن يعود هناك مجال للتراجع وسوف نضطر إلى القيام بأي شيء ضروري للفوز بجوائزنا. هل هناك أي شخص يرغب في العودة؟"

لم يتكلم أحد.

"هل أنتم جميعاً جاهزون للموت أثناء تنفيذ هذا العمل؟"

بات واضحاً أن الآخرين قد أجفلوا من هذا الاقتراح، لكنهم في نفس الوقت يشعرون بالإثارة لكونهم جزءاً من مثل هذه المهمة الحظيرة. صدرت عنهم بعض غمغمات الموافقة ولم تصدر أية مخالفة "حسناً، اتبعوني."

خفض بيطال رأسه وبدأ يركض عبر الحقول بسرعة ثابتة، بدون أن ينظر إلى يمينه أو يساره، تبعه الآخرون في طابور، وكل منهم يتوقع أن يسمع صرخة أو أن تنتهك صمت الليل طلقة ما، لكن لم يصدر شيء. وصلوا إلى جانب بناية الإسطبل وأشار بيطال إلى نصفهم أن يذهبوا في اتجاه والنصف الثاني في الاتجاه الآخر.

همس لهم بتعليماته "أول باب تصلون إليه، حطموه وأدخلوا، اسحبوا أية جياد يمكنكم رؤيتها، اركبوها وانطلقوا بأقصى سرعة إلى القرية من أي طريق يعجبكم. حاولوا أن تنتشروا وتتفرقوا حتى يصبح الأمر أصعب عليهم في مطاردتنا. إذا حاول أي شخص أن يوقفكم، اقتلوه".

طأطأ الصبية الآخرون رؤوسهم وكأن هذا أكثر التعليمات العادية التي يمكن لأي شخص أن يصدرها لهم، مع أن أحداً منهم لم يكن قد قتل أكثر من أرنب في حياته قبلاً.

تفرقت الجماعتان وبدأتا تجريان في اتجاهين متعاكسين حول الجدران لتنفيذ الخطة التي لم يفكر أحد منهم فيها بأية درجة من التفصيل. وصلت الجماعتان إلى الأبواب في نفس الوقت واستفاق الحراس الغافلون في الداخل على أصوات الألواح الخشبية تتكسر تحت ركلات الأحذية الثقيلة. فوجئ الأولاد من صلابة الأبواب، وبحلول الوقت الذي تمكنوا فيه من تحطيم الأقفال والاندفاع إلى الداخل، أصبح الحارسان في حالة يقظة تامة وسيفاهما مشرعان، وقد سبب لهما مجيء الهجوم من جهتين في نفس الوقت قدراً كبيراً من التشويش والاضطراب. دخلت مجموعة بيطال قبل الآخرين بثوانٍ قليلة، ولم يتردد بيطال في الهجوم باتجاه الحارسين.

في اللحظة التي أوشك فيها على الوصول إلى نصلي السيفين، انفجر الباب الآخر منفتحاً واندفعت المجموعة الثانية داخلة، مما حول انتباه الحارسين بما مكن بيطال من رفس يد أقرب الحارسين إليه وإيقاع السيف منها. خطف الفتى السلاح عن الأرض ولوح به حول رأسه بكل القوة الكامنة في كتفيه الشابين ومرره عبر حلق الرجل الذاهل، حتى كاد يقتلع رأسه.

راقب الفتية الآخرون والحارس المتبقي على قيد الحياة في ذهول بينما تهاوى الرجل إلى الأرض، والدم يتفجر من شريانه المقطوع. استجمع الحارس الآخر قواه ليواجه الفتى المسلح، وقد أبقى عينيه مسلطتين على عيني بيطال، مدركاً أن القتل الأول جاء بمثابة نصر للقوة الغاشمة، وليس نتيجة المهارة في استعمال السيف. فكر القوزاقي أنه إذا أبقى على ثبات أعصابه، فإنه سيتمكن من الفوز على هذا الفلاح الفتي. ولكن الصبية الآخرين، على أية حال، استمدوا الجرأة في هذه اللحظة من مهارة قائدهم الجلية وقفزوا على الرجل من الخلف، جروه نحو الأرض وكأنهم مجموعة من كلاب الصيد تحلقت حول وعل ذكر، مما منح بيطال الفرصة لتوجيه طعنة مميتة إلى القلب. ربما تخيل لحظتها أنه يسدد الحساب عن كل السنوات التي أمضاها جده في الخدمة وكل

المعاناة التي مرت بها عائلته كنتيجة لتلك الخدمة. لو أنه توقف للتفكير لحظة، فلربما أدرك أن الرجلين اللذين قتلهما لتوه هما مواطنين في بلده ويحتمل أنهما في مثل فقره وحرمانه من الامتيازات. استلقى الرجلان في بركتين من دمهما بينما أمسك الفتية أقرب الجياد إليهم وطفق بيطال يبحث عن الحصان الفحل الذي صمم على أخذه. بدأت في هذه اللحظة أصوات الصرخات الصادرة عن البيت تصل إليهم، والمصابيح تضاء بينما خرج حراس آخرون لاستطلاع سبب الضجيج. عثر كل الصبية على جياد و ألقوا بأنفسهم إلى ظهورها.

صاح فيها بيطال "اذهبوا، اركبوا خارجين ولا تنظروا إلى الخلف!"

بينما خرج أصدقاؤه من الإسطبل عدواً نحو الظلمة في الخارج، متعلقين بأعراف الحيوانات المذعورة.، عثر هو على الفحل الذي يريده وشاهد سرجاً ولجاماً لامعين معلقين إلى جانب الإسطبل. لم يستطع أن يقاوم إغراء هذه الجائزة الإضافية فألقى بالسرج على ظهر الفحل وشد شريط الحزام على بطنه. ضرب الحصان الأرض بحوافره وشخر محتجاً على حركات الفتى السريعة الشرسة. كانت الصرخات تقترب وأصبح بإمكانه رؤية أشعة الأضواء على الأرض المتجمدة في الخارج. لم يعد هناك متسع من الوقت لعمل المزيد.

ألقى بالأعنة فوق كتفه وقفز إلى السرج، غرز كعبيه في جنبي الحصان وأمسكَ عرفه بقوة. وقف الحصان على قائمتيه الخلفيتين رافعاً قوائمه الأمامية في الهواء، في محاولة لإسقاط الفلاح الفتي الوقح، لكن بيطال تشبث بقوة أثناء ظهور رجلين في أحد البابين المحطمين، كلاهما مسلح ببندقية.

عاجل بيطال الحصان بضربة حادة أخرى، وحسّ بقوته الهائلة حين اندفع باتجاه الفتحة خارجاً إلى هواء الليل.

استمر الرجال في الصراخ ثم سمع دوي طلقة بندقية. أعتقد أنه أحسّ برصاصة تطير مارة بأذنه أثناء توجهه نحو حماية الحرش المعتم. استمر بالعدو لمدة ساعة، وهو يتحرك داخل الأشجار وخارجها، عابراً الجداول وخائضاً فيها حتى يضلل أي شخص قد يحاول اللحاق به، قبل أن يتوقف نهائياً ويلبس الحصان اللجام. تابع بعد ذلك المسير، بسرعة أبطأ وأقل توتراً، حتى أخذ يتسلق الجبال صعوداً، نابضاً بالزهو على نتيجة عمل ليلته. عند وصوله إلى بيته كان جميع الفتية الآخرين قد عادوا بغنائمهم واستيقظت القرية كلها، تتشاور حول أفضل الأمكنة لإخفاء الجياد في حالة حضر رجال الأمير أو القوزاق باحثين عنها. لم يكن بيطال قلقاً جداً، فقد شعر بأن التيار يتحول ضد الناس الموجودين في السلطة، وأنه ليس هناك ما لا يمكنه أن يأخذه منهم إذا اختار ذلك، لأن أيامهم أصبحت معدودة. كانت القصص عن كيفية قتله للرجلين داخل الإسطبل قد بدأت تتداول حول القرية وسرعان ما سوف تنتشر عبر الإقليم. أحسّ بأنه لا يمكن لأحد أن يوقفه.

لم يكن بيطال لصاً: بل هو رجل صاحب قضية. رغم أن أحداً منهم لم يكن قادراً على القراءة والكتابة، إلا أنه كان متحمساً إلى درجة التشدد على أنه يجب على أصدقائه أن يتذكروا اللغات والتقاليد القباردية، وأن يعلمهم الكلمات غيباً، والرقصات التي كان يؤديها آباؤهم وأجدادهم في أوقات الفرح مثل مناسبات الحصاد الوفير أو الزيجات. شعر بنفاذ الصبر تجاه كبار القرية ووجهائها الذين استمروا في معاملته كطفل، ساخرين من تعصبه.

"أنت أمير قباردي على الفلاحين" قال له أحد أصدقائه في إحدى الليالي وهما مستلقيان تحت النجوم، بعد أن رقصا حتى سقطا من الإعياء، مبتلين بالتعرق ومنتشيين بالطاقة التي تفجرت منهما.

زمجر بيطال "لن أصبح أميرا قبارديا أبدا، أنا عامل مزرعة وأنا فخور بعملي."

عامل الجميع في قريته بالحسنى واكتسب هالة من السلطة تفوق عمره بكثير. فالناس يحترمونه بطريقة طبيعية: حتى الرجال الذين يعتقدون أنه طائش ومندفع في أعماله ويبالغ كثيراً في أحلامه. احترموه لقوته البدنية وكذلك لصراحته واستقامته. لكنه ظل فلاحاً، صبياً متواضعاً بدون أي دهاء أو رقي في شخصيته، شاب خشن الطباع.

بعد هزيمة روسيا في اليابان، اشتدت الحروب الطبقية وبدأت الدعاية البلشفية تنتشر بين العمال والفلاحين. وكان القبارديون والبلقار من بين المجموعات الثورية التي اقتحمت مخزن الأسلحة في جورجييفسكي عام 1905. أحرق الفلاحون في القباردا بيوت الأمراء حتى سووها بالأرض واحتلوا أراضيهم.

تلك كانت مؤشرات صغيرة محكوم عليها بالفشل ابتداءً، لكنها كانت تشكل البداية، ومثالاً يحتذى للآخرين، ومؤشراً على ما سيأتي مستقبلاً.

في الأيام الأخيرة من عام 1905، تشكلت قوة فرسان من العامة واحتوت على مئتي قباردي في مدينة نالتشك. قاموا بإزاحة قائد منطقة نالتشك، العقيد ستراخوف من منصبه. قضوا على الحامية وصادروا منها كل الأسلحة. انضم فيلق أخولجينسكي إلى جماعة العصيان فهرب ستراخوف والضباط الآخرون.

قرر قائد إقليم تيرسكي، الجنرال كولو بياكين، أن يلقنهم درساً. فأرسل الفرقة الأوسيتية إلى نالتشك تحت قيادة رجل اسمه تزارجويف. نظم الشعب اجتماعاً معه لكنهم بدأوا بالفرار عندما شاهدوا الجنود.

صاح فيهم تزارجويف "لا تهربوا، لقد جئنا للانضمام إليكم، وليس لقتالكم". كانت الحركة آخذة في الانتشار. فقد تزايد عدد الفلاحين في القرى الذين يستولون على أراضي الأمراء والنبلاء المحليين.

كان بيطال، وهو يمتطي الحصان الذي صادره بكبرياء، يحتج على عدم السماح له بالانضمام إلى الرجال في غاراتهم، وهو يشعر بأنه فعل أكثر من مجرد إثبات نفسه وأنه ينبغي معاملته كرجل بالغ وليس كصبي. أصبحت مجموعة الأصدقاء الذين كانوا معه في ليلة الهجوم على إسطبلات الأمير، دائرته الداخلية التي تتمتع بثقته المطلقة، لكن آخرين، وكثير منهم أكبر سناً من بيطال وأصدقائه، انضموا إليه بدورهم. أخذوا يسرقون الجياد والأسلحة والذخائر كلما احتاجوا إليها، ويختبئون في الجبال ليعلموا أنفسهم كيفية استعمالها.

كانوا يقدمون على إحراق الأبنية وتسويتها بالأرض وقتل أي شخص يقف في طريقهم، شأنهم في ذلك شأن الكبار البالغين. اعتبرتهم السلطات قاطعي طرق يتوجب التعامل معهم على أساس أنهم حثالة وإبادتهم، لكنهم شعروا بأنهم جيش يتعاظم واكتسب بيطال صورة جنرال شاب في وسطهم.

على أية حال، لم تكن الثورة جاهزة للنجاح بعد. فبمجرد أن انتبهت إلى الاحتمال والإمكانيات، تمكنت الحكومة القيصرية من إخضاع الحركة في القباردا بمساعدة المدفعية، الحراب والأسواط. إذ لم تكن بضع بنادق وسكاكين كافية ضد جيش نظامي، لكن عندما يكون الشعب كله ضده، فعلى الجيش أن يقرر ما إذا كان سيقتل كل شخص أم أنه سيأخذ الجميع ويسجنهم. أصبحت السجون مكتظة وخارجة عن السيطرة وظهر أن أعداد الناس الذين يقفون ضدهم تتضاعف.

مع أنهم كانوا قادرين على سحق الجانب المنظم من الثورة، إلا أنهم لم يكونوا قادرين على فعل الكثير ضد فتية مثل بيطال. فهؤلاء يعرفون طريقهم وسط الجبال وقادرون على البقاء مختبئين لأشهر بطولها في بعض المناطق، العصية على اختراق الجنود الذين لا يعرفون المنطقة ولا يفهمون اللغة ولا أهلها. في نهاية المطاف، بدت حكومة القيصر محتومة المصير.

الفصل الرابع

شرق الأردن

أحيط تيمور علماً بأن اللاجئين الجدد أو "المهاجرين" كما سيعرفوا على الدوام، حتى من قبل اللاجئين الآخرين، قادمون إلى البلدة عن طريق السكة الحديد. لكن الخط الحديدي لم يكن قد وصل إلى عمان تماماً. وعليه فإن القطار سوف ينزلهم في مكان يبعد حوالي عشرين كيلو متراً إلى الشمال، وعليه فقد أجرى ترتيباً مع بعض العائلات القباردية لتنظيم عربات الخيول وعربات تجرها الثيران والاجتماع عند رأس الخط الحديدي لاستقبال المهاجرين الجدد. ظلوا ينتظرون لأكثر من أربع ساعات تحت الشمس الحارقة وغبار الصحراء، لكن أحداً لم يتذمر.

عرفت العائلات أن كثيراً من القادمين الجدد يشكلون قرابة لهم وكانوا كذلك متلهفين على سماع أخبار القفقاس.

سمع تيمور وصول القطار إلى المحطة من هسيس البخار واصطكاك الكوابح من مكان استراحته تحت ظلال عربته. شق طريقه بسرعة نزولاً نحو جميع الأصوات التي أثارها خليط من المشاعر. كان سعيداً لفكرة احتمال رؤية بعض الوجوه المألوفة من حياته الماضية، وقلقاً من وصول كل هذه الأفواه التي ستحتاج إلى الإطعام، هذا الكم الكبير من النساء والأطفال الذي سيحتاج إلى الحماية، من عناصر الطقس ومن المحليين العدائيين على حد سواء.

أدرك في هذه الساعة أنه سيكون مضطراً إلى التعدي إلى مسافة أعلى باتجاه منبع السيل في رأس العين في سبيل العثور على أرض ليعيش هؤلاء الناس عليها.

عرف كذلك أن البدو سيغضبهم هذا التعدي الإضافي على مساحات يرونها ملكاً استثنائياً خالصاً لهم. ببساطة، لم يكن هناك أي بديل آخر. فهو لا يستطيع أن يرد الناس الذين ليس لديهم مكان آخر يذهبون إليه.

ظهر الحشد المتجول حول القاطرة، بينما هي تنفخ بخارها استعداداً للمرحلة التالية من رحلة عودتها، وكأنه في حالة احتفال. الوجوه متعبة وقد حزَّ القلق فيها خطوطاً عميقة، لكن ساد فيها شعور بالوصول في نهاية المطاف إلى وجهة طال تخيلهم لها، أرض موعودة سيكونون فيها قادرين على الاستقرار والاستراحة بأمان.

تواصل مجيء المزيد من المستوطنين مصطحبين عربات وجياداً لمساعدة القادمين الجدد في نقل حاجاتهم، وأعيد تجديد العديد من الصداقات القديمة حين بدأ الناس يلمحون وجوهاً من الحابساي والقباردي ظنوا فيما مضى أنهم قد لا يروها مرة أخرى. تعانق الناس وتصافحوا بالأيدي ودمعت العيون بالمشاعر المتعبة.

ألقيت الحقائب التي دمرها طول الارتحال مع الرزم المحزمة بشكل سيء إلى العربات، متبوعة بالنساء، الأطفال وكبار السن. بعد أن ملئت العربات مشى أولئك الذين بقوا على أرجلهم إلى جانب العجلات، وقد عثروا في أنفسهم على دفقة أخيرة من الطاقة بينما هم يشغلون أنفسهم بالحديث واستطلاع مناظر وتضاريس وطنهم الصحراوي الجديد.

خلت محطة نهاية الخط من الناس خلال ساعة واحدة، وانطلق الجميع في طريقهم إلى عمان. عند وصولهم سيتم تكريمهم وإقامة الولائم لهم، وسيطعمون الخراف والدجاج المذبوح خصيصاً لهم، وسيعطون أمكنة للاستراحة وإعادة بناء قوة أجسادهم.

بعد أن اطمأن كبار رجال المجموعة إلى أن عائلاتهم قد استراحت، ذهبوا إلى تيمور والوجهاء الآخرين ثم جلسوا سوية

يدخنون ويشربون الشاي معهم، ويخططون لما يتعين عليهم عمله تالياً.

"نحن بحاجة إلى العثور على أمكنة يمكنكم أن تبنوا فيها بيوتاً لكم وتفلحوا الأراضي." أخبرهم تيمور "إن هذا الامتداد للسيل مسكون بالكامل حالياً، ولا نستطيع أن نضيف إليه أي أحد، لكن لا يزال هناك متسع إلى أعلى باتجاه النبع. أنتم بحاجة إلى البقاء قريبين منا لغايات الحماية."

"الحماية ممن؟" أرادوا أن يعرفوا، وقد نبههم وقع مثل تلك الكلمات. فقد ركبوا القطار في استنبول وهم أسرى الانطباع القائل أنهم ذاهبون إلى مكان سيلقون فيه الترحيب.

شرح تيمور "يعتقد البدو المحليون أنهم سوف يحرمون من مصدر الماء"

قالوا "نحن لا يمكن أن نحرم أحداً من حق الوصول إلى المياه، كيف لنا ذلك؟"

"أعرف" حاول تيمور أن يهدئ مخاوفهم "سوف يدركون ذلك بمرور الوقت، ولكن وصول المزيد من الناس لا بد وأن يسبب لهم القلق. إنهم يستنكرون الطريقة التي يقوم العثمانيون فيها بالتعدي على الصحاري التي احتفظوا بها لأنفسهم. سوف أتحدث إليهم وأطمئنهم إلى أننا لن نفعل أي شيء من شأنه أن يمنعهم من استعمال السيل، ولكن ستكون هناك مشاعر سلبية كثيرة."

سأل أحد الرجال "هل الأرض طيبة، وهل سنتمكن من إطعام عائلاتنا منها؟"

أجابه تيمور "إنها أرض طيبة خصيبة، لكنها أهملت لسنوات طويلة. لقد دأب البدو على سوق أغنامهم وإبلهم للشرب هنا منذ الأزمان الغابرة التي لا يذكرها أحد، وهذا سبب تدمير الضفاف. هم

ليسوا مزارعين، وهم لا يعرفون كيف يفلحون الأرض لجعلها معطاءة للمستقبل، فهذا الأمر لا يثير اهتمامهم."

سأله رجل آخر "ما هو رد الفعل الذي تتوقعه من البدو؟"

"يجب أن تفهم أن العرب في هذا الجزء من الإمبراطورية يتألفون من قبائل بدوية عديدة. بعض هذه القبائل يعاملنا بطريقة ودية، والبعض الآخر ليس على تلك الدرجة من المودة. سوف يغضب البدو من قبيلة بني هدب." نفض تيمور كتفيه "ولكننا مرغمون على التفاوض معهم طيلة الوقت. لقد قتلوا بعضاً من بني قومنا. عندما يظفرون بمسافر وحيد، يحتمل أن يقتلوه لمجرد الحصول على حذائه. تلك هي طريقتهم. لقد تعلمنا كيف نحمي أنفسنا معظم الوقت، لكننا نتهاون ونتخلى عن الحذر أحياناً ويقع في صفوفنا قتيل أو جريح. أنتم بحاجة إلى أن تظلوا على حذر ضد الهجمات طيلة الوقت، لكن البدو ليسوا مقاتلين أشداء. إنهم غزاة بطبيعتهم. إنهم يتعاملون مع الموضوع كلعبة بين بعضهم طيلة الوقت. على سبيل المثال، يقرر بنو هدب أن يهاجموا مخيم بني صخر ويصادروا كل مواشيهم. بعد بضعة شهور سيقوم بدو بني صخر بنفس العمل بطريقة معكوسة ويستعيدوا كل أموالهم ومقتنياتهم إضافة إلى مواشي وحاجيات بني هدب. الأمر أشبه برياضة موسمية. القناصون يشكلون معضلة، ولكن طالما أنكم تحرصون على أن لا يخرج أحد بمفرده وأنكم تحملون بنادق فلن تواجهوا صعوبات كبيرة."

عرف تيمور في قرارة نفسه أن هذا الاندفاع الأخير من القادمين الجدد مرجح لأن يدفع بالعلاقات مع البدو إلى قرارة متدنية جديدة، لكنه لم يشأ أن يرسم لوحة مغرقة في السواد لأناس يحتفلون ويمرحون لوصولهم إلى نهاية رحلتهم المليئة بالعذابات.

اقترح تيمور "استريحوا من وعثاء السفر لبضعة أيام قادمة وبعدها سنذهب سوية لمعاينة الموقع." في خلال ذلك الوقت استمع

تيمور إلى الأنباء المتعلقة بعائلته وأقاربه. أسعده أن يعرف أن عائلة ناخو موجودة في استنبول وأنهم ينوون الاستقرار في منطقة سيواس. أخبر القادمين الجدد عن قوم الشابسوغ الذين اصطحبهم من دول البلقان وروى القصص العديدة عن الصعوبات التي واجهوها في السنوات العديدة الأخيرة. طمأنهم إلى أن السلطات العثمانية تنوي أن تمنحهم جميعاً أراضي يستطيعون أن يبنوا عليها بيوتهم بالإضافة إلى أراض للفلاحة. سيتم تنظيم سندات رسمية وتسجيلها بأسماء العائلات الجديدة بمجرد أن يستقروا ويتقاسموا القطع المتوفرة بين بعضهم. شعر المهاجرون الجدد بالانفراج وارتفعت معنوياتهم.

بعد مضي يومين تمشى تيمور مع الوجهاء والكبار الجدد على ضفتي السيل العريض لإلقاء نظرة على الأرض التي ستصبح موطنهم وبيتهم. تحولت المناظر تدريجياً إلى الخضرة المتزايدة وتشابهت مع موطنهم الأصلي كلما ازداد اقترابهم إلى منبع الماء. أشار تيمور إلى الجبال التي ترتفع خلف النبع وشرح أنه ربما يفضل القباردي أن يأخذوا القسم الأكثر ارتفاعاً من الأرض والتي تقع على طريق ترابي موجود سلفاً بينما ستأخذ عائلات الحابساي القسم المنخفض القريب من الماء. ساد الصمت بين الرجال أثناء اقترابهم من النبع وهاجمت الرائحة الرهيبة خياشيمهم. ارتفعت غيوم هائلة من الذباب من تحت أقدامهم أثناء سيرهم عبر الأرض التي ظلت الإبل والأغنام تقف عليها لقرون طويلة، حيث تلقي بفضلاتها ثم تمضي في طريقها. ارتفعت أسراب الذباب في موجات سوداء وحاصرت الرجال، ودخلت في عيونهم وأفواههم، وهي تئز في آذانهم. لم يكن هناك أي مهرب منها. تلثّم تيمور بغترته العربية ولفها حول وجهه لكن الذباب ظل ينفذ من خلال الفجوات مما أضطره إلى تلويح يديه لطردها باستمرار.

اعترف تيمور، مدركاً مقدار الرعب الذي انتاب الرجال بالضرورة من مرأى هذا القدر من الخراب والبؤس. "سوف

يستغرق العمل شهوراً عديدة من العمل. سوف تضطرون إلى إزالة كل هذه القاذورات إذا أردتم أن تتخلصوا من الذباب والناموس. يمكنكم أن تستعملوا هذه الفضلات الغنية لتسميد الحقول الخلفية، بحيث تطمرونها داخل التربة حيث تكون جرداء لتغذيتها. ستكون هذه قطعة أرض معطاءة خصيبة مع أن ذلك صعب على التخيل في هذا الوقت. سيتعاون معكم كل أفراد المجتمع. سوف نبني لكم بيوتاً وأسواراً لحماية الحقول."

بقي الرجال كلهم صامتين، وهم يعاينون الفوضى التي يتم عرضها عليهم، وهم يقاتلون الحشرات ليبعدوها عن وجههم. لم يشكك أحد منهم في نزاهة تيمور وأصبح بوسع كل منهم أن يرى الاحتمالات التي ينطوي عليها الموقع. لكنهم جميعاً قادرون على تخيل مدى صعوبة الأمر على نسائهم وأطفالهم في الشهور القادمة واحتمال أن تكون الأرض نفسها تغلي بالأمراض الدفينة.

سأل أحدهم "ألا يوجد أي خيار آخر حقيقة؟"

هز تيمور رأسه نفياً "لا، ليس هناك أي خيار آخر."

"إذن ينبغي علينا أن نباشر العمل على الفور."

لم يبتسم أي منهم أثناء سيرهم عائدين لشرح ما هو مخبأ لعائلاتهم، لكن تصميماً جدياً بات معلقاً في الأجواء. لأنه لم يكن في نيتهم أن ينهزموا من احتمال للاضطرار إلى القيام بقليل من العمل الشاق، خاصة بعد كل المشقة التي عانوا فيها في الوصول إلى هذا البعد.

استحوذت مهمة تنظيف الضفاف وبناء البيوت للقادمين الجدد على جهود المجتمع في الأشهر التالية. عمل كل واحد فيهم وقد غطى فمه وأنفه اتقاء النتانة وهجمات الحشرات. كشطت الطبقة السوداء الرهيبة ببطء ولكن بعناء وثبات ونقلت إلى الحقول الخلفية، وقام آخرون بقلب التربة العذراء غير المزروعة قبلاً ودفنها

بداخلها، منظفين الهواء وحارمين الناموس والذباب من أماكن تفريخها.

زرعوا الأشجار حتى توفر أغصانها الملاذ والستر من الشمس الحارقة وتساعد جذورها على تثبيت التربة وتبقي على الضفاف في مكانها حين تفيض المياه أثناء الفصل الماطر القصير.

شيدوا بيوتاً صغيرة من اللبن الطيني مشابهة لتلك الموجودة في المجتمع المحيط بهم، وبنوا سلاسل حجرية حول الحقول.

أبقى البدو على مسافة بعد بينهم وبين القادمين طيلة المدة التي استمر فيها العمل، مع استمرارهم في القدوم للاستسقاء من السيل، يراقبون بتشكك بالغ بينما يقوم المستوطنون بتأسيس جذورهم بدون أن يقولوا أي شيء. ظل الطرفان يرمقان بعضهما بعضاً ولم يقم أي منهما بأية محاولة لجسر الهوة.

بينما كان المهاجرون ينتقلون إلى بيوتهم الجديدة ويعود الآخرون إلى شؤون حياتهم وأعمالهم، ظلت العيون تراقبهم من الصحراء. استقرت هالة من الهدوء الكاذب على المنطقة، شبيهة بغمامة منتصف نهار قائظ.

استمر الشركس في مزاولة أعمالهم اليومية، مطمئنين إلى إحساس بالأمان، ونسوا العرب المحيطين بهم من كل ناحية إلى أن وجدت رصاصة قناص هدفها.

كان الشاب الفتي قد اقترف الخطأ المعتاد بالخروج إلى العمل لوحده. لقد سمع كل التحذيرات التي وجهها إليه الكبار وظل على حذره لأشهر عديدة، يحمل بندقيته ويصطحب شخصاً آخر معه. لكن عندما حافظت الأيام على هدوئها وصمتها بنفس الطريقة، صار صعباً أن يظل يفكر في الأخطار المحدقة إلى الأبد. كان على عجلة من أمره ليقوم بغرس بعض الأشجار حتى يتمكن من زيارة أصدقائه ولم يكن هناك أحد آخر قريباً منه ليذهب معه. تناول

بندقيته ووضعها على الأرض قريباً من متناول يده أثناء عمله، غارقاً في أفكاره.

لا بد وأن القناص كان رابضاً خلف الصخرة منذ وقت سابق لمجيئه، ربما ينتظر مثل تلك الفرصة أو ربما ببساطة يستريح في الظل. بحلول وقت العثور على الجثة، كانت قد خلصت من الحذاء واختفت البندقية. حطت أسراب الذباب على الجرح والدماء التي أريقت عبر الأرض المحروثة حديثاً. تطلَّب الموقف كل قدرات تيمور الدبلوماسية حتى يقنع القباردي بالعدول عن فكرة امتطاء جيادهم في الحال والانطلاق بحثاً عن مقترفي الجريمة.

رجاهم تيمور "لقد أريق ما يكفي من الدماء، إذا جاءت ردة فعلكم على هذا الشكل فسوف تندلع حرب شاملة. هذا إنذار لنا لنبقى على قدر أكبر من اليقظة. فقد أصبحنا نميل إلى الإهمال."

جادلوه بقولهم "يجب أن يتمكن الرجل من السير في أرضه بدون حراسة."

كرر تيمور رجاءه "اسمحوا لي أن أتكلم معهم، فإن الاستمرار في التحدث أفضل من البدء بالقتل."

أشاروا إلى ما حصل "لقد ابتدأ القتل فعلاً."

"إذن دعونا نكون الأوائل في محاولة إيقافه."

وافق الوجهاء والكبار كارهين على أن يسمحوا له بأن يكون الناطق باسمهم، لكنه استطاع أن يستشف من وجوههم أنهم لم يعطوه مهلة أو صلاحيات غير محدودة. فهم أناس غير معتادين على العقاب أو الإساءات مثلما حصل للشابسوغ في بلاد البلقان. فهم على الأرجح سيقومون بتطبيق القانون بأنفسهم وسيؤدي ذلك حتماً إلى نشوب الحرب.

انطلق تيمور في اليوم التالي لحديثه معهم بدون سلاح ولوحده إلى مضارب بني هدب. لم يكن قلقاً على سلامته الشخصية لأنه

يعرف أنه سيكون تحت حماية شيوخهم، باعتباره سيحل ضيفاً عليهم. استقبله الشيوخ بأدب ولكن بكثير من التحفظ، مما أوحى إليه بأنهم أصبحوا بدورهم قريبين من مرحلة انتهاء صبرهم. جلس تيمور في وسطهم بينما بدأ تطبيق إجراءات كرم الضيافة الصحراوي، وظل التوتر يرسل معاني متناقضة لكل بادرة أدب تبادلوها.

جعلتهم حقيقة امتلاكه الشجاعة للحضور لزيارتهم لوحده، ومجاملته لهم بالتحدث إليهم بلغتهم، راغبين في قضاء المزيد من الوقت في تكريمه. لكنهم جميعاً أدركوا أن المشاعر السلبية تغلي تحت السطح.

في نهاية المطاف، شعر تيمور أن الوقت قد حان لكي يتطرق إلى موضوع الهدف من زيارته. "إن إخوتي الذين حضروا مؤخراً من استنبول على متن القطار متلهفون على أن يعيشوا بسلام مع أولئك الذين سكنوا في الصحراء طيلة حياتهم، إنهم يتمنون أن يكونوا جيراناً طيبين، أن يتبادلوا المتاجرة لجعل المنطقة تزدهر."

وافقه أكبر الشيوخ مقاماً "إن قومي يحبون بدورهم أن يكونوا جيراناً طيبين وأن يجعلوا المنطقة تزدهر" قال ذلك بينما حجبت عيناه بجفنيه الثقيلين، ولم يفصح فمه بأية إشارات عما يجيش في صدره من انفعالات.

أبقى الآخرون عيونهم بعيدة عن تيمور، وكأنهم ليسوا أطرافاً أو جزءاً مما يجري، رغم أنه يدرك أنهم يتشربون كل كلمة تقال.

قال تيمور "لقد دأب بعض رجال الصحراء على قتل القادمين الجدد، إنهم يطلقون النار على رجال أبرياء أثناء أدائهم لأعمالهم."

بدا وكأن أجفان عيني الشيخ قد انطبقت بالكامل "يؤسفني أن أسمع ذلك" مع أن تيمور شك في انه مراقب بدقة من تحت تلك الأجفان. "يجب أن تفهم يا صديقي" استرسل الشيخ عندما عدل تيمور عن شغل الصمت. "إن العديد من الناس الذي يعيشون في

الصحراء يعتمدون على نبع الماء ليستمروا في الحياة. وعندما يرون أناساً آخرين يجيئون من بلاد أخرى ويستولون على المياه، فإنهم يخشون من أن يموتوا هم وحيواناتهم من العطش. الأسوأ من ذلك هو أنه ربما يجبروا على التجوال في الصحراء بحثاً عن أمكنة جديدة للعثور على الماء، ربما حتى يجبروا على سرقة المياه من أناس شرفاء آخرين."

وافقه تيمور "إنني أتفهم مخاوف هؤلاء الناس، وإنني أود أن أطمئنهم إلى أنهم سيكونوا محل ترحيب على الدوام في استخدام مياه "رأس العين" وأن الشركس لن يقدموا على منعهم من استخدامه."

رفع الشيخ أجفانه ونظر إلى تيمور "أنت رجل شديد الاحترام، لكنك مجرد رجل واحد. إنني أشك في قدرتك على قطع وعد فيما سيحدث في المستقبل أو على الطريقة التي سيتصرف بها هؤلاء الناس تجاهنا. هنالك كلام حول مغادرتك ورحيلك. لقد كان لنا فيما مضى سبيل مفتوح إلى الماء وقد قيل لنا أن هذا الوضع لن يتغير، والآن نرى أن السبيل يتقلص ونعتقد أن المزيد من المستوطنين سيحضر وسوف يشاد المزيد من الجدران والأسيجة. فكيف ستقنعنا تطميناتك لنا وقتها؟ سيكون الشيوخ قادرين على القول "آه، لقد وعدنا تيمور بأن هذا لن يحدث أبداً وقد كان رجلاً فاضلاً." لكن الشباب سيضحكون في وجوههم ويشيرون إلى الجدران التي تمنع أغنامهم من الوصول إلى الماء والشرب."

سعى تيمور إلى كسب الوقت بالشرب من كوب الشاي وإشعال سيجارة. استطاع أن يرى بأنه لن يتمكن من قول أي شيء يمكن أن يقنع الشيوخ بأن الشراكسة لن يقوموا بسد المنافذ إلى نبع الماء عن أي من السكان المحليين. فقرر أن يسلك منحنى آخر. فقال "هؤلاء الناس الجدد هم من القباردي. وهي منطقة من القفقاس تختلف كثيراً عن بلاد الشابسوغ الذين عرفتم أهلها حتى الآن. إنهم قبيلة مختلفة من الشركس تماماً كما تختلفون أنتم عن أبناء قبيلة بني

صخر. بعضهم قادم من إقليم نهر التيريك، وهي المكان الذي قدمت منه شخصياً، ولذلك فإنني أيضاً ملم بأطباعهم. إنهم لا يشبهون الشابسوغ الذين استقروا هنا من قبل. إن قومكم يقتلون الشابسوغ وهم يحصلون على البنادق لحماية أنفسهم، لكنهم لا يجيئون ساعين إلى الانتقام. إنهم يفعلون كل ما بوسعهم لتجنب اندلاع حرب مكشوفة شاملة مع أي طرف كان. بوسعي أن أتحدث إليهم، بوسعي أن أخبرهم بوجوب تجنب إراقة الدماء وهم يصغون إليَّ."

لم يتكلم أحد وانصبت كل العيون على تيمور في انتظار أن يستأنف كلامه. رشف تيمور شايه وهو يحاول أن يزن عبارته التالية بعناية تامة. فقد أدرك أنه يقترب من منطقة خطرة ولم تكن لديه أية فكرة عن الكيفية التي سيتلقون بها عبارته. فابتدأ بقوله: "يا شيخ قبيلة بني هدب العظيمة، إن القباردي مختلفون. سوف يستمعون إلى كلمات الاسترضاء لمدة قصيرة. فإذا استمر قتل أبنائهم فإنهم سوف يسلحون أنفسهم وسيركبون خارجين للبحث عن الناس الذين قاموا بالقتل وسوف يشنون الحرب عليهم. هؤلاء أناس ظلوا مقاتلين قروناً طويلة. إنهم ليسوا سياسيين ورجال كلام. لن يجلسوا ليتحدثوا عن كيفية حل المشاكل، بل سيهاجمون الناس الذين يهاجمونهم ولن يخافوا من إشعال فتيل حرب يمكن أن تؤدي إلى الكثير من القتلى."

حوّل المجلس برمته عيونه إلى شيخهم في تساؤل عام. سحب الشيخ نفساً حاداً من خلال خيشوميه المتوسعين وعبرت غيمة من الامتعاض أجواء الخيمة. "هل تعتقد أنك ستقدر على إخافتنا بإخبارنا هذا الأمر؟ هل تعتقد أنك بقولك "سوف يهاجمونكم إذا لم تتوقفوا عن القتال في سبيل حقوقكم" سوف نتوقف عن القتال؟ هل تعتقد أننا سنسمح لهم بأن يسرقوا مياهنا وأراضينا بدون أن نقول أي شيء، خوفاً من أن يهاجمونا؟ إذا كنت تعتقد ذلك، يا تيمور، فإنك قد أسأت الحكم على شجاعة بني هدب."

هزَّ كل الجالسين الحضور رؤوسهم موافقين وغمغم بعضهم كلمات اعتزاز بشيخهم. أدرك تيمور أن هذا الأسلوب لن ينجح أكثر من نجاح الأسلوب الأول. أحنى رأسه واعتذر عن كونه المح إلى أي شيء من ذلك، مصراً على أنه لم يقصد أكثر من تحذير الشيخ بأن القباردي سريعو الغضب. وأنه لن يكون قادراً على تهدئتهم بنفس الطريقة التي يهدئ بها الشابسوغ وأن كل من يتعامل مع القباردي يتوجب عليه أن يأخذ تلك الحقيقة بالحسبان.

غيرَّ الموضوع وتحدث مع الشيوخ عن مشاكلهم مع العثمانيين وغضبهم من الطريقة التي يستولي بها أولئك على صحرائهم. اتفقوا جميعاً على أن الإمبراطورية التركية تعاني من المتاعب وأنه مع وجود الضغوطات التي تتعرض لها من جميع الجهات فإنها سرعان ما ستتهار.

عندما تأكد من أنه لن يستطيع أن يفعل شيئاً يحسن به الموقف، قام بتوديع الشيوخ وغادر. توجه في اليوم التالي لزيارة أعراب بني صخر وشرح لهم مخاوفه على المستقبل.

أبدى الشيوخ تعاطفاً عميقاً.

أخبروا تيمور "يبدو أنه لا مفر لكم من خوض حرب مع بني هدب. لأنهم لن يوقفوا هجماتهم الجبانة على قومكم. لقد قاتلناهم وما زلنا منذ أوقات لا تعيها ذاكرة أحد. أنت وقومك أصدقاء لنا: لقد كنتم منصفين معنا على الدوام. إذا وجدتم أنفسكم في حالة حرب مع بني هدب فإننا سنشكل معكم تحالفاً وسوف نهزمهم سوية."

أجابه تيمور "أنا ممتن لكم على دعمكم، آمل أن لا تصل الأمور إلى ذلك الحد. إذا بدأنا بتشكيل التحالفات فإن الحرب يمكن أن تتصاعد وتمتد وسرعان ما يصبح الإقليم كله يقاتل بعضه بعضاً وستهلك آلاف الأنفس سدى. أنا أفضل أن نتمكن من التوصل إلى تسوية من نوع ما الآن، قبل فوات الأوان."

قال أحد الشيوخ "أنت رجل حكيم يا تيمور" وقد بسط يديه في إشارة عجز مطبق "ولكن ليس لدى كل الناس مقدار حكمتك."

غادر تيمور مضارب خيامهم بقلب مثقل، مدركاً أنهم على حق بدرجة شبة أكيدة. بعد أسبوع أطلقت النار على أحد الكبار الذين قدموا من استنبول وقتل بينما كان يسير على ضفة السيل قاصداً زيارة تيمور.

***

الفصل الخامس

تركيا

لم يكن ناخو قادراً على التفكير في شخص يعقد معه تحالفاً عائلياً أفضل من صديقه القديم، تاب أنور، وقد راقب قصة الحب أثناء إزهارها بآمال لم يكن قادراً على البوح بها، لم يكن ناخو نفسه قادراً على قول أو عمل أي شيء ليشجع على قيام هذه العلاقة الغرامية ولذلك فقد بذل أقصى جهوده لتجاهلها. لكنه كان قادراً على تشجيع زوجته ديسا على التوسط. إنما بكل الأحوال أدركت ديسا بالغريزة والحدس إنها لو عملت أي شيء لدفع ابنها باتجاه التقدم لخطبة نورسان فإنها تخاطر بالتسبب في تخويف الشابين وابتعادهما. كان الأمر أشبه بقيادة جواد جموح في الاتجاه الذي تريده أن يذهب فيه بدون إجفاله أو التسبب في إيذائه بالقوة غير الضرورية.

كان ناخو قلقاً في الماضي من أن الحياة التي يعيشونها مع الجياد لم تكن تؤدي إلى وضع أبنائه في جو التواصل مع العدد الكافي من الصبايا وأن الأمر سينتهي بهم إلى الابتعاد عن البيت في سبيل البحث عن المغامرة والسعادة. رغم أنه قادر دوماً على استخدام أناس للحلول محلهم، كما يفعل الآن بعد أن تم إبعاد حميد من قبل الجيش، إلا أن الأمر لم يكن مرضياً بقدر وجود أناس من دمه ولحمه يعملون إلى جانبه.

فهو يريد أناساً لديهم مصلحة أساسية في إيجاد مشروع عمل للمستقبل، أناس يمكنه الوثوق فيهم بدرجة مطلقة. ويعرف أن حسن يمثل ذلك النوع من الأبناء تماماً وهو الآن في سبيل أن يتزوج فتاة يعرف ناخو إنها ستكون زوجة طيبة وداعمة. قال لنفسه وهو يبتسم: قريباً، سأصبح جداً وأتنافس مع تاب أنور لأحظى بانتباه الأحفاد واهتمامهم.

جلست ديسا إلى جانبه، تراقب عروس ابنها، يعكس وجهها صورة للسعادة بينما تأكد ناخو أنه رأى دمعة تترقرق في عينها. تناول يدها وضغط عليها مطمئناً: مدركاً أنها إلى جانب سعادتها، تحمل في قلبها حزناً عميقاً لأن حميد، ابنها المفضل، غير قادر على التواجد ليحتفل مع بقية المجتمع. لم يكن أي فرد من العائلة قد سمع منه أو عنه كلمة واحدة منذ أن استدعته السلطات واصطحبته بعيداً.

لم يقم حميد بأية بادرة اعتراض في تلك الليلة التي ناداه فيها ناخو إلى الغرفة التي يوجد فيها الضباط وأخبره بأن السلطات تصر على أخذه لتجنيده في الجيش وأنه ليس بوسعه أن يفعل شيئاً ليمنع ذلك. وقفت العائلة بأكملها عند الباب حين غادر. استدار حميد على ظهر جواده أثناء ابتعادهم عن البيت، لم يلوح لهم مودعاً، بل اكتفى بالنظر إليهم، أصيب ناخو بالهلع خوفاً على قلب زوجته من أن لا يحتمل وقع الصدمة فينهار. بالكاد تكلمت لبقية الأمسية وتلك الليلة، بينما هما راقدين في الفراش سوية، بل تعلقت به وبكت. لم يجد ناخو الكلمات التي يمكن أن يقولها ليخفف الوطء عنها. لأن حميد هو المفضل لديها.

بدأت ديسا تتحدث عن حميد خلال الأيام التالية، معبرة عن مخاوفها حول ظروفه المعيشية بعيداً عن أشقائه، تخاف عليه وتتخوف من المعاملة التي يحتمل أن يلقاها على أيدي زملائه الجنود.

قالت ديسا "إنه معتاد على البقاء مع أشقائه، إنه لا يعرف كيف يتدبر أمره. بإمكان الجنود العثمانيون أن يكونوا رجالاً قساة. سيكون غريباً بالنسبة لهم."

"لا عليك يا امرأة" حاول ناخو أن يبدد مخاوفها على اعتبارها سخيفة بدون حتى أن يصدق كلماته شخصياً "لقد أصبح رجلاً الآن، وهو قادر على خوض معاركه مثل أي شاب تركي. لقد ربيناه على

أن يعتز بكرامته وأن يقف مدافعاً عما يراه حقاً، وهو قوي جسدياً من جراء عمله مع الخيل. لا أريد أن أكون في مكان أول جندي تركي يريد أن يختلق شجاراً مع حميد."

نفضت ديسا كتفيها رافضة "إنه ما يزال مجرد طفلي" مدركة أن كلمات ناخو لا تعدو كونها تفاخراً مفتعلاً.

قال ناخو بحنان "أعرف ذلك، أيتها المرأة العجوز، لكن يتحتم علينا أن نسمح لأطفالنا بالابتعاد قليلاً حتى يكبروا وينضجوا. سوف تساعده هذه التجربة في المستقبل. لن يحتفظ به الجيش إلى الأبد."

رفرفت ديسا بعينيها لتمنع تساقط الدموع وابتسمت لزوجها، بينما تصاعدت من حولهما أصوات احتفالات الزفاف، فقد صممت على أن لا تضفي جواً من الكآبة بالتفكير في مسائل حزينة. سحبت يدها من كف ناخو وبدأت تصفق على إيقاع الموسيقى، وأومأت إليه أن يفعل مثلها. تابع آخرون في الغرفة قيادتهما في التصفيق، ضاحكين بينما كان صغار السن يزيدون في سرعتهم بالرقص والدوران في أرجاء حلبة الرقص غير عابئين على ما يبدو بأية هموم في الدنيا. حضر كل شخص في المنطقة لتقديم احترامه لناخو، خاصة وقد أصبح مؤخراً أحد أكبر الأثرياء في الإقليم وزعيماً بالفطرة. جاؤوا محملين بأصناف الأطعمة، أكثر مما يقدر معظمهم على تناوله في مدى أسبوع لدى عائلاتهم، وملأت روائح طبخ اللحم الساحة الخارجية لبيتهم الكبير. كان الجميع يحتفلون تيمناً بالأيام القادمة الجميلة، التي باتوا على ثقة من قدومها.

بدت نورسان أكثر جمالاً من أي وقت مضى. فقد ظلت النساء عاكفات على العمل في ثوب زفافها لأسابيع طويلة مضت بحيث جاءت النتيجة مذهلة لعيني كل من شاهدها عن كثب: وشعر بتحركات جسمها النحيل من خلال طيات القماش. تورد خداها واحمرا من شدة الحرارة والإجهاد وأضيئت عيناها الخضراوان من

الإثارة لفكرة وجود كل عائلتها وأصدقائها سوية في نفس الوقت لتكريم زواجها وزوجها الجديد. أحست أنها جميلة ومتميزة.

حضرت والدة ناخو مع زوجها قاطعة كل المسافة من استنبول، رغم أنها أصبحت في هذه الآونة من الهزال بحيث لم تعد تقوى على المشي بدون مساندة العكازين. بدأت عيناها تخبوان لكنها ظلت قادرة على أن تشاهد ابنها. لم تزل تشعر بالحزن والذنب لكونها تخلت عنه وتركته في البلاد حينما كان مجرد طفل في الثالثة من عمره. حزينة لكونها حرمت من مشاهدة كل مراحل نموه، لكنها كانت تعرف أنه لا يحمل تجاهها أية ضغائن. فقد فعل جده كازبك أكثر من مجرد التعويض عن غيابها، وجعل منه الرجل الذي يجلس الآن بثقة في وسط التجمع، يشعر بالأمان من ثروته وشعبيته. تعاطف قلبها مع ديسا على غياب حميد. فهي تعرف كم هو مؤلم أن تدرك الأم أن أحد أطفالها موجود في مكان ما بعيد عنها ولا تمتلك أية فكرة عن أحواله.

لقد تمكنت من الاحتفاظ بولدها برهان إلى جانبها في استنبول حتى بلغ مرحلة الرجولة، لكنها مع ذلك أحست بلوعة الفراق حين ارتحل بعيداً مع الجيش العثماني. سمعت من الأصدقاء في المجتمع أنه يخالط أناساً خطرين ولكنها حين سألته أو سألت زوجها عن الموضوع، صرفوا مخاوفها على أنها أمور حمقاء. ظلت تأمل أن يكونوا محقين لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من القلق.

حضر برهان بدوره ليشارك في الزفاف. فقد جاء إلى تركيا من دمشق حيث كان يؤدي خدمته العسكرية. فوجئ ناخو بمقدار التغير الذي طرأ على أخيه غير الشقيق في السنة الأخيرة منذ أن رآه آخر مرة. ظهرت عليه سيماء الجدية، التي لم تكن موجودة قبلاً. حتى أثناء الزفاف، حيث كان كل شخص آخر يحتفل، ظل يتكلم ويتناقش بحرارة في الشؤون السياسية مع والده ومجموعة من الرجال المسنين في زاوية من الغرفة. لم يبد عليه أي اهتمام بالصبايا الجميلات اللاتي كن يتنافسن على جذب انتباهه.

كان برهان قد عقد صداقات في الجيش مع عدد آخر من ضباط الجيش صغار السن الذي يشاركونه آراءه القائلة بأن الإمبراطورية العثمانية قد أصبحت فاسدة تحت حكم السلطان، وأن من الواجب إنهاءها. وأصبح السلطان بدوره متخوفاً من قوى الإخلال بالأمن، والتي كان يعتقد أنها تهدد إمبراطوريته. وقد استخدم الحرب مع روسيا كعذر لحل البرلمان قبل ثلاثين عاماً وظل منذ ذلك الزمن يحكم كطاغية، يقمع حرية الكلام بقسوة بمساعدة جيش من الجواسيس والعملاء السريين.

كان جميع الضباط صغار السن يؤمنون بأن الشعب التركي بحاجة إلى خلق دولة وطنية جديدة والتخلي عن كافة الطموحات في التوسع والسيطرة على بلدان أخرى. كان هناك رجل واحد في دمشق أثَّر في برهان بشكل خاص بأفكاره وشخصيته: كان اسمه النقيب مصطفى كمال.

كان مصطفى كمال فاتح البشرة أكثر من معظم الأتراك، وقد برزت عظام خديه بدرجة مؤثرة وعينين زرقاوين متباعدتين، في مثل برود الجليد. رغم صغر حجمه ونحوله، فقد كان يمتلك طاقة رهيبة حوله كأنها تيار مكهرب يحسها برهان في الهواء حوله، حتى عندما كان يفترض في كمال أنه مسترخ بين زملائه الضباط. كان كمال قد نفي إلى دمشق بسبب نشاطاته كقائد لحركة سرية، وتأكدت هناك، في سورية، آراؤه عن مدى الفساد والعفن في الإمبراطورية العثمانية، على أثر مشاهداته كلها.

في أحد الأيام، وبينما هو يراقب من شباك شقته، أبصر ضابطاً تركياً يعتدي بالضرب على جندي عربي يفترض فيه أن يدربه. غضب كمال، الذي يتمتع بمزاج عنيف، وطالب بمعاقبة الضابط. تعاملت السلطات مع شكاويه باستخفاف، مما أعطاه انطباعاً بأنها تعتقد أن مجرد شخص عربي غير ذي أهمية وأن ضابطاً في الإمبراطورية العثمانية يستطيع أن يفعل كل ما يراه مناسباً.

فجأة، قال كمال لبرهان، استطاع أن يرى بوضوح أكثر من أي وقت مضى الطبيعتين الإجرامية والعبثية للإمبراطورية في نفس الوقت. إذ قال، بينما عيناه مشتعلتان غضباً "أن يكون الشعب العربي، بكل تاريخه وثقافته، خاضعاً إلى هذه الدرجة تحت سلطة الإمبراطورية، وأن يسمح لضابط تركي جاهل أن يضرب رجلاً لأنه ببساطة عربي هو أمر لا يمكن احتماله."

ولد كمال في سالونيك وتربى على يد أمه. إذ توفي والده وكمال بعد صبي صغير. دخل المدرسة العسكرية منذ سن الثانية عشرة حيث أدرك على الفور أن الإمبراطورية التي يجري تدريبه لخدمتها تدار بواسطة الرعب البوليسي. رأى أن السلطان عبد الحميد الثاني يقف ضد أي نوع من التحديث أو التقدم في أي من ميادين الحياة، خاصة التعليم، وأصبح مهتماً بعمق في الآراء الشعبية لبلاد الغرب، بالإضافة إلى اهتمامه بالمواضيع العسكرية الأكثر تقليدية مثل سيرة حياة نابليون. لم يكن وحده في تحرره من الوهم، فقد سمع الطلاب في المدارس العسكرية والكليات الطبية عن الأشياء الثورية التي تحدث في البلدان الغربية ورغبوا في تجربة بعض من الأفكار التحررية، التي كانت تنتشر في أمكنة أخرى عديدة. شكّل كمال وبعض الأصدقاء لجنة سرية وبدأوا في إصدار صحيفة، كان هو يكتب معظم أبوابها، لفضح أفعال السلطات الشائنة. تولد بينهم شعور متعاظم بالوطنية والوعي القومي الذي لم تتفق معه القوى الحاكمة ولا ترضَ عنه، وكان مصطفى كمال في قلب ذلك التيار.

شكل طلاب في المدرسة العسكرية تنظيماً سرياً أسموه "الاتحاد والترقي". لم يكن هذا هو التنظيم الوحيد، لأنه كانت هناك تنظيمات أخرى تظهر للوجود في كل أنحاء مقدونيا، ولكن لم يكن هناك أي تعاون بينها ولذلك لم تشكل أي تهديد مباشر وفوري للحكومة.

بمجرد أن تخرج من الأكاديمية العسكرية، وشى به وبأصدقائه مرشح ضابط يعيش معه في نفس البيت كان قد سمع بأحاديثهم الثورية. هجم جواسيس السلطان الذين كانوا يراقبونه، ألقوا القبض عليه وعلى أصدقائه وألقوا بهم في السجن لأشهر عديدة بينما تفكر السلطات فيما تفعله بهم. في نهاية المطاف، اتخذ قرار بالنظر إلى جرائمهم على أنها جنح شبابية وأرسل كمال إلى الجيش الخامس في سورية ليقوم بتدريب الصنوف أخرى، وهي وظيفة كان مؤهلاً لها بشكل جيد.

كانت الحياة في دمشق مختلفة كل الاختلاف عن العوالم المدنية المتحضرة لكل من سالونيك والقسطنطينية والتي كان كمال معتاداً عليها. فهذه مدينة عربية بالكامل وما زالت تعيش بنفس الطريقة التي كانت عليها خلال العصور الوسطى تقريباً، إذ تصبح الطرقات الضيقة مهجورة صامتة بعد هبوط الظلام، في غياب كلي لكل المباهج الغربية التي يستمتع بها كمال، فلا موسيقى، ولا مواخير.

لم يسمح لأجواء دمشق أن تثبط من حماسه الثوري. بل قام بتأسيس وتنظيم جمعية سرية ثورية أخرى تسمى "الوطن الأم والحرية" وقام بتجنيد برهان كأحد مساعديه.

أحد الواجبات العسكرية التي أوكل بها لواؤه، هو السيطرة على الدروز، وهم قوم يتحلون بالعنف والاستقلالية، ظلوا يقاتلون الاضطهاد العثماني على الدوام. تم التوصل إلى اتفاق ما بين الجانبين، ولكن، كانت المشاكل تثور بين الفينة والأخرى ويتوقع من الجيش أن يقوم بقمعها. اكتشف كمال في أحد الأيام أن الأوامر قد صدرت للوائه بالتحرك إلى حوران بمثل تلك المهمة، ولكن لم تصدر له التعليمات بالمشاركة فيها. أحسّ بأنه يجري استبعاده بشكل متعمد لأن هناك أمراً يريد رؤساؤه أن يخفوه عنه. فذهب للبحث عن برهان، الذي استبعد بدوره من المهمة، فقررا أن يعصيا الأوامر ويلحقا بجنودهما.

بعد أن سافرا طيلة النهار، وجدا اللواء معسكراً بالقرب من قرية شركسية وقضيا الليلة في خيمة مع الجنود.

عند شروق شمس اليوم التالي، واجه كمال الضابط الذي حل محله. ظهر على الرجل عدم الارتياح واضطر كمال إلى بذل جهد مضني حتى يوصله إلى حالة كاذبة من الأمان، مطمئناً الرجل على أنه وبرهان لا يريدان أكثر من المشاركة فيما يحدث، بغض النظر.

وافق الضابط في النهاية بامتعاض "حسناً، طالما أنكما تعطياني كلمة شرف منكما على أن لا تخبرا أي شخص عما ستريانه خلال العملية، سأسمح لكما بمصاحبتنا."

منحه كمال أفضل ابتساماته الآسرة، بعد أن تبادل نظرات تآمرية مع برهان بمجرد أن أدار الرجل ظهره "طبعاً أعطيك كلمتي."

ركبوا سوية مع الجنود بعد حوالي ساعة، وراقبوا بهلع بينما انتقل الضباط من مسكن إلى الآخر، مطالبين بما أدعوا أنها ضرائب متأخرة. عجز الناس عن الدفع، أو أنهم رفضوا، فقام الجنود بالاندفاع إلى داخل البيوت ونهبوا كل ما استطاعوا أن يجدوه. فما أن حان وقت انصرافهم، حتى كانت القرية قد سلبت وكأنها تعرضت لبلاء من غزوة الجراد.

قال برهان لناخو "إن رجالات اليوم يمثلون الفساد وانعدام الكفاءة. نحن رجال المستقبل" ابتسم ناخو وهزّ رأسه. وحده الغبي كان يخالف حقيقة أن نهاية الإمبراطورية العثمانية أصبحت الآن محتومة، لكنه خشي من أن أخيه يحمل رأياً متفائلاً عن السهولة التي سيتمكن بها هو وزملاؤه الأتراك الشباب من الاستيلاء على السلطة. لأنه سيكون هناك إراقة دم حتمية قبل أن يتغير أي شيء إلى الأفضل ولذلك لم يتمكن من حجب مخاوفه على سلامة برهان. كذلك أصبح من المحتمل أن ينغمس فيها حميد وجميع الشباب الآخرين في عائلته.

كذلك أصبح عدد من الشراكسة معنياً وذا علاقة بالحركة الثورية، خاصة رجل يدعى أدهم الشركسي. كان الأصغر بين خمسة أخوة، ولدوا في قرية إيمريكوي. تلقى اثنان من إخوته. رشيد وتوفيق تعليماً عسكرياً بينما أبقى والده أدهم في البيت. أصبح الصبي متلهفاً على اتباع خطى شقيقيه إلى درجة أنه هرب من البيت وانضم إلى "مدرسة الفرسان لضباط الاتحاد". في استنبول.

كان مقدراً للشباب مثل أدهم أن يلعبوا دورهم في الأحداث الحاسمة التي سوف تتبع في السنوات القادمة.

* * *

الفصل السادس

القفقاس

أدرك بيطال أنه ليس مقدراً له أن يكون مثل الصبية الآخرين في كوبا، القرية القباردية المملة التي ولد وتربى فيها. أصغى إليهم أثناء تحدثهم، حيث العديد منهم يبدون مهزومين سلفاً وقانعين بمصيرهم المحتوم في الحصول على ما يكفي لمجرد إقامة أودهم من التربة المجدبة والعمل لدى الرجال الأثرياء مقابل مكافآت مالية هزيلة. أدرك أنه على الرغم من كونه واحداً منهم إلا أنه لديه أحلامه، التي ستأخذه إلى ابعد من ذلك بالضرورة. هؤلاء هم قومه وهم بذلك مسؤوليته، لكنه ظل يتوق إلى شيء آخر، شيء أكبر. شعر بأنه مدفوع بقوة داخلية تحتاج إلى العثور على مخرج.

كانت بذور الثورة قد بذرت في عقله الفتي وبدأت تنمو مثل الأعشاب، غير منضبطة ولا مسيطراً عليها. لم يكن في القرية أحد ليرشده أو يأخذ أحلامه الطائشة ويهذبها بدروس من التاريخ أو الفلسفة. حتى لو وجد مثل ذلك الشخص فالأرجح أنه لم يكن ليستمع إليه. إذ كان مقتنعاً بعظمة مستقبله، إلا أنه لم تكن لديه أية فكرة عن طريقة تحقيقه. ظلت كل هذه الأفكار المتصارعة تتسارع داخل عقله الفتي المتطور، وتبقيه يقظاً في حين تنام بقية القرية وتسبب له إحباطات غاضبة. تنامت قوته الجسدية بوتيرة تكاد تكون يومية بينما هو يكافح الحياة الصعبة للفلاح الجبلي ويدفع نفسه قدماً بغارات ومغامرات مشهورة ضد الأغنياء. وفي الأثناء، يستمر غليانه الداخلي على الفروقات المستمرة بين أصحاب الأراضي وأولئك المحرومين. أصبح واضحاً بالنسبة له أن كل شيء ينبغي أن يتغير ولم يستطع أن يفهم سبب كل ذلك التأخير في التغيير. إذ يفترض بل يجب تقاسم الأراضي والبيوت بقدر أكبر من المساواة

بين الناس، وقد دفعه انعدام قدرته على تحقيق ذلك بين عشية وضحاها إلى الرغبة في الصراخ والتقاتل مع كل الناس.

بدأ أصحابه يجدونه ميالاً إلى السيطرة والترهيب في بعض الأحيان عندما تصل إحباطاته ومشاعره بالكبت إلى حد لا يعود يتمكن من التعبير عنها إلا بانفجارات عصبية. ظل أصحابه يشعرون بالرهبة تجاهه لكنهم ظلوا يثقون به في نفس الوقت.

رغم أن السلطات الروسية كانت تعلم بأن العصابات الثورية تزداد قوة مع مرور كل شهر، إلا إنها لم تكن لديها أية خطط لمقاومة مثل هؤلاء العصاة، خاصة في المقاطعات النائية مثل شمال القفقاس. كثيراً ما كان الوضع يبدو بالنسبة لرجل في مقتبل العمر يعيش في الجبال بدون أي اتصال يذكر بالعالم الخارجي، وكأن بيطال وأصدقاؤه يقاتلون في فراغ. لأنه بغض النظر عن مقدار الأضرار التي ينزلونها بالأثرياء المحليين، فهي لم تكن أكثر من مصدر إزعاج حقير الشأن. بات يشعر بأنه وأصدقاءه لن يصبحوا فعلياً قادرين على تشكيل قوة موحدة ضد القوى التي تسومهم الخسف. كان بيطال يؤمن أن القوزاق وحلفاءهم يسخرون منه ومن زملائه، وأنهم لا يرون فيهم أكثر من إجراء مزارع متعجرفين، سيتم إطلاق النار عليهم وقتلهم طال الزمان أم قصر خلال إحدى غاراتهم. أراد بيطال أن يصبح أكثر من ذلك، وأراد للثورة أن تنجح. أراد أن يرى الأغنياء والمتنفذين وقد أسقطوا عن كراسيهم وداستهم الأقدام في الوحل. أراد النصر النهائي الناجز. أراد أن يصبح من أمراء الحرب العظام، وليس مجرد شقي محلي. لكنه ظل في نفس الوقت رجلاً عملياً من خلفية عملية وكان باستطاعته أن يرى أن اقتصاديات البلاد تقف ضد الناس من أمثاله.

فهناك حد لما يقدر على سرقته، تماماً كما أن هناك حد لمقدار ما يمكنه زراعته على التربة الفقيرة المحيطة بالقرية. كان بحاجة إلى العثور على مهنة أو تجارة تمنحه موقعاً في العالم الحديث. سواء نجحت الثورة أم فشلت، سيكون بحاجة إلى الحصول على

لقمة عيشه إذا كان يرغب في الزواج. كان بيطال واثقاً من رغبته في وجود نساء في حياته وفي فراشه، وأن بقاءه عامل مزرعة غير متعلم لن يوفر له أكثر من بقائه رجل عصابات.

قرر أنه سيتولى شؤون قدره بيديه الاثنتين. فإذا لم تتحقق الثورة مطلقاً، وقد بدأ يخشى أنها لن تتحقق فعلاً، فهو سيتخلف ليصبح أفقر الفقراء، وليس أفضل حالاً من أبيه أو جده في حالة عبوديته الحالية. أخبر نفسه أنه يكبر ليصبح رجلاً، وأن عليه أن يواجه العالم الحقيقي ويضع أحلامه جانباً. لذلك سافر إلى إيكاتيرينودار وقدم طلباً لمقعد في مدرسة سكة الحديد.

أقنع نفسه بأن السكك الحديدية، هي عماد المستقبل. لأن كل مسافر قابله ظل يتحدث عن الطريقة التي تغير القطارات بها وجه البسيطة، آخذة الرجال إلى أمكنة لم يذهبوا إليها من قبل أبداً، حاملة الناس عبر الصحارى والأراضي القفراء الجليدية خلال أيام، والتي ما كان يمكن عبورها في أقل من شهور في الماضي. ستكون السكك الحديدية قادرة على جعل التجارة والمغامرات التي لم يكن معظم الناس قادرين على تخيلها، ممكنة، فهي تمثل المستقبل الذي أراد بيطال أن يكون جزءاً منه. فهي لا تكتفي بتوفير العمل الشريف للناس الذين لا يملكون الكثير من البدائل للحصول على أرزاقهم، ولكنها بعد إتمام بنائها، ستوفر لآلاف الرجال والنساء مخرجاً من الأرض التي شاء سوء حظهم أن يولدوا فيها. ستكون طريقاً لهروب الناس الذين لا يملكون المهرب حالياً.

قدَّم نفسه في المدرسة، التي لم تكن تزيد على مجموعة من الأكواخ الصغيرة. تم تدوين اسمه وقيل له أن ينتظر حتى تجرى له مقابلة. كان هناك حشد من الرجال جالسين، صامتين صبورين، ينتظرون المقابلات. جلس الأشخاص الذين يجرون المقابلات خلف طاولة موضوعة على حوامل خشبية، مجموعة من الرجال المسنين العابسين، وقد انتفخت أوداجهم من شعورهم بأهميتهم، يقلبون

الأوراق ويهمسون في آذان بعضهم بعضاً مع قدوم وذهاب كل مرشح.

أجال بيطال بصره في الرجال الآخرين المحيطين به، لكن أحداً منهم لم يبادله نظرته أو يحدق في وجهه، بل استمروا في التحديق بالأرض أو في تحريك أرجلهم المرتدية أحذية بالية.

كلما ذهب أحدهم بدوره إلى المكتب يمسك قبعته بيده ويبقي عينيه مسبلتين بعيداً عن المستجوبين المغرورين على الجهة المقابلة.

بدأ بيطال يشعر تدريجياً بتنامي فرصته مقابل هذه المجموعة التعيسة من الرجال. بقي جالساً معظم النهار قبل أن ينادى على اسمه. خرج الرجال المسنون لتناول وجبة طعام وعادوا بعد بضع ساعات، لكن لم يقدم أي طعام للناس المنتظرين. استمروا في توجيه الأسئلة المتكررة وتعبئة النماذج أمامهم بهمة نشَّطتها الاستراحة التي حصلوا عليها.

عندما سمع بيطال اسمه ينادى، خطا نحو الطاولة، مصمماً على تجاهل آلام الجوع المزعجة في معدته. أطلق ابتسامة عريضة وحدق في وجه كل واحد من الرجال الأكبر سناً بدوره. قابلوه بالتكشير وأطلقوا بعض الأسئلة في وجهه. أجاب على كل سؤال منها بصوت قوي وأدرك أنه حتى المرشحين الآخرين يراقبونه الآن، مدركين أن شخصاً أكبر من الحياة قد وصل بين ظهرانيهم. شعر بأن الرجال الجالسين على الجانب الآخر من الطاولة غير مرتاحين لهذا الأسلوب لكنه لم يستطع أن يحلل السبب. أخبرهم بفخر أنه لم يدخن ولم يتناول المشروبات الكحولية في حياته مطلقاً، واثقاً من أنهم سيعرفون أنه ينطق بالحقيقة، وأنهم سيدركون أنه رجل يتمتع بقوة إرادة فائقة.

أخذوا يتبادلون نظرات متشككة، لم تكن تعني له شيئاً، ويخربشون ملاحظات على الأوراق الموضوعة أمامهم. أعادوه

للجلوس مع الآخرين بعد بضع دقائق. بات واثقاً من أنهم لم يمنحوه نفس الوقت الذي منحوه للآخرين. افترض أنهم لاحظوا تفوقه عن البقية بنفس السرعة التي لاحظها هو ولذلك لم يكونوا بحاجة إلى طرح ذلك العدد الكبير من الأسئلة حتى يتأكدوا من نقاط القوة والضعف لديه. انتظر بصبر مرة أخرى بين الحشد حتى تنتهي المقابلات.

مع بدء خفوت النور، نهض الرجال الجالسون خلف الطاولة، بعد أن قضوا حوالي الساعة يتداولون فيما بينهم ويشربون الشاي، وقرأوا لائحة من الأسماء. كل أولئك الذين وردت أسماؤهم على اللائحة تم انتقاؤهم لشرف الانتظام في المدرسة. وجهوا الشكر بأدب للآخرين على تجشمهم عناء الحضور ولإجراء المقابلة وتمنوا لهم حظاً جيداً في بقية أيام حياتهم. لم يرد اسم بيطال على اللائحة.

افترض في البداية أن الأمر عبارة عن غلطة، ثم شك في وجود مؤامرة. لا بد وأن أحداً قد أخبرهم عن حقيقته وعن الأشياء التي عملها أثناء طفولته. بينما بدأ المرشحون الآخرون في الانسحاب ببطء، سواء منهم من تم قبوله أو الذين رفضوا، عائدين إلى الأمكنة التي قدموا منها، وقف بيطال في مكانه، محتاراً في ما يتوجب عليه عمله.

توجه بعد بضع دقائق إلى الطاولة حيث كان الرجال المسنون يحزمون أوراقهم تمهيداً للانصراف.

"لماذا لم تقبلوني؟" أراد أن يعرف.

أجابه أحد الرجال بينما أشغل الآخرون أنفسهم وأسبلوا أعينهم بعيداً عنه "أنا آسف، فنحن لا نستطيع أن نبحث في قراراتنا."

"لكنني رجل قوي الجسم وعامل نشيط. لقد أخبرتكم أنني لا أدخن ولا أشرب الكحول وأنني أؤمن بمستقبل السكك الحديدية. فلم لا يكفي هذا لانتقائي؟ ولماذا تختارون أياً منهم "أشار بازدراء إلى الحشد المغادر "وتفضلونهم عليّ؟"

رفع أحد الرجال الآخرين قامته من حيث كان منحنياً "أيها الشاب، يجب أن تصدق بأننا نعرف نوعية الرجال الذين سيكون بمقدورهم تحمل العمل الذي يقصم الظهر. إن العمل في تمديد خط حديدي يتطلب أشهراً من العمل المتكرر بدون أي عائد يجدر ذكره. أنت تعتقد بأننا وجهنا إليك إساءة عظيمة بعدم قبولك اليوم، ولكن لو أننا قبلناك لكنت بعد بضعة أشهر قليلة ستلعن أمهاتنا إلى الأبد على أنهن سمحن لنا برؤية نور النهار. أنت لم توضع على هذه الأرض لتمد خطوط السكة الحديد، فكر في قدرك أكثر قليلاً قبل أن تقرر مستقبلك."

ابتعد العجائز ببطء وكأن بيطال لم يعد واقفاً هناك، تاركين الشاب واقفاً وحده فاغراً فاه، وقد أعيته الكلمات للمرة الأولى منذ أعوام.

***

الفصل السابع

شرق الأردن

كان مرشن شركسياً قباردياً يعيش في أحدث المستوطنات الشركسية حول الخرائب الرومانية لبلدة جرش على مسافة حوالي عشرين كيلومتراً إلى الشمال الغربي لعمان.

وهو شاب لديه العديد من الأصدقاء والأقارب في عمان، خاصة في مستوطنة القباردي بحي المهاجرين. ولقد اعتاد على السفر إلى منطقة رأس العين لزيارتهم كلما دعت المناسبة لذلك، وهو واثق على الدوام من أنه سيحظى باستقبال طيب. لأن مرشن شاب يحظى بشعبية واسعة، خاصة لدى العائلات التي لديها فتيات في سن الزواج. فقد كانت الأمهات تجدنه ذا طبيعة آسرة مهذبة ويعتقد الآباء أنه جدير بالثقة والاعتماد. حذره العديد من الناس بأن الركوب على الطريق ما بين عمان وجرش لوحده أمر لا ينطوي على الحكمة، لكن مرشن كان يبتسم ابتسامته المائلة بكل بساطة ويهز رأسه موافقاً مع نفضة صغيرة من كتفيه، وكأنه يقول "ماذا أستطيع أن أفعل؟" ولو عرفت الحقيقة، لا تضح أنه كان يعتقد بأن حياته في حرز حصين. فقد كان يبدو له أن الأمور لا تسوء إلا بالنسبة للناس الآخرين، وظلت هذه الثقة بالنفس جزءاً من جاذبيته بالنسبة للذين يعرفونه.

في ذلك اليوم، كان عائداً إلى جرش بعد زيارة بهيجة بشكل خاص. فقد استضافه العديد من العائلات وأكرموا وفادته حتى امتلأت معدته بالعديد من المآدب والوجبات اللذيذة. انتابه شعور طاغ بالرضى وهو يشعر بالحرارة وقد بدأت تتخلى عن الشمس أثناء انزلاقها عن كبد السماء باتجاه الجبال بينما كان جواده يتحرك تحته بكسل. استنشق بعمق الروائح المحيطة به والمتصاعدة من

الأعشاب التي بدأت تبترد وهو يصغي إلى حشرات الليل وقد بدأت تدوزن أنغامها لحفلتها الليلية.

في هذه الأثناء كان الرجلان التابعان لقبيلة بني الهدب يستريحان بين الصخور بعد جولة صيد طيلة النهار، يستمتعان بهدوء المساء المقترب تماماً كما يفعل مرشن، عندما سمعا اقتراب جواده. رفع أحد الرجلين رأسه لينظر إلى الطريق تحته ورأى صورة ظليلة للشاب وجواده مرسومة على وجه الغروب. عرف على الفور من النظر إلى سترة مرشن وبنطال الفروسية الذي يرتديه أنه شركسي. لكز رفيقه بصمت وأشار إليه أن يلقي نظرة. راقب كلاهما اقتراب مرشن. شاهدا البندقية المعلقة على كتفه والحذاء الجلدي الفاخر في قدميه. كذلك شاهدوا المحفظة المعلقة بحزامه، والتي بدت وكأنها تحتوي على الذهب.

تبادل الرجلان نظرات ماكرة خبيثة وبدون أن يصدر أي صوت، رفع أحدهما بندقيته وصوبها. بات من الصعب عليه أن يرى بالضبط ما حدث عندما ضغط على الزناد لأن الشمس الغاربة جاءت قبالة عينه.

سمع مرشن صوت الطلقة وأحسّ بمرور الرصاصة إلى جانب أذنه. أجفل جواده ووقف على قائمتيه الخلفيتين، ملقياً به إلى الأرض بقوة وانطلق يعدو هارباً. تدحرج مرشن إلى الحفرة القائمة بجانب الطريق حيث بقي مستلقياً بمنتهى السكون، بينما يخفق قلبه في أذنيه ويغرق صوت تنفسه كل صوت آخر.

بقي العربيان ساكنين تماما ًلدقيقة، يصغيان، صمتت الحشرات ولم تصدر أية إشارة على الحركة من الطريق تحتهما. أجفل جواداهما المربوطان قريبا ًمنهما في البداية من صوت الطلقة، لكنهما سرعان ما عادا إلى رعي الأعشاب بهدوء. انتظر الرجلان بدون أن يتكلما بينما كان النور يخبو أكثر قليلاً ثم ابتدءا بالنزول في حذر، وهما يوجهان بندقيتيهما إلى البقعة التي اختفى فيها

الشركسي عن الأنظار، جاهزين لإطلاق الرصاصة الأخيرة إذا رفع رأسه.

استطاع مرشن أن يسمعهما يقتربان، من تدحرج الحجارة الصغيرة تحت صندليهما وهما يخطوان كل خطوة حذرة نازلين المنحدر الحاد. في نهاية المطاف أصبح بمقدوره أن يسمع صوت تنفسهما فوق أنفاسه فأدرك أنهما يكادان يصلان فوقه. انتظر ثلاثين ثانية أخرى، مصغياً إلى المزيد من خطواتهما المتثاقلة قبل أن ينفتل بجسمه إلى وضع الجلوس ويرفع بندقيته إلى مستوى عينه. فوجئ بعدم مقدرته على تمييز أوصاف مهاجميه بسبب النور الخافت، لكنه استطاع أن يرى شكليهما فأطلق النار على الفور، قبل أن يحظى أي منهما بفرصة ليضغط على زناد بندقيته.

انفتل أحد الشكلين إلى الوراء وسقط في التراب بينما ندت عن الآخر صرخة عويل حادة وهرب عائداً، متسلقاً المنحدر، يحبو على يديه وركبتيه في عجالته للهروب، فتسبب في انهيار للتراب والحصى نحو الطريق الواقعة تحته. نهض مرشن واقفاً على قدميه وركض، منحني القامة، إلى جانب الطريق. فقد صمم على الابتعاد عن الجثة قدر الإمكان قبل أن يستجمع البدوي الآخر شجاعته ليعود إلى النزول باحثاً عنه، أو يعود إلى قبيلته ويطلق النفير.

كان مرشن يعرف ما يكفي عن العقلية البدوية ليدرك أن قتل أحدهم، حتى دفاعاً عن النفس، يحتمل أن يخلق نزاعاً دموياً يمكن أن يستمر لسنوات حتى تقتنع عائلة الرجل بأنها انتقمت بما فيه الكفاية، مما يعني أنه لن يحل السلم إلا بموته هو.

بمجرد أن تأكد من أنه ابتعد عن البدوي الباقي على قيد الحياة مسافة كافية لأن لا يرى الرجل أو يسمع إلى أية وجهة يتجه، رفع مرشن قامته ومشى على الطريق. كان البحث عن جواده ضرباً من العبث. إذ افترض أنه ربما قطع نصف المسافة نحو جرش بحلول هذا الوقت. حل ظلام دامس وتعثر عدة مرات على السطح غير-

المستوي أثناء إسراعه عائداً إلى رأس العين وحماية العائلات القباردية التي يعرفه أفرادها. عندما وصل إلى المستوطنة لم يشاهد أحداً في الخارج، فقد آوى كل شخص إلى داخل بيته لقضاء الليل، وقد أقفلت المصاريع بإحكام ضد العالم الخارجي، وبدأت الآنية تقرقر فوق المدافئ.

قرع مرشن باب أول بيت صادفه بقوة وأدرك أن الأصوات بداخله اعتراها الصمت.

"من الطارق؟" استفسر صوت رجل.

"مرشن من جرش، لقد هوجمت على الطريق، ساعدوني أرجوكم"

انفتح الباب على الفور وقابلته وجوه العائلة القلقة في الداخل بينما هم يتفقدونه ليروا إن كان جريحاً. أدخلته المرأة بسرعة ومد الرجل رأسه إلى الخارج، حاملاً بندقيته في يده، للتأكد من عدم وجود أي شخص آخر، قبل أن يغلق الباب بقوة ويقفله.

سألته المرأة "هل أنت بخير؟" وهي تفتشه بحثاً عن بقع الدم.

"نعم، أنا بخير، لقد أخطأوني، لكنني قتلت واحداً منهم."

"آه يا ربي" ناحت المرأة.

هدّأ الزوج من روع الشاب "لقد كان وقوع هذا الأمر محتوماً، سوف يتجاوز أحدهم الحد عاجلاً أم آجلاً. "لقد تلقينا واحتملنا منهم ما يكفي، إنهم بحاجة لأن يعرفوا أنهم لا يستطيعون أن يهاجموا الناس الأبرياء أثناء ذهابهم لقضاء شؤونهم."

قالت زوجته "لن يستريحوا حتى يجدوه، سيظلوا يقتلون حتى يحصلوا على انتقامهم."

قال الرجل "سوف نرى" وأومأ إلى مرشن بالجلوس بينما قامت زوجته بتحضير بعض الطعام والشراب له.

انتظر البدوي الراقد وسط الطريق وقد استقرت رصاصة مرشن في كتفه حتى تأكد من أن الشركسي قد اختفى قبل أن ينادي على صديقه طالباً العون. سمع الرجل الثاني الصرخات وأدرك أن صديقه لم يمت كما تخيل سابقاً. عاد إلى النزول عن سفح الجبل بحذر شديد، منحنياً وراكعاً وهو يستطلع حواليه في العتمة، محاولاً أن يحدد أشكال الصخور ليرى إن كانت هناك أية حركة تدل على أن الشركسي ما زال ينتظر لينهي المهمة.

عندما وصل إلى الطريق ألفى الرجل الجريح يتأوه من الألم، فأقسم البدوي بصوت خفيض "سيدفع الشركس ثمن هذا! إنهم يسرقون أرضنا ومياهنا ثم يحاولون أن يقتلوا الرجل الطيب."

قال البدوي الجريح "إنني أحتاج إلى الاتكاء عليك" فرفعه صديقه إلى كتفه. صرخ الرجل من الألم فانسابت دموع البدوي الذي يحمله. فقد عرف رفيقه منذ أن كانا صبيين وجعلته فكرة وجود رصاصة الشركسي في كتفه يرغب هو نفسه بالصراخ. حمله عائداً به إلى حيث تنتظر الجياد وحمله فوق أحدها.

استغرقت عودتهما إلى مضارب بني هدب عدة ساعات، اقترب خلالها الرجل الجريح من غياب الوعي لشدة الألم. أنزلته الأيدي الملهوفة عن جواده ومددته على فراش من الوسائد. مزقت أثوابه عنه للكشف عن مدى الجرح وعمقه. تأكدوا أن الرصاصة قد مرت من خلال كتفه بشكل مستقيم وخرجت من الجهة الأخرى. لقد كان سعيد الحظ؛ لأن الشركسي لا يحسن الرماية. نودي على النساء لغسل الجرح وتضميده بينما ظل المريض يتأرجح بين الصمود والإغماء. تنادى الشيوخ إلى اجتماع في منتصف الليل وكان بوسع جميع سكان المضارب أن يسمعوا أصواتهم الغاضبة وهم يقسمون الإيمان المغلظة على الانتقام من الشركسي الذي تجرأ على القيام بمثل ذلك العمل لواحد من قومهم.

"سوف نطالب تيمور بتسليمنا المجرم." قال أحدهم.

"يجب أن يسلمونا إياه لنفعل به ما نراه مناسباً. يجب أن يعاقب. إذا كانوا يعتقدون أن بإمكانهم أن ينجوا بمثل هذه الفعلة فسوف ينتهي الأمر بهم إلى قتلنا جميعاً. يجب أن نريهم بأنهم لا يستطيعون أن يعاملوا قومنا معاملة الأرانب التي تطلق النار عليها من أجل المتعة بينما هم يمارسون أعمالهم المشروعة".

تحدث صوت آخر أكثر هدوءاً وحكمة قائلاً "لن يوافق تيمور أبداً. إنه رجل شريف نزيه، ولن يتخلى أبداً عن رجل من قومه. سوف يقول لنا أنه أنذرنا بأن هذا الشيء سيحدث."

"لن نقبل أن يملي علينا هؤلاء المهاجرين تصرفاتنا" استمر الصوت الغاضب في القول "هذا وطننا، وينبغي عليهم أن يطيعوا قوانيننا."

"أقول لكم أن مطالبتنا لهم بتسليم الرجل إلينا لا طائل تحتها. إذا كنا نريده فيجب علينا أن نجبرهم على تسليمه لنا."

ارتفعت أصوات أخرى بالموافقة على ذلك الاتجاه واستمروا في التحدث طيلة الليل. فقد أعطوا العذر المثالي لقتال الشراكسة وطردهم بعيداً عن السيل مرة واحدة وإلى الأبد.

مع انبلاج الفجر، بقي مرشن يغط في نوم عميق، مرهقاً من مجهوده في الليل. لم تبال العائلة التي بات في كنفها، أن توقظه بينما الأفراد يتناولون طعام إفطارهم ويباشرون أعمالهم اليومية. لم يتغير نمط الحياة في مستوطنة المهاجرين. خرج الرجال إلى الحقول واتخذت النساء طريقهن نزولاً إلى ضفاف السيل يحملن غسيلهن، وانتشر الأطفال يلعبون تحت أشعة الشمس. انتشرت الأخبار عما حدث خلال الليل بسرعة من فم إلى الآخر وأدرك كل واحد أن قتل فرد من بني الهدب سوف يؤدي إلى حدوث تغييرات. اتخذ العديد من الرجال المسنين طريقهم نحو بيت تيمور للتحدث عما يتوجب عمله. هل يتوجب على تيمور أن يذهب لزيارة بني الهدب والتعبير عن تعازي المجتمع كله؟ أم يتوجب عليهم اتخاذ

المبادرة الهجومية، غاضبين من اضطرار مرشن إلى الدفاع عن نفسه من كمين نصب له؟

كان العديد من القبارديين في مثل تشوق بني الهدب إلى استغلال الحادثة لاستفزاز قتال يضع نهاية حتمية للنزاع، مما اضطر تيمور إلى بذل جهد شاق لتهدئة خواطرهم وتحذيرهم من العواقب المحتملة لمثل تلك الأفعال.

كانوا لا يزالون منهمكين في بحثهم عندما هجم خيالة بني الهدب على حي المهاجرين في منطقة رأس العين واختطفوا طفلين صغيرين من حيث كانا يلعبان في الشارع بدون حتى أن يترجلوا عن جيادهم. كان الصبي في السادسة من عمره وشقيقته في سنتها الرابعة، هرعت أمها خارجة من البيت على صوت صرخاتهما في نفس الوقت الذي رأت فيه جوادين يعدوان خارجين من المستوطنة وقد حملا طفليهما تحت ذراعي راكبيهما المرتديين الأثواب الفضفاضة. سمعت نساء أخريات صرخاتها وألقين غسيلهن، راكضات ليستطلعن ما يجري. حضر الرجال راكضين من الحقول، مجهزين بنادقهم تمهيداً لمعركة، لكن دبيب حوافر الخيل كان قد خبا وابتلعت التضاريس الجبلية المحيطة بهم الطفلين. ركضت المرأة كل الطريق المؤدية إلى بيت تيمور، وهي تعرف أن ذلك هو المكان الذي ستجد فيه زوجها، واندفعت إلى داخل البيت بدون أن تقرع الباب، فوجئ الرجال وبصعوبة بالغة فهموا ما كانت تحاول قوله من خلال لهاثها ونحيبها. عندما فهم زوجها ما تقوله زمجر مثل دب جريح. هب الرجال واقفين عن آخرهم، صارخين في نفس الوقت بينما انهارت المرأة على ركبتيها وهي تبكي متوارية بأثوابها.

قال أحد الأصوات "يجب أن نسرج جيادنا ونذهب في إثرهم، يجب أن نستعيد طفلينا قبل أن يقتلوهما أو يبيعوهما في سوق النخاسة".

صاح تيمور مغضباً "هذا كثير جداً، كثير جداً. لقد تمادوا إلى أبعد مما يحتمل." لم يظهر أي شكل من الاسترضاء في هذه المرة، وقد اتقدت عيناه من شدة الغضب. "ولكن" استطرد قائلاً "دعوني أذهب أولاً لأستعلم عمن قام بهذه الفعلة الشنعاء. ربما يكونوا أفراد عصابات أخرى وليسوا من بني الهدب. إذا كانوا هم يجب أن نحاول أن نسترد الطفلين بدون إراقة الدماء، بعدها سوف نقرر ما يتوجب عمله. يجب أن نفكر في سلامتنا أولاً. أرجوكم انتظروا."

"لقد انتظرنا أكثر مما يجب حتى نظهر لهؤلاء البدو أي صنف من الناس نحن،" ارتفع صوت آخر فوق الضجيج "يجب أن نقاتلهم الآن، حتى لا يتكرر هذا الحادث مرة أخرى أبداً. إذا كان لا بد من قتل أبناء جلدتنا فليكن ذلك في حمأة المعركة، وليس أهدافاً للرماة المارين."

"حسناً" رفع تيمور يديه وهدأت الضجة تدريجياً. "أسرجوا خيولكم وامتشقوا أسلحتكم. احزموا مؤونتكم من الطعام وتأكدوا من توفير الحماية لعائلاتكم. بينما أنتم تقومون بكل ذلك، سوف أخرج راكباً إلى بني الهدب وأحاول استرجاع الطفلين، إذا فشلت سنكون جاهزين للخروج إلى الحرب بدون تأخير."

ندت عن الجمع صرخة انفراج. فقد أعطاهم تيمور عنصراً إيجابياً للقيام به وابتاع لنفسه نتيجة لذلك نصف يوم. أدرك أنه إذا فشل في استرداد الطفلين فإنهم سيصبحون مضطرين لخوض غمار الحرب فبات يخشى من تصاعد مثل تلك الحركة، بحيث تشمل قبيلة بني صخر وكل قبائل الصحراء في نهاية المطاف.

بينما خرج الرجال منصرفين لتجهيز أنفسهم للقتال، أسرج تيمور فرسه وركب باتجاه الجنوب إلى منطقة "أم الحيران" حيث كان بنو الهدب في انتظاره. قبل أن يصل إلى مضاربهم بحوالي ميلين، خرجت كوكبة من فرسانهم من بطن الصحراء، تطلق الصيحات من حناجرها والرصاص في الهواء. وقفت فرس تيمور

على قوائمها الخلفية واستدارت بينما هو يصارع الأعنة لتهدئتها. تحلق البدو المتلثمون بغتراتهم بحيث لا تبين إلا أعينهم، يطلقون التهديدات. بعد أن هدأت فرسه، رفع تيمور يديه في الهواء ليريهم أنه غير مسلح.

اندفع أحد الخيالة من خلفه وضرب فرسه بقوة على كفلها، وجعلها تنطلق عدواً، وانتظم البدو حولها، والغبار يتطاير من حوافر خيلهم أثناء انطلاق مجموعة المرافقين به لمقابلة الشيوخ المنتظرين. كانت وجوههم غاضبة عابسة بقدر غضب رجال الشركس الذين غادرهم وتركهم خلفه، خشي تيمور من أنه ارتكب غلطة ولم يفعل أكثر من تسليمهم نفسه كرهينة أخرى.

قال "لقد جئت غير مسلح، لأطلب من قومكم أن يعيدوا الطفلين اللذين أخذوهما. نحن نتفهم كونكم غاضبين على ما حدث على الطريق بالأمس، لكن إذا لم تتم إعادة الطفلين، فلن أتمكن من إيقاف القبارديين عن الذهاب إلى الحرب. إن مقاتلوكم مشهورين بشجاعتهم ومهاراتكم القتالية وكذلك هم القبارديون. إذا تقابل الفريقان في ميدان قتال، ستحدث إراقة دماء رهيبة. أرجوكم أن تساعدوني على تجنب مثل تلك الكارثة."

تكلم أكبر الشيوخ سناً "أنت يا تيمور تمتلك السلطة لتجنبها، إذا أحضرت لنا الرجل الذي أطلق النار على أخينا، يمكنك أن تعود راكباً مع الطفلين، هذا كل ما نطلبه. إننا نطلب أن يدفع ثمن جريمته ضدنا. نحن نطالب بالعدالة."

"لكن عدداً كبيراً من الشركس قتل منذ أن استوطنّا هنا ولم نخرج أبداً في طلب الثأر، نحن نحاول فقط أن نوقف حوادث القتل."

قال الشيخ "هذه مسألة تتعلق بالشرف، إنها ليست مسألة خاضعة للتفاوض. لقد أخبرناك بالثمن الذي نريده مقابل الطفلين. إنه ثمن عادل. إرجع إلى قومك وأخبرهم أنكم إذا سلمتم لنا الرجل

الذي اقترف هذه الفعلة، فسوف نعيد إليكم الطفلين سالمين. ليس لدينا أكثر من هذا لنقوله لكم." أعطى الشيخ إشارة عجولة من يده فسحب تيمور بخشونة إلى خارج الخيمة وأعيد إلى فرسه. سيطر تيمور على غضبه وحمد الله على أنه جاء غير مسلح بسيفه الشركسي وإلا لربما كان بتر الأذرع التي عاملته بتلكِ الخشونة. أدرك أنه لم تعد هناك فائدة ترجى من المزيد من الجدال، لأن الطرفين يصرون على موقفهما.

بحلول وقت عودة تيمور إلى المستوطنة، كانت القرية تمور بالنشاط. أسرج أكثر من مئة جواد وجهزوا بالكامل، بانتظار خروج فرسانها للرحيل. وكان الرجال في مثل جاهزية خيلهم وقد علت أصواتهم بالعدوانية والإثارة التي لم يعودوا قادرين على السيطرة عليها. كان الجو مشحوناً بطاقة كهربية بينما انشغلت النساء بتجهيز الطعام وتراكض الأطفال بين سيقان الخيل، وقد انتقلت عدوى الإثارة إليهم.

توالى وصول شراكسة آخرين من الشابسوغ القاطنين في مكان أبعد في المستوطنة للمشاركة في المعركة القادمة. كذلك بدأ وصول القباردي الذين يقطنون في جرش والمستوطنين البجادوغ الجدد في وادي السير، مسلحين بكل ما لديهم. اتضح أن كل الشركس قد أصبحوا في نهاية المطاف جاهزين لتسوية المسألة بشكل نهائي مع بني الهدب.

عندما وصل تيمور راكباً إلى وسطهم، ران الصمت عليهم للحظات، وهم يرمقونه بنظراتهم، وقد أدرك كل واحد منهم أنه عائد لوحده، بدون الطفلين.

قال وهو يهز رأسه بأسى "يا إخوتي، إنهم يرفضون الإصغاء إلى صوت المنطق."

صرخ صوت "إذن سنأخذ طفلينا بالقوة وسوف نقتل كل رجل يقف في طريقنا"

وهتف الآخرون معبرين عن موافقتهم على ذلك التوجه بينما هم يلوحون بأنفسهم إلى ظهور جيادهم، مشكلين قوة ذات منظر رهيب. لم يزعج تيمور نفسه بإحصاء عددهم إلا أنه تأكد من أنهم يتجاوزون المئتين عدداً. بينما هم يتهيأون للانطلاق، لاحظ تيمور أن مرشن كان متواجداً بينهم.

صاح به وسط الضجيج "لا يمكنك أن تركب معنا، يا مرشن، يجب أن تبقى هنا حيث الأمان."

جادله مرشن "يجب أن أركب معكم يا تيمور، فكل هذا بسببي وبسبب رعونتي وإهمالي."

"كلا، بل كان سيحدث بكل الأحوال" أجابه تيمور "إنهم يريدونك أنت. إذا اصطحبناك سوف يتشتت تفكيرنا عن القتال بواجب حمايتك."

"لن يتعرفوا علي وسط هذا الحشد" أشار إلى كتلة الرجال والجياد الدائبة الحركة في كل مكان حوله.

أصر تيمور "إنها مخاطرة لا قبل لنا بالمجازفة فيها يا مرشن، نحن نعرف أنك رجل شجاع، لذلك يجب أن تظهر شجاعتك الآن بالترجل والتراجع وعدم تعريض المهمة كلها للخطر."

ظهر على مرشن لثانية أنه مقبل على المزيد من الجدال لكنه بعد ذلك فهم المنطق القابع في كلمات تيمور وطأطأ برأسه موافقاً. أدار الجواد الذي استعاره إلى الخلف، ليفسح المجال للآخرين بالمرور، ووقف يراقب انطلاق زملائه الشراكسة عدواً بخيلهم،ولم يترجل إلا بعد أن غاب آخرهم عن ناظريه وهدأ الغبار الذي أثاروه خلفهم.

كان هناك راعي أغنام اسمه عوّاد يعمل لدى عائلة طاش القباردية، جالساً على سفح تلة تشرف على المراح الذي يشغله بنو الهدب. لاحظ أثناء جلوسه مع قطيعه يستمتع بالهدوء الدافئ لما بعد

الظهيرة في العادة، قدراً هائلاً من النشاط بين البدو في السهول الممتدة تحته. شاهد في البداية قوة ضخمة من الرجال تصل آتية من القبائل الأخرى. عرف منهم قبيلتي الزبن والدعجة. عندما وصلوا وحياهم بنو الهدب. ظهر أنهم يحضرون لهجوم ما. كان الأطفال والنساء يخرجون من الخيام في حين يتسلح الرجال ويشكلون مجموعات.

أعطيت الأوامر، مع أن عواد لم يكنْ قادراً على سماع تفاصيلها. افترش الأرض وجهز نفسه لمشاهدة الأحداث أثناء حدوثها بينما تقضم أغنامه الأعشاب القليلة في سلام.

لم يحدث أي شيء ظاهري طيلة ساعات عديدة. نزل على الناس المنتظرين تحته نوع من الصمت والسكينة أثناء انتظارهم. كان بوسعه أن يشاهد الكشافة موزعين على جميع دروب الاقتراب المحتملة إلى المضارب، لذلك استلقت مجموعات من الرجال بانتظارهم على طول تلك الدروب. بدا لعوّاد وكأنهم يتوقعون هجوماً من الشمال. قدر أنه يوجد ثمانمئة إلى تسعمئة رجل راقدين ينتظرون القادمين، كائناً من كانوا.

سمع هدير الخيول المقتربة قبل أن يرى أي شيء ثم شاهد سحابة من الغبار ترتفع على خط الأفق. شاهدها البدو بدورهم ونبهتهم سلسلة من الإشارات من وحدات الاستطلاع. امتطوا خيلهم، جهزوا بنادقهم للإطلاق واستلوا السيوف من أغمادها استعداداً للقتال. مع وصول القوة المهاجمة إلى مدى البصر، أصبح باستطاعة عوّاد أن يرى إنها مجرد قوة صغيرة، قد لا تزيد عن المئتي رجل، حسب تقديره، وكان أفرادها يعدون متجهين رأساً إلى فخ ينتظرهم فيه ما يقرب من ثلاثة أضعاف عددهم من المقاتلين. استند في جلسته أكثر: وقد ركز بصره على الأرض الواقعة تحته، نصف مذعور ونصف مهتاج من المشهد الذي أدرك أنه على وشك مشاهدته.

مع اندفاع المقاتلين الشراكسة في هجومهم عبر السهل الصحراوي، حاصرهم البدو من كل ناحية وسمع صوت صلية افتتاحية من الطلقات، والتي لم تؤثر على الخيالة المسرعين. بسبب عدم وجود الوقت الكافي لإعادة تعبئة البنادق،هجم البدو على مهاجميهم بسيوفهم التي تبرق وتلتمع تحت الشمس، وهم يطلقون الصرخات التي تجمد الدم في العروق والتي تزامنت مع وصولهم إلى أعدائهم وبدأ الجانبان يتبادلان الطعن والضراب.

لم يتمكن عوّاد من فهم ما يجري لبضع لحظات جراء التحام الخيل، الأذرع والغبار، ولكن ظهر خلال عشر دقائق أن الشركس قد أفلتوا من طوق البدو الذين حاصروهم، واستمروا في هجومهم بدون توقف يذكر. وقعت بعض الأجساد من الفريقين فوق الرمال، وركضت بضع جياد بلا فرسانها هاربة من سعير المعركة بين صفوف المتأخرين. ظهر وكأن المفاجأة التي أضمرها البدو للشراكسة، قد فشلت. استمرت القوة المؤلفة من حوالي مئتي فارس، في العدو إلى قلب الخيام، يطعنون ويقطعون كل من يقف في وجوههم أثناء تقدمهم. حاول بعض البدو إبداء المقاومة، ولكن أصبح بالإمكان رؤية معظمهم يخرجون من خلف الخيام هاربين باتجاه الجنوب للاحتماء. صرخات قليلة، بعضها عدواني وبعضها الآخر من الخوف،تجاوبت أصداؤها صاعدة سفح التلة نحو أذني عوّاد، لكن سرعان ما ساد الصمت.

راقب الشركس يترجلون عن جيادهم ويجوسون خلال الخيام كأنما هم يبحثون عن شيء محدد. ثم بدأوا يحملون الجياد بكل ما استطاعوا أن يعثروا عليه، من الماشية وحتى السجاد، ثم يتأهبون للخروج راكبين. أذهل مرأى الجماعة الشركسية المغيرة عيني عوّاد، فقد ظل على الدوام يعتقد أنهم قوم مسالمون، يهتمون بالزراعة أكثر من اهتمامهم بالنهب.

بعد ن حملت الجماعة المقاتلة جيادها قدر استطاعتها وأنقذت الجرحى، تسلق أفرادها إلى سروجهم واتجهوا عائدين نحو الشمال

إلى عمان بخطوة أكثر ثباتاً وبطئاً، وهم يسوقون أمامهم قطيعاً كبيراً من أغنام بني الهدب. أثناء خروجهم من القرية، كان تيمور في المقدمة بصحبة العديد من القادة حين شاهدوا أمامهم جداراً من رجال القبائل العرب في انتظارهم، تنعكس أشعة شمس المساء على سيوفهم ويحرك النسيم الخفيف أثوابهم ويثير الغبار تحت جيادهم الساكنة في وقفتها.

قال الرجل الذي يسير إلى جانب تيمور "لا بد وأن هناك ألفاً منهم، ستكون هذه معركة دامية بحق."

"انتظر" أمره تيمور بينما تجاوبت أصداء سحب السيوف من أغمادها حوله "انتظروا لحظة" رفع يده بالتحية ورد شكل شخص واحد في وسط صف الرجال التحية له "إنهم رجال قبيلة بني صخر."

ركبوا بثبات باتجاه صف الرجال، الذي بدا وكأنه يمتد عبر الأفق كله، حتى أصبح تيمور قبالة شيخ مشايخ عشيرة الفايز.

"هكذا إذن" قال الشيخ باسماً "قررتم أن تخوضوا الحرب ضد نصف أهل شرقي الأردن" أجابه تيمور "لقد أقدموا على اختطاف اثنين من أطفالنا، لم يعد بمقدورنا أن نجلس متكئين ونسمح لهم بمعاملتنا كما يشاؤون."

قال الشيخ "إنهم يفوقونكم عدداً بأضعاف مضاعفة، سوف تخسرون الكثير من الرجال الطيبين."

أشار إلى قرابة اثني عشر رجلاً جريحاً أمكنه رؤيتهم ملقين عبر ظهور جيادهم.

"سوف نقاتل إلى جانبكم. نحن بدورنا نحب أن نرى هؤلاء الناس وقد تلقنوا درساً."

"نحن في غاية الامتنان على عرض الصداقة هذا" انتقى تيمور كلماته بعناية "ولكننا مضطرون إلى خوض هذه الحرب لوحدنا. إذا

أشركناكم فيها فإن القبائل الأخرى ستجيء لَلانضمام إلى بني الهدب، وبعد ذلك سيأتي المزيد للوقوف إلى جانبكم وسوف تنتشر الحرب وتمتد خلال الإقليم كله ويمكن أن تستمر لأعوام. نحن لا نريد حدوث ذلك. ربما نكون قوة صغيرة لكننا أقوياء ولدينا الحق إلى جانبنا. نحن على ثقة من الانتصار. سوف نذكر بالكثير من العرفان على الدوام أنكم عرضتم علينا هذا العرض العظيم من الصداقة."

"حسن جداً" هزَّ الشيخ رأسه بالموافقة على كلمات تيمور "نتمنى لكم حظاً سعيداً في قتالكم. يبدو أنكم أبليتم بلاءً حسناً هذا اليوم. هل عثرتم على الأطفال المفقودين؟"

"كلا، لا بد وأنهم أخذوهم إلى الجنوب مع النساء، لكننا لن نستريح إلا بعد أن نستردهم."

أعطى الشيخ إشارة إلى الرجال المحيطين به فتفرقوا ليسمحوا للمقاتلين الشركس المرهقين بالعبور من خلالهم والعودة إلى بيوتهم لقضاء الليل.

عند عودتهم إلى أمان بيوتهم، بدأوا بتضميد جراح المصابين، بحثوا وحللوا أعمال يومهم وخططوا لما ينبغي عمله بعد ذلك. ظل والدا الطفلين الغائبين صاحيين بأعين محدقة على اتساعها. الأب يخطو في بيت تيمور جيئة وذهاباً، والأم جالسة في الزاوية تعصر يديها في يأس، تحاول أن تمنع عقلها من تخيل ما يمكن أن يكون البدو قد فعلوه بطفليها.

أسرج الشركس جيادهم في اليوم التالي مرة أخرى قبل الفجر وهاجموا البدو مع أول خيوط الضوء. جاء القتال في مثل شراسة قتال اليوم السابق وفي مثل قصر مدته. بعد أن قدم البدو دفاعاً أولياً نشطاً، فروا عدواً بخيلهم باتجاه الصحراء في الجنوب، تاركين للشركس أن يأخذوا كل ما يختارونه من الغنائم من المخيم المهجور.

في تلك الليلة، وبعد أن اختفى الشركس عائدين إلى عمان، عقد شيوخ كافة القبائل المقاتلة اجتماعاً في خيمة واحدة للتباحث. كان واحد أو اثنين منهم متحمسين للاستمرار في القتال حتى اللحظة الأخيرة ولكن الحالة النفسية بدأت تتبدل بين الأغلبية.

قال أحد الشيوخ "هؤلاء أناس بهم مَسٌّ، سوف يستمرون في القتل حتى ينالوا ما يريدونه. ليس لنا ما نكسبه في الاستمرار بهذه الحرب بل سنخسر كل شيء. ربما ينضم إليهم بنو صخر في نهاية المطاف."

جادله آخر "لا يمكنهم أن يستمروا بهذا الزخم إلى الأبد، مؤكد أنه لم يعد هناك أكثر من مئة رجل مقاتل في عمان كلها، وهم لا يستنجدون بأي حلفاء من بني صخر. سوف نهزمهم في النهاية بقوة الأعداد المتفوقة."

وهكذا تقرر أنهم سيكونوا مستعدين للهجوم في اليوم التالي ووضعت خطة لكيفية استخدام القوة المتمثلة في أعدادهم لمحو الشركس عن وجه الصحراء مرة واحدة وإلى الأبد. لكن الشركس، وقد ارتفعت معنوياتهم من نجاحات اليومين السابقين، حضروا بأعداد ومعنويات أكبر من ذي قبل. كان العديد من مقاتلي البجادوغ والشابسوغ قد انضموا إلى صفوفهم كما جاء المزيد من جرش. وصل عددهم في هذه اللحظة إلى أكثر من ثلاثمئة خيال، وكلهم مقاتلين متمرسين وذوي خبرة من حروب عديدة ضد روسيا أو في بلاد البلقان.

بعد ساعتين من الاشتباكات العنيفة الدامية، والتي سقط فيها إلى الأرض من البدو أكثر بكثير مما سقط من الشركس، اختفى البدو لائذين بالمنحدرات الصحراوية، تاركين مخيمهم مفتوحاً مرة أخرى للمهاجمين ليفعلوا ما يشاؤون.

بينما كان تيمور والوجهاء الآخرون يتجولون بين الخيام باحثين عن أي شيء لم يحملوه من قبل، مما يمكن أن يكون ذا

فائدة، صاح أحد الكشافة بالإنذار. ركض تيمور إلى خارج الخيمة وشاهد الشيوخ ينزلون عن المنحدرات المحيطة بهم، أثوابهم البيضاء تتلاعب بها الأنسام، محاطين بعدد صغير من الحراس الشخصيين. بات واضحاً من خطواتهم البطيئة أنهم قادمون في سلام، وليس بقصد الهجوم. انتظر تيمور وباقي الوجهاء وصولهم بينما سحب الرجال الآخرون سيوفهم وتحلقوا في الصفوف الخلفية، حذرين من أن تكون هناك خديعة ما يخطط لها.

عند اقترابهم أكثر، أطلق والد الطفلين الغائبين أنة عاطفية خفيضة ورأى الآخرون ما كان قد رآه، لفتين صغيرتين يحملهما الرجال فوق الأرض الوعرة. عند دنوهم أصبح بالإمكان رؤية وجهي الطفلين وعرف الجميع أنهما لم يتعرضا لأي أذى. وقف والدهما ساكناً كالصخرة، يجاهد في مقاومة الإغراء في أن ينطلق راكضاً عبر الفسحة الصغيرة المتبقية بين الجمعين ويحتوي الطفلين بين ذراعيه.

أعلن أكبر الشيوخ مقاماً "إننا قادمون للتحدث في شأن السلام، ليس هناك أي مغزى لهذا القتل. أنتم الشركس مقاتلون جيدون ونحن نحترم ذلك. نحن نريد أن نتوصل إلى طريقة نتعايش بموجبها في سلام. إن أخانا الذي أطلق عليه أحد أبناء قومكم الرصاص يتعافى. لم تعد هناك جريمة تستوجب العقاب. إننا نعيد طفليكم إليكم، وهما سالمان كما يمكنكم أن تروا."

خطا تيمور إلى الأمام بصحبة الأب وتناولا الطفلين من بين أذرع البدو. انسابت الدموع على وجه الأب وسمع تيمور صوته شخصياً يتكسر أثناء محاولته التكلم.

"إننا بحاجة إلى تدوين هذه النية الطيبة الجديدة كتابة." أعلن على الملأ، موجهاً كلامه إلى الوجهاء وكبار السن على الجانبين في الوقت نفسه. "نحن لا نريد لهذا الأمر أن يحدث مرة أخرى. إننا راغبون في أن نتعهد خطياً بأن لبني الهدب الحق في سقاية

مواشيهم من رأس العين مقابل حقوقنا غير المتنازع عليها في أراضينا، وهي الأراضي الممنوحة من قبل السلطات العثمانية، وكذلك حقوقنا في المواقع المائية."

هز الشيخ رأسه "نوافق على هذا الأمر، إذا قمت بتجهيز وثائق المعاهدة، يا تيمور، فسوف نلتقي مرة ثانية في غضون أسبوع لتوقيعها."

طرد الشركس خيلهم عائدين إلى عمان في ذلك النهار، بمعنويات محلقة في الأجواء. انتهت أيام القتال الثلاثة، التي أصبحت تعرف فيما بعد بحرب البلقاوية وتولد أمل وطيد بأن حوادث القتل العشوائي القاسي ستنتهي. عاد الطفلان إلى بيتهما سالمين، أما الحرب الشاملة، والتي طالما خشي تيمور اندلاعها، فلم تتحقق.

***

الفصل الثامن

تركيا

تحدث الرجال الذين أخذوا حميد بعيداً عن عائلته إلى بعضهم بعضاً باللغة التركية وتجاهلوه. تركوه لأفكاره الخاصة الحزينة لأنه لم يكن يفهم معظم ما يقولونه. حاول أن يقول لنفسه أنه يفترض فيه أن ينظر إلى الأشهر القلية القادمة على أنها مغامرة، تجربة سوف تعلمه أشياء عن الحياة التي لم يتخيلها مطلقاً أثناء عمله مع جياد أبيه. ستجعله التجربة الجديدة مستقلاً وتساعده على بناء حياة خاصة به.

على أية حال، لم يلامس هذا التحليل المنطقي عقدة التعاسة التي تشتد ويزداد ضغطها على معدته. فقد كان يحن إلى عائلته والدفء والراحة التي يحسها عندما يعود إلى البيت بعد عمل يوم شاق مع الجياد. أخذ أيضاً يحن إلى الحيوانات، وإلى الشعور الطيب الذي يحسه كل يوم وهو يراقبها تنمو وتتحسن ويعرف أن ذلك مرده جزئياً إلى جهوده ومهاراته. ربما، كان يعتقد، أن الجيش سيعهد إليه بمهمة مع الجياد، لمعرفته بخبراته السابقة.

بدا معسكر الجيش الذي سيتم تدريبه فيه أشبه شيء بالسجن. إذ كانت الأسيجة العالية تحيط بتشكيلة الأكواخ، التي أقيمت في منطقة قاحلة موحشة من الريف في جنوب البلاد حيث يمكن إدامة الرقابة إلى مسافة عدة أميال في كل اتجاه. في الداخل، كانت الأكواخ قفراء تماماً كما هي في الخارج، إذ يحيا المجندون على أقل الأساسيات. أعطي حميد زياً وأرشد إلى كوخه.

استدارت كل الوجوه لتنظر إليه عند دخوله. هزّ رأسه بتحية صامتة إلى الغرفة بشكل عام وخاطبه أحدهم باللغة التركية. نفض كتفيه وردّ بواحدة من العبارات القليلة التي يتقنها. عاد بقية الشباب

إلى شؤونهم وتركوه بحاله، جالساً على زاوية فرشة وسخة رقيقة، ينتظر أي شيء سيحدث لاحقاً.

ما حدث لاحقاً هو أن الرقيب اندفع إلى داخل الغرفة، وهو رجل ضئيل الجسم، يشع وجهه باللؤم وتتزل على جانب وجهه بالكامل ندبة جرح بشعة. لم يكن جسمه يحتوي على ذرة من الشحم، مجرد عضلات معقودة وملتفة كأنها جذور شجرة عتيقة. أسنانه مصفرة لكثرة تناوله القهوة وتدخينه السجائر وكان من الممكن تشمم رائحته رغم كل الروائح البشعة التي تملأ المهجع.

لم يتمكن حميد من فهم ما يزعق الرجل ويصرخ به لكن باقي المجندين كانوا يتقافزون وقوفاً ويقفون في حالة انتباه متصلبة، وقد امتلأت عيونهم بالخوف، وهكذا قام وعمل مثلهم. اتخذ الرقيب طريقه إلى حيث وقف حميد واقترب منه إلى درجة جعلت كل عضلة في جسم الفتى الشاب تسعى إلى التحرك بعيداً عنه بدون قصد منه. صرخ الرجل بالأوامر في وجه حميد، لكنه لم يفهمها ولذلك بقي واقفاً بلا حراك. وجَّه الرقيب لكمة إلى معدته، جعلته ينطوي فوق فراشه، وألقى بزيه الذي ما زال مطوياً، فوقه. فهم حميد أنه يفترض فيه أن يبدل ثيابه. وقف الرقيب فوقه، ساخراً منه بينما هو يخلع ثيابه ويرتدي الثياب الخشنة، وهو يرتجف بمزيج من الخوف والغضب على الإذلال. لم يحرك أي من المجندين عضلة في جسمه حتى أكمل حميد تبديل ملابسه: زعق الرقيب مطلقاً بضعة أوامر أخرى وغادرهم ليعودوا إلى ما كانوا يفعلونه. تبادل بعضهم نظرات تعاطف مع حميد لكنهم بعد ذلك تركوه لشأنه مرة أخرى جالساً على فراشه، ينتظر أي شيء يمكن أن يحدث فيما بعد.

استمرت احتفالية الإذلال كل يوم. كان الرقيب يستمتع بسلطته على جميع الفتيان الصغار، لكنه كان يشعر بسرور خاص في إذلال حميد. ربما يعود الأمر إلى أن شخصاً ما أخبره بوجود ابن رجل ثري في فصيله، صبي ظل يعتقد أنه لن يضطر إلى التعرض لمثل

هذه الإهانات وكان لذلك مدفوعاً بنوع من الكراهية لمن هم أفضل منه. لكن الأكثر احتمالاً هو أنه ببساطة رجل يستأسد ويجب أن يبحث عن الضحايا الأضعف والأكثر تعرضاً للأذى.

تحسنت معرفة حميد باللغة التركية يوماً بعد يوم بما يكفيه لأن يجري محادثات قصيرة مع زملائه المجندين، بحيث أمكنه إفهامهم بعض جمله الأساسية. لكنه كثيراً ما كان يضطر إلى التخلي عن الصراع غير المتكافئ لفهم ما يقولونه فيكتفي بنفض كتفيه والعودة إلى عالمه الموحش من عدم الفهم. كانوا بشكل عام يتركونه بحاله، مدركين أنه إذا شاهدهم الرقيب وهم يدعمونه، فإنهم يخاطرون بجذب انتباهه إلى أشخاصهم.

كان الرقيب يعمد إلى ضرب المجندين وركلهم بلا رحمة تحت ستار تقوية الشباب ليتمكنوا من خدمة الإمبراطورية العثمانية العظمى، ويجعلهم ينفذون المهمات شبه المستحيلة، والتي كان يحضرها لهم بنفسه. كانوا يكرهونه عن آخرهم لكنهم كانوا يعرفون أن إظهار أي نوع من انعدام الاحترام للسلطة يمكن أن يؤدي إلى إعدامهم رمياً بالرصاص بدون أي تحقيق يذكر.

مع توالي الأسابيع وجد حميد أن انتباه الرجل يتركز بشكل متشدد عليه هو. أصبح الأمر يظهر وكأن الرقيب يطور كراهية شخصية للصبي، قوية إلى درجة أنه لم يعد يتمكن من السيطرة على نفسه. عندما يكونون وسط إجراء تدريبي وترتب عليه أن يركض ماراً بالرجل، فإن حميد كان واثقاً من أنه سيتلقى ركلة أو لكمة تحثه على الإسراع أكثر. تلقى المجندون الآخرون نفس النوع من المعاملة ولكن لا أحد كان يتلقى الضرب بتلك القسوة وذلك الإصرار.

أصبح جسمه مغطى بالجروح والكدمات. عندما كانوا يعاقبون بإعطائهم تمارين إضافية، فهو الذي يجبر على الاستمرار لنصف ساعة أطول من أي أحد آخر، حتى تصرخ عضلاته من شدة الألم.

الفائدة الوحيدة من هذه المعاملة الوحشية، والتي كان بوسع الرقيب أن يتعلل بها كتبرير لو امتلك أي من رؤسائه ما يكفي من التهور ليسأل عن السبب في قسوته على رجاله إلى هذه الدرجة، هي أنه يحولهم إلى آلات مقاتلة. صقلت القوة والقدرة على التحمل، التي حصل عليها حميد وهو بعد صبي يعمل مع إخوته، من خلال الألم إلى عنصر مختلف شديد البأس. فقد أصبح سريعاً حتى يتجنب ضربات الرجل وتصلب جسمه من التدريب. قوي قلبه ورئتاه إلى درجة أنهما أصبحا قادرين على حمله إلى مسافات أبعد من أي شخص آخر في الفصيل، وبسرعة أكبر.

كان بوسع الجنود الآخرين أن يروا أنه يحصل على معاملة أسوأ منهم كلهم واحترموا الطريقة التي يتعامل بها مع الإذلال والعقاب المستمرين بكرامة وعزة نفس. كان كثيراً ما يفقد الثواني الحيوية وهو يحاول أن يحلل الأوامر أو يسيء فهمها كلياً لأن فهمه للغة التركية ما زال مقصوراً على الأساسيات، فيطيع الآخرون الأوامر وينفذونها تلقائياً بينما يبقى هو واقفاً وكأنه جندي مهمل أو غير مطيع. لم يترك الرقيب هذه الحوادث تمر بدون سخرية وعقاب. ومع أن الزملاء تعاطفوا مع حميد، إلا أن أحداً منهم لم يرغب في التكلم دفاعاً عنه ويخاطر بالحلول محله تحت أنظار الرقيب.

بعد التحاق حميد بالجيش بثلاثة أشهر، خيَّم الشتاء على المعسكر فتحولت المهاجع البدائية إلى ما يقارب التجمُّد في الداخل لكونها مقامة على ميادين الاستعراض المكشوفة. صباح أحد الأيام حضر الرقيب في مزاج نفسي إنتقامي بشكل خاص وكان المجندون بدورهم في مزاج سيء لما عانوه من صعوبة في النوم من قسوة البرد المقرونة بقلة البطانيات. أطلق الرقيب أمراً ما وكالعادة، كان حميد الأبطأ في الاستجابة. وقف الرقيب خلف الفتى وقد توقع حدوث ذلك مسبقاً، فركله في مؤخرته بعنف، فأسقطه على وجهه مفتوح الذراعين والساقين فوق الأرض الصلدة المتجمدة، مما تسبب،

في كشط الجلد عن خده ويديه. أطلق الرقيب ضحكة ساخرة حين سقط حميد، لكنه تراجع بضع خطوات حين قفز الشاب واقفاً على رجليه وهجم عليه، عيناه تقدحان بشرر الغضب.

لاحظ اثنان من المجندين الآخرين أن صديقهما قد فقد سيطرته المعهودة على نفسه وأمسكاه من ذراعيه، ومنعاه من الحركة.

بمجرد أن استطاع الرقيب أن يرى أن حميداً مقيد بأمان، تقدم إلى الأمام مرة أخرى ودفع بوجهه في وجه الشاب، وزعق فيه "لا تحاول، أبداً، أن تفكر في مجرد لمسي، أيها الحثالة!" ووجه لكمة إلى معدة حميد، ففوجئ بدرجة الصلابة وقوة العضلات التي أصبحت معدته عليها، وبعدها،ن بينما كان ضحيته يسترد أنفاسه، أمرهم جميعاً بالعودة إلى مواقعهم السابقة.

استمر في الصراخ والزعيق على حميد للدقائق العشر التالية، بينما ظل وجهه القبيح يحفر في دماغ الفتى، ويدمر أعصابه. حاول حميد أن يقصيه عن تفكيره لكن جهوده تلك تسببت في تباطؤ ردود فعله تجاه الأوامر أكثر فأكثر وزادت في غضب الرقيب. عندما أمر الشباب بالهرولة حول ميدان الاستعراض، مدَّ الرقيب ساقه بطريقة متعمدة أمام حميد وعرقله. تعثر حميد، حاول أن يعيد الوقوف وفشل، فوقع على ردفيه في سقطة مؤلمة لكن منظرها مضحك. ضحك المجندون الآخرون، في ردة فعل عصبية من العرض العبيط وشجعهم الرقيب على الضحك. منحنياً فوق حميد المنبطح ومطلقاً عبارات الاستفزاز.

لم يدرك أحد من المجندين أن أعصاب حميد قد خرجت عن نطاق السيطرة في هذه المرة، لأنه نهض واقفاً ببطء متعمد، بحيث لم يتقدم أحد لتقييده بينما هو ينفض الغبار عن نفسه، منتظراً أن يتقدم الرقيب منه ويبدأ بالزعيق في وجهه مرة أخرى.

بمجرد أن أصبح الرجل في مدى الإصابة، رفع حميد قدمه المرتدية حذاءً عسكرياً ثقيلاً باتجاه حنية الرجل، بين ملتقى فخذيه

بجماع القوة التي تمكن من استحضارها. لقد قرر أن يدافع عن نفسه وعرف أن لا فائدة ترجى من قتاله ما لم يضرب بشدة ويمضي في المهمة حتى منتهاها ويكسب احترام الرجل مرة واحدة وإلى الأبد.

انطوى الرقيب على نفسه، وقد امتقع وجهه وتميز لشدة الألم بصرخة صامتة، رفع حميد حذاءه مرة أخرى نحو أسفل ذقن الرقيب بقوة مماثلة. سمع لضربته سوت تكسير مريع وارتفع جسم الرقيب بكامله عن الأرض أثناء اندفاعه إلى الخلف في الهواء وسقوطه على الأرض، اصطدم رأسه بصخرة صدمة عنيفة وتدحرج بلا سيطرة بحركة جانبية. تسمر الفتية في مواقعهم، يحدقون في جسد معذبهم الملقى بلا حراك، وقد أذهلتهم القوة والشراسة التي هاجم بها حميد.

بعد مرور ما بدا وكأنه دهر من الصمت، تقدم أحد الأولاد وركع إلى جانب الجسد، محاولاً أن يتحسس باحثاً عن نبض ما. عرف الجميع أن لا فائدة ترجى من هذا المسعى. بحث الشاب وقتاً طويلاً قبل أن يستسلم، ثم استدار وهو يهز رأسه. شعر حميد وكأن الدماء تتصفى من جسمه بالكامل. لم يقصد مطلقاً أن يقتل الرجل، بل كان يقصد مجرد ضربه. نظر حواليه إلى الآخرين، فتح فمه ليحاول أن يشرح أن الأمر برمته حادث غير مقصود لكنهم جميعاً ابتعدوا عنه بشكل غريزي.

قال له الفتى الذي بحث عن النبض "أنت رجل بحكم الميت، سوف يشنقونك على هذه الفعلة."

انضم آخر إلى الحديث "إسمع أيها الشركسي" رافعاً صوته حتى يتأكد من أن كلامه مفهوم "إذا بقيت هنا فأنت ميت لا محالة، أما إذا هربت فعلى الأقل ستكون لديك فرصة للنجاة."

استوعب حميد الكلمات وترجمها في عقله. وافق. لأن السلطات سوف تضطر حتماً إلى شنقه لقتله ضابطاً أعلى منه رتبة.

بدأ دماغه يتعافى ويستيقظ من الصدمة فتلفت حواليه بسرعة. لم يكن هناك أي شخص آخر في ميدان الاستعراض وكانت هناك بضعة جياد مسرجة خلف المهاجع تنتظر أن يتم ركوبها. هزَّ رأسه مودعاً زملاءه السابقين، الذين لم يرد عليه أحد منهم، وركض عابراً الميدان. أجفلت الجياد ورفعت قوائمها الأمامية، وقد أخافتها سرعة حركاته، لكنه استطاع أن يقبض على أعنة أحدها وألقى بنفسه في السرج. بقي أفراد فصيلة واقفين، متسمرين في مكانهم، يراقبون الشركسي الشاب وهو يركب عدواً بأقصى سرعة خارجاً من المعسكر، متجاهلاً صرخات الحراس الواقفين عند البوابات التي تركت مفتوحة، في تكاسل واضح.

كانت الحالة المتدنية للروح المعنوية للمجندين في معسكر التدريب مجرد ظاهرة صغيرة واحدة للمرض الذي بدأ بحلول ذلك الوقت ينتشر في أرجاء الإمبراطورية العثمانية كلها. أخيراً، بدأ السلطان يدرك أنه يفقد السيطرة تدريجياً. لأن جيوب الثورة بدأت تظهر في كل مكان، رغم بقاء قدر قليل من التنسيق المركزي بينها. عندما أرسل السلطان لجنة تحقيق إلى سالونيك، قامت لجنة الاتحاد والترقي بإطلاق النار على رئيسها وإصابته بجراح واضطرت اللجنة التالية إلى اللجوء للرشوة والمصالحة حتى تحظى بمجرد فرصة لعقد جلسة استماع.

تعاظمت الضغوط واشتدت وتوسعت إلى درجة أن السلطان اضطر إلى الموافقة على إعادة العمل بالدستور إذا لم يرغب في إزاحته عن العرش. احتفلت الإمبراطورية من أقصاها إلى أدناها يوم أعلن السلطان نواياه، ومزقت النساء حجبهن وعانق رجال الدين من الأديان المختلفة بعضهم بعضاً في الشوارع. جرى إطلاق سراح السجناء السياسيين بالمئات وأخذ الناس يهتفون بكلمة "ديمقراطية" في زوايا الشوارع بدلاً من أن يهمس بها خلف الأبواب الموصدة وجاءت "اللجنة" لاستلام السلطة.

عاد مصطفى كمال من دمشق وأصيب بالإحباط عندما وجد نفسه في الصف الثاني خلف أسماء ثورية مثل أنور ونيازي، وهم الذين أخذ العالم يسميهم "الأتراك الشباب"، والذين في الواقع لا يشاركونه إلا في القليل من آرائه حول الطريق إلى تقدم تركيا.

"هكذا إذن" قال لبرهان بمرارة بينما هما جالسين يحتسيان القهوة في "البرج الأبيض"، وهو مقهى افتتح حديثاً في سالونيك. "لقد أجبروا عبد الحميد على الانصياع، لكنهم برغم كل ذلك ما زالوا يعتبرون محافظين. إنهم يريدون أن يحسّنوا الأوضاع لكنهم لا يريدون تغييرها."

علّق برهان "لن يتغير إلا النزر اليسير، وبمرور الوقت، سيتراجع السلطان عن قراراته ويعكسها، كما فعل من قبل".

أضاف كمال "هؤلاء الناس ليست لديهم أيدلوجية حقيقية" بينما هو يرشف قهوته الحلوة. "إنهم لا يفهمون المشاكل التي تعانيها الإمبراطورية، مما يجعل معالجتها أمراً مستحيلاً. يريدون أن يحتفظوا بتماسك الإمبراطورية: ولا يدركون أن الناس لم تعد تريد ذلك. كل الأمم تريد أن تكون مستقلة، وهذا أمر بديهي واضح، سوف تتهاوى الإمبراطورية تحت حكم اللجنة بوقت أسرع من ذي قبل." أثبتت توقعاته دقتها. فقد أعلنت بلغاريا استقلالها خلال ثلاثة أشهر، وقامت النمسا بضم مقاطعات البوسنة والهرسك التركية، كما صوتت جزيرة كريت للانضمام إلى اليونان.

صار برهان وضباط آخرين يلتقون بكمال كل ليلة، يجلسون إلى الطاولات التي بدأت تنتشر إلى خارج المقاهي مثل "أوليمبوس" و"كريستال" وتملأ شوارع سالونيك، مزدحمة بالناس رغم ضجيج البائعين وروائح مبيعاتهم. يتحدثون بلا توقف أثناء لعبهم "الضامة" وطاولة النرد، يخرجون مكنونات صدورهم وإحباطاتهم التي ظلت تتعاظم طيلة حياتهم في فيضان مكشوف.

مهما تعاظم ضجيج الشوارع ولغط الأحاديث: يظل صوت كمال هو الأعلى، مسيطراً على كل من حوله، منتقداً اللجنة التي تحكم البلاد الآن، بدون توقف. طفق يتساءل ويطالب أن يعرف "لماذا نحتاج إلى لجنة على الإطلاق، خاصة وأن الثورة قد قامت؟"

لم تستطع اللجنة أن تمتنع عن سماع انتقاداته لأنه لم يقم بأي جهد لإبقائها طي الكتمان وأدركت اللجنة أنه يشكل خطراً على سلطتهم. فالناس يستمعون إلى كمال ويتعاملون مع أفكاره بمنتهى الجدية: وعليه فالحاجة ملحة إلى إبعاده عن سالونيك. عقدت اللجنة اجتماعاً بدون حضوره وقررت أن ترسله في مهمة إلى مكان لا يستطيع فيه أن يسبب أي أذى. استقر رأيهم على طرابلس في شمال إفريقيا حيث الوالي المحلي والباشا ما زالا يؤيدان العهد القديم وبحاجة إلى التحول.

أخبر كمال صديقه برهان بأسى عندما سمع بالخبر "إنهم يرسلونني إلى قبري السياسي."

سأله برهان "فهل ستذهب؟"

قال "أعتقد أنه تّحدٍ يفترض فيّ قبوله، إذا كان قدري أن أقبر سياسياً، فليكن، أما إذا كان قدري مختلفاً فإنني سأتمكن من العمل في سبيله هناك مثل أي مكان آخر."

أعلن برهان "في هذه الحالة سأذهب معك، وسوف نقبر سوية، هذا إذا لم يكن لديك مانع في وجود شركسي كرفيق لك."

وضع كمال ذراعه حول كتفي صديقه "أنت صديق مخلص" قال ذلك، وأعتقد برهان للحظة أنه لمح الدموع تلتمع في عيني كمال الزرقاوين. "عندما ينتهي هذا الأمر لن يعود للامتيازات والفروقات وجود في بلادنا. سنكون جميعاً أتراكاً وفخورين بذلك الانتساب."

توقفت السفينة التي أقلتهما في صقلية أثناء طريقها. قال كمال بينما كان الرجلان متكئين على حاجز السفينة، يحدقان إلى الأسفل في الجلبة والحركة على الأرصفة "إن باقي الركاب ينزلون للقيام بجولة استكشاف. فهل نذهب لنرى إن كان بالإمكان العثور على عربة والانضمام إليهم لبضع ساعات؟"

قال برهان "سيعجبني ذلك" ونزل كلاهما من على سلم السفينة الخشبي. أثناء سيرهم إلى جانب الرصيف، أخذ حشد من الشحاذين والمشردين يتجمع حولهما، مستعطين وعارضين تشكيلة من الخدمات باصوات حادة مرتفعة. مع تزايد أعدادهم تغيرت نبرتهم إلى السخرية وبدأوا يرمون قطعاً من القمامة على الرجلين في محاولة لإسقاط الطربوشين عن رأسيهما. أخذا يسيران بخطى أسرع ملاحقين من جمهرة الأطفال، الذين يصرخون بالشتائم، وتدريجياً بدأت الأصوات الغاضبة تتداخل وتصل إلى سمعهما من خلال الضحكات.

في اللحظة التي كان الضابطان يفكران فيها بضرورة العودة إلى السفينة قبل أن ينالهما شيء من العنف الحقيقي، تجاوزا زاوية وإذا بهما أمام عربة خيل. صعدا إليها ممتلئين بشعور من الانفراج، وأمرا السائق المذعور أن يسرع مبتعداً بهما. ركض الأطفال إلى جانب العربة للشوارع القليلة الأولى، مرددين الإهانات المنغمة ومتجنبين سوط السائق، لكن سرعان ما سبقهم الجواد وتخلفوا على الرصيف، يضحكون ويطلقون الصرخات على ضحيتهم الهاربة.

قال برهان مغضباً "يجب أن يلقنوا درساً" بينما الأدرينالين ما زال يجري في عروقه، "متسولو الشوارع يهينون الضباط الأتراك بتلك الطريقة."

قال كمال متفكراً "كلا" وقد نزع طربوشه، محدقاً فيه بصمت للحظة "إنها هذه الأشياء السخيفة. إنني أكرهها، فهي مؤشر على كل ما هو فاسد عفى عليه الزمن في الإمبراطورية." ألقى بالطاقية

خارج الشباك فتقافزت على حجارة الرصيف حتى استقرت في المجاري. أصيب برهان بصدمة وخلع الطربوش عن رأسه بسرعة لئلا يخطفه صديقه عن رأسه ويتخلص منه بنفس الطريقة. جلس صامتاً لبضع لحظات وهو يقيم كلمات كمال ثم ألقى بالطربوش خارج الشباك بنفسه.

ثم قال "أنت محق، كالعهد بك دوماً."

"أعرف"، وابتسم كمال كاشفاً عن بريق أسنانه البيضاء.

عندما رست السفينة في طرابلس الغرب، اكتشف كمال بسرعة أن العرب لا يكنون أي احترام لسلطة اللجنة. "سوف نضطر إلى العمل على استمالة الباشا إلى القضية." قال لبرهان بينما هما ماضيين إلى مقابلتهما الأولى مع المسؤول الأعلى رتبة الذي يمثل الإمبراطورية في البلاد. استخدم كل مهاراته الدبلوماسية أثناء شرب القهوة، ممزوجة ببعض التهديدات المغلفة ببراعة لشرح قضية الحكومة الجديدة. ما كان أحد ليفطن إلى درجة الاحتقار التي كان ينظر إليهما بها.

قال له الباشا وهما على وشك الاستئذان بالمغادرة "يا صديقي، يوجد العديد من الناس هنا في طرابلس ممن يحبون أن يروك ميتاً."

ضحك كمال قائلاً "لا أشك في ذلك."

لم يبتسم الباشا "إنني جاد فيما أقوله. إن العرب يخططون للقبض عليك، وأنا أعتقد أن فرصك في النجاة بحياتك ستكون ضئيلة إذا نجحوا في سعيهم. يجب أن تسمح لنا بأن نعرض عليك الحماية وأن تبقى معي هنا حتى تعود إلى الوطن."

استعلم كمال "وأين هو مركز هؤلاء الناس؟"

"لقد أسسوا مقر قيادتهم في منطقة الجامع."

أصيب برهان بالذعر بينما هو يهم بركوب العربة إذ سمع كمال يصدر تعليماته إلى السائق بأخذهما إلى الجامع. "هل أنت ذاهب إلى عرين الأسد؟" سأله بعصبية.

قال كمال "بكل تأكيد".

"إن الباشا يعتقد بوجود خطر على حياتك من هؤلاء الناس"

"أنا لا أتفق مع أي من آراء الباشا الأخرى، فلماذا يفترض فيّ أن أعتقد أنه مصيب في هذا الرأي بالتحديد؟"

عندما وصلا إلى وجهتهما، خطا كمال إلى الساحة الداخلية، متبوعاً ببرهان على بعد بضع خطوات خلفه، ووجد قادة الثوار المندهشين جالسين، يتحدثون. عرفهم على نفسه وانطلق في تقديم الوعود بأنه سيستمع إلى كل مطالبهم وأن يقدم أفضل جهوده لتصحيح مظالمهم. شعر أن كلماته تلقى الدعم والتأييد، فرفع من صوته ليشمل الجمهور الفضولي الذي بدأ يتجمع حولهما. بقي برهان يحدق أمامه بشكل مستقيم، حريصاً على أن لا تلتقي عيناه بعيني أحد. لم يكد يجرؤ على التنفس بينما استمر صديقه في إلقاء خطاب وطني طويل، محيياً الجمهور على أنهم "إخوته في الدين" وشارحاً قوة العهد الجديد وكيف يمكن توظيفه لمنفعتهم وحمايتهم. بدأت همهمة من الموافقة ترتفع من بين المستمعين وأخذ برهان يشعر بأنه سيكون آمناً إذا عاد إلى التنفس بحرية مرة أخرى.

مع عودتهما إلى مقر إقامتهما، كانت أنباء خطاب كمال العلني وإعلانه قد وصلت إلى الباشا. أرسل في طلبهما. كان رجلاً طاعناً في السن، وقد رأى العديد من الضباط الطموحين صغار السن يمرون قبلاً لطرابلس ولم يكن في نيته أن يسمح لنفسه بأن يتأثر بسهولة بالفصاحة كما حدث للحشد في الجامع.

سأل بمجرد دخولهما الغرفة التي كان يجلس فيها مع مستشاريه "من أنت؟ وما هي سلطتك؟"

كان كمال حاضراً له وأخرج شروط توصيات اللجنة به من جيبه، وقال بثقة "أعتقد أن هذه الوثائق سوف تشرح كل شيء."

مرر الباشا بصره على الوثيقة للحظة ثم أطلق نوبة من الضحك، وهو يوزع نظره على مستشاريه الذين شكلوا صدى لاستمتاعه. أخرج من جيبه ثلاث قطع من الورق مماثلة تماماً لما يحمله. "هذه هي الأوراق التي قدمها لي كل واحد من الثلاثة الذي سبقوك" قال "والذين ألقيت بهم في السجن لحظة وصولهم إلى طرابلس."

أحسّ برهان برعدة تسري في أوصاله لمجرد فكرة أن يتم سوقهما إلى زنزانة. لم يظهر كمال أي مؤشر على القلق "احتفظ بالورقة" قال للشيخ وهو ينفض كتفيه، "مزقها إلى نتف إذا أحببت. أنا رجل لا يحتاج إلى أية أوراق، أنا رجل قادم للتحدث إليك بدون أية أوراق على الإطلاق." ابتسم الشيخ وأشار إلى مستشاريه بالابتعاد. وقال "في هذه الحالة أستطيع أن أتحدث إليك."

أصبح كمال منذ هذه اللحظة في طريقه إلى مهمة ناجحة وسرعان ما سيعود إلى سالونيك.

***

الفصل التاسع

القفقاس

عندما رفض المسؤولون في مدرسة السكك الحديدية طلب بيطال الانضمام إليها، شعر بحدة باليأس الذي يشارك به الأغلبية العظمى من الناس الذين يعيشون في الإمبراطورية الروسية.

فقد بدت حياته فجأة بلا أمل. شعر بأنه لا يمتلك القوة ليفعل أي شيء ليحسن من وضعه بدون اللجوء إلى العنف أو الجريمة. كانت الوسيلة الوحيدة هي الثورة. رأى ذلك بوضوح، وكأنما هو مكتوب على السماء بحروف يبلغ ارتفاع الواحد منها مئة قدم. إذا كانت أقلية الناس تمتلك السلطة المطلقة على أرواح وحياة الأغلبية، وإذا كانت تلك الأقلية غير مهتمة فيما إذا هلكت الأغلبية جوعاً أم لا: وقتها يحين الزمن الذي تمسك فيه الأغلبية بأعنة السلطة وتتأكد من أن المجتمع أصبح منصفاً وعادلاً في منح الفرص.

أصبح يتكلم عنها بدون انقطاع، كما كان الرجال حوله يفعلون، مطورين أفكارهم، مخططين غاراتهم ضد ملاّك الأراضي المحليين، حالمين بالكيفية التي ستتغير فيها الأمور بمجرد وصول الثورة وحدوثها في نهاية المطاف.

كانوا يسافرون لعدة أيام بعيداً عن القرية في بعض الأحيان، يعثرون على الطعام حيثما استطاعوا على الطريق، باحثين عن أهداف محتملة لحماسهم. أفضل الأهداف هي التي كانت تشرف عليها الأحراش أو الجبال حيث يمكنهم الاختباء ومراقبة تحركات المالكين في مجيئهم وذهابهم، مقيمِّين قوتهم وعدد الأسلحة التي يمتلكونها، ويتعرفون على برامج أعمال أهل البيت قبل أن يختاروا اللحظة الملائمة للهجوم. يكون ذلك في العادة بعد هبوط الظلام، حيث يمكنهم الاحتفاظ بعنصر المفاجأة إلى اللحظة الأخيرة.

إذا لم تقم العائلة بأي عمل لمقاومتهم، فقد كانوا يكتفون ببث الرعب في نفوس أفرادها، ويجبروها على الاستماع إلى محاضرات بيطال حول شرورهم وعلى توفير أكبر كمية من الطعام يمكنهم تقديمها إلى الثوريين، بقدر ما يستطيعون تناوله ويهربون تحت جنح الظلام بعد أن يحرقوا المباني.

ولكن، على أية حال، إذا حاول أي شخص أن يستخدم القوة للمقاومة فقد كان يقتل. حتى تلك اللحظة، لم يفقد بيطال إلا رجلاً واحداً، وهو ابن عم له كان قد توسل إليه لأن يسمح له بالانضمام إلى المجموعة المغيرة. كان قد بالغ في الثقة بنفسه وكشف عن وجوده تحت الضوء قبل أن يتأكد مما إذا كان هناك أي فرد في العائلة يحمل سلاحاً.

تلقى الرجل الذي أطلق الرصاصة القاتلة الضرب حتى الموت بعد دقائق، لكن بيطال أبقى على حياة بقية العائلة، معتقداً أن رؤية رب عائلتهم يعاقب لمثل هذا العمل المضاد للثورية سيكون درساً كافياً لبقيتهم.

خلال الغارات، وطالما ظل الأدرينالين يسري في بدنه، بقي بيطال على ثقة من أنهم سوف ينتصرون في نهاية المطاف وأنه سيكون قادراً على تغيير الظروف بالنسبة للجميع. ولكنه كان يتحول إلى اليأس أثناء الفترات الطويلة بين الغارات وتنتابه حالات التشاؤم بينما يتمطى الانتظار الذي يبدو بلا نهاية. وصار يتساءل مما إذا كان سيبقى على قيد الحياة ليشهد انبلاج فجر التغيير على الإطلاق. خلال تلك الأيام، كان يرى بوضوح أن هجماته على الارستقراطيين صغيرة ولا تعني شيئاً في المخطط الأكبر للأمور، مجرد إزعاج للسلطات في قلب روسيا.

"ولكن إذا كان هناك أناس مثلنا في كل أنحاء الإمبراطورية" كان يقول وهم جلوس حول النار في الليل بعد أن يكون قد تناول ما

يكفي من الكحول لرفع آماله ومعنوياته قبيل النوم "ففي النهاية سوف ننتصر لأنهم قلة ونحن الأغلبية."

كان رفاقه يرحبون بهذه الفصاحة. إذ كانوا واثقين من أن بيطال لن يكذب عليهم أبداً، وأنه رجل يتكلم بصراحة. فهو واحد منهم وليست هناك أية بدائل.

كان بيطال يتحول إلى نفاذ الصبر والأحباط بشكل متزايد بسبب البطء الذي يظهر به انتشار الثورة خلال إقليم القباردا. عندما سمع عن سيرج ميرونو فيتش كيروف، قرر أن يسافر ليقابل الرجل.

كان كيروف في بداية عشرينات عمره، وهو بلشفي جاء إلى هذه المنطقة ليساعد على نشر مفهوم الثورة. كان هدفه هو تحريك العمال في المصانع للقتال ضد سلطة القيصر. كان بيطال قد سمع أن الأفكار الثورية، التي اعتنقها منذ سنوات، قد بدأت تؤسس جذورها في المدن الكبرى حيث كان كيروف ورفاقه يعملون. كذلك كان كيروف قد أسس صحيفة للمساعدة على نشر الأفكار الثورية بين الجماهير.

عثر عليه بيطال في تيريك، يعيش في بيت، يبدو أنه مزدحم بالناس، وكلهم يتحدثون، يتجادلون ويضحكون. أدرك بيطال على الفور مدى افتقاره إلى التعليم أثناء جلوسه بينهم، ينصت إلى أفكارهم ويراقبهم أثناء عملهم، رؤوسهم منحنية بتركيز على المقالات والمنشورات. شعر أنه فلاح، بثيابه الريفية غير اللائقة، جالساً في المطبخ مع كل هؤلاء المثقفين.

لا بد وأنه بدا لهم مرهوب الجانب بنفس المقدار، ثوري حقيقي يحمل دماء الأعداء على يديه فعلياً. كانوا يعرفون أنه في النهاية سيكون الرجال مثل بيطال الذين سينفذون الثورة التي يشعلون نيرانها في عقول الناس. ففي نهاية المطاف، لن تتخلى البرجوازية عن مكتسباتها إلا إذا أجبرت على ذلك. كان يفترض فيهم أن يثبتوا

للعمال أن الطريق الوحيد أمامهم لكسب أي نوع من المساواة وتوفير المكاسب للأجيال القادمة هو بالنهوض والاستيلاء على الأرض التي هي حقهم المشروع. وكانوا بحاجة إلى رجال مثل بيطال لتحقيق ذلك.

لم يكن بيطال، برغم قلة تعليمه، رجلاً غبياً، وكان الحديث والأفكار يثيرانه. إذ كان يغادر منزل كيروف ممتلئاً بالتفاؤل حول الكيفية التي سرعان ما ستتغير الأمور بها، ولكن في اليوم التالي، في جبال قباردا، يعود كل شيء إلى طبيعته مرة أخرى. عندما كان يتحدث إلى القبارديين المحليين كان يجد أن العديد منهم يعتقد بأن المشاكل المتنامية يمكن أن تؤدي إلى انفصالهم وتحررهم عن روسيا لإقامة دولتهم المستقلة. بينما ظل بيطال يشعر أن بقاءهم متحالفين مع روسيا سيكون أكثر تأثيراً وفعالية. لأن الأفكار الكبيرة كانت تصدر من المدن الروسية. كانت فكرة بقاء القفقاس على حاله تملأه بالرعب، فقد كان يريد أن يشهد تغييرات هائلة كاسحة. ظل يتشوق إلى رؤية دماء كل ارستقراطي مسفوحة انتقاماً لكل الأشياء التي فعلوها بعائلته والعائلات الشبيهة بها عبر الأجيال الماضية. كان يريد أن يرى العمال عبر الإمبراطورية كلها ينهضون ثائرين ويستلمون السلطة، محطمين خصومهم وظالميهم ليؤسسوا نظاماً جديداً، ينير الطريق لبقية العالم. وجد أنه من الصعب عليه أن يوحي إلى القبارديين بالأفكار الحماسية التي كانت تبدو طبيعية جداً بالنسبة للروس الذين يقابلهم مثل كيروف وأصدقائه.

مع تنامي أحلام بيطال، كذلك أصبح صبره أقصر.

***

الفصل العاشر

تركيا

توقع حميد أن يسمع صوت الجياد وهي تلاحقه منذ اللحظة التي عدا فيها مخترقاً بوابات معسكر التدريب العسكري، لكن شيئاً لم يحدث. لم تكن لديه خطة معدة سلفاً سوى أن فكرته الأساسية ابتداءً ظلت تقضي بأن يجعل بينه وبين المعسكر أكبر مسافة ممكنة وبعدها يقرر ما سيفعله.

أدرك بعد ساعات عديدة من الركوب أنه جائع وأحسّ أن جواده قد بدأ يتباطأ تحته. حين لمح عموداً من الدخان صاعداً من خلف بعض الأشجار، اتجه نحوه ببطء ليعثر على قرية صغيرة هادئة. الإشارة الوحيدة على وجود حياة فيها، مجموعة من الأطفال يلعبون في الطريق، توقفوا فور مشاهدتهم له، وركضوا باتجاهه ليبدأوا بالثرثرة معه عندما ترجل وسار بينهم. شعر أنهم يجلبون الانتباه إلى وجوده هناك وتمنى لو أنهم يبتعدون عنه لكن لم يشأ أن يسيء إليهم.

خرجت بضع نساء لاستطلاع سبب الثرثرة والجلبة وراقبن تقدمه نحوهن. أدرك أنه لا يمتلك أية نقود يدفعها ثمناً للطعام وسأل إن كان يمكنهن الاستغناء عن قليل من الماء.

لم تتكلم أي منهن لكن إحداهن طأطأت برأسها ودخلت لتبحث عن إبريق. وقفت الأخريات يحدقن بينما كان جواده يشرب من حوض جماعي. عندما عادت المرأة جاء بصحبتها رجل، يبدو عليه أن أوقظ من نوم عميق لتوه.

قال حميد بأدب "مساء الخير، أشكرك." تناول الماء وشرب بعمق. حدق الرجل فيه بعينين عدائيتين متشككتين وأصبح حميد مدركاً أن قلبه يخفق بعنف بين أذنيه. بدأ رجال آخرون يظهرون

من أبواب أخرى واكتفوا جميعاً بالتحديق. كان يأمل أن يقدم له أحدهم الطعام، لكن كل ما أراده في تلك اللحظة هو الابتعاد عنهم. بعد أن شرب الماء، أعاد الإبريق، شكرهم مرة أخرى وامتطى الجواد، مجبراً نفسه على السير ببطء وعدم إبداء أية علائم ذعر.

أدرك أثناء ركوبه مبتعداً أنه سيضطر إلى مغادرة تركيا كلها. لأن منظر شاب رث الهيئة يرتدي زي مجند يسافر لوحده بدون أي مال هو منظر بديهي جداً وظاهر لهارب من الجندية. ويحتمل أن تحوي كل بلدة ومستوطنة شخصاً ما قد يدرك احتمال أنه واقع في مشكلة من نوع ما.

رغم أنه لم يكن يحمل أية نقود، إلا أنه ما كان يستطيع أن يعود إلى بيت أبيه لأن ذلك سيكون المكان الأول الذي ستذهب إليه السلطات باحثة عنه.

فكر في أنه يجب أن لا يفعل أي شيء يعرض عائلته للخطر، أثناء دفعه الجواد إلى الاستمرار في السير ليجعل بينه وبين القرويين غير الودودين بضعة أميال. فمن المحتم أن تعرف عائلته بما حدث وأن تقلق عليه أمه. لكن ليس بإمكانه أن يخاطر بإرسال أية رسالة من أي نوع إليهم لئلا يكشف عن موقعه أو يعرضهم للخطر بإعطائهم المزيد من المعلومات.

فكر في الارتحال شمالاً عائداً إلى القفقاس ليختبئ في الجبال بين بني قومه وقرر أنه لن يتمكن من الوصول إلى ذلك البعد شمالاً عبر تركيا. بالإضافة إلى أن الحياة تحت حكم الإمبراطورية الروسية حتماً محملة بالمصاعب أكثر منها تحت حكم العثمانيين. لذلك فهو مضطر إلى العثور على مكان ناءٍ حيث يوجد قبارديون آخرون مثله حتى يستطيع أن يذوب ويختفي بين ظهرانيهم. ظهر أن الخيار الوحيد هو عمان حيث ذهبت العائلات الأخرى التي رست معهم في استنبول حين استأنفت سفرها. سيكون هناك العديد من الشباب الشراكسة يعيشون هناك، ولن يجذب وجوده بينهم أي

انتباه وسوف يكون محمياً من قبل بني قومه. كما أن عمان بدورها بعيدة عن مراكز السلطة العثمانية.

ما أن استقرت هذه الفكرة في رأسه، لم يعد يجد بديلاً متاحاً لها، فركّز أفكاره على كيفية الوصول إلى هناك بدون أن يهلك من الجوع وبدون أن يكتشف أمره. لقد ذهبت العائلات الأخرى إلى هناك بواسطة القطار، لكنه عرف أن القطار لا بد وأن يستخدم بكثافة من قبل العسكر. قد يتمكن من الخداع بالركوب والنزول بدون نقود على مراحل، ولكن بعد ذلك، عندما تتمكن السلطات من الانتباه إلى طريق الهروب التي يسلكها، فإنهم سيعثرون على أناس يتذكرونه وسوف يقودهم ذلك إلى عمان. من المهم أن لا ينتبه إلى تحركاته أي شخص متعاطف مع العثمانيين.

إذا أسعفه الحظ، فسوف يتخيلون أنه قد توجه شمالاً إلى القفقاس ويتخلون عن مطاردته بمجرد أن يتسنى له الوقت لمغادرة تركيا. تمعن في موقع الشمس واتجه إلى الجنوب بخط مستقيم. إذ رجح أن لا تكون الحدود السورية بعيدة جداً باتجاه الجنوب.

بعد فترة من الركوب أحسّ أن جواده قد بدأ يتباطأ تحته مرة أخرى فأدرك أنه مضطر إلى العثور على مكان ليستريح فيه. غادر الدرب التي كان يتبعها وسلك طريقاً له بين الشجيرات المحيطة حتى اطمأن إلى أن سيكون مخفياً عن أنظار أي من المارة. عثر على جدول ماء صغير، ترجل وشرب إلى جانب جواده الظامئ. بعد أن عمل لنفسه مأوى شبيه بالعش بين جذوع بعض الشجيرات، سرعان ما أخلد إلى النوم بينما كان جواده يرعى العشب من حوله بأمان. أفاق بعد عدة ساعات مجفلاً. كان الظلام الدامس يغلفه فلم يستطع لبضع لحظات أن يتذكر مكانه. أدرك أثناء عودة الذاكرة إليه أنه جائع إلى حد اليأس. سيكون لدى الجيش الوقت الكافي لإعلان الإنذار بحلول هذا الوقت ولذلك سيتوجب عليه أن يكون أكثر حذراً أثناء تقدمه. سوف يضطر إلى السفر

تحت جنح ظلام الليل ويبحث عن أي شيء يؤكل أثناء تحركه. كذلك فهو بحاجة إلى تبديل ملابسه.

بعد وقت طويل، وبعد أن اجتاز منطقة ذات جبال عالية أصبح لديه شك في أنه قد عبر الحدود التركية بدون أن يعرف وأنه حتماً موجود في الأراضي السورية. كان قد سمع عن جبال طوروس، والتي أصبحت في هذه اللحظات خلفه، لكونه قريباً من الحدود. استمر في السير باتجاه الجنوب مبتعداً عن المناطق المأهولة ومعتمداً في طعامه على الفواكه وأية خضروات يمكنه سرقتها من الحقول غير المحروسة التي يمر بها.

واصل سيره باتجاه الجنوب لعدة أيام أخرى، مستتراً بالظلام، يسافر في الليل كاللص، يعثر على أرغفة من الخبز متروكة خارج الأفران حين يكون محظوظاً، وأحياناً بضع بيضات طازجة الوضع ولم يجمعها أصحابها، والفواكه الطازجة عن الأشجار.

كان في بعض الأحيان يعثر على لحم مطبوخ قد نشر حتى يجفف. كان يشعر بالذنب لاضطراره إلى السرقة من أناس لا يمتلكون إلا أقل القليل، لكن لم تكن لديه وسيلة أخرى للبقاء حياً. تعود على القرصة الدائمة لآلام الجوع، أثناء تركيزه المستمر على البقاء متخفياً عن السكان الذين يمر من خلالهم.

كان يصادف الرعاة في بعض الأحيان، مبكرين في عملهم أو أشخاصاً متوجهين إلى بيوتهم في أوقات متأخرة من الليل، فيطلق في اتجاههم تحية مبهمة ويبقي وجهه ناظراً إلى البعيد عنهم حتى لا يتمكن أحد من تمييزه أو التعرف على أوصافه. حلت الأزياء المتنافرة محل زيه العسكري، وهي التي عثر عليها أثناء بحثه عن الطعام، فصار منظره أشبه بالغجري، ومن غير المحتمل أن يثيرا انتباه أحد أو يبقى في ذاكرته طالما أن الذين يرونه يظنون أنه مجرد عابر سبيل.

اختفت التلال الخضراء في شمال سورية تدريجيا، وأخذت تتحول إلى شجيرات صحراوية بحيث قلّت التغطية النباتية القادرة على إخفائه. وعلى كل حال، فقد أصبحت المناطق المأهولة أكثر بعداً عن بعضها بعضاً فأصبحت إمكانية اصطدامه بأي تواجد عسكري أقل احتمالاً. بدأ حميد يحس بتزايد الثقة والجرأة لديه. فصار يتحرك أكثر أثناء ضوء النهار وينام أحياناً على قارعة الطريق بشكل مكشوف. لأنه لم يكن يشاهد أحداً على امتداد الساعات.

في أحد الأيام، وبينما هو يستريح تحت أشجار واحة ما، محتمياً من حرارة شمس الظهيرة، أيقظه صوت بندقية يجري تلقيمها. عندما فتح عينيه ألفى نفسه يحلق في فوهات بنادق ثلاثة، كل واحدة يحملها رجل عربي بثوب فضفاض.

رفع حميد يديه في حركة استسلام ونهض واقفاً على قدميه ببطء. تحدث إليهم بلغة تركية ركيكة "أنا لست مسلحاً، إنني مسافر بسلام من خلال أراضيكم. لا أقصد أحداً بأي سوء."

قال أكبر الرجال سناً "لقد شوهدت وأنت تشرب من بئرنا بدون استئذان"

"أنا آسف. إنني غريب، ولم أعرف لمن تعود هذه المياه."

أمروه بأن يمتطي جواده ومشى اثنان منهم إلى جانبيه خبباً، مسلطين بندقيتيهما إلى رأسه، حتى وصلوا إلى مضاربهم. أثناء مرورهم وسط الخيام فوجئ حميد بمرأى امرأة بيضاء البشرة تخرج من إحدى الخيام لتراقبهم أثناء مرورهم. بدت عليها سيماء الثقة المطلقة، ترتدي ملابس أنيقة وتدخن سيجارة في تناقض كلي مع بقية النساء البدويات اللاتي يسرعن في سيرهن خلفها، متلفعات بأثوابهن.

أخذه مرافقوه إلى الخيمة الكبرى ودخل أحدهم إليها بينما بقي الآخران يحرسانه.

بعد بضع دقائق عاد الرجل إلى الخروج وأخبر حميد أن الشيخ رضي أن يقابله. ترجل حميد واتخذ طريقه إلى الداخل، وفي الأثناء تحاول عيناه أن تتعودا على الظلام بعد الشمس الساطعة في الخارج.

كان الشيخ جالساً بين مجموعة من الكبار والوجهاء. شعر حميد بالراحة النفسية على الفور، واثقاً من أن هؤلاء الناس لا يمكن أن يكونوا أصدقاء للعثمانيين.

سأله أحد الكبار بلغة تركية سلسة "من أنت؟". ذكر له حميد اسمه الكامل. شاهد لمحات من التعرّف المحيَّر تعبر وجه الشيخ، تحادث الشيخ بعدها لبضع لحظات مع الكبار بالعربية. في نهاية الحديث، سأله الوجيه "هل أنت من نسل كازبك."

"نعم" طأطأ برأسه موافقاً "لقد كان جد أبي. وارتحل إلى هذا الجزء من العالم" عادت إليه الحكايات عن رحلة جد أبيه المشحونة بالمغامرات في سبيل أداء فريضة الحج.

نهض الشيخ واقفاً وجاء نحو حميد فاتحاً ذراعيه وقد ارتسمت على وجه ابتسامة وضاءة. قال: "إن ذكرى كازبك شديدة التكريم في هذه القبيلة، لقد كان جدي هو الشيخ فايز الفرحان من قبائل شمر. وكان صديقاً لجد أبيك. تقابلا أثناء حجة جد أبيك إلى مكة المكرمة."

"هنالك العديد من القصص عن عشيرتك في عائلتنا أيضاً." رد حميد على معانقته بخجل. "إن اسم عائلتك يحمل الكثير من التكريم. فقد أصبح كازبك مربي خيول ناجح جداً في القفقاس بفضل دماء السلالة التي أهداها إليه جدك."

"إن قصص براعته مع الخيول ما زالت تروى حتى أيامنا هذه."

أشار الشيخ إلى وجوب جلوس حميد في وسطهم، على الرغم من مظهره المشعث وهيئته الزرية، ثم قدم الطعام الذي لم يعد حميد قادراً على منع نفسه من التهامه. راقبه الكبار، ضاحكين بطيبة نفس من منظر شهية الشاب.

سأله الشيخ "ألا تزال عائلتك تربي الخيول؟"

"إن اسم والدي ناخو. لقد هاجر إلى تركيا الآن وهو يقوم بمساعدة إخوتي بتربية خيول يقدرها سلاح الفرسان عالياً. نحن نعتقد أنها من بين الأفضل في الدنيا بسبب دمائها العربية."

"لماذا أنت لست في تركيا الآن، تساعد أباك وإخوتك؟" سأله الشيخ.

توقف لثانية، وهو يوازن مقدار ما يتوجب عليه إخبارهم، وقال أخيراً "إن العثمانيين يبحثون عني." هزَّ جميع الرجال رؤوسهم في إيماءة تفهم فورية. عرف حميد أنهم يعتقدونه مجرد هارب من الخدمة العسكرية وقرر أنهم ليسوا بحاجة لأن يعرفوا أنه قتل ضابطاً قبيل هروبه.

قال الشيخ "أنت سعيد الحظ لأنك استطعت أن تهرب إلى هذا الحد، فهل كنت تسافر لوحدك؟"

"طيلة الوقت. أريد أن أواصل مسيري نحو الأردن، إلى عمان، حيث يوجد المزيد من قومي وسيكون العثور علي هناك أقل احتمالاً."

"لن يكون من الحكمة أن تمضي أبعد من هذا لوحدك. إذا لم يعثر عليك العثمانيون فسوف يقتلك أحد رجال القبائل المحليين من أجل الحصول على حذائك. يجب أن لا يسافر أحد بمفرده في الصحراء."

قال حميد "ليس هناك من بديل آخر".

"ابق معنا لبضعة أيام. هنالك قافلة متجهة إلى الجنوب ويفترض أن تمر من هنا. سوف تكون أقل إثارة للانتباه إذا كنت مسافراً ضمن مجموعة، كما أن هؤلاء الناس لا يدينون بالولاء للعثمانيين، ولذلك فهم لن يسلموك إليهم أبداً."

أحنى حميد رأسه امتناناً "أشكرك، ستكون استراحة بضعة أيام أمراً أرحب فيه بشدة."

في تلك الأمسية، وبعد أن استحم برفاهية واستمتاع، وارتدى بعض الملابس المستعارة بحيث أصبح أقل ظهوراً وأطيب رائحة بكثير، دعي حميد مرة أخرى إلى خيمة الشيخ لتناول وجبة العشاء. بمجرد دخوله لاحظ وجود المرأة الأوروبية مرة أخرى. كانت تشكل مركز الاهتمام، بجلوسها وسط الرجال بدون أي حرج ظاهري، ضاحكة، متحدثة وتدخن بينما كانت نساؤهم مختفيات في الخيام الأخرى.

"حميد" نادى عليه الشيخ لحظة مشاهدته له "تعال لتقابل الآنسة جيرترود بيل" رفعت المرأة رأسها إليه وأدرك حميد أنها لم تربطه بالشكل الزري الذي راقبته أثناء اقتيادهم له في ذلك الصباح "الآنسة بيل (إنجليزية) وهي موجودة هنا رغم أن العثمانيين يحاولون إيقافها. إنها مختبئة عن جنودهم مثلك تماماً."

صححته المرأة بصوت قوي "أنا لست مختبئة" كانت لغتها التركية في مثل سوء لغة حميد.

"إنني فقط أتجنب البيروقراطية والإساءة غير الضرورية." صافحت حميد وأحسّ أنها تتفحص وجهه، وكأنما تحاول أن تفهم كيف أصبح رجل أشقر الشعر أزرق العينين يعيش بين البدو في الصحراء. شرحت وضعها بالقول "إنني في الحقيقة عالمة آثار" حين أدركت أن الشاب اليافع قد انعقد لسانه في حضرة امرأة مثلها. "وقد غادرت عمان لتوي."

أضاءت عينا حميد من الإثارة "ذلك هو المكان الذي أقصده."

"آه" ابتسمت قائلة "وهكذا فأنت شركسي، طبعاً، كان يجب أن أخمن. لدي العديد من الأصدقاء الشراكسة الطيبين في عمان. لقد دعوني إلى حفل زفاف هناك، كما دعتني خمس عشرة عائلة من أتباع المذهب البروتستانتي لتناول الشاي. إن عمان مكان رائع. إن العثور على مكان أخضر معشوشب وتلال خضراء بعد أن تكون قد قضيت وقتاً طويلاً في الصحراء أمر باعث على الارتياح، أنا واثقة من إنك ستشعر بنفس شعوري."

وكان أمراً ساراً لحميد أن يتحدث إلى إنسانة مختلفة إلى تلك الدرجة عن أي شيء آخر قابله في حياته. كانوا جميعاً يتحدثون بلغة تركية ركيكة مخلوطة بالعديد من الكلمات العربية، التي اكتشف حميد أنها سهلة الفهم بالنسبة له. عندما كان العرب يتحدثون مع بعضهم، كان الكلام دائماً بلهجتهم المحلية الخاصة. فوجئ حميد بأن السيدة الإنجليزية قادرة على الدردشة بلهجة الصحراء بمنتهى السهولة. ظلت مواضيع الحديث عامة أثناء جلوسهم إلى الطعام متربعين حول صينية كبيرة من النحاس وقد تكدست فوقها كميات من الأرز المطبوخ بدهن مصنوع من حليب الغنم، فوقه خروف ذكر مشوي، ذبح على شرفهما، وقد رشت فوقه كميات من الزبيب، واللوز والبصل. وبعد أن استمتعوا بحلوى من التمر والزبدة، انتحت به جانباً لفترة من الوقت، تاركة الرجال العرب ليتكلموا فيما بينهم.

أسرّت إليه بقولها "أمر آخر باعث على الارتياح في عمان، هو التعرف على نساء يعاملهن الرجال على أساس المساواة. إن النساء البدويات يعشن حياة في منتهى الصعوبة. لقد كنت أتحدث في قسم الحريم إلى نساء الشيخ، وكنَّ يخبرنني أنه يتوقع منهن الاستيقاظ في الصباح الباكر وأن يباشرن واجباتهن المنزلية على الفور. يجب عليهن إطعام الأغنام، حلب النوق، خبز الخبز، صيانة الخيام، غزل صوف الغنم وحياكة وبر الجمال، وأثناء ذلك كله، الاعتناء بأطفالهن. وعندما يحين موعد الرحيل، فإن واجبهن هو

هدم الخيام، تحزيم المتاع، والمضي في المسير حاملات أطفالهن."
أطلقت ضحكة جادة قصيرة عالية "كيف يمكن لأمك أن تشعر حيال مثل تلك المعاملة؟"

ابتسم حميد وهو يتخيل ردة فعل والدته لو كان يفترض فيها أن تظل معزولة عن الرجال ومغطاة من رأسها وحتى أخمص قدميها. قال: "أعتقد أنه ربما عملت أمي بنفس القدر من الجهد، وكذلك شقيقتي. ولكن فقط لأنهما تعرفان أن الرجال يعملون بنفس القدر من الجد والكد."

"بالضبط" ربتت على كتفه وشعر هو بالفخر لكونه قال شيئاً وافقته عليه "المساواة، تلك هي الكلمة الصحيحة. تعال، يجب أن نعود إلى مضيفينا وألا اعتقدوا أننا قليلي تربية."

سأل الشيخ أثناء عودتهما إلى الجلوس "ماذا إذن تعلمت عن الصحراء في هذه الرحلة، يا آنسة بيل؟"

"لا أعتقد أن أحداً يمكنه أن يرتحل إلى هنا ويعود إلى أوروبا كما أتى." قالت ذلك وهي تشعل سيجارة أخرى بينما كان خادم يناولها فنجاناً آخر من القهوة حسب العادات الصحراوية التقليدية.

"إن الصحراء تمهرك بختمها، سواء كان ذلك إلى الأفضل أو إلى الأسوأ. إنني أعشق التضاريس الواسعة الموحشة وأحب أن أتنفس الهواء الذي يشبه النَفَسْ القادم من نبع الحياة نفسه!" هزَّ الشيخ رأسه علامة الرضى، مبتسماً لنفسه وهو يفكر في الرمال خارج الخيمة.

استطردت قائلة "على الرغم من الوحشة، والفراغ، فهي جميلة –أم أنها جميلة من ناحية بسبب الفراغ؟ على أية حال، أنا أحبها، ورغم أن الجمال تقطعها ببطء، شديد، وهي تتناول طعامها أثناء المسير، فأنا لا أشعر بأي نفاذ صبر ولا بأي رغبة للذهاب إلى أي مكان."

هتف الشيخ "أنت شاعرة وابنة الصحراء يا آنسة جيرترود" وارتفعت أصوات جميع الرجال موافقة. استمروا في الحديث حتى وقت متأخر من الليل، رغم أن حميد كان مرهقاً، إلا أنه أجبر نفسه على البقاء يقظاً من باب الأدب ولأنه أراد أن يسمع كل ما لدى الآنسة بيل الاستثنائية لتقوله. عندما آووا في النهاية كل إلى خيمته، غط في نوم عميق، خالٍ من الأحلام، على الفور. عندما أفاق في صباح اليوم التالي كانت جيرترود بيل قد انطلقت راكبة إلى الصحراء مرة أخرى بصحبة حاشيتها الصغيرة من الخدم.

استراح حميد لمدة أسبوع مع البدو حتى حضرت القافلة المتجهة إلى الجنوب. قدمه الشيخ إلى قائد المجموعة، وشرح له أنه ينحدر من أسرة رفيعة الشأن ظلت على صداقة متينة مع عشيرته لأجيال عديدة. شرح له أنه إذا قدم لحميد الصنيع المتمثل في السماح له بالسفر متخفياً وسطهم، فإنهم بذلك يقدمون له معروفاً لن ينساه إلى الأبد. سعد المسافرون من قدرتهم على جعل رجل في مثل أهميته مديناً لهم ولم يطرحوا المزيد من الأسئلة على الشركسي الشاب الهادئ الذي يرتدي الملابس العربية.

بعد مضي بضعة أيام، قضاها أفراد القافلة في الاستراحة، تحركوا إلى وحميد في وسطهم الجنوب، غير مرئي بين بقية الرجال إلا إذا تعمد أحدهم النظر في وجهه ليرى العينين الزرقاوين البراقتين. سافروا بموازاة الخط الحديدي وكثيراً ما شاهد حميد العربات الممتلئة بالجنود الأتراك تمر من أمامه. كذلك ظلت الدوريات تمر صعوداً ونزولاً على الخط. تحرسها من التخريب. لم تكن لدى مضيفيه أية رغبة في التعامل مع الأتراك العثمانيين أكثر مما كان لديه فساروا راكبين ببطء وثبات، وعيونهم شاخصة إلى الأمام، حذرين من عدم جذب الانتباه إلى أنفسهم.

***

الفصل الحادي عشر

تركيا

عاد مصطفى كمال من مهمته الناجحة في طرابلس ليكتشف أن لا شيء قد تحسن في وضعه الوظيفي وأن اللجنة في القسطنطينية تعاني من المشاكل. فعلى الرغم من كونهم أقوياء في سالونيك، إلا أن العاصمة ما تزال تعج بالناس الذين يؤمنون بالأساليب القديمة، أو بتغييرات مختلفة كل الاختلاف عن تلك التي يعدون لها ويطبقونها.

بقي عبد الحميد على العرش برغم كل محاولاتهم للإطاحة به وما زال وقتها يحتفظ بولاء الغالبية العظمى من الجماهير الأمية التي ترى فيه ليس فقط حاكمها الأعلى، السلطان، بل ترى أيضاً فيه الخليفة، ظِل الرسول عليه السلام على الأرض. كان ذلك منصباً تشعر القوى السياسية الجديدة بالتوتر والحرج من مهاجمته بشكل مكشوف مخافة خلق ردة فعل قد لا ينجون منها.

حتى تزيد الأمور تعقيداً وتفقد توازنها، فقد كانت اللجنة نفسها منقسمة على نفسها إلى فئتين، فقد أراد الجناح اليميني حكومة مركزية وحكماً مطلقاً بينما رغب الليبراليون اليساريون في حكم لا مركزي. كان نجم اليمين في صعود في القسطنطينية بعد أن تمكن من استبدال الصدر الأعظم الليبرالي بالقوة بحيث باتت المدينة تتأرجح على شفا هاوية الشغب والقتال الداخلي. كان الجميع يبحثون عن فرص للتنفيس عن غضبهم على أي شخص راغب في التقدم للإعلان عن مبادئ ومعتقدات تخالف معتقداتهم. وهكذا بات السلام الهش في الشوارع مرتكزاً على قشور البيض.

في وقت متأخر من إحدى الليالي، كان محرر إحدى الصحف الليبرالية الهامشية يعبر جسر جالاتا في طريقه إلى بيته بعد يوم

طويل من النقاش وأمسية طويلة من الكتابة. أجفل إذ كان غارقاً في التفكير عندما سمع حركة في الظلال إلى جانبه. قبل أن يتمكن من عمل أي شيء لينقذ نفسه، هاجمه رجلان وأمسكا بذراعيه بينما قام الثالث بإغماد سكين في صدره. جاء موته سريعاً. لم يتسنى له الوقت حتى للصراخ واختفى القتلة عائدين إلى الظلام قبل أن يدرك أي شخص حقيقة ما جرى.

ابتداءً، هي مجرد جثة مجهولة أخرى في مدينة لا يعتبر فيها الموت الفجائي والقتل أمراً غير عادي بأي معيار، بل هي مهمة تنظيف للناس الذين يحاولون الإبقاء على الشوارع خالية من الأمراض والعدوى. تم التعرف على الجثة في اليوم التالي من قبل الزملاء الذين فطنوا إلى غياب زميلهم وشكوا في وجود أمر مريب على الفور. بمجرد أن اكتشف الليبراليون أن لديهم شهيد لقضيتهم، جهزت له جنازة عامة للتأكد من أنه لم يبق لدى أحد أي شك في أن مأساة كبرى قد وقعت.

قيل للناس "هذا هو المستقبل بالنسبة لنا جميعاً إذا سمحنا للرجعيين بالتصرف على هواهم."

كان الفتيل قد أشعل وأصبح وصوله إلى برميل البارود الجبار الذي طال انتظاره في قلوب الجماهير أمراً محتوماً. انفجرت الخواطر في القسطنطينية حتى بين المراتب التي يفترض فيها الانضباط داخل الجيش. أعلن الجنود العصيان خلال الليل، فقاموا بسجن ضباطهم أو إطلاق النار عليهم واتخذوا طريقهم نحو جسر جالاتا لتقديم العزاء لليبرالي الشهيد، إلى أن تشكل حشد من عدة مئات، يتدافعون ويصرخون على ضوء المشاعل الملتهبة.

بحلول الفجر، كانوا قد انتشروا في الساحات المحيطة وانضم إليهم جنود اللجنة القادمين من سالونيك، والمئات من الطلاب ورجال الدين، مطالبين بتغييرات جذرية. لم تكن هناك أية قوة معارضة لتوقفهم عن القيام بكل ما يشاؤون وظل خطر إحراق

المدينة عن بكرة أبيها قائماً لعدة ساعات. هدرت الجموع مطالبة بطرد رئيس اللجنة، وإلغاء اللجنة كلها واستقالة الحكومة.

وصل خبر العاصفة التي تستجمع قواها إلى السلطان، فقام بحلول المساء بتعيين صدر أعظم (رئيس وزراء) جديد، وهو رجل قادر على استرضاء الأغلبية، فتفرق الناس سعداء، بينما كان الجنود يطلقون صليات الذخيرة في الهواء للاحتفال بنصرهم الصغير.

شكلت أحداث ذلك اليوم إنذاراً رهيباً للسلطات، فقد بينت لهم درجة قلة سماكة الجليد الذين يمشون عليه وكم كانوا قريبين من رؤية الإمبراطورية كلها تنهار وتتفسخ لتسقط في الفوضى.

بعد بضعة أيام كان كمال يحضر اجتماعاً للجنة في سالونيك حيث قرر أفرادها أن الوضع في القسطنطينية بحاجة إلى تدخل عسكري ليذكر الناس بمن يسيطر على الأوضاع.

رغم أنه لم يكن سوى مساعد رائد، تم تعيينه رئيساً لأركان فرقة، مما وضعه فعلياً في موقع السيطرة على القوة. اقترح تسمية هذه القوة "جيش التحرير".

خلال أسبوع، كان قد تمكن من محاصرة أسوار القسطنطينية من ناحية البر وقام عدد من السفن الحربية بحصار المدينة وقطع الإمدادات عنها من جهة البحر. وهكذا عزل المشاغبون عن العالم الخارجي. خرج أعضاء اللجنة الذين كانوا مختبئين داخل المدينة وشقوا طريقهم لمقابلة الجيش وعقدت الاجتماعات والمباحثات للتداول وإقرار ما يجب عمله. اتفق الجميع على وجوب تنحية السلطان وفكر بعضهم حتى بوجوب إعدامه. في النهاية اتخذ قرار بوجوب تنحيته واستبداله بشقيقه الذي كان السلطان بنفسه قد سجنه في أحد القصور قبل ثلاثين عاماً.

حذرهم كمال قائلاً "يجب أن لا نعلن الواقع على الملأ الآن، لأن الكثير من الناس العاديين ما زالوا يؤمنون بحقوقه الإلهية.

يحتمل أن يثوروا إذا ظنوا أن هناك فرصة لإنقاذه." لذلك قاموا بإصدار إعلان يتعهد بمعاقبة العصاة وحماية السكان المدنيين. ذهب برهان بصحبة كمال إلى مكتب البرقيات، قلقاً من مدى إرهاق صديقه واصفرار وجهه.

في تلك الليلة، أمر كمال جنوده بالتسلل إلى المدينة بصمت وذهب برهان معهم. كان الجنود مدربين من قبل ضباطهم الشباب ومدربيهم الألمان إلى مستوى ممتاز لدرجة أن أحداً داخل المدينة لم يلاحظ وجودهم حتى انبلج الفجر وفتح الناس أبوابهم وشبابيكهم ليجدوا جنود كمال وقد أتموا حصار المعسكرات الرئيسة. خرج بعض الناس إلى الشوارع وقاتلوا الجنود، لكن المقاومة لم تدم وقتاً طويلاً. بمجرد أن استولى كمال على القسطنطينية، أمرت اللجنة بشنق قادة العصيان من على جسر جالاتا.

صوَّت البرلمان بالإجماع إلى جانب تنحية السلطان وأرسل برهان بصفته عضواً في الوفد المتوجه إلى قصر يلدز لأعلامه بالوضع.

"عندما وصلنا إلى هناك، ظهر في البداية وكأنه متقبل لمصيره." قال برهان لكمال عند عودته.

"قال"هذه هي قسمتي وقدري" وبعد ذلك سأل إذا كنا سنبقي على حياته"

استفسر كمال "ماذا قلتم له؟"

"لم يكن أحد منا مخولاً بالإجابة على مثل ذلك السؤال. أطلق جهلنا جماح الغضب الذي كان بالضرورة يعتمل ويغلي في داخله. فزمجر فينا صائحاً "فلتحل لعنة الله على أولئك الذين تسببوا بهذه الكارثة!" كان حفيده الصغير معه فانفجر الصبي في البكاء مباشرة. ساعتها تركناه ليجهز نفسه وعدنا في المساء لمرافقته إلى محطة القطار ووضعناه على قطار خاص. كانت حاشيته الكاملة بصحبته.

سأل إلى أين سيأخذوا القطار فقلنا له سالونيك. أغمي عليه لحظتها وسقط بين ذراعي رئيس المخصيين!"

انفجر كمال في ضحكة مجلجلة. فقد بدأت معنوياته ترتفع من تفكيره بأن السلطان قد أزيح أخيراً.

توجه بعد بضعة أسابيع مع برهان إلى القصر حيث كان السلطان الجديد محبوساً للسنوات الثلاثين السابقة. فوجئا بالعثور على رجل عصبي ناحل عجوز. رافقاه نازلين نحو قارب على مضيق البوسفور حتى يمكن نقله إلى احتفال تنصيبه بصفته السلطان والخليفة محمد الخامس. بينما كان القارب ينساب خارجاً نحو النهر، بدأت التحية التقليدية المتمثلة بإطلاق مئة قذيفة مدفعية وقذيفة، مما جعل الرجل العجوز يجفل ويقفز. ثم سأل "ماذا كان ذلك؟" وقد اتسعت عيناه الدامعتان من التوجس.

أخبره برهان "إنها تحية، يا سيدي، إنهم يكرمونك."

ابتسم الرجل العجوز بخجل على تفكيره، وتأكد برهان من أنه رآه يحمر خجلاً عند نزوله من القارب وهتاف الناس له "يعيش السلطان".

على الرغم من نجاح اللجنة في إخماد الثورة المضادة، إلا أنها لم تبدو بمظهر القوة اللازمة، وكان كمال يعرف السبب.

ظل يقول لكل من يصغي له "يجب أن لا نخلط بين الجيش والسياسة "مراراً وتكراراً." إننا نحكم لأننا نحظى بدعم الجيش. وذلك أمر كارثي للحكم الدستوري وللجيش نفسه."

توصلت محكمة تحقيق في أسباب الثورة إلى الاستنتاج القاضي بأن المشكلة كانت محصورة في أن العديد من الضباط المتنفذين كانوا منهمكين في المسائل السياسية بأكثر مما يسمح لهم بأداء مهامهم بكفاءة. وجد كمال أن آراءه تجد صداها لدى عدد من

صغار الضباط ولكن عندما عرضها على أعضاء اللجنة، رفضوها جملة وتفصيلا.

بعد تحرير القسطنطينية بثلاثة اشهر، حضر المؤتمر السنوي لحزب الاتحاد والترقي في سالونيك بصفته مندوب الحزب نيابة عن طرابلس.

أعلن للمؤتمر المنعقد، المتضايق منه "إذا كنا سنحافظ على الإمبراطورية وعلى الدستور، فأننا لسنا بحاجة إلى حزب عسكري، بل إلى جيش قوي من ناحية وحزب قوي من الناحية الأخرى. أي ضابط يحاول أن يخدم سيدين سوف يصبح جندياً فاسداً وسياسياً فاسداً في نفس الوقت. يجب أن ندعو ضباط الجيش إلى اتخاذ القرار فإما أن يبقوا في الحزب ويستقيلوا من الجيش أو أن يبقوا في الجيش ويستقيلوا من الحزب. بعد ذلك يتوجب علينا أن نسن قانوناً يمنع الضباط من الانتماء إلى أي تنظيم سياسي."

وافقه بضعة ضباط وانسحبوا إما من الجيش أو من السياسة، لكن المنظمتين كانتا متداخلتين بقوة إلى درجة أنه كان يستحيل كسر الصلة بشكل واضح، خاصة عند المستويات العليا.

رأى زعماء الحزب الذين كانوا حتى هذا الوقت ينظرون إلى كمال وزملائه الضباط كمصادر إزعاج، إنهم يشكلون خطراً داهماً. استدعوا أحد أعضاء الحزب المعروف بإخلاصه وأصدروا إليه تعليمات بالتخلص من كمال.

أصدرت التعليمات إلى القاتل خلال اجتماع سري "حدد موعداً لزيارته في مكتبه، قل أنك ترغب في مناقشة الموضوع الذي طرحه في المؤتمر. اقتله بسرعة وغادر. لن تنشأ أية مضاعفات أو ردود فعل بالنسبة لك."

نفذ القاتل ما طلب منه وحدد موعداً مع كمال لليوم التالي. كان كمال يعرف الرجل معرفة سطحية وحيَّاه بأدب. أدخله وأرشده إلى مقعد مقابل على الجهة الأخرى لمكتبه ثم جلس مستند الظهر في

كرسيه. لاحظ أن الرجل لا يقدر على النظر في عينيه مباشرة، وأنه كان يتحرك في كرسيه بغير ارتياح أثناء تحدثهما.

ببساطة، وبغير تكلف أو النطق بكلمة، انحنى كمال إلى الأمام، فتح درجاً في طاولة مكتبه وأخرج مسدساً، وضعه بينهما على سطح المكتب.

ثم قال بابتسامة "إذن، أخبرني بما يجول في ذهنك".

كان الشاب قد جهز أسئلته وطرحها كأنما هذا هو الغرض الوحيد من زيارته. عامله كمال بمنتهى الاحترام، مجيباً على كل سؤال بعناية وانتباه تامَّين، وكانت شخصيته القوية تقدم كل نقطة بقوة وكأنه واقف تحت قبة البرلمان. أثناء حديث كمال، بدأ الشاب ينسى مهمته التي أرسل من أجلها واستمر يطرح المزيد من الأسئلة، متشوقاً إلى المزيد من أفكار كمال.

في النهاية، أشار كمال إلى أنه لا يستطيع أن يمنح المزيد من الوقت للمقابلة، ونهض الضابط الشاب متهيئاً للمغادرة.

قال "لقد أجبتني بمنتهى الصدق، إلى درجة أنني أشعر بأنني يجب أن أكون صريحا معك. لقد أرسلت إلى هنا في مهمة لقتلك. ولكن التعرف عليك أجبرني على تغيير رأيي كليا. أرجو أن تسامحني على نواياي وتطمئن إلى أنه بإمكانك دائماً أن تعتمد على دعمي لك في أي شيء ترغب في عمله".

ابتسم كمال قائلاً "إنني ممتن لكونك غيرت رأيك، أنا واثق من أنه سيكون لدينا الكثير لنعمله في المستقبل وسوف أطلب مساعدتك بكل سرور عندما يحين الوقت الملائم."

لن تكون تلك المحاولة الأخيرة التي تقوم بها اللجنة على حياة كمال في الوقت الذي كانت تشتد فيه قوته ويتزايد فيه عدد أتباعه.

***

الفصل الثاني عشر

شرق الأردن

سمع تيمور بوصول قافلة إلى عمان فذهب إلى رأس العين، مع كل شخص آخر في القرية، ليرى ما هو موجود لديهم ليعرضوه وما الذي يتوقعون شراءه. اضطر الشركس إلى الاعتماد على أنفسهم إلى حد بعيد، معتمدين على المواد الغذائية التي يمكنهم زراعتها وتربيتها بأنفسهم. لكن النساء كنَّ دوماً بحاجة إلى مواد لصناعة الثياب والمفروشات وكذلك ظل الرجال يحتاجون إلى الأدوات التي تساعدهم في أداء أعمالهم بكفاءة أكثر. كان وصول قافلة كبيرة حدثاً رئيساً في المنطقة، يثير الأطفال ويخرج الجميع من بيوتهم وحقولهم ليوم كامل من الشراء والمقايضة.

كان الأعراب يحملون السجاجيد والآنية الفخارية بالإضافة إلى البهارات والمواد الغذائية، فأصبحت المنطقة التي توقفوا فيها للتخييم وسقاية الإبل سوقاً آنياً وقد بسطت فيه كل البضائع وعرضت للبيع.

كذلك وصل الكثير من البدو الآخرين للمتاجرة والثرثرة، راغبين في سماع ما يجري في الأنحاء الأخرى من البلاد، متلهفين للتنبه من أية متاعب يمكن أن تكون قادمة إليهم. بقيت العلاقات بين الشركس والبدو المحليين ودية منذ نهاية حرب البلقاوية وتوقيع الاتفاقية. أخذ نوع متبادل من الاحترام والثقة ينشأ ويترعرع، ببطء شديد، مع أن أي من الجانبين لم يكن مستعداً أو متلهفاً على الاختلاط بالجانب الآخر اجتماعيا. لم تعد هناك حوادث قنص أو سلب على الطرق فبدأ تيمور يشعر بالراحة والاطمئنان إلى أن السلام سيدوم. صار البدو يحضرون مواشيهم للشرب عند أطراف النبع في رأس العين واستمر الشركس في جعل الحقول تزدهر على طول ضفاف السيل الوفير المياه وأخذوا يتوسعون في الزراعة

بعيداً عن السيل مستخدمين أساليب الري المتاحة. شعر تيمور بعد أن استتب الأمن أنه مستعد في نهاية الأمر للتوجه عائداً إلى موطنه وأهله في القفقاس.

مع حتمية يوم رحيله، بدأ يشعر بنفاذ الصبر حيال الانطلاق، إذ تملكه الحنين إلى الجبال التي ألفها في طفولته والأساليب الصريحة المباشرة لبني قومه. رغب في مشاهدة كريم، شقيقه الذي تخلف في قرية الحابسا عندما انطلق في مغامرته الكبرى في الدنيا قبل كل تلك السنين الطوال. لم يكن متأكداً إذا كان كريم قد بقي على قيد الحياة. إذا كان لا يزال حياً، فسوف يكون الآن رجلاً عجوزاً، اشتد بتيمور الحنين لرؤية شخص ما من عائلته المباشرة مرة أخرى قبل أن يصبح أكبر سناً من أن يقدر على السفر. بمجرد أن يتخيل نفسه موجوداً في الجبال ذات البرودة المحببة، أصبحت الحرارة الدائمة في الصحراء مصدر إزعاج بالنسبة له، وجعلت منه رجلاً نافذ الصبر وسيء الخلق تجاه الناس الذين يقصدونه باحثين عن النصيحة أو الحلول لمشاكلهم. لقد حان وقت المضي قدماً والارتحال.

ذهب ليستطلع ما إذا كانت القافلة ستوفر له سرجاً جديداً من أجل رحلته.

بينما هو يتمشى بين حشود الناس، الخيول والجمال، وأصوات المقايضة والمتاجرة الحادة تطرق أذنيه، شعر بالرضى عن وضعه وعن الدنيا والناس كافة. كانت عمان تتحول من مجرد مجموعة من المستوطنين، إنها تتطور إلى نمط معيشي خاص بها. لقد حقق أكثر مما أعتقده ممكناً في الأيام الأولى للصراع. شعر بالزهو والفجر بقومه وبقليل من الحزن على نيته الافتراق عنهم.

لاحظ أن أحد جيرانه يشير إليه ليدل شاباً يرتدي ملابس عربية عليه، لكنه لم يبد أي قدر من الاهتمام، فقد اعتاد على سؤال الأغراب عنه عند وصولهم إلى البلدة، فالناس قد سمعوا أنه يجيد

التحدث باللغتين العربية والتركية على حد سواء وأنه على علاقة بكل المفاوضات التي تخص شؤون البلدة. لم تكن به رغبة للانغماس في أي عمل في ذلك الصباح: فقد كان يرغب في تركيز ذهنه على رحلته القادمة. توقف قليلاً ليتفحص بعض البطانيات التي كان أحد الباعة يعرضها عليه، يرغبه في تحسسها ليرى كم هي سميكة وناعمة، عندما وصل الشاب إليه.

سأله باللغة الشركسية "هل أنت تيمور؟"

"نعم" قال تيمور وفوجئ حين استدار ليجد نفسه يحدق في عينين زرقاوين براقتين لوجه شركسي، مؤطر وسط الغترة والعقال العربيين.

"إن اسمي هو حميد، وأنا الابن الثاني لناخو"

"ناخو؟" أجفل تيمور عند سماعه الاسم القادم من ماضيه. "تقصد ناخو، صديق أصلان؟"

"نعم" بات حميد متلهفاً على أن يدرك تيمور أنه قريبه "ناخو، حفيد كازبك، شقيق والدك". أضاء وجه تيمور بابتسامة عريضة "نعم، نعم، طبعاً" وقد سره أن يقابل قريباً حميماً له في وقت كانت فيه أفكاره تتجول في أنحاء الحابساي. عانق حميد بحرارة. "الآن فقط لاحظت الشبه العائلي. كيف هو والدك وكيف هي والدتك؟ لقد سمعت أنهما استقرا في أوزون يايلا أو سيواس وأن والدك ناجح في عمله أكثر من أي وقت مضى، في تزويد سلاح الفرسان العثماني بالجياد."

ابتسم حميد بفخر واعتزاز "نعم، ذلك صحيح، لكن مضت عدة شهور على رؤيتي لهما للمرة الأخيرة." خفض صوته "إنني في حالة اختباء من الجيش".

"آه" طأطأ تيمور برأسه في حكمة. ولم يعد بحاجة لأن يخبره أحد بالمزيد.

قال حميد "الأمر أسوأ مما يمكن أن تعتقده. إذا عثروا علي فهم سوف يشنقوني بكل تأكيد. إنني بحاجة إلى مكان للبقاء فيه، مكان لا يلاحظ وجودي فيه أحد."

ربَّت تيمور على ذراعه "تعال معي" وأشعره أنه ليس بحاجة إلى قول المزيد. سارا سوية عائدين إلى بيت تيمور المتواضع، وبعد أن أصبحا آمنين داخل البيت، أخبر حميد ابن عمه القصة الكاملة لما حصل للرقيب في معسكر التدريب. أصغى تيمور وهو يطأطئ رأسه بتفهم. كان قد قابل العديد من الضباط الأتراك من أمثال هذا الرقيب وكان بوسعه أن يتخيل إلى أية درجة يستحيل على رجل مثل حميد أن يتحمل الاستقواء عليه وإذلاله بدون أن يدافع عن نفسه.

قال تيمور عندما انتهت القصة. "ربما من الأفضل أنك قتلته، ذلك ليس قولاً محموداً من جانبي. إن قتل الإنسان خطأ. ولكن لو أن الرجل بقي حياً لما كنت اضطررت إلى الهروب ولكانوا ألقوا بك في السجن ورموا المفتاح. على الأقل، أنت بهذه الطريقة، لديك فرصة لبناء حياة جديدة لنفسك."

"لكنني لن أتمكن أبداً من العودة إلى سيواس وإلى عائلتي."

وافقه تيمور "أنت في خطر داهم كبير، وقد كنت محقاً في عدم عودتك إلى بيت العائلة. نحن لا نستطيع أن نضمن سلامتك حتى هنا. فإن الجنود يمرون عابرين من هنا أحياناً، لكنني أعتقد أن هذا أفضل خيار لك. سوف نخبر الجميع أنك شاب قريب لي، وأنك جئت لتأخذ بيتي عند رحيلي عائداً إلى القفقاس."

"وهل أنت عائداً فعلاً؟" أحسّ حميد بمشاعر مختلطة، بالارتياح لكونه قد أعطي مكاناً آمناً للبقاء فيه، وبخيبة أمل لأن تيمور، الذي تأمل أن يكون مربيه والقدوة له، على وشك أن يغادر.

أحسّ خلال الأسابيع القليلة المنصرمة أن ثقته بنفسه تتنامى. فقد جعلته تجاربه في الجيش يصبح شديد التحمل مع أنها لم تملأ

نفسه بالثقة. لكن السفر لوحده نزولاً إلى سورية والعيش بعد ذلك بين العرب بدون أن يتمكن من التحدث بأكثر من بضع كلمات بلغتهم، كل ذلك جعله يرى ما هو قادر على تحقيقه. يعرف أنه يمكنه تدبر أموره بدون وجود تيمور، لكنه لم يستطع أن يغالب التفكير في أن الوضع سيكون رائعاً بوجود شخص يمثل صورة الأب قريبا منه لبضع شهور.

"إنني أخطط منذ سنوات عديدة للعودة" شرح له تيمور "ولكن في كل مرة أفكر فيها أن الوقت ملائم، يحدث شيء ليوقفني. إن القفقاس هي المكان الذي أنتمي إليه. إن شقيقي كريم هو الوحيد المتبقي من فرعي في العائلة وسوف يكون حتماً بحاجة إلى مساعدتي في هذا الوقت."

سأل حميد "كم من الوقت مضى على غيابك؟"

قال تيمور "لقد غادرت عندما كنت في حوالي سنك" وأخذه ذهنه عائداً به ثلاثين عاماً إلى الوراء. "لقد كنت أشبه بشيء بخروف العائلة الأسود حينها. كنت على الدوام أتوق إلى المغامرات وأبحث عنها، وبدا لي وقتها أن أفضل مكان لها هو في الجيش العثماني. لقد كانت حتماً مغامرة بكل المقاييس." ران عليه الصمت للحظات قليلة، وقد استغرق في ذكرياته، ثم تذكر ضيفه وأعاد نفسه إلى الحاضر "هناك فرصة طيبة لتأسيس معيشة طيبة هنا، وسوف ينشأ معظم القبارديين الذين استقروا هنا مع أطفالهم وأحفادهم وهم يعتبرون هذا المكان وطناً لهم. أنا شخصياً لم يكن هذا شعوري مطلقاً. فقد كنت على الدوام أشعر أنني موجود هنا بصفة مؤقتة، حتى أعود إلى جذوري. ولكن في كل مرة اقترب فيها من المغادرة يطرأ أمر آخر واضطر إلى تأجيل مغادرتي."

ابتسم حميد معتذراً "والآن وقد وصلت؟"

"سوف أبقى الوقت اللازم لأجعلك تستقر وتؤسس نفسك. اعثر لك على وظيفة وأعرفك على بقية العائلات، وبعد ذلك سوف أتوجه

إلى الشمال. سوف أتوقف في سيواس لأخبر عائلتك أنك بأمان. فليست هذه الرسالة من النوع الذي يمكن ائتمان أحد آخر عليها. سوف ترفع عن قلوبهم هماً ثقيلاً. من المحتم أن السلطات ذهبت إلى هناك في بحثها عنك".

"أشكرك" نظر حميد في عيني تيمور مباشرة وشعر كلا الرجلين بالفخر للانتماء إلى نفس العائلة. أدى التقاء تيمور بحميد إلى تأجيج تصميمه ونفاذ صبره للعودة إلى قباردا.

***

الفصل الثالث عشر

تركيا

لم ينقطع تواصل كبار الضباط إلى سيواس، وظل كلّ من ناخو وديسا يحملان مشاعر مختلطة عند سماعهم بقدوم هؤلاء. فقد كان التوقع الدائم قائماً بأنهم إنما يجيئون لشراء الأفراس، وهم كانوا في العادة كذلك. لكن ظل هناك الخوف غير المصرح عنه من أنهم ربما يأتون بخبر سيء عن حميد، أو أنهم قد قرروا المجيء لأخذ الفتية الآخرين.

كانت ديسا ما تزال حزينة على أخذ الجيش حميد منها عندما وصل الجنود قبيل فجر أحد الأيام، أوقظوا كل أفراد العائلة من أسرّتهم بصرخاتهم الغاضبة وتفتيشهم الوقح.

اندفعوا تاركين وراءهم الخدم الحائرين يغالبون النعاس وشقوا طريقهم عنوة خلال البيت والحظائر، يقلّبون الأسرَّة وأكوام التبن بنفس الخشونة قبل أن يشرحوا أو يفصحوا عما يبحثون عنه.

وقف ناخو، يراقب، واضعاً يداً مهدئة على ذراع ديسا ليمنعها من فعل أي شيء يزيد في غضبهم. أدرك أن الأمر يتعلق بحميد وعرف لحظتها أنه إذا بقي هو وعائلته هادئين واحتفظوا بكرامتهم فإن فرقة التفتيش هذه سوف تهدأ في نهاية المطاف وسيقومون بشرح سبب وجودهم في بيته. لأن مجادلتهم أو الاعتراض على سلوكهم سيؤديان حتماً إلى زيادة اشتعال الموقف. بعد إتمام تفتيش الموقع بالكامل وقيام الجنود بإبلاغ الضباط المنتظرين في الخارج على صهوات جيادهم بنتيجة بحثهم، ترجل الرجال الأعلى رتبة ودخلوا لمواجهة ناخو بالأمر. بدأ الجو المشحون بالتوتر يهدأ تدريجياً، رغم أن ديسا ظلت ترتجف. وقف ناخو يستمع إلى ما كان لديهم ليقولوه بهدوء جليدي.

"نحن آسفون على كوننا أزعجنا راحة أسرتك بهذه الدرجة من الفظاظة" كانوا مؤدبين ولكن كان واضحاً أنهم مصممون على مهمتهم، بصرف النظر عن طبيعتها. "إننا نبحث عن نجلك، حميد."

انفجرت ديسا قائلة: "ولكن حميد موجود لدى الجيش" رغم إحساسها بضغط يد زوجها على ذراعها يزداد لإسكاتها.

سأل ناخو: "ما الذي حدث لابننا؟" بصوت راعش بعض الشيء "لا أصدق أنه قد هرب من الخدمة. فذلك لا يمكن أن يكون جزءاً من شخصيته."

سخر الضابط قائلاً: "حسناً، يبدو أن شخصيته قد تغيرت منذ غادر هذا المكان، لأنه قد هرب فعلاً. كما أنه أقدم على قتل رقيب في جيش السلطان قبل هروبه."

أحسّ ناخو بتقهقر ديسا وتعثرها للحظة على ذراعه، ثم باستعادتها لرباطة جأشها.

"لا يمكن لابني أن يقتل أحداً أبداً." قالت بفخر.

"أخشى أنه ضرب الرجل حتى الموت أمام أفراد فصيله كله." قال ضابط آخر، وقد ظهر في صوته التعاطف أكثر من رفيقه. "ليس هناك أي شك في أنه فعلها."

تكلم ناخو "إذن لا بد وأنه تم استفزازه. لا بد وأن القضية دفاع عن النفس. أو ربما حادث عرضي".

قال الضابط الأول بحدة "ذلك أمر يترتب على السلطات أن تقرره. تبقى الحقيقة المؤكدة التي تؤكد أنه قد هرب بدلاً من مواجهة المحاكمة، ونحن ننوي العثور عليه. يجب عليه أن يواجه جريرة جرائمه كرجل".

"قالت ديسا "إذا عثرتم عليه، فهل سيكون مصيره الشنق؟"

حاول الضابط الثاني أن يواسيها، وقد أدرك أنه يتعامل مع

عائلة ذات مستوى رفيع وأنه يتوجب عليه التعامل معها بشيء من الاحترام:

"سيحصل على محاكمة عادلة" لكن كلماته لم يكن لها أي وزن أو تأثير.

بمجرد انصراف جماعة البحث، بعد أن أصدر الضابط الأول تحذيرات صارمة بما سيحدث للعائلة إذا حاولت أن تخفي ابنها الهارب، انهارت ديسا. فبعد كل سنوات المعاناة وانعدام الأمان، في أول لحظات شعورهم بالأمن والسعادة كعائلة، اضطروا إلى مواجهة هذا الرعب الشديد.

حاول ناخو أن يسري عنها وهي تنتحب، لكن الأمر كان مستحيلاً. فقد كان هو يتألم من الداخل لدرجة تمنعه من قول أي شيء يمكن أن يساعد على تخفيف المعاناة. لذلك عدل عن المحاولة وتركها لوحدتها، وخرج إلى الحقول حيث كان حسن وشقيقه مجيد، يعملان على الجياد. لم يكن أي من الشابين يكلم الآخر، بل يتجنب أحدهما عيني الآخر، فلا أحد منهما قادر على أن يثق بنفسه ليتكلم عن الأحاسيس التي تثقل على وجدانيهما.

أصبح العمل، الأرض ونجاح المشروع هو التسرية بالنسبة لهم جميعاً. فقد تكاثرت الجياد ونمت قوية، فسعد بها الجميع وهم يراقبونها أثناء عدوها في الحقول. كانت حيوانات جميلة وانتشرت أخبار قوتها، قدرتها على التحمل وملامحها الجميلة في كل أنحاء الإمبراطورية. فأصبح كل ضابط يمتلك القدرة على شراء الجياد المطهمة يسمع عن مزرعة ناخو أثناء جلوسه حول نار المعسكر، عاجلا أم آجلا، يقوم بالرحلة إلى هناك بمجرد أن يمتلك في جيبه ما يكفي من الذهب لدفع أثمانها.

بعد سماع أخبار حميد، أصبح القدوم المستمر للجنود يسبب للعائلة قدراً أكبر من العصبية، رغم أنه في معظم الحالات، لم يكن الزوار يعرفون أي شيء عن حميد أو جريمته. فقد كان الضباط

الذين يصلون في أفضل حالاتهم النفسية على الأغلب، يستمتعون بقضاء بعض الوقت بعيداً عن واجباتهم العسكرية وراغبين في الضحك والاسترخاء. كان ناخو رجل أعمال ناجحاً، وعلم مهاراته لحسن. فكانا يدعوان الزوار إلى البيت في احتفالية ضيافة هائلة، كأنهما لا يرغبان في شيء أكثر من التحدث إليهم عن مغامراتهم وسماع قصصهم المتعلقة بالشجاعة في الأقاليم القصية.

يقدم لهم الشاي أو القهوة، ثم الطعام وبعدها يدخنون التبوغ، ولا يأتي أحد على ذكر السبب الحقيقي من وجودهم هناك. في نهاية المطاف، يطلب الضباط التفرج على بعض الجياد التي كان بإمكانهم رؤيتها تتفاخر وترعى العشب في الحقول الخارجية، فيقول ناخو، الذي يلعب دور المضيف الطيب "طبعاً، سيكون ذلك من دواعي سروري".

يتمشون إلى خارج البيت تحت أشعة الشمس ويستعرضون الحيوانات الجميلة. وكان يسمح للضباط حتى أن يركبوا واحداً من الجياد أو أكثر في جولة، ويظل ناخو وأولاده طيلة الوقت يظهرون عدم الاهتمام بموضوع مجرد التفكير في بيع تلك المخلوقات الثمينة الرائعة.

عندما كان الأمر يصل بالعساكر إلى درجة عدم السيطرة فيسألون ناخو عن الثمن الذي يطلبه لهذا الجواد أو ذاك، يتظاهر ناخو أنه قد فوجئ من سؤالهم فيلمح إلى أنها أغلى بكثير من أن تصلح جياداً للجيش. فيصر الضباط على سماع الثمن، فيسمح لهم ناخو بعد لأي بإجباره على التحدث في السعر. يفاجأون بالقيمة فينفض ناخو كتفيه قائلاً أنه كان يعرف طيلة الوقت أنهم لا يستطيعون أن يدفعوا ثمن هذه المطايا الجميلة.

في بعض الأحيان، كان الضباط مخولين بشراء عدد من الجياد في نفس الوقت لجنودهم، فيبدأون في التفاوض بحماس. وفي أحيان أخرى يرغبون في ركوبة أو اثنتين لأنفسهم، فيتلهفون على

الاحتفاظ بماء وجههم أمام رفاقهم لئلا يبدون بمظهر من لا يستطيع أن يدفع أسعار ناخو. في أحيان قليلة كان يحضر عسكري ذو رتبة رفيعة بحيث يبدو صنواً لمنزلة ناخو الاجتماعية فلا يمانع في مساومة مربي الخيول. في تلك الآونة كان ناخو ينحني للأمر المحتوم ويسمح لأسعاره بأن تنزل بمبلغ قليل جداً. لأن وجود مثل أولئك الناس الذين ينشرون الأخبار عن نوعية ماشيته يستحق خسارة قليل من الربح في المدى القصير.

في الأوقات التي يكون الزبائن فيها موجودين في أرجاء المنزل، كانت ديسا تبقى في الأماكن الخلفية، غير راغبة في أن يكون لها أي شأن مع الرجال الذين كانت تشعر بالثقة من أنهم مسؤولين عن ضياع ولدها المفضل. ظلت تراقبهم من خلف الستائر والمصاريع وكلما رأت أحدهم يتكلم مع حسن أو مجيد، أو حتى ينظر إليهما، كانت ترتعد فرقاً، مذعورة من أن يقولوا أنه يتعين على الشابين أن ينخرطا في الجيش لخدمة السلطان، تماماً كما فعلوا بشقيقهما.

أدرك كلا الشابين هذا الخطر، فأبقيا أعينهم منحسرة عن أعين العساكر معظم الوقت، تاركين المجال لأبيهما ليدير الأحاديث، متصرفين كمستخدمين أكثر من كونهما أفراداً من العائلة حتى يجذبا أقل قدر ممكن من الانتباه إلى وجودهما. كان الوضع بالنسبة لهما محرجاً ومذلاً لكن التعويض المالي ظل يعوضهما عن انزعاجهما.

اكتشف ناخو أنه مهما تعاظم مبلغ الذهب الذي يستثمره في خيول الاستيلاد الجديدة، فإن الأسعار التي يمكنه فرضها على الجيش استمرت في تنمية ثروته. توسعت المزرعة وتزايد عدد السكان المحليين الذين يعتمدون عليها في معيشتهم. حظي ناخو وعائلته بمقام عالٍ في المنطقة، لأجل ثرائهم من جهة، والذي ساهموا في تنميته، ولأجل الطريقة التي ظلوا يتصرفون بها في المجتمع من جهة أخرى.

ظلت ضرورة دفع الرشاوي التي اضطروا إليها للمسؤولين الذين يحضرون على فترات منتظمة لمناقشة موضوع الخدمة العسكرية لكل من حسن ومجيد، قائمة، وقد ازدادت قيم هذه الرشاوي مع كل زيارة، لكن ناخولم تكن لديه مشكلة في الدفع لهم وظل قادراً على الدوام أن يشعر هؤلاء الرجال بأنهم موضع ترحيب. رغم أنه كان في قلبه يتمنى لو أنه يتمكن من اختراق أجسادهم بالسيوف على الدمار الذي أحدثوه لعائلته حين خدعوه فتنازل لهم عن حميد.

عندما كان الجيش يشتري جياداً أكثر مما يستطيعون أخذه راكبين، كان ناخو وحسن ومجيد يوافقون على تسليم القطيع إلى أي مكان يحتاجونها فيه. مما يستدعي اضطرارهم إلى السفر لعدة أسابيع إلى إحدى الزوايا القصية في الإمبراطورية، ليجدوا أنفسهم موضع ترحيب وتكريم هائلين بمجرد وصولهم.

طلية الوقت الذي يتغيبونه، تظل كل من ديسا ونورسان قلقتين تجوسان في البيت أثناء تأدية واجباتهما، تحافظان على سير الأمور في المزرعة، متسائلتين إن كانتا ستريان الرجال مرة أخرى. كانتا تنغمسان في العمل بجهد مضاعف لسد الطريق على الأفكار التي تنغص عليهما حياتهما.

في أحد الأيام، وبينما العائلة كلها متواجدة في البيت، حضر ضابط في الجيش راكباً لوحده. لوحظ قدومه من مسافة بعيدة، فقام ناخو بالتحضير لاستقباله كالعادة، فأرسل ولديه إلى الخارج لإحضار الجياد، والنساء إلى المطبخ لتحضير أية مشروبات منعشة قد يطلبها الزائر. لم يستطع ناخو أن يميز الرجل إلا بعد أن ترجل ودخل إلى البيت، ويعرف أنه برهان، أخوه غير الشقيق.

قال بعد أن أفلته من عناق سعيد بحضوره "لقد تغيّرت، يا أخي، إنك تبدو وكأنك قد تكون جاهزاً لمنصب قيادة عليا".

ضحك برهان، مدركاً أن أخاه الأكبر غير الشقيق إنما يقصد

بكلامه شعره الذي أخذ الشيب يخالطه مؤخرا، ومحيط خصره الآخذ في الازدياد.

فقال "ليت ذلك كان صحيحا، يا ناخو، أخشى أحياناً أن يداهمني الموت قبل وقت طويل من حصولي على فرصتي. إن الأمور تتغير في غاية البطء، حتى في مثل هذه الأوقات."

قال ناخو وهو يدخل أخاه إلى البيت، حيث خرجت ديسا لتحييه "ربما تبدو بطيئة لك، لكن بالنسبة للذين يراقبون منا عن بعد ويسمعون الأخبار من المسافرين، يبدو أن كل شيء سوف يختلف قريباً كل الاختلاف."

بعد أن جلسوا جميعاً لتناول القهوة، بدأ ناخو يحث أخاه الأصغر على التكلم بكل الأخبار "إذن، ما الذي ينوي أن يفعله صديقك مصطفى كمال؟ ألا يزال يشعر بالرغبة العارمة في حكمنا كلنا؟" قال برهان، وقد تحول فجأة إلى الجدية لأن الموضوع قد تحول إلى السياسة "لقد دأب مصطفى كمال على العمل بشكل متواصل. لقد دأب على عقد الاجتماعات مع ضباط الألوية ليبحث معهم تفاصيل تكتيكية -عملياتية، لكنه أعيق من قبل الجواسيس الذين ظلوا يلاحقونه في كل مكان ويرسلون التقارير إلى القسطنطينية. لقد أمره محمود شوكت، الذي يشغل الآن منصب وزير الحربية، بأن يتخلى عن قيادة لوائه ويعود إلى العاصمة، في محاولة للسيطرة عليه وتمكينهم من مراقبته بشكل أدق."

"وهل بقيت معه في القسطنطينية؟"

"نعم، لقد بقيت، لكننا لم نبق هناك لفترة طويلة. لأن الوضع الدولي صار يتغير، إذ لم تعد أنشطة النمسا وروسيا في دول البلقان تبدو بنفس الأهمية التي كانت عليها في السابق، فقد ألقيت هذه في الظلال بأنشطة ألمانيا، بريطانيا وفرنسا في إفريقيا."

قال ناخو "لقد سمعت أن الألمان قد انقضوا على أغادير".

"بالضبط، وقد أدى ذلك إلى اتفاق فرنسي - ألماني. لقد تم إعطاء مراكش إلى فرنسا وأعطي جزء صغير من الكونغو إلى ألمانيا. بعد ذلك ظهرت إيطاليا على مسرح الأحداث، معلنة أنها تريد أن تستولي على ولاياتنا المهملة في طرابلس وسيرينايكا. ذلك يعني أننا في حالة حرب مرة أخرى لأنهم احتلوا طرابلس وبنغازي.

"فهل سيسمح أنور بختفاء ولاية طرابلس مثل جميع المناطق البلقانية وجزيرة كريت؟" سأل ناخو

"سيبدو ذلك مخجلاً ومهيناً جداً إذا فعل."

"لن يتخلى!" أصيب برهان بحالة هيجان وهو يروي قصته. كان يجب أن يتواجد في وسط الأحداث بينما كانت سياسات عالم متغير تمارس عمليات المد والجزر فيما حوله. "لقد تخلى أنور عن شمال إفريقيا في يد عصبة من صغار الضباط، لصبيح مجاهداً في سبيل الإسلام."

"وما هو رأي مصطفى كمال في كل ذلك؟"

"إنه يشكك في حكمة القرار. هو يعتقد بوجود خطر أكبر يقترب من منطقة البلقان. وهو يرى في غزو ولاية طرابلس مجرد خطوة واحدة أخرى نحو تصفية الإمبراطورية. لكنه مجرد صوت واحد، وهو بحاجة إلى حماية سمعته ووضعه المهني. لذلك فهو ينوي الإبحار للانضمام إلى أنور. ويخطط للسفر بموجب وثائق مزورة، منتحلاً شخصية مراسل صحفي. وتقضي الخطة كذلك بأن انضم إليه في الإسكندرية. أنا سأسافر منتحلاً شخصية طالب حقوقي. وهذا هو سبب زيارتي لكم. لاأحد يعلم كم سيطول غيابي."

ضحك ناخو قائلاً "أشك في أن يتمكن أي شخص من إبقاء صديقك بعيداً عن مراكز صناعة الحدث لمدة طويلة".

قال برهان "ولكن أنبئوني بأخباركم وأحوالكم" مدركاً أنه قد

أطال الحديث أكثر مما يليق بضيف مؤدب.

أشار ناخو بيديه حواليه "كما ترى، إن أحوالنا طيبة."

"وهل الأولاد موفقون؟ لقد سمعت أن حميد قد استدعي إلى الجيش."

تحول وجه ناخو إلى الجدية والعبوس، وقال "نحن لا نعرف ما حل بحميد، تقول السلطات أنه قتل رقيباً وفر من الجندية مفضلاً الفرار على مواجهة العواقب."

أصيب برهان بالصدمة من الخبر واستسلم للصمت وهو يحاول أن يفهم ما يمكن أن يعنيه ذلك لبقية العائلة، بما في ذلك شخصه. ثم قال بعد هنيهة "إذا أقدم فعلياً على قتل الرقيب التركي، فقد أصاب في هروبه. لأنهم سيشنقونه بدون أدنى شك. إن معنويات الجيش متدنية، تقوده مجموعة من الحمقى والمتطاولين في معظم الأماكن، وهو على شفير الانهيار. وبهذه المناسبة، هل لديكم أية فكرة إن كان ما يزال على قيد الحياة أم أنه توفي؟"

رفع ناخو عينيه والتقت عيناه بعيني ديسا وهي تحضر المزيد من القهوة:

"كلا، ليست لدينا أية فكرة."

***

الفصل الرابع عشر

توطدت عرى الصداقة بين تيمور وحميد خلال الفترة القصيرة التي قضياها سوية في عمان. لم يطرح أحد الكثير من الأسئلة حول ماضي حميد. فقد كان الجميع بكل الأحوال يشككون في الجيش العثماني، وعلى افتراض أنه فار من الخدمة العسكرية، لم يكن أحد راغباً في الإبلاغ عنه وتسليمه. انتقل حميد للسكن في بيت تيمور وأخذ الرجل الأكبر سناً يهيئ نفسه، مرة أخرى، للعودة إلى موطنه وبيته في القفقاس.

سأل حميد في أحدى الأمسيات بينما كانا جالسين يتناولان الطعام "لماذا لا تريد أن تبقى هنا؟ لماذا تريد أن تعيد عقارب الساعة إلى الوراء؟ قد لا تكون الأشياء كما تذكرها هناك".

حاول تيمور أن يشرح المشاعر الدفينة بعمق في قلبه، مشاعر لم يكن واثقاً من أنه يفهمها نفسه "إنها موطني، إنني أشتاق إلى الفصول المتغيرة، الثلج، الجبال، إنني أشتاق إلى أخي كريم. أريد أن أراه مرة أخرى قبل أن يموت. أحن إلى شعبي، يا حميد. أريد أن أحيا بين أناس أفهمهم كلياً. إن البدو يتمتعون بالعديد من الصفات الرائعة، لكنهم مختلفون عن الطريقة التي تربيت عليها. أنت رجل يافع: ستكون قادراً على التكيف للعيش في أرض جديدة. أنا لم أستطع أن أجعل هذا المكان وطني."

"هناك العديد من الناس الذين يتطلعون إليك من أجل الزعامة هنا."

"لم يعودوا بحاجة إلي الآن. لقد أنهت الحرب مع بني الهدب كل الأعمال العدائية وأكثر. ستنمو عمان لتصبح مدينة عظيمة في يوم من الأيام، لن يوقف نموها شيء. لم يعد الناس بحاجة إلى رجل مثلي لرعايتهم، إنهم قادرون على عمل ذلك بأنفسهم."

صحيح أن حميد استقر في القرية بسعادة، فرحاً بخلاصه من الجيش ومرتاحاً لشعوره بالأمان بين قبارديين مثله. لكنه ظل يشتاق إلى عائلته. إذ لا تكاد تمر ساعة بدون أن يفكر فيهم، متسائلاً عن أوضاعهم، وعما إذاكانواموفقين في أعمالهم. خطر بباله وأغراه وضعه الآمن أن يرسل لهم خبراً يخبرهم فيه أنه حي يرزق وبخير، لكنه أدرك أنه لا يستطيع أن يخاطر. لأن أي مسافر يحتمل أن يقول أكثر مما ينبغي لبعض الجنود المارين، فيخبرهم أنه ذاهب إلى الشمال لزيارة ناخو العظيم حاملاً له أخباراً عن ابنه. ولذلك يفترض فيهم أنه يظلوا يجهلون أي شيء عنه وعن مكان وجوده إلى أن يعثر على شخص يمكنه أن يثق فيه ثقة مطلقة، حتى بالنسبة لكونه حياً أو ميت.

في إحدى الأمسيات، أثناء بحثهم عودة تيمور إلى الوطن، انتهز حميد فرصته "لقد قلت أنك ربما تزور عائلتي في طريق عودتك إلى الوطن، لتخبرهم أنني حي وآمن."

هزَّ تيمو رأسه "سأفعل بالطبع، لا بد وأنهم خائفون جداً من أن تكون قد قتلت حتى الآن. سيكون من دواعي سروري أن أريح خواطرهم."

"أعتقد أنك ستجد والدتي في غاية القلق والانزعاج. يحتمل أن يكون الجيش قد ذهب إلى الحابساي وربما أخذوا شقيقيَّ الاثنين بنفس الطريقة التي أخذوني بها."

طمأنه تيمور "سوف أنقل الخبر إليهم بألطف طريقة ممكنة."

تملك معظم الناس في القرية نفس الإحساس بالخسارة من فكرة مغادرة تيمور لهم. فقد تعودوا على الاعتماد عليه عبر السنين. لأن مجرد معرفتهم بأنه موجود، منحتهم تلك المعرفة شعوراً بالثقة بأنهم سيتمكنون من تخطي أية عقبات توضع في طريقهم.

كان هناك العديد من الوجهاء وكبار السن يعيشون في المنطقة

وكانوا أكثر من قادرين على قيادة المجتمع بسلام في السنوات القادمة، لكن اسم تيمور كان يحيي في أذهان الكثير منهم ذكريات خروجهم المؤلم من بلاد البلقان مروراً بفلسطين. فمنذ اللحظة التي اقتيد فيها أصلان بعيداً عنهم، أصبح تيمور الرجل الذي يعتمدون عليه. كان العديد منهم مديناً بحياته وحياة أطفاله مباشرة لأعماله البطولية وتخطيطه البارع عبر السنين الطوال.

أقيمت له سلسلة من ولائم التوديع من قبل موعد رحيله بعدة أيام، أقامتها له العائلات التي شعرت بأنها تشهد نهاية عصر. اعترف له بعض كبار السن، عندما تمكنوا من التغلب على تحفظاتهم، إنهم يحسدونه على عودته إلى أرض الوطن. فقد أكسبت السنوات الطويلة والحياة القاسية في الصحراء ذكرياتهم الكثير من النعومة وجعلت القفقاس الذي أكرهوا على الهروب منه، يبدو وكأنه الأرض الموعودة. وجد صغار السن صعوبة أكثر في فهم السبب الذي قد يدفعه للعودة إلى مكان أظهر له ولشعبه كل ذلك القدر من العدائية في الماضي، قامت عدة نساء بمحاولات في الدقيقة الأخيرة لإقناعه بالبقاء وإنشاء عائلة لنفسه في عمان.

قالت له أحداهن "لو كان لك أطفال لأرغموك على الشعور بأن لك جذور هنا. وقتها ما كنت لتشعر بالحاجة إلى السفر عائداً إلى الماضي."

قال تيمور بجديته المعهودة "إن للقفقاس مستقبلاً هو الآخر" مما جعل كل الذين سمعوه ينفجرون ضاحكين "لم يعد لي ما أفعله هنا الآن. أما في الوطن فبوسعي أن أساعد شقيقي الأكبر. وربما يتاح لي الوقت لكي أستريح وأفكر في البدء بتكوين عائلة."

حاولت امرأة أخرى أن تناكفه "ستكون عجوزاً بلحية رمادية، يا تيمور، وستظل تنتحل أعذاراً حتى لا تتخذ لنفسك زوجة."

قالت أخرى "ليس المستقبل مضموناً لأحد على الإطلاق."

أصر تيمور على وجومه "ربما يكون ذلك صحيحاً. لكن يجب

أن أفعل ما أقدر عليه."

في نهاية المطاف، تعبوا من مناكفته، مدركين أن لا شيء في هذا الوقت سوف يجبره على الابتعاد عن نيته التي عقد العزم والإيمان عليها في العودة إلى الوطن. عندما انتهت الاحتفالات في إحدى الأمسيات، عاد تيمور إلى البيت بصحبة حميد. خلد الرجل الأصغر سناً إلى النوم على الفور، بينما جلس تيمور يراقب النار لبضع ساعات قبل أن ينهض ليحزم حاجاته القليلة. قبيل الفجر بقليل، وعندما تيقن من عدم وجود أي شخص يتجول ليراه، ركب هو وحميد بهدوء خارجين من القرية نحو محطة السكة الحديد. لم يشأ تيمور أن يضطر إلى الخوض في المزيد من مواقف التوديع العاطفية من الناس الذين عاش بينهم كل هذه السنوات الطويلة.

استقل القطار المبكر، الذي سيحمله شمالاً حتى مدينة حلب.

بينما انبلج الفجر وأضاء الصحراء من حوله، أحسّ بقلبه يمتلئ حبوراً. اختفى حزنه على مغادرة أصدقائه أثناء اختفاء التضاريس المألوفة عن النظر خلفه، وأحسّ بوميض من التفاؤل ينتشر في أنحاء روحه أثناء سفره بثبات باتجاه الشمال. صار يتصور المناظر التي يتذكرها من السنوات الماضية ويتخيل كيف سيكون شعوره عندما يعود إليها. كان القطار ممتلئاً بالجنود لكنه لم يكلم أحداً. فقد كان غارقاً بشدة في أفكاره وذكرياته الشخصية.

عندما وصل إلى حلب، غادر القطار وامتطى ظهر جواد اشتراه حديثاً.

لم يجد أية صعوبة في العثور على قرية الحابساپي ومنزل ناخو عندما وصل إلى سيواس. لأن كل شخص تحدث إليه عرف العائلة ووصف له الطريق. عندما تسلق التلة الأخيرة ونظر من فوقها إلى المزرعة تحته، لم يتملك نفسه من الإعجاب والتأثر. فقد كانت قطعان الجياد ترعى الحشائش بسلام تحت أشعة الشمس فوق أرض مسورة باتقان ومزودة بحظائر واسطبلات مبنية حديثاً. كان

المنظر تناقضاً مفزعاً للوحل والذباب، الذي اضطر المستوطنون في عمان إلى الرضى به والتعامل معه في أوائل أيام وصولهم إلى ضفاف رأس العين.

أدرك أثناء ركوبه باتجاه البيت أن وصوله قد لوحظ. قدم نحوه شاب وفوجئ بدرجة الشبه بينه وبين حميد. خمَّن أنه إما أن يكون حسن أو مجيد.

أعلن للشاب "إنني أبحث عن ناخو"

قال حسن "إن والدي موجود بداخل البيت. سوف آخذك إليه."

ترجل تيمور وتبعه "لا بد وأنك حسن" قال وهو يخطو بسرعة لمجاراة الرجل الأصغر سناً

"هذا صحيح" نظر إليه حسن متشككاً، وهو يعجب مما إذا كانت له أية علاقة بالسلطات العثمانية "ومن أنت؟"

"أنا تيمور. نحن أولاد عمومة"

ابتسم حسن وهز رأسه ليظهر أنه سعيد للتعرف على قريب له، لكنه لم يستطع أن يفكر في شيء آخر يقوله له أثناء دخولهما إلى البيت.

كان ناخو جالساً إلى المائدة يتناول طعامه، فنهض للترحيب بالمسافر.

"أنا تيمور" قدم نفسه مرة أخرى بينما تراجع حسن خارجاً من الغرفة بدون أن يقول شيئاً

"أنا من قرية الحابساي على نهر التيريك. أنا أضغر أبناء أنور. هل تذكرني، يا ناخو؟"

"الحمد والشكر لله سبحانه وتعالى" عانقه ناخو بحرارة.

"أنا أعرف من تكون. لقد غادرت الوطن قبل مغادرتنا له

Twitter: @ketab_n

بوقت طويل. أهلاً بك في بيتي. إجلس وتناول قليلاً من طعام الإفطار. فأنت تبدو وكأنك قد سافرت لمسافة طويلة."

جلس تيمور، وبينما كانت ديسا تحضر المرطبات، بدأ ناخو يطلق الأسئلة باتجاهه

قال ضاحكا "أذكر جيداً كم كانت العائلة قلقة عليك. لقد ظن الجميع أن شهوتك للمغامرات ستجلب لك نهاية مريعة."

وافقه تيمور "لقد كانت هناك عدة مواقف شعرت فيها إنني سأواجه مصيراً مريعاً. لكنك حين تكون صغيراً فإنك تستطيع أن تنجو من مواقف قادرة على قتل رجال أكبر سناً وأكثر حكمة منك، إنك تحمل حظ الشياطين في ثناياك."

هز ناخو رأسه موافقاً "صحيح" وهو يتذكر شبابه "هذا صحيح، إذن ماذا حدث لم بعد أن غادرت القفقاس؟"

"لقد انخرطت في الجيش العثماني. فقد كانت تلك أفضل تجربة متاحة لفتى يبحث عن المغامرة. تم تعييني في خدمة عقيد شركسي يدعى أصلان. أعتقد أنه كان صديقاً لك."

"أصلان؟" تهدج صوت ناخو قليلاً من ذكرى الصديق الذي فقده منذ زمن طويل "هل ركبت بصحبة أصلان؟"

"لعدة سنوات. لقد كان رجلاً عظيماً. تركنا الجيش سوية لكي نحاول أن نساعد بني قومنا في بلاد البلقان."

"البلقان" نطق ناخو الكلمة بحزن غير منقطع "هل نجوتما، أصلان وأنت، من البلقان؟ إنهم يقولون أن أكثر من مئتي ألف شركسي قد قتلوا هناك خلال تلك الأعوام."

قال تيمور "لقد نجوت بحياتي، لكن أصلان ضحى بحياته في سبيك حتى يتمكن مئتا شخص من بني قومنا من الفرار بالسفن إلى فلسطين."

"وهل هو متوفى؟"

طأطأ تيمور برأسه "يؤسفني أن أنقل إليك مثل هذه الأخبار المحزنة بعد كل هذه السنين؟"

"لقد افترضت أنه متوفى ولابد، وإلا لكان وجد طريقه إلى هنا في وقت من الأوقات. لقد افترضت أنه قد قتل."

"لقد مات أنبل واشرف ميتة حتى يتمكن الآخرون من النجاة بحياتهم."

"هل قلت مئتا شخص؟"

صحح له تيمور أرقامه "مئتان هم الذين انطلقوا من سبيك، لكن إحدى السفينتين اشتعلت فيها النيران في قبرص وغرق منا الكثير. تمكن الناجون من الوصول إلى فلسطين والعبور من هناك إلى الأردن. الكثير منا يعيشون منذ ذلك الوقت في بلدة اسمها عمان. بعد وفاة أصلان أصبحت أنا قائدهم. والآن انتهى عملي هناك وأنا مرتحل إلى وطني القفقاس."

عندما سمع ناخو بكلمة عمان أراد فوراً أن يسمع عن كل الناس الذين سافر معهم إلى القسطنطينية وكيف يتدبرون أمورهم هناك. تمهل تيمور قبل أن يندفع في رواية الأخبار عن حميد. أراد أن يتأكد من أن رد فعل العائلة تجاه المعلومة سيكون إيجابياً كما أراد أن يأنسوا إليه قبل أن يخبرهم بأمر على هذه الدرجة من الأهمية.

أجاب تيمور على جميع الأسئلة، وأدرك ناخو في النهاية أن تيمور مرهق، فأصر عليه أن يستريح قبل أن يمطروه بالمزيد من الأسئلة ويستخرجوا منه المزيد من المعلومات.

بعد أن تناول تيمور الطعام ونام بضع ساعات، خرجا سوية إلى الحقول لمشاهدة الأفراس. بينما هما يراقبان حسن ومجيد أثناء عملها، أخبر تيمور نبأ وجود حميد في عمان لناخو وكيف أنهم

يعتقدون باحتمال موته، كونهم لم يسمعوا شيئاً عنه.

قال ناخو "لدينا بصيص من الأمل في أن يكون مختبئاً في مكان لأن الجيش يقوم كل بضعة أشهر بإرسال شخص ما إلى هنا ليرى إن كان قد عاد إلى هنا."

"إنهم يستجوبوننا وكأننا مجرمون. يحاولون أن يرهبونا للاعتراف بأننا نعلم مكان وجوده. لأن أحداً منا لا يعرف، فإننا في العادة نتمكن من إقناعهم، لكن زوجتي وأنا نعيش في حالة رعب دائم من أن يأخذ الجيش حسن انتقاماً لما يفترض أن حميد قد قام به."

"لو حضر مسافر إلى هنا وهو يعرف بمكان وجود ابنك" سأل تيمور بطريقة عرضية "فهل كنتم ترغبون في أن يخبركم؟ أم أنكم تفضلون أن تبقوا تجهلون، راضين قانعين بمعرفتكم أنه ببساطة حي يرزق؟"

قال ناخو بصوت يستمد قوته من اليقين "لقد كنت أرغب في أن يخبرني بكل شيء. إن فكرة احتمال عدم معرفة ما حل بابننا أبداً ترغم زوجتي على البكاء حتى يغلبها النوم في كل ليلة."

قال تيمور "إنه في عمان. إنه موجود هناك منذ بضعة شهور، ويعيش في بيتي. لقد شق طريقه إلى الجنوب مع البدو. لقد استقر في المجتمع ولا أحد يعرف السبب الحقيقي لوجوده هناك، لكن الجميع يعرفون بضرورة عدم التحدث إلى العسكريين عن خصوصيات أي شخص. فهو في أمان تام."

نظر ناخو في عيني تيمور واغرورقت عيناه بالدموع "هل ابننا سالم معافى؟"

"نعم، إنه سالم، معافى وسعيد."

"أرجوك، تعال وأخبر زوجتي هذه الأخبار." أسرع ناخو بإعادة تيمور إلى داخل البيت.

الفصل الخامس عشر

تركيا

جلس تيمور براحة على الطنافس في زاوية من الغرفة وجلست ديسا إلى جانبه، وقد استقرت نظرتها عليه، أصابعها معقودة كأنما هي راكعة لتصلي، بينما هي تصغي إلى كل ما لديه ليقوله. كانت عيناها مخضلتان بالدموع، لفرط سعادتها بسماع الأخبار عن حميد من ناحية، ومن الحزن على الصعوبات الرهيبة التي عانى منها ولا بد سواء أثناء وجوده في الجيش، أو بعد هروبه. جلس ناخو إلى جانب زوجته، يصغي بنفس القدر من الاهتمام.

أخبرهما تيمور بكل شيء أسرّ به حميد إليه أثناء جلوس الاثنين معاً خلال الأمسيات في عمان. حاول في البداية أن يجنبهما التفاصيل السيئة عن درجة سوء الأوضاع في الجيش، لكن ديسا أصرت على معرفة التفاصيل.

عضت على شفتها السفلى في بعض الأحيان لتمنع نفسها من الصراخ باكية وهي تتخيل طفلها يتعرض لكل ذلك القدر من الإذلال والألم الجسدي طيلة ذلك الوقت. عندما حان وقت شرح الطريقة التي مات فيها الرقيب، ظن تيمور أنه لاحظ لمحة من الاعتزاز إضافة إلى الاهتمام تعبر وجهي مستمعيه المتلهفين. فهناك سقف محدد يفترض في الرجل أن يتحمله قبل أن يتحول إلى ظالميه ويدافع عن نفسه.

أرادت ديسا أن تعرف "وهل هو في مأمن من الجيش في عمان؟ هل ما زالوا قادرين على العثور عليه هناك؟"

شرح تيمور "إن عمان بعيدة جداً عن المركز. يسافر الجنود مارين على الخط الحديدي طيلة الوقت، لكنهم غرباء في المنطقة

ولا يعرفون شيئاً عن الوجوه المجهولة التي يرونها تعمل على الخطوط أو في المحطات. إنهم أناس متعجرفون، ومعتادون على السفر عابرين بلاداً ممتلئة بالوجوه الغريبة. ولن يكونوا قادرين على تمييز وجه أي شاب شركسي عن الآخر. ما لم يجبروا على ملاحظتنا، فإنهم يحدقون إلى الأمام، ومن خلالنا -كأنما نحن غير موجودين، تماماً كما يحدقون في العرب. هناك العديد من الفارين من الخدمة يعيشون في المنطقة لمكن الجيش لا يبحث عن أحد هناك."

"ماذا عن الخيانة في المجتمع؟" سأل ناخو "لا بد وأن هناك مكافأة على القبض عليه. هل هناك أية احتمالية لأن يقرر أحد ما المطالبة بها؟ لا بد وأن الحاجة ماسة إلى المال في ذلك المكان".

وافقه تيمور "هناك حاجة إلى المال بشكل مؤكد. لكنه مجتمع مغلق. وقد عانى كل شخص الكثير جداً مع المجموعة بحيث لا يمكن أن يفكر بخيانة فرد من شعبه للعثمانيين. ربما نعمل لأجلهم على الخط الحديدي، لكننا نعرف أين تقع ولاءاتنا المطلقة".

"كم عدد الناس الذي يعرفون الحقيقة عن حميد؟" أرادت ديسا أن تعرف.

قال تيمور "القليل جداً، الناس في عمان لا يثرثرون حول هذه الأمور، فالوضع لا يشبه استنبول في شيء. لا توجد مقاهي ليجلس الناس فيها، يتكلمون. هناك الكثير جداً مما يجب عمله. أنا أفترض أنهم يعتقدون أنه مجرد هارب من الخدمة العسكرية، ولا أحد يعيب رجلاً على ذلك. لأن الجيش لا يتحلى بأية شعبية. هناك قبارديون حضروا معكم إلى استنبول، وهؤلاء يعرفون أنه ابنكم، يا ناخو. لا يمكن لأحد أن يتسبب لعائلتكم بالضرر من خلال الكلام الطائش."

"كيف هي أحوال عائلات القباردي الذين سافروا معنا يا تيمور؟ هل سيتمكنوا من التوفيق أوضاعهم وتزدهر شؤونهم في ذلك المكان؟"

اختار تيمور كلماته بعد تفكير عميق "إنها أرض واعدة، ولكن سيكون من الصعب الإثراء بدون وجود رأس مال. لقد كان العثمانيون كرماء في الأراضي التي منحوها لشعبنا، والعمل متوفر في الخط الحديدي، ولكن ليس هناك أي نوع آخر من الأعمال بعد. أعتقد أن البلدة ستوفر كل شيء في السنوات القادمة، لكن هؤلاء الناس هم الرواد. والحياة ليست سهلة بالنسبة للرواد أبداً."

"وهل البدو مسالمون؟"

"بعضهم كذلك. لقد كان الفضل في سفر حميد إلى الجنوب يعود جزئياً إلى قبيلة شمر التي ما زال أبناؤها يذكرون اسم جدك، كازبك. هناك كم هائل من النيات الطيبة هناك. حصلت لنا متاعب كثيرة لعدة سنوات مع بني الهدب، الذين كانوا يخشون من أن نقوم بمصادرة نبع الماء الذي يخصهم. لقد قتل العديد من أبناء قومنا على يدي قناصتهم ومجرميهم."

"فهل دافعتم عن أنفسكم؟" أراد ناخو أن يعرف.

"في نهاية المطاف، قمنا بذلك. دام الأمر بضعة أيام قليلة، والحادثة معروفة باسم حرب البلقاوية. كانوا قد افترضوا أننا فلاحين مزراعين طيّعين. لم يدركوا أن قبارديي الجلاخستني مقاتلون شرسون أقوياء عندما يستفزون لحد الغضب"

ابتسم ناخو بكبرياء هادئة وهز رأسه "وهل يدركون ذلك الآن؟"

"نعم" هزّ تيمور رأسه بجدية "لقد قاموا بتوقيع اتفاقيات وانتهى العنف. إنني أتساءل أحياناً مما لو كان بالإمكان إنقاذ عدد أكبر من أرواح الشراكسة لو أنني لم أدافع عن نظرية الاسترضاء لكل تلك المدة الطويلة.

طمأنه ناخو قائلاً "في مثل تلك الظروف، أنت تمارس الحكم على الأمور يوماً بيوم".

"هل يمكننا أن نذهب إلى هناك ونزور حميد؟" بدأ صبر ديسا مع الرجلين ينفذ لأنهما غيرا دفة الحديث.

"هل يمكننا أن نرحل لنكون أقرب إليه؟"

"أعتقد أنكم إذا ذهبتم إلى عمان الآن فالإحتمال قائم بأن تدلّوا السلطات العثمانية إلى ابنكم مباشرة" أشار عليها تيمور "إن البلدة لا تزال مجتمعاً صغيراً وسوف يلاحظ وصول عائلة مهمة مثل عائلتكم على الفور."

"هل تعني أننا قد لا نراه مرة أخرى إلى الأبد؟" جاء صوتها راعشاً.

حاول تيمور أن يهدئ من روعها "كل ما أقوله هو أن الوقت مبكر جداً. ربما يختلف الوضع في السنوات القادمة. لقد أصبحت أيام العثمانيين معدودة حالياً. ويحتمل أن لا يبقوا في المنطقة إلى الأبد."

ظهرت على ديسا الرغبة في الكلام مرة أخرى، لكنها غيرت رأيها حين أبصرت التعبير الذي ارتسم على محيا زوجها.

قال ناخو "أخبرنا المزيد عن نوعية الحياة في عمان."

قال تيمور "إن الطبيعة والتضاريس جيدان" وقد شعر بالانفراج لأنه استطاع أن يهرب من موضوع حميد وأمه المشحون بالعواطف "إن الجبال تحول دون امتداد الصحراء وتتسبب سيول الربيع في خصوبة الأرض وإزهارها. لقد تطلب الأمر الكثير من العمل الشاق في البداية، خاصة عند وصول مجموعتك" أضاف تيمور "ولكن بالعمل الجاد المخلص، من الممكن أن يحيا الإنسان براحة."

انطلق يتحدث عن حياة ابنهم اليومية وسأله ناخو عن شراء الأراضي من قبل القادمين الجدد.

دخل حسن ومجيد قادمين من الحقول فبدأ تيمور يروي قصته مرة أخرى، مدركاً أن حسن يحمل شعوراً بالذنب لأن حميد قد أخذ إلى الجيش بدلاً منه، وأنه اضطر تبعاً لذلك إلى تحمل تلك السلسلة من العذابات.

تحدثوا مطولاً حتى وقت متأخر من الليل، إذ لم يشعر أي فرد من العائلة بالرغبة في النوم، وكلهم يرغب في سماع المزيد عن حميد، وكأن الاستماع إلى تفاصيل حياته في مكانه الموغل في البعد، سيقربه منهم. في النهاية لاحظ ناخو أن التعب قد بدأ يحل على تيمور فاقترح أن يقوم الجميع إلى فراشهم.

في ساعة متأخرة، وبعد أن خلد الجميع إلى النوم، كلمت ديسا زوجها مرة أخرى، واثقة من أنه يقظ في قيلولته، مثلها تماماً

"لماذا يتوجب علينا البقاء هنا في منطقة سيواس؟" سألته، بنعومة، بحيث أخفت عن صوتها الأحاسيس القوية التي تحركها من الداخل.

أجابها ناخو "هذه منطقة ملائمة وقد ضربنا جذوراً فيها، وقد ازدهر عملنا هنا." وهو نصف يقظٍ وغير مدرك كلياً لعمق وجدية الألم الذي تكابده زوجته.

قالت "لقد أسست العمل هنا في وقت قصير جداً، فماذا يمنعك من عمل الشيء نفسه في عمان؟"

أجابها، وقد عاد إلى الصحو الكامل مكرهاً "هذه المنطقة هي مركز الإمبراطورية. لقد سمعت ما قاله تيمور. إن الجيش لا يمر بعمان إلا راكباً في القطار. إنهم لا يفكرون في التوقف وشراء جيادهم من هناك. بالإضافة، فقد قال تيمور إننا إذا ذهبنا إلى هناك، يحتمل أن ندل الجيش على حميد."

جاء صوتها باحثاً عن التطمين "ولكن سرعان ما ستتغير الظروف".

وعدها ناخو، وهو يضغط على يدها مطمئناً "ستتغير الظروف سريعاً. كوني سعيدة لمعرفتك بأنه حي وسالم، أيتها المرأة العجوز. سوف ترين ابنك مرة أخرى عندما يحين الوقت، أعدك بذلك".

بقي تيمور مع العائلة عدة أسابيع، يساعدهم في العمل مع الجياد. ظل ناخو يلح عليه بإصرار محاولاً ان يقنعه بالبقاء بشكل دائم.

ناقشه بقوله "أنت هنا بين أهلك وقومك" مراراً وتكراراً "فلماذا تريد أن تعود إلى القفقاس حيث معظم الناس الذين عرفتهم في طفولتك إما أنهم غادروا أو قتلوا؟ إن نوعية الحياة جيدة هنا، في تربية الخيل والعمل عليا. لن يتدخل أحد في عملك وستكون مرتاحاً في بيت عائلتي."

أجابه تيمور "لا يمكنني أن أشرح أسبابي. أعرف أنني سأحيا حياة طيبة معكم هنا، يا ناخو. لكن شيئاً في قلبي يقول لي أنني يجب أن أرجع. ثم هناك شقيقي كريم. أريد أن أراه مرة أخرى."

"إذا، لا سمح الله، وجدت أن شقيقك قد توفي " أصر ناخو "فإنك ستظل دوماً محل ترحيب للعودة إلى هنا والبقاء معنا".

"أعتقد أنكم ربما تنتقلون إلى عمان قبل انقضاء العديد من السنوات" أطلق تيمور باتجاهه ابتسامة خبيرة "أنا لا أريد أن أعود إلى الصحراء الآن. إنني أخطط لإنهاء أيامي الباقية حيث بدأتها، في القفقاس".

ظل على عناده، وبعد ثمانية أسابيع من قدومه: أحسّ تيمور بنفاذ الصبر مرة أخرى، والحنين إلى الاستمرار في رحلته. فقد جعله قضاء الوقت مع ناخو يدرك حاجته إلى العودة أكثر من ذي قبل، لتلمس جذوره والأرض التي يذكرها من أيام طفولته. كانت هناك صورة مرسومة لكريم في ذهنه، شاب ظل بالنسبة له كطفل يمثل نوعاً من البطولة، فأصبح متلهفاً على العودة إلى ذلك الزمن، ولو بمجرد الذكريات.

انطلق من منطقة سيواس، متجهاً في البداية إلى استنبول للبحث عن سفينة تحمله إلى القفقاس. بحث من سفينة إلى الأخرى على الأرصفة، في محاولة للعثور على واحدة تحمله في الاتجاه الصحيح.

في نهاية بحثه، وجد شخصاً أخبره أن هناك سفينة ستبحر إلى ميناء سوتشي بعد بضعة أيام. رغم أن فكرة التأخير لبضعة أيام أخرى كادت أن تودي به إلى الجنون لشدة إحساسه بالكبت والإحباط، إلا أنه أدرك أنه لا خيار لديه، فذهب ليبحث عن مكان للإقامة.

في ذلك المساء، وأثناء جلوسه في أحد المقاهي لتمضية الوقت في الحرارة المتناقصة لذلك اليوم، دخل في حديث مع مجموعة من الجنود العثمانيين. كان قد أصغى إلى حديثهم لبعض الوقت، قبل أن يشملوه في نقاشاتهم، مستأنسين برأيه حول أحداث المنطقة.

سمع اسم مصطفى كمال يذكر، فتذكر حديث ناخو عن الرجل نفسه. وكلما ازداد إصغاؤه، زاد إحساسه بالدوار، محاولاً أن يتابع المؤامرات والمؤامرات الفرعية التي يبحث فيها الرجال. بدا أن الإمبراطورية العثمانية بأسرها تتأرجح على حافة تغيير هائل.

سأله أحد الجنود "إلى أين أنت متجه، أيها الشركسي؟"

أجابه تيمور "وكيف تعرف أنني متجه إلى أي مكان؟"

"أنت لا تبدو مثل شخص مرتاح في مقاهي استنبول، ولذلك فلا بد أنك في طريقك إلى مكان آخر".

"إنني عائد إلى القفقاس، إلى بلاد القباردي. أنا عائد إلى المكان الذي أذكره من طفولتي".

انضم إلى النقاش جندي آخر "لا أحد يستطيع أن يعود إلى طفولته. إنها تفقد إلى الأبد. سوف تصاب بخيبة أمل."

ابتسم تيمور بثقة "لا، أبداً، أنا أعرف أنني لن أشعر بالخيبة. إن قلبي يعرف أين يريد أن يكون."

ذهب في اليوم التالي لتقديم فروض الاحترام إلى شامرزا عمر، زوج والدة ناخو. كان الرجل العجوز أكثر هزالاً وضعفاً من وصف ناخو له، لكنه سرَّ لسماع الأخبار عن العائلة في سيواس. أدخل تيمور عبر المنزل لمقابلة زوجته، التي كانت في هذا الوقت طريحة الفراش على الدوام، وكذلك ليقابل شمس، نجل ناخو الأصغر، الذي ما زال تلميذاً في المدرسة. وقف الصبي منتصب القامة مزهواً ونظر في عيني تيمور باستقامة أثناء حديثه معه باحترام. كان شديد الاختلاف عن بقية إخوانه، الذين يقضون معظم أوقاتهم مع الخيول أو مع عائلاتهم، حسب رأي تيمور.

قال للرجل العجوز "لقد كان أمراً في منتهى الحكمة من قبلك أن ترسل أحد الصبية إلى المدرسة العسكرية، لقد صقلوه بشكل رائع وجعلوا منه قائداً محتملاً. لا بد وأنك فخور جداً به".

ابتسم الرجل المسن قليلاً "نعم، نحن فخورون به، ولكن كانت لدينا كل التوقعات لأن نفخر به."

لم يظهر على وجه الصبي أي انفعال من جراء هذا المديح. فمن الواضح أنه بات معتاداً على تحدث جديه الفخورين به على هذا النحو. خطر لتيمور أنه شاهد لمحة من العجرفة في عينيه غير المعبرتين، ولكن ذلك أمر متوقع من فتى تشكل شبابه من قبل العسكر. فقد كان متكبراً هو الآخر في ذلك العمر، ربما بقدر أقل من التبرير.

"أين تقيم يا تيمور" أراد عمر أن يعرف.

بدأ تيمور يشرح "لقد وجدت سكناً قريباً من رصيف الميناء...."

"هراء" ولوَّح الرجل العجوز بيده مشيراً إلى الصالة الرائعة

التي يجلسون فيها "لدينا أكثر مما يلزمنا من الغرف لضيوفنا هنا. لن نقبل بأن نسمع أنك ترفض ضيافتنا. نريد أن نعرف كل شيء يمكن معرفته عن عمان وعن سيواس."

عرف عمر عن جريمة حميد، مع أنه لم يعرف أنه قد انتهى به المطاف في عمان.

قال العجوز لتيمور "لقد حضر إلي ناخو فور سماعه بما حدث لحميد في الجيش. لقد جاء يطلب نصيحتي. فأخبرته أنني لا أستطيع أن أساعد حميد في مسألة تتعلق بالقتل، خاصة قتل شخص عسكري. أخبرته بأن يبقي حميد مختفياً عن الأنظار أو يجعله يغادر الإقاليم العثمانية فور العثور عليه. كان رأيي أن أفضل سبيل هو تهريب الصبي على سفينة شحن عائدة إلى بلاد القفقاس. كان باستطاعتي المساعدة في مثل تلك الخطة لأنني أعرف الناس في سلطة إدارة الميناء وبعض أصحاب السفن. أخبرته بأن يرسل حميد إليّ سراً، بمجرد ظهوره. لكنني لا أعتقد أنه سمع منه أو عنه أي شيء."

استجوب عمر وزوجته تيمور بدون توقف. أحضروا سيلاً من الضيوف إلى المنزل، أرادوا جميعاً أن يسمعوا كل شيء لدى تيمور ليقوله. ولكونه رجلاً مقلاً في الكلام عادة، فقد ألفى نفسه متعباً ومرهقاً بحلول الوقت الذي أبحرت السفينة إلى ساحل القفقاس. غادرت السفينة بعد بضعة أيام متجهة إلى ميناء سوتشي وخفق قلب تيمور في صدره من الإثارة بينما هو يراقب اختفاء خط الأفق في استنبول وسط ضباب الحرارة.

بدت عمان، ورحلة الحياة التي أخذته إليها، مغلفة بنفس الغلالة في عين عقله. كانت عين عقله تتصور بيت أخيه وعائلته في الحابساي، صورة يطغى عليها الاخضرار والخصوبة لزمن كانت فيه حياته ملأى بالاحتمالات. ظهر له، بينما كان نسيم البحر يسفع جلده، أن الاحتمالات تعود مرة أخرى، وأنه، أخيراً، قد تحرر لكي

يستفيد منها.

بدا الأمر وكأنه يعيش حياته رجوعاً إلى الخلف، مستدركاً الخطى التي مشاها قبل العديد من السنين، عائداً إلى المكان الذي بدأت فيه حياته.

أعاد إليه السفر بحراً ذكرى الرعب الذي سببه الحريق، الذي ضرب قومه على الطريق من سبيك إلى فلسطين. ما زال بمقدوره أن يتذكر صرخات أولئك الناس الذين وقعوا بين براثن النار على ظهر السفينة الملتهبة بوضوح وكأنهم ما زالوا يصرخون، والطريقة التي ابتلع بها الماء أولئك الذين لا يحسنون السباحة عندما قفزوا في النهاية طلباً للنجاة. كانت المياه حمراء من دماء الذين ركبوا السفن لأنهم وثقوا فيه وفي أصلان ليأخذهم إلى بر السلامة. لقد أنقذ أكثر ما استطاع انقاذه، لكن موت الذين لم يتمكن من الوصول إليهم ظل يثقل ضميره. قد يتمكن من العودة إلى المكان الذي ابتدأ منه، لكن لن يتمكن أبداً من إلغاء المآسي، التي شهدها في رحلته عبر الحياة.

***

الفصل السادس عشر

شرق الأردن

حين باشر حميد العمل في الخط الحديدي الحجازي، كان يجد صعوبة بالغة في التفاهم مع زملائه في العمل، والذين كان معظمهم من العرب. فهؤلاء يختلفون كثيراً عن شيوخ الصحراء الذين قابلهم في طريقه قادماً من تركيا. لم يكن الرجال الذين يتصببون عرقاً تحت أشعة الشمس إلى جانب الخط الحديدي يعرفون أي شيء عن تاريخ الشعب الشركسي، فهم لم يسمعوا أبداً بكازبك ولا يعرفون شيئاً عن تربية الخيول وجيل الثروة أو تقوية النفوذ. جل ما يعرفونه هو أنهم يكرهون العسكر العثمانيون الذين يمرون بأراضيهم ويعاملونهم معاملة الحيوانات، لكنهم بحاجة إلى القطع النقدية المعدنية التي يضعها الخط الحديدي في جيوبهم حتى تملأ أفواههم وأفواه زوجاتهم وأطفالهم بالطعام. عندما بدأ يفهم بالتدريج ما يقال حوله، اكتشف أن العمال هم تشكيلة من الفلسطينيين والسوريين، الذين تعاقد معهم الجيش العثماني.

بالنسبة لزملائه العمال، كان حميد مجرد رجل آخر بلا ماضي وبمستقبل ضئيل، شخص يقضون أيامهم معه ويعتادون عليه، ولكنه شخص لن يحاولوا التعرف عليه أو فهمه. وكان حميد بدوره سعيداً بهذا الوضع. لأن آخر شيء يرغب في عمله هو شرح وضعه وخلفيته العائلية إلى أي شخص آخر. بذل جهداً مضنياً في التقاط اللهجة العربية المحلية، مصغياً إلى الرجال الآخرين أثناء أدائهم لأعمالهم، يتذمرون ويتجادلون، يطلقون النكات ويبصقون، بدون أن يلفت انتباههم أو يثير فضولهم ومحاولاً أن يسايرهم قدر استطاعته. حين يلاحظ أن أحدهم أبدى ملاحظة انتقادية عن الشركس، كان يبتسم بودٍ، متصنعاً الغباء حتى بدأ يكتسب احترامهم تدريجياً كرجل متواضع يشتغل بجد ويحتفظ بآرائه وشؤونه لنفسه.

كان معظم المشرفين من الشركس، فلم يطل به الوقت حتى انخرط بينهم بما يكفي لترفيعه. لأن طبيعته الهادئة المتواضعة كانت دليلاً على أن بإمكانه الحفاظ على علاقات ودية مع العمال العرب، حتى بعد أن ترقى وتقدم ليعمل مع أبناء جلدته.

تمكنَ من بناء سمعة مماثلة لنفسه داخل المجتمع الشركسي. لأن شاباً وسيم الهيئة حضر مرتحلاً لوحدة ويعمل بجد واجتهاد ليعيل نفسه، هو مرشح على الدوام لأن يلفت أنظار الفتيات الشابات وأهاليهن. لذلك لم يجد حميد نفسه محروماً من الدعوات لزيارة العائلات لمشاركتهما فيما لديهما من طعام.

عندما يكون هناك زفاف في القرية، فهو دائماً في وسط جميع الشباب، يضحك ويرقص معهم، ويتبادل آباء وأمهات الفتيات الشابات نظرات وابتسامات عارفة. ولكن في الليل، بكل الأحوال، وبعد مغادرة تيمور لعمان، كان حميد يبقى لوحده، ويمضي الوقت في التفكير بعائلته في منطقة سيواس. يتذكر والدته وابنة الشيخ تاب أنور، نورسان، والرقة التي تصبغانها على حياة الزراعة القاسية. تذكر الرفاهية التي يحملها طبخهما ورعايتهما، وشاهد نفس التأثير لدى العائلات التي يزورها.

في كل مرة يدعى فيها إلى وجبة ما ويضطر إلى العودة إلى منزله وحيداً، كان يحسّ بغصة من الحزن. لأنه يدرك أنه بغض النظر عما يمكن أن يحصل في الأرجاء الأخرى للإمبراطورية، فهو لن يتمكن من العودة إلى بيته وعائلته في سيواس. لأن للجيش سمعة شهيرة بطول الذاكرة وعدم العفو أو مسامحة أي شخص يخالف الأنظمة والقوانين إلى الدرجة التي فعلها هو.

منذ اللحظة التي ركب فيها مبتعداً عن بيت والده مع عساكر التجنيد، أصبح لوحده، معزولاً بسبب لغته وخلفيته. أما في عائلات شراكسة المهاجرين الشراكسة، فقد بدأ يحس بشيء من الانتماء وأعجبه هذا الشعور. فهو لم يعد يرغب في الانفراد بنفسه حين

يأوي إلى فراشه أو ينهض في الصباح. ما عاد يرغب في الذهاب إلى العمل دون وجود شخص يلوح له مودعاً، أو يعود فلا يجد شخصاً يرحب بعودته ويسأله كيف كان شكل نهاره.

اشتهرت الفتيات الشركسيات بجمالهن ولهذا وجد نفسه يراقبهن باهتمام أكثر مما فعل في ماضي أيامه كلها. فصار يتساءل عن الوسيلة التي سيقرر أي منهن التي سيطلب منها أن تكون زوجته وشريكته: أيهن هي التي سيرغب في قضاء باقي حياته معها. فقد كانت ردود فعلهن على نظراته مختلفة: بعضهن بعيون براقة وضحكات غزلية، بعضهن بصداقة الند للند والأخريات بأعين ساهمة خفيضة واحمرار وجه. راقب الشباب الفتية الذين هم في نفس عمره وهم يباشرون احتفالية الغزل وحاول أن يفهم المطلوب والمتوقع منه.

ظل جزء منه يحن إلى العودة إلى منطقة سيواس ليبقى في حضن عائلته، لكن الرجل الذي كان ينمو داخل الفتى صار يستمتع بمغامرة الانطلاق من جديد في الحياة. بما أنه لن يكون قادراً أبداً على العودة، يفترض فيه أن ينظر إلى المستقبل وبناء أسرة له شخصياً. أراد أن يرزق بأبناء يستطيع أن يعلمهم كل شيء، شباب يمكنهم أن ينشأوا في عمان ويكون لهم فيها جذور ومستقبل آمن، ولا يضطرون مطلقاً إلى التجوال من بلاد إلى الأخرى بحثاً عن وطن وبيت.

أراد أن يربي بنات جميلات وسعيدات قادرات على الضحك والغناء بطريقة حرة خالية من الهموم بطريقة لم تستطع أمه -فيما ظهر له- أن تتصرف بها أبداً.

في أحد الأيام، وبينما كان في زيارة لإحدى العائلات المجاورة، ورد خبر بوجود شخص غريب في البلدة يسأل عنه. لاحظ مضيفو حميد كم أحال الخبر وجهه إلى الاصفرار ودرجة التوتر التي انتابته. أصبح واضحاً لديهم أن هناك شيء أو شخص

في الدنيا يخافه حميد.

سأل حميد الصبي الذي جاء بالخبر "أي نوع من الرجال هو؟"

"إنه رجل عربي، تاجر من استنبول. يقول أنه يحمل رسالة من تيمور."

إذ كان الرجل يعرف اسم تيمور، فلا بد إذن أنه رجل موثوق بطريقة ما، فكر حميد. ولكن ربما تكون تلك خدعة. لأنه لا بد من وجود ثمن لرأسه وربما يكون تاجر عربي قد سمع عنه في استنبول وعرف اسم تيمور من مصدر أو جهة أخرى.

سأل حميد "هل قال لك أي شيء حول طبيعة الرسالة؟"

"إنه يرفض التحدث مع أي شخص آخر غيرك." كان الصبي متأثراً بشكل جلي من الرجل الذي يتلقى مثل تلك الرسائل المهمة، السرية من أمكنة بعيدة بهذا القدر وأمل أن يكون له شأن أكبر في هذه المغامرة.

قال حميد "خذه إلى ضفة النهر" متفكراً أثناء حديثه "تأكد من أنه لوحده وأنه لا يوجد أي شخص آخر يراقبنا. أطلب منه أن ينتظر وبعد ذلك تعال وابحث عني لتأخذني إليه."

انطلق الصبي مبتعداً، سعيداً بمهمته، وعاد بعد حوالي نصف ساعة، فوقفا سوية تحت ظل بعض الأشجار، يراقبان الرجل أثناء جلوسه، يحدق في البعيد عبر الماء. لم يظهر منه ما يستوجب الشك.

قال للصبي "سأذهب وأتكلم معه، ابق أنت هنا وراقب. حذرني إذا رأيت أي أشخاص غرباء يقتربون منا."

طأطأ الصبي برأسه بانفعال وأخفى نفسه خلف شجرة، متلفتاً حواليه في جميع الاتجاهات، آملاً أن يلمح غريباً وأن يتمكن من إطلاق الإنذار. اتخذ حميد طريقه نازلاً إلى ضفة السيل.

قال للرجل "أنا حميد. من الذي يسأل عني؟"

نهض الرجل واقفاً ليسلم عليه وبدا وجهه ودوداً. صافح حميد بحرارة "لقد جئت حاملاً رسالة لك من تيمور."

سأله حميد "وكيف تعرفت إليه؟"

"إنني أعيش في استنبول. أعرف جدك وقد تم تقديمي إلى تيمور في بيته."

"وهل كان تيمور في بيت جدي؟"

"كان قادماً من سيواس، حيث كان في زيارة عائلتك. وهو يعرف أنني أكن لجدك وأبيك الكثير من الاحترام. عندما سمع أنني سأسافر في هذا الاتجاه عما قريب، طلب مني أن أحمل إليك رسالة. لقد طلب مني أن أخبرك بأن لا تخشى شيئاً من جانبي، وأن بإمكانك الوثوق في تكتمي."

شيء ما في الرجل، أسرَّ لحميد أن هذا الكلام صحيح، فجلس الاثنان عند حافة السيل.

سأل حميد "وما هي الرسالة؟"

"طلب مني أن أخبرك بأن عائلتك كلها بخير. لقد تزوج حسن ونورسان، وأن ثروة أبيك تزداد وتتنامى:

ضحك حميد "لقد كان أبي على الدوام رجل أعمال ناجحاً."

وافقه التاجر العربي " إنه أسطورة. لقد طلب مني أن أخبرك أن والدتك تشتاق إليك كثيراً ولكن ربما ستتمكن في يوم ما أن تجيء لزيارتك. لم يخبرني بالسبب الذي يجبرك على الابتعاد عن مثل تلك العائلة."

نظر الرجل في عيني حميد "لكنني أستطيع أن أخمن أن الأمر يشكل صعوبة لكم جميعاً."

"نعم" أحنى حميد رأسه في إيماءة احترام لتكتم الرجل وتفهمه.

"إنني أؤمن أن لا شيء يقدر على فصم عرى عائلة بمثل هذه القوة إلى الأبد."

قال حميد "أشكرك، تعال معي، لا بد وأنك جائع. أعتذر عن إبقائك في الخارج، وعدم استقبالي لك في بيتي بشكل لائق." أحسّ في هذه الآونة أن الرجل صادق فاصطحبه إلى بيته، وهو يلوح شاكراً للصبي الذي خابت آماله وما زال يراقب من بين الأشجار.

***

الفصل السابع عشر

القفقاس

شعر تيمور بمعنوياته ترتفع مع ازدياد توغله راكباً في بلاد القفقاس. فقد كان الريف بنفس الروعة والتأثير الإيحائي الرائع الذي يذكره من أيام طفولته. فالجبال ترتفع شامخة فوقه، والنسور تحوم وتتوقف في السماء فوق تيارات الهواء، تنظر بهدوء إلى الفضاءات الواسعة المفتوحة تحتها. كان هنالك شيء مختلف في الجو، لم يستطع أن يسبر أغواره.

كان هنالك نوع من الصمت الموحي بالخطر يخيم على التضاريس الطبيعية. طفق يقول لنفسه، ربما يكون السبب في ذلك أنه قد نسي إلى أية درجة كانت بلاده هادئة ومسالمة فيما مضى. ربما سيعاود التآلف مع أجوائها مرة أخرى.

ظهرت له القرية الأولى التي وصل إليها مهجورة. وقد أحرق العديد من بيوتها حتى سوي بالأرض، وهو منظر أعاد إليه ذكريات المناظر التي شهدها في بلاد البلقان. في الأحوال الطبيعية، إذا احترق بيت بطريق الخطأ أو كحادث طبيعي، فإن جميع أفراد المجتمع يعملون سوية ليساعدوا أولئك الذين تكبدوا الخسارة، ويعاد بناء البيت إلى سابق عهده، وربما يتم تحسينه، خلال أسابيع قليلة. أما في هذه القرية، على أية حال، فقد بدا أنه لم تقم أية محاولة لإعادة بناء ما قد تم تدميره. بات واضحاً من حالة الخراب بين الهياكل المحترقة للبيوت السابقة، أنها بقيت واقفة، متروكة على حالتها المكشوفة لعناصر الطقس، لبعض الوقت. ما دامت قد تركت وسمح لها بالبقاء على تلك الحالة المدمرة، فإن ذلك يعني أن العائلات التي كانت تعيش هنا قد رحلت الآن، أو أنها فنيت في الحرائق.

وبكل الأحوال، لم تكن الأبنية الخربة هي التي أعطت القرية ذلك المظهر الكئيب. فحيث كان يفترض وجود أقنان مليئة بالدجاج والبط، التي تخربش في الأرض، لم يكن هناك شيء منها. فقد دمرت الأسيجة والأقفاص وتركت لتتعفن وتصدأ. كانت العلائم الوحيدة على وجود أي أثر للحياة، بعض الكلاب الضالة، يحومون خلف البيوت. بدت الحقول مهملة ومهجورة ولم تعد هناك أية مخزونات من الحطب خارج البيوت، التي لم تدمر.

ترجل تيمور ودخل إلى أول بيت للسؤال عما إذا كان بوسعه شراء بعض الطعام وملء مطرته بالماء. لم يظهر وجود أي أثر لسكنى الناس، فقد كانت النوافذ مقفلة والمصاريع محكمة الإغلاق. قرع الباب وسمع بعض الأصوات في الداخل.

صاح "إنني أبحث عن بعض الطعام على سبيل الشراء" وفي نيته أن يطمئنهم على أنه لا يضمر لهم أي سوء.

سمع صوت احتكاك بينما أزيحت الأقفال إلى الخلف وانفتح الباب بمقدار شعيرة. حدق فيه وجه رجل عجوز كلّمه بحزم "ليس لدينا ما نستغني عنه من الطعام. إن ما لدينا لا يكفي لإطعامنا."

صفق الباب وقفله، ولم يجدِ كل الدق الذي مارسه تيمور في إقناع الرجل بفتحه مرة أخرى.

ذهب تيمور إلى بيت ثانٍ وتلقى نفس الجواب. عند الباب الثالث باعته امرأة قليلاً من الخبز وناولته شيئاً من الماء. ظهر عليها قدر من الخوف أقل من أصحاب البيوت الأخرى. سألها تيمور بينما هي تناوله الطعام "ما الذي حدث هنا؟ أنا لم أسافر في هذه البلاد منذ سنوات طويلة. ولا أذكر أن الأمور كانت بمثل هذا السوء".

قالت "لقد أصبحت الحياة أكثر صعوبة بكثير، في كل مرة تبدو فيها الأمور وكأنها ستتحسن، يعبر أمير آخر من أمراء الحرب هذه

القرية، ينهب ويقتل. إن الحكومة عاجزة لا نفع منها والجيش أسوأ من المجرمين. لم تعد هناك أية غاية من العيش هنا بعد الآن."

سأل تيمور "وهل الوضع هو نفسه في كل الإقليم؟"

نفضت كتفيها "من يدري؟ لم يعد يمر بنا أي مسافر صديق أو غير معادي. نحن فقط نعرف أن الظروف سيئة هنا. إذا كنت تخطط للسفر بعيداً بمفردك فإما أنك في منتهى الشجاعة أو غاية في الحماقة."

قال تيمور وقد صعقته كلماتها "هذه بلادي، وأنا لا أصدق إنني لا أستطيع أن أتجول فيها بحرية".

أطلقت المرأة ضحكة ساخرة. وقالت "أتمنى لك الحظ السعيد يا صديقي" وعادت إلى الاختفاء خلف نوافذها المغلقة.

عاد إلى امتطاء جواده واستمر في الركوب، أملاً أن تكون المشاكل محصورة محلياً وأنه سرعان ما سيجد مستوطنة فيها أناس مطمئنون، أحوالهم مزدهرة، يرحبون به إلى موائدهم لتناول وجبة ساخنة وربما يسمحون له بالمبيت في سرير، أو على الأقل في حظيرة. لكنه وجد نفس الأوضاع في كل مكان ذهب إليه. ظهر أن الطعام يكاد ينعدم ولم يعد أحد يمتلك أية بذار يستطيع أن يزرع بها محصولاً جديداً. فقد طغى نفس المظهر اليائس على كل قرية كما هو الوضع في القرية الأولى. إذ كانت البيوت إما مهدمة أو فارغة وقد اختفى منها جميع الرجال صغار السن. أصبحت البلاد أرضاً مسكونة بالأشباح وكل شخص نجح في رؤيته ظهرت عليه اللهفة في الهروب مبتعداً عن الفارس الغريب.

سرعان ما تعرفت عليه القلة من الناس الذين تمكن من التحدث إليهم، ورأت فيه واحداً منهم ففتح أناسها قلوبهم قليلاً له، ولكن فقط بما يكفي لإخباره أن الظروف قد تغيرت نحو الأسوأ بالنسبة للناس وبأكثر مما يظهر على السطح. فكل وجه طالعه كان ناحلاً ومتهدلاً من مزيج الجوع والقلق. استمر في الركوب والسفر

لأيام عديدة حتى وصل إلى حدود القباردا، موطنه الأصلي الحقيقي.

حتى هناك، ساد جو من الشك والخوف في الأجواء بين الناس العاديين، شعور بأنهم جميعاً يعيشون على حافة فوهة بركان يحتمل أن ينفجر في أي يوم ويكنس أرواحهم وممتلكاتهم القليلة في بحر من الحمم المنصهرة. فقد كان الجوع والمرض اللذان ابتليا بهما يجعلانهم في منتهى التعاسة، لكنهم كانوا أكثر خوفاً من التغيرات التي يمكن أن تكون مختبئة لهم في زوايا الطرقات. فالإنسان لا يمكنه أن يتفاعل بأي شيء عندما لا يتوفر له ما يكفيه من الوقود ليبقيه دافئاً.

ظل تيمور يتذكر أصوات الناس الذين يغنون أثناء عملهم في الحقول. تذكَّر القرى الآمنة المسالمة المليئة بالبيوت التي تتصاعد من مداخنها الدخان، ومن جنباتها أصوات النساء. أما الآن، فالصمت مخيم في كل مكان، والحقول فارغة. كثيراً ما مرَّ بمجموعات من الرجال القابعين في الظلال، ينظرون إليه وكأنهم يوازنون فيما إذا كانوا سيهاجمونه من أجل حذائه وأي ذهب قد يحمله في حزامه. لذلك اضطر تيمور إلى الإبقاء على مسدسه ملقى عبر حضنه في مرأى من الجميع كرادع لهؤلاء. حين كان يشاهد مجموعة من الرجال قبل أن يشاهدوه، ينسحب ليختبئ بين الأشجار وينتظر مرورهم. كان أحياناً يشعر بأنه واثق من رؤية وجه ما يذكره من أيام طفولته، لكنه لم يشعر بأي دافع ليناديه عليه حتى يذكره بنفسه.

كان متلهفاً على الوصول إلى بيت شقيقه.

أدرك أنه بدلاً من العودة إلى بيته ووطنه ليتقاعد بسلام وأمان، وهو ما كان تيمور يمني نفسه به نصف الوقت بأن يكون ذلك مصيره: سيتحتم عليه القيام بالمزيد من العمل في الحابساي، أكثر من عمان. فقد كان هناك أناس بحاجة إلى المساعدة والقيادة أكثر

مما دار بخياله. فقد رأى ذلك في وجوههم وفي الحقول التي تركوها بوراً. كما رآه في البيوت الخربة والماشية الهزيلة العجفاء.

أثناء اقترابه منن قرية الحابساي وبيت شقيقه، بدأت معنوياته ترتفع مرة أخرى. فقد أدرك أنه سيتلقى هنا استقبالاً دافئاً. لم تتغير الأحراش كثيراً منذ وقت مغادرته واستطاع أن يتعرف على العديد من الأماكن التي اصطاد ولعب فيها كصبي. كان غارقاً في ذكريات طفولته عندما شعر بضربة قطعت أنفاسه وأطاحت به عن ظهر جواده لتلقي به على أرضية الغابة، وقد خففت من سقطته المؤلمة أوراق اللزاب الأبرية التي تكومت على مر السنين. رأى رجلاً يمسك بعنان جواده وآخر جالساً فوقه، ممسكاً بسكين مصوبة إلى حلقه، بينما كان الثالث يشهر مسدساً باتجاه رأسه.

سأله الذي يمسك المسدس "من أنت. وما هو شأنك هنا؟"

عرف على الفور أنهم قبارديون لكنهم لم يتمكن من استرداد أنفاسه بما يكفي من السرعة لتطمينهم. فقد خشي من أن يفسروا صمته ليعني أنه في مهمة شريرة من نوع ما، وبالتالي يحزّون عنقه بدون أن يطرحوا المزيد من الأسئلة. تحامل على نفسه فأخرج بالقوة الكلمات التي أخبرهم فيها عن شقيقه وأن اسمه هو تيمور. لم يتمكن الرجل الجالس على صدر تيمور أن يفهم ما يقوله فانحنى فوق وجهه مقترباً إلى درجة أن تيمور استطاع أن يشم رائحة أنفاسه الكريهة ويشعر بالنصل يضغط بقوة أكبر على لحمه.

زمجر الرجل "ماذا قال عن اسمه وشخصه؟"

قال الرجل الذي يحمل المسدس "لقد نطق باسم تيمور. إنه يدعي كونه شقيق كريم من الحابساي".

سمعهما الرجل الذي يمسك بالجواد واقترب منهم. لاحظ تيمور أن الرجل أقرب إلى سنه من الاثنين الآخرين وظن أنه شاهد لمحة إدراك وتعرُّف في عينيه.

"تيمور؟" اقترب، تاركاً الجواد يرخي رأسه ويرعى العشب، بعد أن استفاق من صدمة خطف فارسه عن ظهره. "اتركاه ينهض، أنا أعرفه."

تراجع الرجلان الأصغر سناً، محتفظين بسلاحيهما مشهرين، مخافة أن يكون زميلهما قد أساء تقدير الموقف. تحامل تيمور على نفسه ليقف على قدميه ونفض ثيابه. مد الرجل الأكبر سناً يده وتصافح الرجلان. أخذ تيمور، أثناء تحديقه يرى ملامح رجل أصغر سناً عرفه فيما مضى تحت الملامح الخارجية الخشنة المهترئة للمقاتل العجوز الواقف أمامه.

"أحمد؟" أطلق السؤال، غير قادر أن يصدق أن يكون صديق طفولته قد شاخ إلى ذلك الحد.

"آه" ها قد تذكرتني!" ألقى أحمد بذراعيه حول صديقه القديم بينما تبادل الرجلان الأصغر سناً نظرات يائسة. فقد كانا يفضلان أن يعثرا على شخص يمكنهما قتله انتقاماً لكل عمليات القتل التي اضطر قومهما إلى تحملها عبر السنوات الفائتة.

"سيكون شقيقك في غاية السعادة لمرآك".

أصروا على أن يعود تيمور إلى امتطاء جواده، لأنه كان بالكاد قادراً على الحركة من اثر الصدمة التي تلقاها في سقطته، ومشوا إلى جانبه. تكلم أحمد طيلة الطريق إلى القرية، بينما أبقى الرجلان الأصغر سناً عيناً حذرة على كل حركة صغيرة خلال الشجيرات وكل ظل بين الأشجار.

"ما الذي حدث هنا" سأل تيمور صديقه أحمد بعد أن استعاد قدرته على النطق بسهولة.

"لماذا يثير مرور رجل غريب على ظهر جواده كل هذه العواطف الشرسة لديك ولدى أصدقائك؟"

"السبب هو القوات الثورية" كاد أحمد أن يبصق لكنه سيطر على نفسه. "إنهم يمزقون صفوفنا. إنهم يثيرون الفلاحين ويطالبونهم بسفك الدماء. إنهم يريدون أن يشهدوا ذبح كل الارستقراطية في القباردا. إنهم يجوعونهم ويرهبونهم حتى يصلوا بهم إلى نقطة الرغبة في قتل أي شخص لمجرد تغيير الظروف. لكن يبدو أن كل تغيير يحدث هو نحو الأسوأ."

قال تيمور "ذلك سيجعل منهم حلفاء طبيعيين للروس." وقدصدم لسماعه بظهور مثل هذه المشاعر في بلاد يذكر فيها جيداً كيف كان العمال ومالكو الأراضي يتبادلون الاحترام بشكل يثير الاهتمام. "إني أسمع أن القيصر يعاني من متاعب جمة هنا."

بسط أحمد ذراعيه "بالطبع لديه مشاكل، ويجب أن يعني ذلك أن تكون لدينا الفرصة المثالية لكي نفوز بالاستقلال عن الهيمنة الروسية في النهاية. لكن الفلاحين يفعلون ما يريده الآخرون منهم. لقد أضعفونا بوسائلهم الإجرامية ودعايتهم السخيفة. لم يعد أحد يستطيع أن ينام في فراشه آمناً وهكذا يستمر الروس في ظلمنا."

"يفترض فينا أن نغتنم هذه الفرصة ونشكل إتحاداً لجمهورية في شمال القفقاس. بإمكانها أن تضم كل الشعوب المسلمة: الشركس، البلقار، القرشاي، الشيشان، والإنجوش.

بدلاً من ذلك نظل شعوباً منقسمة على نفسها ويتمكن الروس من عمل ما يريدون. نحن بحاجة إلى قادة لإرشاد الفلاحين إلى أفضل طريق للتقدم، نحن بحاجة إلى توحيد أنفسنا حتى نستطيع أن نخلص أنفسنا من الحكام الظالمين. إذا استطعنا أن نتخلص من القوزاق ستكون لدينا أراضي أكثر نحن بحاجة إليها. ستمتلئ بطون الجميع ولن يعود أحد يحسد جاره الملاصق. لم يعد لدينا قادة محترمون يا تيمور. إن شقيقك طاعن في السن وقد غادرت أفضل عائلات الوَرْق إلى تركيا. ها أنت عدت. ولذلك ربما تستطيع أن تمارس دوراً ريادياً نشطاً."

ضحك تيمور "آه لا، لقد شهدت من سفك الدماء، أكثر من كفايتي في البلقان. ولا أريد المزيد منه. لقد عدت إلى الوطن لكي أتقاعد، لكي أحيا أيامي الباقية في سلام. لقد فكرت ربما حتى في اتخاذ زوجة لي والاستقرار معها في مكان ما. أنا لا أريد قضايا أخرى لأناضل في سبيلها."

هزَّ أحمد رأسه بجدية "إذا عدت إلى هنا على أمل أن تحيا أيامك الباقية في سلام، فقد ارتكبت خطأً كبيراً، يا صديقي. كان يجب عليك أن تبقى خارج البلاد."

عندما اقتربوا من بيت شقيقه، استبقهم أحد الشابين وانطلق لينبه العائلة، بحيث أنه مع وصولهم عند البوابة، كان كريم قد خرج لتحيتهم وهو يعرج، أحسَّ تيمور بحرقة الدموع في عينيه لمرأى الرجل العجوز ماثلاً أمامه. فهو يذكره شاباً في أوج قوته، يقف فوقه مثل البرج في صباه، والآن ينظر تحته إلى رجل محدودب الظهر ذابل. استطاع بصعوبة أن يتعرف على الوجه العجوز الذي حفرته التجاعيد، يبتسم له ناظراً إلى فوق. لقد كان يبدو له يوماً على درجة من الضخامة وهو يبتسم له حتى أنه كان يشبه مارداً نارتياً ملتحياً، كله أسنان براقة وخدود متوردة. جعله منظر كريم يدرك بأسى طول المدة التي بقي فيها غائباً."

"تيمور" جاء صوت الرجل العجوز مشروخاً وضعيفاً. "لكم تغيرت. ما كنت لأتعرف عليك"

"السبب هو شمس الصحراء، يا كريم، إنها تمتص الحيوية من الجلد وتترك الرجل كأنه حبة زبيب." ترجل وعانق شقيقه. "العودة أمر طيب. أشعر بالسعادة لعودتي إلى الوطن."

"أتمنى لو كنا نستطيع أن نقدم لك ترحيباً أفضل من هذا" أشار كريم إلى النساء والأطفال الذين وقفوا في الخلف بخجل بينما تعانق الرجلان المسنان. "لم يعد هناك الكثير من العائلة هنا. فقد ذهب الجميع إلى تركيا أو أنحاء أخرى من العالم، بعد أن طردهم

الأغبياء الذين يبدون مصممين على تدمير أراضينا. أدخل، أدخل." وأشار إلى باب مفتوح يؤدي إلى البيت. "هناك الكثير جداً مما أريد سماعه."

أجال تيمور بصره في البيت أثناء دخوله. ظهرت الأبنية قديمة ومنهكة مثل كريم نفسه.

كان لكل شيء هيئة مهملة غير معتنى بها، تماماً كما رأى في القرى، لكن الفارق هنا هو أنه كانت هناك نار مشتعلة في المدفأة، وكان يوجد طعام على المائدة.

تحلق الأطفال الفضوليون حوله، وجوههم شامخة ومكتسية بالحكمة قبل أوانها ولكنها ليست غائرة ولا بائسة بقدر الوجوه التي رآها بين الفلاحين. ما زالت بذور الأمل موجودة ويمكن العثور عليها في بيوت مثل بيت كريم، استطاع تيمور أن يرى ذلك، لكنها بدت وكأنها لا تجد سوى التربة الصخرية لتحاول أن تنمو عليها.

لم يكن كريم ناحلاً في جسمه فقط: بل ظهر وكأنه قد فقد إرادته. تذكر تيمور رجلاً ضخماً، قوي البنية، قادر على أن يهز الدنيا بصوته الجهوري. أما الآن فهو خانع، وتحيط به هالة من الحزن تلتف حول كتفيه المحدودبين. استطاع أن يرفع معنوياته قليلاً بما يكفي لأن يرحب بعودة تيمور إلى موطنه ويطمئنه إلى أنه موضع ترحيب للبقاء المدة التي يريدها في البيت، ولكن في المرة الثانية التي صادف تيمور فيها أخاه حين لم يكن يتوقعه، وجد أخاه محنياً أمام النار. يحدق في الفضاء الخاوي بيأس طاغٍ. أحسّ تيمور بمعنوياته تنحدر إلى نفس أعماق معنويات الرجل العجوز.

في ذلك المساء، وبعد أن أكل الجميع وشرب، استرخى كريم وأصبح أكثر ميلاً إلى التحدث، بينما أخذ الأطفال يستقرون في فراشهم تمهيداً للنوم وجلست النساء في زاوية يتحدثن في هدوء أثناء إتمام أعمالهن في الخياطة والتنظيف، جلس الشقيقان يبحثان في شؤون عمان وسيواس، مصطفى كمال والنهاية المحتومة

للإمبراطورية العثمانية، وفي النهاية، تحوّل حديثهما إلى المسائل الأقرب إلى الوطن. أسرّ كريم لشقيقه "يقال لي أن روسيا كلها في حالة هيجان، فقد وصل انعدام القناعة بالقيصر من قبل الشعوب إلى ما يقارب نقطة الانفجار، ورغم ذلك، فالطبقة الحاكمة ما تزال ترفض أن ترى علامات الخطر. أنهم يعتقدون أن القوزاق سوف يحمونهم لأنهم درجوا على ذلك دائماً، لكن الفلاحين يزدادون قوة طيلة الوقت. لأن أعدادهم بكل بساطة كبيرة جداً. ما لم يحصل شيء جذري ليحسن أحوال الناس المعيشية فأنهم سيثورون ويقتلون كل عضو في الطبقة الارستقراطية.

لقد لاقى العديد من أصدقائنا ذلك المصير. وقد جاءت الحرب في الشرق الأقصى بنتائج كارثية. تم تجنيد العديد من شبابنا كعساكر للقتال على تلك الجبهة. اضطروا إلى الذهاب لأن البديل الوحيد هو الموت جوعاً. لقد عاد معظمهم إلى الوطن، مفضلين أن يغامروا بحظوظهم هنا."

سأل تيمور "وهل قتل الكثير منهم؟"

"طبعاً، قتل البعض" نفض كريم كتفيه. "وقد أخذ البعض الآخر أسرى من قبل اليابانيين ليعملوا كالعبيد في مصانعهم في الصين واليابان."

اعترض تيمور "لا يمكن للقبارديين أن يعملوا كالعبيد" وقد أرعبته الفكرة.

تنهد الرجل العجوز "كنت سأتفق معك في يوم من الأيام، لكن العالم يتغير، يا تيمور. إذ لا يعرف ما يخبئه المستقبل لأي منا إلا الله سبحانه وتعالى."

* * *

الفصل الثامن عشر

القفقاس

بصق بيطال في وجه الرجل، وقد ضغط حذاؤه بشدة على حلقة، وأجال بصره في الغرفة. اتسعت عينا الرجل من الرعب لكنه لم يستطع أن يصدر أية أصوات بسبب الضغط من حذاء بيطال. ظلت أصابعه تخرمش الأرضية كأنها تحاول أن تسحب الجسم السجين إلى بر الأمان، لكن سيف بيطال كان يحفر في لحمه فوق القلب مباشرة وعرف الرجل أنه إذا تحرك فسوف يموت في اللحظة والتو.

انحشر باقي أفراد عائلة مالك الأراضي في زاوية، وكلهم من النساء والأطفال. رغم أن العائلة يمكن أن تعتبر أحوالها قد ساءت بسبب المصاعب الأخيرة، إلا أن البيت بدا مزدهراً بالنسبة لبيطال ورفاقه المغيرين، الذين اعتادوا على شظف العيش في الجبال.

فالأطعمة المجففة معلقة في غرفة المؤونة، ومن بينها غزال شبه كامل، وكانت قطع الحطب مصفوفة إلى جانب المدفأة التي تهدر فيها نار هائلة. الحقول المحيطة بالمنزل مخدومة جيداً من قبل العمال الكثيرين الذين يشتغلون في الأرض مقابل مبالغ تافهة. رقد كلبان كبيران، مذبوحين، فقد حاولا الدفاع عن العائلة عندما اندفع المهاجمون إلى داخل البيت، في زاوية الغرفة: والدم ينساب في صمت من حلقيهما اللذين قصتهما السيوف.

كان بين الجمع صبي، قدَّر بيطال أنه في الحادية أو الثانية عشرة من عمره، لم يتوقف عن التحديق فيه بكراهية غاضبة بينما استمر بيطال في سحق بقايا مظاهر الحياة من والده. صبي وسيم الخلقة، ذو كبرياء ووقفة رجولية، تخيل بيطال أنه سيقوم بإدارة المنزل والأرض بعد بضع سنوات، تماماً كما فعل أبوه وجده من

قبله. وعليه يجب تعليمه درساً لن يقدر على نسيانه إلى الأبد.

أعلن بيطال "ليكن هذا درساً لكم جميعاً، لا يمكنكم أن تسرقوا من الناس المساوين لكم وأن تأخذوا أكثر من حصتكم العادلة، بدون أن يجيء زملاؤكم الناس باحثين عن الانتقام. لقد صدرت عدة تحذيرات، لكن الناس أمثالكم تجاهلوها. أنتم مستمرون في إقامة الولائم بينما يهلك جيرانكم من الجوع، وتستمرون في استخدام الناس المساوين كعبيد شخصيين لكم."

صارت بلاغته الخطابية تغذي غضبه وتزيده فيمعن في الضغط بحذائه إلى الأسفل. لوّح الرجل بيديه في يأس حول ساقي بيطال، لكن قوته كانت تتلاشى مع افتقاره للتنفس فلم يزعج بيطال نفسه بطعن الرجل. بدفعة قوية مؤثرة من قدمه، شعر بيطال بحلق الرجل ورقبته ينهاران تحت قدمه وسمع لهما صوت تكسير العظام مع غرغرة من البصاق والهواء.

لم يعد الصبي، وهو يشاهد عيني أبيه تجحظان في آخر نزع الموت، يتمكن من السيطرة على نفسه. تخلص بقوة من أذرع أمه وشقيقاته، واندفع يجري مطلقاً صرخة تجمد الدم في العروق، مشهراً سكين مطبخ في يده.

حزَّ بيطال رأسه عن باقي جسده بالسهولة التي يمكن لرجل أن يقتل بها ذبابة، وأرسل الرأس متدحرجاً إلى زاوية الغرفة بينما استمر الجسم الضئيل يركض بقوة زخمه قبل أن يسقط إلى الأرضية بجانب الوالد. أطلقت النساء اللاتي كان الرعب قد عقد ألسنتهن حتى تلك اللحظة، زعقة من الحزن تجاوبت أصداؤها إلى بعد أميال عبر الليل المهجور في الخارج، حتى ترددت الأصداء في الجبل والغابات، فجعلت الذئاب تعوي والناس يتكتلون أمام مدافئهم، وقد جحظت أعينهم من الخوف والتوجس. لم تكتب النجاة لأحد في تلك الليلة حتى يروي كيف اندفع بيطال ورجاله إلى داخل البيت وبدأوا يعاقبون كل من فيه على خطايا أبناء طبقتهم

وأسلافهم.

كان من عادته أن يترك وراءه بضعة شهود حتى ينشروا قصص الهول والرعب التي شهدوها. فهو يحب أن يتخيل أن النساء عندما يضعن أطفالهن في السرير ليلاً، فأنهن سيروين لهم قصصاً عن بيطال المرعب: مقاتل لا بد وأن يجيء إذا لم يكونوا أطفالاً صغاراً طيبين يسمعون الكلمة:

رجل مرعب في مطالبته بالعدالة وإحقاق الحق إلى درجة أنه سيتمكن من شم رائحة أية خطيئة يمكن أن يكونوا قد ارتكبوها، أو حتى يفكرون في ارتكابها.

لكن في تلك الليلة، أثارت صرخات النساء غضبه وألهبت عواطفه. كانت شقيقات الصبي جميلات ويافعات والأم إمرأة حسنة المظهر والشكل، لكن ذلك لم يكن ليشكل فرقاً. حتى النساء المسنات في العائلة لم يرفع عنهن الإذلال قبل موتهن. سمح لرجاله أن يغتصبوهن ثم يقتلوهن عن آخرهن، من أصغر ابنة وحتى المرأة الأكبر سناً. وشارك هو بنفسه في اللعبة بحماس. فقد كانت شهوة بيطال إلى الدم بنفس قوة شهوته الجنسية، وقد تركته الليالي الكثيرة الطويلة التي قضوها في الجبال وهم يفكرون في النساء، جائعاً متشهياً للحم اللدن.

لم يعد يشعر أنه مضطر إلى الإغارة على هذه البيوت بسرعة والنجاح في الفرار قبل وصول النجدة. ففي هذه الأيام، لم تعد النجدات تصل مطلقاً. إذ أصبح كل شخص متعلقاً بحياته وغير راغب في المخاطرة بها من أجل حياة أي شخص آخر. ولهذا أصبحت يده طليقة في التصرف على هواه في هذه الأرض حيث كان نظام القوة يتغير ببطء.

بعد حوالي ساعة، وبعد انتهاء محنة النساء وإخماد الأنفاس من كل أجسادهن، تمشى بيطال ورجاله مختالين بثقة وزهو خارجين إلى هواء الليل البارد. لكنهم ركلوا بعضاً من قطع الحطب

المشتعل إلى خارج المدفأة قبل رحيلهم، بحيث جعلوها تلتهب أثناء طيرانها حول الغرفة، محرقة كل شيء وقعت عليه.

لم يسرع الرجال المشبعين المرتوين مبتعدين عن مشهد البيت المحترق، فقد أرادوا أن يتمتعوا بذكريات نصرهم، مقنعين أنفسهم بأن حملتهم المقدسة في سبيل العدالة كانت محقة ولائقة وأنهم سرعان ما سيصبحون الحكام غير المنازعين لبلادهم. ارتفعت الشرارات عالياً في الليل الساكن، وقد شكل تطايرها منظراً رائعاً، صدرت عنه ومضة دفءٍ في صقيع ما قبل الفجر.

***

الفصل التاسع عشر

تركيا

شاهد ناخو الرجال أثناء اقترابهم من الحقل الذي كان يعمل فيه مع الجياد. عرفهم على الفور وشعر بقلبه يغوص بين أضلاعه. فقد أصبحت الفترات الزمنية التي تتخلل زياراتهم تقصر وتقصر بينما تتعاظم مطالبهم في كل مرة. إذ كان واضحاً لكل ذي عينين أن ناخو رجل ناجح في عمله وأصبحت السلطات تدرك في هذا الوقت كم هو حريص على إبقاء أبنائه خارج الجيش، خاصة بعد الذي حصل مع حميد.

وهكذا ظل ثمن إبقاء ولديه خارج قبضة الجيش يرتفع كل بضعة أشهر.

أدرك ناخو أنه لو تم تجنيد حسن أو مجيد فسوف تتم مضايقتهم حتماً على جرائم شقيقهم، وسوف تحال حياة أي منهما إلى جحيم أكثر مما حدث لشقيقهم. أصبحت قدرات حسن مع الخيل في هذه الآونة تتفوق على قدرات أبيه. فقد أصبح بمقدوره أن يساعد فرساً في مخاضها وينقذ كلاً من الأم والمهر في مواقف يضطر فيها ناخو إلى الاعتراف بأنه شخصياً كان سيفقد واحداً من الاثنين. أصبح قادراً على ترويض وعسف أي جواد في نصف المدة التي يتطلبها الأمر من ناخو وأصبحت لديه دراية متعمقة وإحساساً غريزياً بالجياد التي تصلح للتربية والاستيلاد، مما جعل منه قوة لا تجارى عندما يخرجون بقصد البيع والشراء. وهكذا بات ناخو يعرف قيمة حسن بالنسبة له.

كان مجيد يقضي كل أوقاته عاملاً في المزرعة أو مع عائلته ولم يتعلم اللغة التركية بعد. كان أشد أبناء ناخو حدة في طباعه. عرف أبوه أنه لو أخذ إلى الجيش فهو سيعاني نفس مصير حميد

بلا ريب، إذ سيسخرون منه ويعاقبونه على بطئه في فهم الأوامر والاستجابة لها. وهو سيفقد السيطرة على أعصابه بدون شك وقد يكرر التاريخ نفسه. وعرف كذلك أن ديسا لن تحتمل فكرة تعرض واحد آخر من أبنائها إلى مثل هذا الجحيم.

بينما ترجل الرجال وتلفتوا حواليهم على الحقول الخضراء المسيجة بنظام وترتيب، والجياد ترعى بأمان تحت أشعة الشمس، جلودها لامعة دليلاً على حسن صحتها، وذيولها تهش الحشرات العابرة، اختفى حسن داخل الإسطبلات وعبر ناخو الحقل لاستقبالهم.

لم تخدعه ابتساماتهم العريضة ولا مصافحتهم القوية. فهو يعلم أنهم سيغيِّرون من تصرفاتهم خلال لحظات إذا كان التغيير في مصلحتهم، لكنه يعلم أيضاً أنه مجبر على الدخول معهم في اللعبة. هو مضطر إلى التظاهر بأنه يصدق أنهم قادمون لشراء الجياد ومعاملتهم كزبائن محتملين. دعاهم إلى داخل البيت حتى تتم استضافتهم بما يليق.

تكلموا في المواضيع العامة لفترة، مع أن الإيحاءات والتلميحات كانت واضحة بحيث يستحيل إغفالها. أشاروا بشكل مكرر إلى الازدهار الواضح للمزرعة وإلى مهارات ناخو الشهيرة كرجل أعمال. هنأوه على المباني الجديدة التي شيدها وعلى القطعان الجديدة التي شاهدوها ترعى العشب في الحقول. بدا أنهم يرفعون السعر الذي ينوون طلبه منه ثمناً لامتياز الاحتفاظ بولديه الباقيين في عملية ذهنية ترافق كل تهنئة أو مجاملة. أطلقوا التعليقات حول حميد، ملمحين إلى أنهم قادرين، ضمن السلطات المتاحة لهم، على معاقبة العائلة على جرائم الابن، ومسارعين إلى طمأنه ناخو على أنهم لا يريدون إلا مصلحته وأنهم سيفعلون كل ما بوسعهم لحمايته وحماية أولاده من المعاقبة.

في النهاية، وبعد ساعات طويلة من هذه الثرثرة المزعجة،

غير الصادقة، وصلوا إلى بيت القصيد وذكروا سعرهم. جاء مطلبهم ضخماً ورقمه هائلاً إلى درجة جعلت ناخو يسحب نفسه بصفير حاد مسموع.

ابتسم الرجال متعاطفين معه ونفضوا أكتافهم وكأنما يوحون له بأن الأمر خارج عن إرادتهم، وأنه لو عاد الأمر إليهم فإنهم لن يطالبوه بشيء لأنهم يعتبرونه صديقاً لهم. وافق ناخو على أن يدفع لهم المبلغ الذي طلبوه، لإدراكه أنه لا يمتلك أي خيار. أثناء مغادرتهم، وبينما ديسا داخلة لترفع فناجين القهوة، استدار العضو الأكبر مقاماً في المجموعة عائداً.

قال "سيضطر أحد أولادكم إلى أداء مستحقاته للسلطان بتقديم الخدمة له في الموسم القادم، يجب أن تقر أيهما سوف ترسل، يا ناخو. إننا نقدم لك هذا الإنذار لأننا نحترمك، حتى يتوفر لديك الوقت الكافي لتحضر نفسك وعملك لمواجهة تلك الحقيقة." لم يجد ناخو في نفسه السيطرة الكافية حتى يرد عليهم بما يجب، لذلك اكتفى بهز رأسه بحزم. استدار الرجال على أعقابهم وانصرفوا.

قالت ديسا: "إنهم ما زالوا يبحثون عن حميد. بعد كل هذا الوقت."

استدار ناخو ورأى الدموع في عيني زوجته. فقال بهدوء "أعرف، ولا أعتقد أنه بمأمن في عمان. أعتقد أن عمر كان مصيباً. يجب أن نرتب أمر تهريبه خارج شرق الأردن ونعيده إلى القفقاس".

"كلا!" فوجئ بقوة نبرتها "يجب أن نخرج نحن بأنفسنا من هذا المكان. سيعود هؤلاء الرجال وسوف يستنزفونك حتى تجف، يا زوجي. سوف يأخذون كلاً من حسن ومجيد في نهاية المطاف، وأنت تعرف أنهم سيفعلون ذلك. وسوف يظلوا يطاردون حميد حتى آخر أيامه. نحن بحاجة إلى أن نكون سوية كعائلة. يجب أن نغادر تركيا. يجب أن نبيع كل شيء هنا ونرتحل إلى شرق الأردن."

جادلها ناخو، بغير إقناع "سيكون من الأفضل لو أنني ذهبت إلى هناك وعثرت عليه وأخذته إلى حيث يكون آمناً."

"أنت لا تستطيع أن تفعل ذلك وأنت تعرف هذه الحقيقة. لقد أخبرتني بنفسك أنك لا تستطيع أن تغيب عن المزرعة كل ذلك الوقت. فقد وقعت عقوداً لتسليم خيول إلى سلاح الفرسان العثماني. ثم هناك كل العمل الواجب إتمامه لإنتاج علف الشتاء للحيوانات. ولا يستطيع ولداك أن يقوما بكل ذلك بدونك. ماذا لو عاد الجيش في غيابك وأخذ واحداً منهما أو كليهما؟ ما الذي سيحدث لنا وقتها؟"

هزَّ ناخو رأسه في تعاسة. عرف أنها تتكلم بعقلانية ومنطق. لكنه كره أن يتخلى عن عمل موفق إلى هذه الدرجة ويتحسن باستمرار، لينتقل، مرة أخرى، إلى المجهول.

بعد بضعة أيام، ذهبت ليزور صديقه القديم، تاب أنور، وعقله ما زال يطنُّ من عدم تمكنه اتخاذ قرار. أخبره باقتراح ديسا.

سأل تاب أنور "وماذا يظن ولداك؟"

"لم أطرح الموضوع عليهما. فهما صغيرا السن، ولا يمكنهما رؤية الصورة الكاملة كما نفعل نحن."

ربَّت تاب أنور على ذراع ناخو "ربما يريان أكثر مما تعتقد أنت أنهما يريان." ربما تكون لدى حسن ونورسان أفكار خاصة بهما عن المكان الذي ينويان فيه قضاء حياتهما الزوجية سوية، المكان الذي يرغبان بتنشئة أولادهما فيه –أحفادك– وأحفادي."

أطلق ناخو ضحكة قصيرة ساخرة "أنا لم أصل إلى درجة الخرف بعد، ما زلت قادراً على اتخاذ القرارات."

"لا يبدو أنك تحرز الكثير من النجاح في هذه اللحظة بالذات." قال تاب أنور بهدوء. "إنما يستحقان أن يستشارا في هذه المسألة. إن حميد شقيقهما كما هو ابنك. إن حياتينا تكادان تنتهيان، وهم معرضون للمخاطرة بعدد أكبر من السنين في هذه المسألة."

رد ناخو بعصبية "تحدث عن نفسك، أيها العجوز" غاضباً من ناحية لأنه أدرك أن تاب أنور نطق بالحقيقة.

ابتسم تاب أنور ابتسامة حزينة "إنني أتحدث عن نفسي، يا صديقي، هذا ما أفعله."

ظل ناخو يقلب النصيحة في ذهنه عدة أسابيع قبل أن ينتحي بالشابين جانباً ويسألهما رأيهما فيما يتوجب على العائلة أن تفعله. فوجئ كلاهما لأنه تمت استشارتهما، فقد افترضا أن أبوهما يعرف على الدوام طريق المستقبل الأفضل للجميع.

أخبرهما ناخو "يحتمل أن يؤخذ أحدكما أو كلاكما من قبل الجيش إذا بقينا هنا، وفي تلك الحالة فإن مشروعنا سوف ينهار بكل الأحوال، وفي وقت قصير. ولن يرحب الجيش بأي شقيق لحميد. الاحتمال هو أن ينتهي المطاف بكما ميتين."

أراد حسن أن يعرف "هل يوجد سوق للخيول في عمان؟"

أجابه أبوه "هنالك سوق على الدوام للخيول الجيدة."

قال مجيد "سيكون أمراً طيباً أن يعود حميد معنا إلى حضن العائلة"

سأل حسن "أليست هناك خطورة في أن نرشد الجيش إليه؟"

"لقد قال لنا تيمور أنه لا يعتقد أن الجيش يبحث عن الفارين من الخدمة حتى ذلك البعد جنوباً"

"وهل تثق في حكم تيمور على الأمور؟"

فكر ناخو لثانية ثم طأطأ رأسه في جدية "نعم، إنني أثق في حكمه"

"إذن ربما يجب أن نفكر في مسألة الرحيل."

ران الصمت على ناخو وغلبه التفكير العميق في الأيام القليلة

التالية، ولم تقاطعه ديسا بأية أسئلة. فقد أرادت منه أن يتوصل إلى قراره بنفسه وفي الوقت الذي يختاره هو.

أعلن في النهاية "إنني ذاهب إلى استنبول للتحدث إلى عمر."، وقبلت قراره بدون أن تنطق ولو بكلمة واحدة. فهي تعرف أن زوج والدته رجل حصيف حكيم وأنه سيحسن النصح إليه.

سافر ناخو متوجهاً إلى استنبول في اليوم التالي. فوجئ عمر وسرَّ برؤيته. أدخله خلال البيت ليرى والدته، الراقدة في الفراش، ولم تعد أكثر من هيكل عظمي يكسوه الجلد. قالت، وهي تتكلم بنعومة إلى درجة أن ناخو اضطر إلى الإنحناء فوق السرير ليتمكن من سماع كلماتها "كم هو لطف منك أن يأتي لزيارتنا الآن، لقد كنت أتوق إلى فرصة أودعك فيها."

ركع ناخو إلى جانب السرير. لقد غادرته أمه من قبل، حين كان صبياً صغيراً. وقتها جاءت إلى تركيا لتتزوج عمر وبقي هو في الوطن ليربيه جده، كازبك. لم يلق عليها ناخو باللوم أبداً لكونها تبعت مصيرها الخاص، وعلم أنه تلقى أفضل تنشئة ممكنة. لكن ذلك كان له معنى واحد وهو أنها بطريقة ما قد ماتت في قلبه منذ سنوات طويلة. ولذلك فوجئ عندما اكتشف أن احتمال مغادرتها الدنيا فعلياً للمرة الأخيرة، ما زال يؤثر فيه بعمق. أمسك بيدها الناحلة المعروقة ذات العظام الناتئة في يده وراقبها وهي تنتقل بهدوء إلى عالم النوم.

أخبره عمر "إنها على هذه الحالة منذ أسابيع عديدة. يحتمل أن تبقى معنا لعدة أسابيع قادمة أو ربما تغادرنا في هذا اليوم. سأكون في الباحة عندما تحتاج إليّ." غادر الغرفة ببطء وتثاقل، تاركاً ناخو لوحده مع والدته."

عندما تأكد من أنها نائمة، نهض ناخو وخرج ليبحث عن العجوز. جلس إلى جانبه، ينتظر بينما أحضر الخدم الشاي، قبل أن يبدأ بشرح معضلته.

"وهكذا، ما هي الأسباب التي لديك حتى تمنعك من الرحيل؟" سأل عمر بعد أن فرغ ناخو من طرح المشكلة عليه.

"إننا بصدد تأسيس مشروع عمل قادر على وضع الأسس لإثراء أجيال عديدة تنتفع منه." أجابه ناخو "إنني أقوم ببناء مشروع عمل لأحفادي"

"إذا أخذ الجيش جميع أولادك فإنك قد لا ترى أي أحفاد" قال عمر بابتسامة "إن الظروف تتغير. إن استنبول تمور بالإشاعات والمؤامرات عن الثورة. لا يمكنك أن تعتمد على استمرار العمل بنفس الطريقة التي ظل عليها خلال السنوات القليلة الماضية."

جادله ناخو "سيظل الناس بحاجة إلى الخيول على الدوام."

سأله عمر "وماذا عن الخطوط الحديدية، والسيارة الآلية؟"

ضحك ناخو "أنا لا يمكنني أن أتخيل الجيش العثماني يشن الحرب في الصحراء بواسطة السيارات، لأنها سوف تتغرز في الرمال."

قال الرجل العجوز "هنالك نظام عالمي في طريقه إلى التبدل. ولن يكون الجيش العثماني جزءاً منه. ستظل أنت قادراً على بيع الجياد لأنك مربي خيل عظيم، ولكن لن يشكل الأمر فرقاً سواء كنت في تركيا أم لا. لا تعتمد عليهم في خلق ثروة عائلتك."

في تلك اللحظة، قاطع حديثهم دخول شمس. أصيب ناخو بصدمة محببة عندما رأى كم طالت قامة ابنه الأصغر وكم قويت بنيته. حيّا الصبي ولده باحترام وبدون أن يظهر أي بادرة للعواطف. أحسّ ناخو بدافع طاغ لمعانقة الصبي، لكنه أدرك أن ذلك سيكون مستحيلاً حسب تقاليده. فقد أصبح الفتى رجلاً وعسكريا في هذه الآونة.

تحادثوا لفترة من الوقت ثم تطرق الحديث تدريجيا إلى إمكانية مغادرة منطقة سيواس.

قال ناخو "قل لي، يا ولدي، هل يمكن أن ترغب في الانضمام إلينا إذا قررنا الارتحال جنوباً نحو عمان وإعادة تأسيس حياتنا هناك؟"

"كلا!" قطع صوت عمر جواب الفتى قبل أن يبلغ الأجواء "إنه ملتحق بمدرسة عسكرية الآن، يا ناخو. سيكون ترحيله غلطة. سيكون لديك ثلاثة أبناء قادرين على مساعدتك في خيولك وحقولك. إن هذا الفتى منذور للعظمة والشهرة. سوف يصبح جنرالاً تركياً أو حتى قائداً سياسياً. سوف يجعلك تشعر بالفخار ويمنح لأخوته نفوذاً في هذا العالم."

هزَّ ناخو رأسه باحترام، في بادرة انصياع لرغبة الرجل الذي يحميه. بحث في وجه ابنه عن أية إشارة إلى أن سيكون مرتاحاً أو خائب الأمل لعدم قدرته على الانضمام إلى إخوته ووالديه، لكن التعبير على وجهه ظل سلبياً ومستحيلاً على الاستقراء. فقد ظهر وكأنه لا يمتلك أي رأي حول مصيره. وأنه سعيد بأن يتم إقرار مستقبله من قبل كبار عائلته. فكر ناخو: هذا الصبي، سيصبح جندياً رائعاً.

حين عاد ناخو إلى بيته، دعا العائلة كلها إلى الاجتماع ليخبرهم عن القرار الذي توصل إليه. أعلن لهم "نحن مقدمون على الرحيل إلى الجنوب لكي يجتمع شملنا بحميد مرة أخرى." لم تقل ديسا أي شيء لكن عيناها امتلأتا بدموع السعادة وابتسمت لزوجها ابتسامة العرفان. لو أنه رفض مغادرة سيواس لما كان بوسعها عمل الكثير في هذا الشأن –سوى الشكوى والتذمر، وهما أمران لم يكونا من طبعها.

سأل حسن "وماذا عن الجياد؟"

أجابه ناخو "سوف نحتفظ بأفضل خمس عشرة فرس وثلاثة فحول، حتى نستطيع أن نبدأ مرة أخرى بعد وصولنا. سنبيع الباقي إلى سلاح الفرسان في الربيع. بعد أن نصل إلى هناك سنرى مقدار

الأرض الصالحة التي يمكننا شراؤها ثم نقيِّم السوق المحتمل لجيادنا."

سأل مجيد "وهل سنعطى أرضاً من قبل الحكومة، مثل الآخرين؟"

قال له والده، "كلا، لم تعد مثل تلك التوزيعات قائمة. سوف نضطر إلى شراء الأراضي من أشخاص متلهفين على العودة إلى الوطن أو الارتحال إلى مكان آخر. سوف نبدأ بالسفر إلى حلب. سوف أترككم هناك ثم أمضي في طريقي بالقطار لإجراء الترتيبات. ولكن، في البداية، على أية حال، يجب أن ننتظر حتى تضع نورسان حملها. إذ لا يمكننا أن تلد طفلها أثناء سفرنا. لأن المخاطرة ستكون كبيرة جداً، بالنسبة لها وللطفل على حد سواء، وذلك سيضعف وضعنا."

استدار الجميع لينظروا إلى نورسان والنتوء المتواضع تحت ردائها، فاحمر وجهها، وأشاحت ببصرها عن تحديقهم.

عاشت ديسا الأشهر التالية في حالة خوف مستمرة خشية أن يحضر رجال السلطة طالبين حسن أو مجيد قبل أن يتمكنوا من الهرب من تركيا. تسربت الأخبار من عمان وسمعت أن حميد قد تزوج وأن زوجته حامل بطفل. امتلأ قلبها بالفرح من فكرة تمكنها من رؤية الطفل، ومن تفكيرها بالسعادة التي ينعم بها حميد حتماً بعد كل المتاعب التي عانى منها. ولكنها في نفس الوقت شعرت بالحزن لأنها لن تكون موجودة لتساعد في عملية الولادة.

ولذلك اكتفت، وأقنعت نفسها بمراقبة بطن نورسان أثناء نموه. فبدا لها أنه ينمو ببطء شديد. جلست كل العائلة تنتظر في اليوم الذي كان يفترض فيها أن تلد. شعرت نورسان المسكينة بكل أعينهم مسلطة عليها أثناء تجولها بتثاقل في أرجاء البيت، وهي تدعو أن تصلها آلام المخاض، لكن شيئاً لم يحدث. استمروا ثلاثة أسابيع طويلة في انتظار انقباضات المخاض. فكلما أحست نورسان

بأقل مغص أو ألم، تهرع ديسا لتسخن الماء من فورها، ولكن في كل مرة يختفي الألم ويكبر حجم نورسان أكثر وأكثر.

في النهاية، وفي أشد أجزاء الليل ظلمة، جاءت الآلام وانطلقت نساء العائلة إلى العمل لتوليد الطفل. استمر المخاض حتى ما بعد ظهر اليوم التالي، تخللته لحظات ظن فيها الجميع أنهم لن يتمكنوا من إخراج الطفل حياً. ولكن، في النهاية، وبينما كان الرجال عائدين من عملهم في الحقول، سمعوا صرخات طفل معافى تتجاوب أصداؤها خلال البيت.

ناولت نورسان اللفة الصغيرة التي سموها عزت إلى حسن، الذي مررها بسرعة إلى ناخو، مخافة أن يسقطها. وقف تاب أنور إلى جانب ناخو ونظر العجوزان باعتزاز إلى حفيدهما المشترك، سعيدين باتحاد عائلتيهما بالدم في هذه اللحظة كما اتحدتا من قبل بالزواج.

لم تتمكن ديسا من كتم الابتسامة وهي تراقبهما. فقد كانت هي وناخو ينتقلان إلى مرحلة جديدة من حياتهما سوية وكانت متلهفة على أن لا تضيع أية لحظة منها، عديمة الصبر على الانطلاق في طريقها نحو عمان. كانت بشوق لأن تجمع كل عائلتها حولها. لو كان الأمر بيدها لأصرت على أن يترك شمس المدرسة العسكرية ويسافر معهم، لكنها أدركت أنهم لا يستطيعون أن يخالفوا رغبات جده في هذه المسألة.

أصبحوا في هذا الوقت جاهزين للتحرك، لكن تحضيرات السفر بدت وكأنها تستغرق الدهر كله. اشترى سلاح الفرسان كل الجياد كما توقع ناخو، لكنهم لم يدفعوا أعلى الأسعار. اقتنع ناخو بأن عمر كان محقاً في أنه لا يمكنه الاعتماد على سلاح الفرسان العثماني ليوفر له مصدراً لا ينضب من الزبائن. ولكن، بكل الأحوال، مع انتهاء بيع الخيل كلها، أصبح لدى ناخو من الذهب ما يكفيه لشراء أية كمية من الأراضي لتأسيس مشروعه الجديد في

شرق الأردن.

وضبت العائلة ممتلكاتها في ثلاث عربات وربطت الأفراس الباقية للاستيلاد سوية لأجل الرحلة. طلبوا من أحد أبناء العمومة غير المباشرة أن يشغل الأملاك ويحافظ عليها في عهدته أثناء ذهابهم، وانطلقوا جنوباً على طريق دمشق باتجاه حلب ومحطة السكة الحديدية. تناهى إلى سمع ناخو، وهو راكب خلف العربات، صوت لم يكن قد سمعه من سنين طويلة، دفع بالدموع إلى عينيه. كانت ديسا تغني. إنها ذاهبة أخيراً لرؤية ابنها المفضل، بصحبة اثنين من أبنائها إضافة إلى ابنتها. أدركت أن ابنها الأصغر في أمان تحت رعاية عائلة شامرزا وأنه سينضم إليهم في عمان بعد سنوات قليلة بدون شك، بعد أن يتخرج من المدرسة العسكرية، بدا لها أن كل شيء في حياتها يسير في الاتجاه الصحيح.

***

الفصل العشرون

القفقاس

في الأساس،لم يكن تيمور يرغب في أن تكون له أية علاقة بالأهوال التي أصبح بإمكانه رؤيتها تقترب نحو موطنه. أحسّ بالإرهاق من السنوات التي تحمل فيها المسؤولية عن كل الناس من حوله، وبالحاجة إلى الراحة. أحب لو يدفن رأسه في الرمال ويحيا الأيام الباقية له بسلام في بيت شقيقه، يراقب أطفال العائلة أثناء نموهم ويتعلم كيف يتعايش مع عالم أصبح بالكاد يمكنه التعرف إليه. صار يعجب مما إذا كان سيتمكن حتى من التعرف على امرأة قد تكون راغبة في أن تشاركه حياته. لكنه كان يعرف، في قرارة روحه، أن ذلك محض خيال. فقد بات على قناعة من أنه سينغمس فيما يجري مرة أخرى.

كان في ساحة الدار كوخ قديم استعمل كغرفة تخزين لسنوات طويلة. اصطحب كريم أخاه تيمور لإلقاء نظرة عليه.

قال له "نحن نريدك أن تشعر بالراحة هنا. سوف تشعر بالحاجة إلى الحصول على بعض الاستقلال والخصوصية، فهل سيتسع لك هذا الكوخ؟"

قال تيمور "سيكون أكثر من ملائم لاحتياجاتي. فأنا لا أحتاج إلى الكثير من الرفاهية في هذه المرحلة من حياتي. مجرد وجود غرفة هادئة أعود إليها في نهاية اليوم هي أكثر من كافية."

"جيد، سأجعلهم ينظفوه ويجهزوه لك" بات كريم سعيداً بشكل واضح لظنه أنه سيحظى برفقة شقيقه لما تبقى له من حياته.

شعر أبناء كريم بسعادة غامرة لتحضيرهم البيت لعمهم الذي أفتقدوه طويلاً وعملوا سوية لأيام عديدة في تنظيف الغبار والحطام المتراكم منذ عقود، وفي إصلاح النوافذ والأبواب المكسورة. عند

انتهاء عملهم، وفر البيت الصغير ملاذاً مثالياً يلجأ إليه تيمور ويجلس إلي جانب مدفأته الخاصة به عندما تصبح الضجة التي تصدر عن أحفاد كريم أكثر من أن يحتملها. فعلى الأقل، إذا التقى بامرأة في هذه الأيام، سيتمكن من توفير سقف لها فوق رأسها.

ولكن، بالنظر إلى مجريات الأمور في البلاد، لم يبد أنه سيكون قادراً على الاستمتاع بالتقاعد الآمن، البسيط، الذي طالما حلم به. لأن كل شخص قابله أخبره قصص الرعب ورجاه أن يساعده. كان الناس يموتون من الجوع ولم تكن لديهم أية فكرة عن الكيفية التي سيتمكنون فيها من الحفاظ على أرواحهم بينما كان المزيد من الأرض يجري مصادرتها منهم. لم يهتم مالكو الأراضي، وعائلات الأمراء على الإطلاق بمحنتهم، وغير راغبين، فيما يبدو، حتى في رؤية الجموع التي تموت جوعاً على عتبات بيوتهم بينما هم يزدادون بدانة. كلما حضر زوار إلى المنزل، كانوا يجلسون حتى الساعات الأولى من الصباح، يتحدثون عن القصص والإشاعات التي سمعوها، يتباحثون في أفضل الطرق للتقدم، محاولين إيجاد الحلول الدبلوماسية لمئات المشاكل التي يبدو أنها تزداد مع قدوم كل يوم جديد.

سأل كريم شقيقه في إحدى الأمسيات بينما هما جالسين سوية في بيت تيمور الجديد، يراقبان ألسنة اللهب في المدفأة "ما هي مشكلة قادتنا؟" بعد أن ودعوا مجموعة أخرى من الناس الذين جاءوا راجين مساعدة تيمور لهم. "لماذا لا يستطيعون أن يروا نتيجة أفعالهم؟"

قال تيمور بعد هنيهة تفكير "الناس في مراكز السلطة لا يقنعون أبداً. فكلما زادوا غنى زادت رغبتهم في أخذ المزيد. يبدو أن طمعهم نفسه يعميهم، فلا يعودوا قادرين أن يفهموا أنهم طال الزمان أم قصر، سيأخذون من الناس الكثير جداً بحيث لا يعود لدى الناس أي خيار سوى استعادة ما أخذ مهم بالقوة. لقد ظلت القباردا بالنسبة لهم بقرة حلوباً، ملأى بالحليب. وهكذا استمروا في حلبها

ولكن حتى البقرة في مثل طيبة هذه لا يمكنها الاستمرار في إنتاج الحليب بدون أن يتم إطعامها. لذلك فسوف تسقط في أحد الأيام، وتموت."

سأل كريم مرة أخرى "لم لا يستطيعون أن يروا ذلك؟"

"إنهم قادرون على رؤية الأمر لكنهم لا يريدون. أنهم يريدون أن يعتقدوا أن شيئاً ما سيحدث لينقذهم، بحيث لا يضطروا إلى التخلي عن أي جزء من الثروة التي جمعوها، بل سيسمح لهم بالاستمرار في الحياة بنفس الأسلوب. إنهم يعتمدون على تحالفهم مع موسكو."

"ألا يدركون أنهم حتى ولو استمروا في العيش فهم يخزنون المتاعب لأولادهم وأحفادهم؟ ألا تعتقد أنهم يجب أن يظهروا بعض الحكمة من أجل أجيالهم القادمة؟"

نفض تيمور كتفيه "المرجح أنهم لا ينظرون خارج بواباتهم. سوف يحملون عائلاتهم ويرحلون عن هذه الأرض للبحث عن ملاذ في موسكو عند أول بادرة للمتاعب. هؤلاء الرجال ليسوا قادة، هل هم قادة؟ أين هم عائلات "الوَرْق" الذين يفترض فيهم أن ينيروا الطريق إلى الأمام؟ أين هي عائلتنا؟"

قال كريم بحزن "لقد رحلوا جميعاً، تماماً كما رحلت أنت، باحثين عن المغامرة أو عن بلاد ذات مستقبل أفضل."

ابتسم تيمور "حسناً، ها أنا قد عدت الآن. ربما سيعود آخرون عندما يدركوا مقدار الحاجة إليهم هنا."

حذره كريم "لقد بدأت الأفكار الشيوعية تنمو في بلاد القباردا. إنها مثل البذور الصغيرة، تمد جذورها في عقول الناس، وتمنحهم بعض الأمل في المستقبل."

هزَّ تيمور رأسه بالموافقة. لأنه برغم قصر المدة التي قضاها منذ عودته، فقد أدرك كم أصبح موطنه قريباً من الانهيار، وعندما

يحدث ذلك فستكون الأيدي غير الملائمة هي التي ستتقدم لإعادة بنائه وانبعاثه من جديد. تذكر، وهو يستضيف أفواج الزوار في بيته، الأيام الأولى له في عمان، حين كان يحاول أن ينصح بالاسترضاء لأبناء المجتمع ذوي الدماء الحارة الذين أرادوا الانتقام الفوري من مضطهديهم البدو.

أصبح الآن يستمع إلى الخطابات البليغة من الجانبين. الظاهر أن كل شخص، في هذه الأيام، يكره شخصاً آخر ويلومه على التراجع البائس الذي يحيط به.

ظل الناس يقولون له "يجب أن تقابل بيطال كالميكوف". أولئك الذين عانوا على يدي بيطال، أو عرفوا عائلات قام بمهاجمتها، يتحدثون عنه وكأنه وحش خرافي. أما أولئك الذين كانوا يعتقدون أنه يجب إزالة الأرستقراطية إذا كان الفلاحون سيحصلون على نصيب عادل على الإطلاق، فقد كانوا يعتبرونه بطلاً مجاهداً، شخص يستطيع أن يحقق فارقا حقيقياً في تحسين أوضاع البلاد إذا سمح له بامتلاك بعض القوة والسلطة.

قالوا له "سيكون بمقدورك أن تتحدث معه، أن تصل معه إلى نقطة التقاء. أنت رجل لا بد وأنه سيحترمه، أنت قائد، ولست مجرد إقطاعي يعيش من كد الآخرين وتعبهم."

ظل تيمور يسأل "ولماذا يحتمل أن يرغب في مقابلتي، أنا لا أعني له أي شيء" المرة تلو المرة.

ثبت أن رأيه في نفسه خاطئ كلياً. فقد سمع بيطال عن سمعة تيمور ورأى فيه فرصة لتشكيل تحالف مع شخص يمكنه أن ينشر العقيدة ويوسع قاعدة نفوذه بين قطاع مختلف من السكان. رتب أشخاص يعرفون الرجلين لقاءاً لهما بحيث يذهب تيمور إلى موقع جبلي سري حيث قال بيطال أنه سيحضر للقائه.

حذره كريم بقوله "يجب أن تصطحب عدة رجال مسلحين. فهذا رجل لا يمكن الوثوق به. أنه يقتل الناس لمجرد التدليل على

أن بإمكانه عمل ذلك."

قال تيمور "إذا ذهبت إليه محاطاً برجال مسلحين فسوف يعتقد أنه يستحيل الوثوق بي من ناحية، وبهذه الطريقة لن نتوصل إلى أي شيء. إذا كان يخطط لقتلي فالأرجح أنني لن أستطيع أن أفعل شيئاً لأمنعه. لكنني أعتقد أنه لن يكسب أي شيء من مثل ذلك العمل في الوقت الحالي."

استمر شقيقه في الاعتراض "هذا رجل يقتل النساء والأطفال لمجرد تلقينهم درساً."

"أنت تستمع إلى أكثر مما يجب من الإشاعات حول المدفأة في الليل، يا أخي" قال تيمور مبتسماً "لقد دأب الناس على قول الشيء نفسه لي بالنسبة للبدو. الناس يخشون ممن لا يعرفونه. إذا استطعت أن أرى الرجل وجهاً لوجه وأسمع ما لديه، فربما سيثبت أنه أقل إرهاباً من هذا المخلوق الخرافي الذي يخشاه الجميع."

"لقد تغيبت عن أرض الوطن سنين طويلة جداً، يا تيمور. لم يعد هذا مكاناً يتصرف فيه قادة الرجال بوازع من الشرف. عندما غادر ذلك العدد الكبير من الرجال الشرفاء البلاد، نهض الوحوش من أمثال بيطال ليأخذوا مكانهم. إن الفراغ الذي سمحت عائلات "الوَرْق" بظهوره يجري ملؤه من قبل عصابات متعطشة للدماء."

"أنك تتكلم مثل رجل عجوز، يا كريم" حاول تيمور أن يتكلم بشيء من التبسط والمزاح، لكنه كان يعلم في قرارة نفسه أن كلمات شقيقه تلامس كبد الحقيقة.

جرى ترتيب الاجتماع مع بيطال وانطلق تيمور بصحبة دليل مع انبثاق أول خيوط النور. ركبا طيلة النهار خلال الأحراش والجبال، ولم يشاهدوا أي إنسان مطلقاً.

ظهر الوضع وكأن الإقليم كله عرف أنه في طريقه لمقابلة بيطال المرعب، وابتعد الجميع خوفاً واحتراماً، بحيث سمحوا له

بالمرور الآمن. عندما وصلوا إلى البقعة المتفق عليها في ذلك المساء، كان الموقع صامتاً صمت المقابر. فحتى الذئاب لم تكن تعوي، ولا أزعجت الريح سكون الأشجار المحيطة بالمكان.

سأل تيمور دليله "هل سيحضر هذه الليلة؟" فنفض الرجل كتفيه بينما هو يهم بإشعال النار. صعد الدخان إلى السماء الخالية من الريح في خط مستقيم، بحيث يمكن رؤيته من مسافة أميال عديدة في كل اتجاه، وجلس تيمور إلى جانبها، ينتظر.

بمجرد هبوط الظلام، سمع صوت تكسير أوراق الأشجار والأغصان الصغيرة تحت الأرجل وظهر بيطال فجأة، واقفاً فوق النار محاطاً برجال مسلحين في جميع الاتجاهات. بدوا جاهزين للقتال وحمد تيمور الله تعالى أنه لم يستمع إلى كلام أخيه ويحضر معه أي شخص يمكن أن يستفزهم. نهض تيمور واقفاً ببطء وبسط ذراعيه إلى الجانبين ليظهر أنه حضر بدون سلاح.

قال "أنا تيمور"

"أنا بيطال" جعل للكلمات وقعاً يشبه التفاخر، وفوجئ تيمور بمقدار الكبر الذي يبدو عليه الشاب. فقد قيل له سابقاً أن بيطال لا يتعدى كونه فتى إلا ببضع سنوات، لكن وجهه كان قد حفرته الخطوط من جراء المعيشة القاسية. "يخبرني مستشاريّ أنك رجل يفترض فيَّ أن أكلمه".

وقف تيمور منتصب القامة، محاذراً من القيام بأية حركات مفاجئة تجعل الشباب المتحفزين لإطلاق النار في حالة عصبية. مدَّ يده مرة أخرى للمصافحة. احتفظ بيطال بيديه على ردفيه وعينيه معلقتين في وجه تيمور. بعد فترة بدت وكأنها الأبدية أدار رأسه وبصق على الأرض بصوت مسموع.

تجاهل تيمور الإهانة وسحب يده. قال "يخبرني الناس أنك قائد عظيم، أن الناس يتبعونك، وحتى أولئك الذين لا يتبعونك، قد سمعوا عنك. إنهم يقولون لي أنك رجل قادر على زرع الكراهية في قلوب

مواطنيه ورفاقه، وأنك قادر على جعلهم يقومون بأعمال لا يمكن التحدث عنها في سبيل قضايا أنت تؤمن بها."

أخذ وجه بيطال، الذي بدأ بأن أظهر علائم السرور على ما أعتقده مديحاً ونفاقاً، يعبس تدريجياً مع توارد الشكوك في أن تيمور لا يجامله.

صرخ بغضب "أنت، يجب أن تساند القضية" توقف قليلاً واستعاد السيطرة على نفسه. أدرك أن تيمور من سلالة الأرستقراطية وكان يكرهه من أجل ذلك. وجعلته الحقيقة القائلة أن تيمور يتمتع بسمعة تقضي بأنه رجل عادل منصف يكرهه أكثر فأكثر.

فقد كان يريد أن يكون الأرستقراطيون جميعهم مكروهين، وأن يراهم الناس على أنهم طفيليون كسالى. ولذلك فإن رجلاً مثل تيمور يتسبب في تعكير صفو الماء. فإذا تواجد العديد من أمثاله، سيبدأ أتباع بيطال بالتشكيك في أجزاء من خطابه. فهل يكون قتل جميع الأرستقراطيين عملاً صحيحاً إذا كان بعضهم رجالاً طيبين؟

"إسمع" قال بيطال وهو يكشف عن أسنانه فيما أعتقد أنه ابتسامة، وجلس إلى جانب النار، مشيراً إلى تيمور لكي يفعل مثله. "يجب أن نعمل سوية. لقد عانى أبناء شعبك قباردي الجلاخستني من أعمال الظلم على يد القوزاق. يجب أن تنهض مقاتلاً إلى جانب أبناء الشعب. هذه حرب ضد الاستعباد".

سأل تيمور "ولماذا نستبدل نوعاً من الاستبداد بآخر؟"

"لن تغير السفسطة الغبية أي شيء" عاد بيطال إلى الصراخ بأعلى صوته مرة أخرى، بينما بقيت أصابع أتباعه تحوم حول زناد بنادقهم. لاحظ تيمور أن الدليل الذي صاحبه في المجيء قد انسحب واختفى في الظلال، تاركاً إياه وحيداً ومكشوفاً. "يجب على الناس الذين يريدون أن يغيروا العالم أن يهتبلوا كل فرصة سانحة". عاد بيطال إلى الوقوف على قدميه "إذهب إلى بيتك، يا تيمور، وفكر

فيما قلته لك. إن طبقتك الاجتماعية مقضي عليها بالهلاك ما لم تتحالف معي. ستنتهي الحرب في وقت أقصر بمساعدتك. وسوف تخسر عدداً أقل بكثير من الأرواح. الخيار مطروح أمامك، والقرار بيدك."

لاطفه تيمور ليعود إلى الجلوس "إجلس. نحن بحاجة إلى أن نتعرف على بعضنا أكثر من هذا، يا بيطال. إننا نحتاج إلى أن نكون قادرين على أن يثق أحدنا بالآخر. نحتاج إلى المزيد من الوقت للتفكر. أعرف أنك تكره نوع العائلة التي أنحدر منها، وأنت تعرف أنني لا أتفق مع الطريقة التي تستخدم فيها العنف قبل أن تجرب الوسائل الأخرى. من هذين الموقفين، دعنا نحاول أن نعثر على أرضية مشاركة لنستطيع أن ننطلق منها سوية نحو تحسين الموقف في بلادنا."

تحدثا لبضع ساعات أخرى، وغيرا موضوع الحديث من السياسة إلى الخيل ثم عوداً إلى السياسة والعالم العربي الذي خبره تيمور. كان واضحاً لتيمور أن كراهية بيطال له غير قابلة للتغيير. وأنه راغب في تحمله على أمل أن يقود قومه ليضموا قواتهم إليه. لم يستطع تيمور أن يقنع نفسه بأنه سيضطر للعمل إلى جانب رجل متوحش إلى هذه الدرجة، لكن دبلوماسيته الطبيعية وعدم رغبته في خلق الأعداء، أبقته متحدثاً أثناء انقضاء ساعات الليل.

مع انبلاج الفجر وظهور أولى علائمه في السماء، صافح بيطال تيمور، محدقاً في وجهه وهو يهز يده. "ستندلع الثورة هنا" قال ذلك وهو ما زال ممسكاً بيد تيمور "وسوف تضطر في نهاية الأمر إلى أن تقرر ما إذا كنت معنا أم ضدنا."

قال تيمور "يجب أن نتحادث مرة أخرى" وهو يبادله التحديق. "هنالك مواضيع شتى لم نتحدث فيها."

"هراء." استدار بيطال على عقبيه بنفاذ صبر ومشى باتجاه جواده، متبوعاً برجاله. لم ينظر أحد منم إلى الخلف باتجاه تيمور،

الذي عاد دليله إلى الظهور من الظلال بمجرد أن زال الخطر."

بحلول الوقت الذي عاد فيه تيمور إلى بيت أخيه، كان قد نال الوقت اللازم للتفكير في كل ما قيل حول النار في تلك الليلة، ولم يتحسن شعوره تجاه الموقف. فقد تبين له أن بيطال لديه الرغبة والإرادة لقتل أي عدد من الناس حتى يصل إلى غاياته. كما تبين له أن تفكير الرجل مشوش ومليء بالتناقضات. فقد كان ينطق بالشعارات والعبارات الجاهزة مسبقاً، التي لقنه إياها أناس آخرون، أكثر ذكاءً منه. كانت الكراهية والمرارة تحركان كل خططه وتزودها بالوقود. كذلك فإن حرمانه من التعليم، وانعدام التفهم والتعاطف، شكلت جميعها مصادر قلق لتيمور. وعليه فكلما زادت السلطة التي يتمكن بيطال من الحصول عليها، ستزداد خطورته.

ربما تكون القضية التي يقاتل من أجلها عادلة، لكن أسلوبه في القتال من أجلها غير إنساني ولم يكن ليؤدي إلى شيء إلا زيادة في المعاناة. صار بوسع تيمور أن يرى أنه لا توجد إمكانية كبيرة لإيقاف رجال مثل بيطال عن الاستمرار في كفاحهم، بل إن القضية أصبحت ما إذا كان يمكن الحد من مقدار الدمار الذي يمكن أن يسببوه في مسيرتهم.

"هل من الممكن أن يصل رجل مثل هذا إلى السلطة؟" ألقى تيمور السؤال على كريم في ذلك المساء أثناء جلوسهما، يتحدثان.

هزَّ كريم رأسه بحزن "لقد بدأ يصبح متنفذاً فعلاً. لا يزال بالنسبة لكثيرين قاتلاً ورجل عصابات. إنه يدير مع زملائه حملة دعائية قوية. إنهم قادرون على الوصول إلى الناس الذين يمكنهم أن يطبعوا المنشورات لهم وهم يسافرون من قرية إلى الأخرى يحاضرون الناس ويحرضونهم. إنهم يعيدون اختراع تاريخهم. عما قريب، لن يبقى أي شخص يتذكر عدد الأشخاص الذين قتلهم، بل مجرد أتباع ومتملقين أذلاء وأولئك الذين يريدون أن يستخدموه لتحقيق مآربهم. إن الرجل الذي لا ضمير لديه يمكن أن يكون مفيداً

جداً للناس الذين يريدون أن يجعلوا الآمال تتحقق."

"فهل هم جميعاً مثله؟"

"كلا، والحمد لله، ولكن الكثيرين منهم كذلك. يجب عليك أن تقابل المعلم الفتي، نذير، إذا كنت تريد أن تسترد ثقتك بمستقبل بلادنا. مع أنه يتماشى مع الثورة، إلا أنه مليء بالأفكار ويختلف عن بيطال كثيراً. إنه يؤسس لنفسه أتباعاً من الناس الذين يفضلون التفكير والحوار على القتل. يقول الكثير من الناس أنه رجل شجاع، شريف وذكي."

بعد بضعة أيام كان تيمور جالساً يشرب القهوة مع نذير كاتخان في الغرفة التي يدرِّس فيها اللغة العربية وتاريخ الشرق الأدنى. كان اللقاء أكثر راحة بكثير من الموعد مع بيطال. فقد كان الشاب النحيل متأنقاً في ملابسه حد الكمال ويتصرف مثل الأرستقراطي، رغم أن تيمور كان يعرف أنه مولود لعائلة فلاحين في قرية بسخوريّ.

"هل أنت تتفق مع هذه الثورة ضد أصحاب الأراضي؟" سأل تيمور بعد أن تبادلا ما يكفي من المجاملات وأسسا بينهما أرضية مشتركة.

"بكل تأكيد" هز نذير رأسه بقوة "إن النظام بأكمله الذي ما زلنا نعيش تحت سلطته لا يصلح على الإطلاق. إن الأغلبية العظمى من البلاد تهلك من الجوع حتى تتمكن قلة من السيطرة على كل شيء. من المستحيل أن يستمر هذا الوضع."

قال تيمور "لقد تقابلت مع بيطال كالميكوف" وهو يراقب الشاب بحثاً عن أي رد فعل.

لم يرف لنذير رمش إذ قال "إن بيطال مقاتل عظيم في سبيل القضية، ولكن يمكن لوسائله أن تسبب الصدمة في بعض الأحيان."

"هل يمكنك أن تعمل مع أناس مثله؟"

"أنا مضطر. إذا حاول أناس مثلك ومثلي أن يخوضوا هذه المعركة وحدهم فلن يتغير شيء. إن السلطات لا تفي بالتزاماتها تجاه الاتفاقيات. إنهم يفرضون الضرائب على الناس الذين بالكاد يقدرون على سد رمقهم، ولكنهم لا يقدمون أي شيء بالمقابل. لا توجد وسائل مواصلات، حتى يتمكنوا من بيع فائض محاصيلهم في الأسواق الحرة. لا توجد وسائل اتصال. ليس هناك أي شيء. إن بلادنا القباردا واقعة في فوضى عارمة."

"وما الذي تريده أن يتحقق في نهاية المطاف؟"

"بعد هزيمة أصحاب الأراضي الإقطاعيين، أريد أن أشكل دولة إسلامية مستقلة. إنني أؤمن بالله، يا تيمور، وهنالك الكثير من الناس المتدينين: القبارديون، البلقار، الإنجوش، والشيشان. إنهم مشتركون في الأهداف نفسها."

"الشيوعيون ينكرون الدين"

"لدينا اختلافاتنا، ولكننا نسير في نفس الاتجاه على الرغم منها. ما يريده القفقاسيون من هذه الثورة هو الاستقلال والحرية. عندما تجيء الثورة، فإنها ستكون مثل حافلة هائلة تسير بسرعة. سوف أتسلق لأركب هذه الحافلة حتى أصل إلى أهدافي بدوري. سوف أتعاون مع أي شخص طالما كان ذلك يعني أن شعبي سيكون حراً في نهاية الأمر. بعد ذلك سنبحث في الوسائل التي تمكننا من رأب الصدوع وتقريب الاختلافات، حينما يتمتع كل شخص بمعدة مليئة بالطعام."

أثناء استطراد الشاب في حديثه، بدأ تيمور يفهم مقدار ضخامة نير الظلم الذي كانت أغلبية الناس تعاني وتعيش تحته. بدأ يرى بوضوح ما كان يتبلور في ذهنه ببطء، حتى تلك اللحظة، من أن هناك حاجة ملحة للتغيير، وأن الأمور لا يمكن أن تستمر في المسير بنفس الطريقة التي استمرت عليها في الماضي. شعر بنفسه ينجذب إلى الشاب المثقف، المتحمس، راغباً في لعب دور التلميذ

لمعلمه هذا، على الرغم من شبابه وصغر سنه. تحدثا لساعات طوال، وعندما حان وقت افتراقهما، اتفقا على الالتقاء مرة أخرى.

في روسيا نفسها، أدرك قادة العهد القيصري بدورهم أنه لا بد من إجراء التغييرات إذا كانوا يأملون في الحد من امتداد تيار الثورة.

لم يكن الناس قد تعبوا من كونهم يحكمون من قبل طبقة نخبوية تمتلك كل الأراضي وتبقيهم عند مستوى الموت جوعاً فقط، بل كانوا أيضاً قد انهكوا وملوا من الحروب الأجنبية الحمقاء التي لا تنتهي والتي ظل القيصر يوقعهم في أتونها، إذ يرسلهم إلى حملات يهلك فيها معظمهم أو يصاب بجروح. أدرك القيصر ضرورة عمل شيء ما لاسترضاءهم، وفي نهاية المطاف، وافق على برنامج لإعادة توزيع الأراضي. فماذا سيهم، في النهاية، إذا أعطوا بضعة هكتارات إلى الفلاحين؟ فقد كانت جميعها بعيدة جداً عن موسكو أو سانت بطرسبرج. فقد كان تفسيره أن الأمراء القبارديين يمتلكون الكثير من الأرض التي يمكنهم الاستغناء عن بعضها. وهكذا أعطيت الصلاحيات للجنرال فوزنوتزوف - دا شكوف القائد العسكري في القفقاس لتأسيس "التعليمات الجديدة".

في البداية، فكر تيمور، كما فكر كثيرون غيره أن هذه ستكون خطورة إلى الأمام ورحب بالتغييرات، لكن نذير سرعان ما خيب له ظنونه. قال له:

"إن الجنرال يتآمر مع الأمراء القبارديين، إنهم يخططون للاحتفاظ بأكثر الأراضي خصوبة في مراعي النوغاي وزولسكي لأنفسهم، وإعطاء المروج الحرجية، والأراضي غير الصالحة للفلاحين. بإمكانهم القول أنهم أعادوا توزيع الأراضي، ولكن فقط الأراضي التي لا تفيد أحداً. لن يتغير شيء. إذا كان هذا الأمر سيغير شيئاً فهو إلى الأسوأ".

أخبره تيمور "لقد تمت دعوتي لزيارة الأمير حاتقشوقه، ربما

يفترض فيّ أن أشرح له ما يجري."

حذره نذير "إنه أحد أسوأ المعتدين. أنت لن تتمكن من جعله يصغي للمنطق. فهو رجل غبي جشع ويعتقد أن لا أحد يستطيع أن يمسه بسوء. لا يمتلك أي قدرة على التخيل. ولا يستطيع أن يرى ما يحدث تحت أنفه مباشرة."

أصر تيمور "يمكن إجبار كل شخص على الاستماع إلى صوت العقل إذا كان ذلك في مصلحته."

ضحك نذير قائلاً "هل تعرف ما هو أكثر ما أحبه فيك يا تيمور؟"

"ما هو ذلك؟"

"إنك قادر على أن تبقى متفائلاً بالطبيعة الإنسانية بعد كل الأشياء التي شهدتها، كل الخيانات التي رأيتها. لماذا تعتقد أن هؤلاء الناس سيقتنعون بعد كل هذا الوقت؟"

هزّ تيمور رأسه دلالة على فهمه للنقطة التي أثارها نذير، ثم غادر، عابس الوجه، مصمماً على الاعتقاد بأنه من الممكن دائماً كسب قلوب الناس بالكلام.

بعد عدة أيام، إتخذ تيمور طريقه نحو بيت الأمير، تحت رقابة العيون المتشككة. شاهد الفلاحون المتواجدون حول البيت كيف خرج تالوستان، ابن الأمير، ليرحب بزائر كبير السّن ومن نفس طبقة الارستقراطيين. رأوا كيف أدخل تيمور إلى داخل المنزل وكأنه واحد منهم، وليس كممثل عن الشعب، عندما تحدثوا عن الأمر فيما بينهم، كان البعض منهم راغباً في رؤية هذا الأمر على أنه مؤشر إيجابي، بينما تبنى آخرون رأياً معاكساً.

جادل المتفائلون بقولهم "سيكون قادراً على مخاطبة الأمير خطاب الند للند."

أجاب الآخرون "إنه واحد منهم. سوف يستمع إليهم على الدوام ويفهم وجهة نظرهم ويرجحها على آرائنا."

"أنت على الرحب والسعة في منزل والدي" قال تالوستان لتيمور وهو يصطحبه داخلاً به إلى غرفة الطعام. "إن سمعتك تسبقك."

في الداخل، وجد تيمور الأمير وقد جلس سلفاً إلى المائدة وبدأ يتناول طعامه. بينما هو يتبادل معه التحيات، لاحظ تيمور أن عيني الرجل مطفأتين، مما أعطاه مظهراً غبياً، متخماً. ظهر على الابن الضعف وانعدام التأثير، بسبب لهفته على محاولة إرضاء أبيه وكسب رضاه. تبين أن العجوز لا يلاحظ كثيراً مما يجري حوله، غارقاً في الطعام المقدم على المائدة، والمشروب الذي ينتظره في الأباريق.

"تعال يا تيمور" وأشار إلى المائدة المترعة "كُلْ. يجب أن ننهي كل شيء، وإلا سرقه الخدم من تحت أنفي." أطلق ضحكة مدوية وألقى تيمور نظرة محرجة على الوجوه المحايدة للخدم الذين يخدمون على المائدة. هزَّ رأسه بالموافقة لكنه لم يجلس إلى المائدة.

"وهكذا، فقد عدت من مغامراتك إذن؟" ظهر على الأمير أنه يحادثه بنصف ذهنه، بينما بقي النصف الآخر مركزاً على ملء طبقة وحشو فمه.

"نعم لقد عدت. مع أنه يبدو لي أن هناك مغامرات كثيرة يمكن الخوض فيها في القباردا." أجاب تيمور.

"إنني أكبر سناً بكثير من الخوض في المغامرات، وكذلك يفترض فيك أن تكون." لوح له الأمير بإصبع سمين. "استقر هنا وابن لنفسك عائلة لترزق ببعض الأطفال قبل فوات الأوان."

"إنني أفكر في احتمالية البدء في تكوين أسرة" أعترف تيمور.

"آه!" قفز الأمير على هذا النبأ بحماس "يجب أن تقابل شقيقتي.

إمرأة جميلة، ترملت مؤخراً. بإمكاننا أن نجد لك بيتاً وبعض الأراضي في مكان ما."

استمر تيمور في تجاذب أطراف الأحاديث المؤدبة متجنباً التطرق إلى الجدية قبل أن يحول دفة الحديث إلى نحو إصلاح الأراضي. بدأ بقوله "لقد قمت بعدة زيارات إلى الفلاحين في بلادنا، إن حياتهم شاقة للغاية. إنهم لا يحصلون على ما يقيم أودهم من الطعام. إنهم عاجزون عن إطعام أطفالهم."

"لذلك نحن نقوم بإعطائهم أراضينا." حاول الأمير أن يحيد الموضوع المحرج جانباً.

جادله تيمور "إن الأراضي التي تعطى لهم لا تنفعهم، فهي لن تعطيهم ما يكفي لإطعام أي شخص."

"في هذه الحالة يتعين عليهم أن يتعلموا أن يعملوا بجدية أكبر. سيكون غباءاً منا أن نمنحهم أفضل أراضينا، فهم سيخربونها. إنهم كسالى عاجزون، وسرعان ما سيدمرون الأراضي ويجعلوها عديمة الخصوبة. يجب أن يتعلموا أن يحولوا الأرض البور إلى أرض خصبة."

استمر تيمور في جداله "أعتقد أنك مخطئ في هذه النقطة، أعتقد أنك ستكتشف أنه إذا أعطوا أرض مراعي معقولة بقيت بوراً لسنوات طويلة لأن أصحاب الأراضي يمتلكون أكثر بكثير مما يكنهم فلاحته، فهم سيجعلونها تزدهر، فلا أحد يستطيع أن يحيل الأرض الصخرية إلى تربة معطاء."

انحنى الأمير إلى الأمام وكأنه يريد أن ينهي هذه المسألة مرة واحدة وإلى الأبد.

"اسمع يا تيمور، أنا ورفاقي الأمراء أوصياء على شعبنا. ذلك هو دورنا. نحن نوفر لهم العمل ووسائل العيش. في مقابل ذلك نحن نمتلك الأرض. هذا هو الحال منذ أجيال عديدة، والآن، يقال

لنا من مدينة تبعد آلاف الأميال بأنه يجب علينا أن نتخلى عن أراضينا التراثية لهؤلاء الناس الذين دأبنا على حمايتهم كل هذه المدة. نحن راغبون في التوصل إلى حلول وسط. لا مانع لدينا من قبول السماح لهم بالمشاركة. ولكنك لا تستطيع أن تتوقع منا أن نساوم ونفاوض حتى نحتفظ بأكبر قدر من ميراثنا يمكننا الاحتفاظ به. إذا لم ندافع عن وجهة نظرنا، فما الذي يمنع الروس من التبرع بكل ما نملكه وتركنا فقراء معدمون؟ ومن يضمن أنهم سيتوقفوا عند قدر قليل من إصلاح الأراضي؟ لم لا ينزعون ملكياتنا بالكامل، إذا كان ذلك سيوقف الفلاحين الروس من الدق على أبوابهم؟"

"ولكنك في موقع تستطيع منه أن تؤثر على اللجنة التي تقوم بإعادة توزيع الأراضي" جادله تيمور.

"لا يمتلك الفلاحون مثل ذلك النفوذ."

لوَّح الأمير له بيده داعياً إياه إلى الجلوس "تعال، أخبرنا عن الفترة التي عشت فيها بين البدو في صحراء شرق الأردن. لقد علمت أنك خضت حرباً عظيمة ضد أهالي البلاد الأصليين."

جلس تيمور وسمح للحديث بأن يتطور لفترة قصيرة، لكنه عاد بعد ذلك إلى الموضوع الذي يزعجه بقدر متزايد. صار الأمير يظهر نفاذ صبره تدريجياً.

سأل بحدة "ولماذا يهمك أمر هؤلاء الناس إلى هذا الحد؟"

حافظ تيمور على هدوئه "إنني أهتم لأنهم قومنا أيضاً. يجب أن نقلق عليهم كلنا لأنهم سيثورون ويقومون بقتل الناس الذين ظلموهم. إذا دفعت بهؤلاء الناس إلى أبعد مما يجب، إذا لم تمنحهم شيئاً من الأمل، فإنهم سيقتلونك."

ضحك الأمير "وهل تعتقد أن حفنة من الفلاحين المسلحين تسليحاً سيئاً يشكلون خصماً مكافئاً لوحدات القوزاق ومدفعيتهم؟ إذا حاولوا أن يثوروا فسيتم تدميرهم."

"ربما تنجح في قتل الأوائل منهم. لكن دماءهم سوف تثير المزيد من الآلاف وسيصبح الجميع في النهاية ضدك. لا يستطيع القوزاق أن يقاتلوا العالم كله."

قاطعه الأمير "أنت أحمق يا تيمور. وأنا لا أرغب في سماع المزيد. لست خائفاً من بضعة فلاحين يحملون الرفوش. والآن تناول طعامك، وزودني بأخبارك ابن عمك ناخو في استنبول."

فتح تيمور فمه في محاولة للمزيد من الاعتراض، لكنه أدرك أن الأمير لم يعد يصغي.

فعاد إلى الأحاديث المؤدبة، وقد تيقن أن لا شيء يمكن أن يقوله سيشكل أي فرق لقناعة الرجل بأنه جالس في أمان بقصره وأن أحداً لن يجرؤ أبداً على أن يحاول أن يخرجه منه.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

القفقاس

كانت أخبار التنظيمات الجديدة المتعلقة بالأراضي قد وصلت إلى بيطال فوجد فيها فرصة لإشعال حماس الناس. فذهب لزيارة المزيد من القرى والمصانع أكثر من أي وقت في الماضي، مسافراً في كثير من الأحيان طوال الليالي ومتحدثاً خلال النهار، ولا يمنح نفسه سوى ساعات قليلة بين التجمع والآخر.

كان يصرخ بحركات مسرحية مثيرة قائلاً "لم يعطونا أي شيء" المرة بعد المرة في حشود لا يتجاوز عددها شخصين أو ثلاثة في بعض الأحيان، ويصل إلى بضع مئات في أحيان أخرى.

"لقد أخذوا المزيد وتركوا لنا الثقوب والفراغات غير المفيدة والتي يستحيل فلاحتها. لقد أعطت التنظيمات الجديدة المزيد من السلطة لأصحاب الأراضي وقلصت حقوقنا. لن يتغير الأرستقراطيون أبداً. يجيء تيمور إلينا ويتظاهر بأنه يتعاطف مع الشعب، لكنه لا يزال واحداً منهم. لقد تناهى إلى أسماعي أنه قام بزيارة إلى الأمير حانقشوقه. وأنهم ضحكوا علينا جميعاً وراء ظهورنا.إنهم يتعاطفون مع محنتنا بالكلمات. يقولون لنا أنهم يرغبون في المساعدة، لكنهم يخططون ويتآمرون طيلة الوقت في الكيفية التي سينتزعون منا المزيد لأنفسهم. لقد اقتسموا مراعي زولسكي وناجورني فيما بينهم وبين أعضاء اللجنة، التي شكلت لتوزيع الأراضي. إنهم أعداؤنا، ولن يستريحوا حتى يميتونا من الجوع ويزيلونا عن وجه البسيطة!"

أحياناً يكون مستمعوه هادئين،خائفين من إغضاب مستخدميهم وأصحاب الأراضي، مع أنهم كانوا يحملون في قلوبهم قدراً من الكراهية يعادل ما يحمله بيطال. ولكنهم كانوا يجدون في أنفسهم

الشجاعة في أمكنة أخرى ويرحبون بكلماته بصيحات الموافقة والتشجيع.

في هذه الاجتماعات، كان بيطال يكبر بشكل واضح، منتشياً من دعمهم، فيشتعل حماساً وتلتهب كلماته، تحرضهم على أن يتولوا مصائرهم بأيديهم.

لم يكن القائد الثوري الوحيد الذي يدرك ما كان يجري. فقد كانت الخطابات تنتشر في جميع القرى وكراهية الأمراء تتزايد. بدأ المحرضون يسافرون من القرى إلى جميع الأنحاء، ينشرون المبادئ الثورية بخطابات مؤثرة ملأى بالغضب والاستنكار المبررين.

كان بيطال وآخرون مثله يملأون قلوب الناس بالشجاعة ويعطونهم الكلمات التي تعبر عن غضبهم، فيحملون الرسالة كأنها مرض معدي، بلاء سيكلف الكثير منهم حياتهم ولكنه أيضاً قد ينجح في تحرير الباقين. مع مرور الأيام تنامت الاجتماعات في الريف من حيث الحجم ومقدار الغضب، حتى صار يجتمع عشرة آلاف فلاح سوية، يصغون إلى مثيري الرعاع، ولم يشعر واحد منهم بأن المتحدثين على خطأ.

في قرية ناوروز، حمل الفلاحون حفنات من التراب حسب التقاليد القباردية القديمة، رافعين أيديهم ليشكلوا بها قوساً، يمر من خلاله المشاركين في الثورة، وهم ينشدون "سوف نقاتل سوية" كان الإنشاد يرمز إلى المشاعر التي تتنامى وتكبر في داخلهم، إلى روح الرفاق التي ولدها اليأس، إلى التصميم على هزيمة العدو مهما كان الثمن، حتى لو كان الثمن إزهاق أرواحهم.

تناهت إلى سمع القيصر أصداء خافتة من القلاقل التي تجري في هذا الركن القصي من إمبراطوريته ولم يجد سبباً يدعوه إلى عدم مساندة الأمراء القبارديين في أية إجراءات يرونها ضرورية لسحق التمرد. لأنه إذا سمح للفلاحين أن يثوروا ويستولوا على ما

يريدونه في مكان ما، فإنهم سرعان ما سيفعلون الشيء عينه في كل مكان من الإمبراطورية وبذلك تدب الفوضى. لقد عرض عليهم قوانين إصلاح الأراضي فقاموا برميها في وجهه. وعليه يجب الآن تأديبهم. بعد تناول طعام العشاء في إحدى الأمسيات في القصر الشتوي، وبينما تجمع مستشاروه حوله، يرشفون كؤوس البراندي ويدخنون السيجار، جلس يفكر في أفضل سبل للتحرك. حذروه من مغبة السماح للغضب بأن يستمر في التفاقم وبضرورة اتخاذ موقف قوي.

"إذا ظهر للناس أن مثيري الشغب قادرون على التأثير علينا بأساليبهم العنيفة" قال أحد المستشارين "فإنك لن تعود قادراً على منع أي رجل طموح من القيام وتحريض الناس على الثورة. أنت بحاجة إلى إخماد النار وهي ما زالت مجرد شرارة."

بعد مقدار قليل من التفكير، وافق القيصر على قرار جنرالاته بإرسال وحدات من القوزاق المزودين بالمدفعية إلى مراعي زولسكي للمساعدة في إخماد الرعاع.

كانت الوحدات متنبهة يقظة وجاهزة لخوض الحرب. معنويات الجنود عالية وهم متحمسون لكي يثبتوا للفلاحين، من الذي يسيطر على البلاد. فقد شعروا أنهم سمحوا لعدد كبير من أمثال بيطال بأن ينجوا بجرائم النهب والقتل لأكثر مما يجب من الوقت. وأن الوقت قد حان لتلقينهم درساً. خلال الوقت الذي استغرقهم لتجميع الجنود وإرسالهم إلى مراعي زولسكي، كانت الأخبار قد انتشرت في طول الريف وعرضه بأن الوقت قد حان لاتخاذ موقف والقتال. كانت المصانع متوقفة وخالية من العمال في ذلك النهار،والقرى قد هجرها رجالها. انتظر الأطفال والنساء في بيوتهم بقلق، وقد هيأهم الرجال لتوقع سماع أخبار الانتصارات العظيمة.

قابلت الأمواج الهائلة من الفلاحين عيون الضباط القوزاق المتغطرسين وهم يقودون رجالهم إلى أتون المعركة. ملأ الفلاحون

الحقول على طول خط الأفق البعيد، المئات منهم، وقد ملأهم الغضب وأصبحوا متأهبين لقتل أي عدد من الجنود حتى يتحرروا من نير الاستعباد والظلم مرة واحدة وإلى الأبد. لوح الناس بالمذاري والمناجل بالهواء في شجاعة أثناء اندفاعهم إلى الأمام مطالبين بحقهم في العيش على أرضهم. أجفل القوزاق من الأعداد، لكنهم لم يرهبوها، بل سددوا بنادقهم وأطلقوها على الحشود الشجاعة من الناس، فمزقت الرصاصات وقذائف المدفعية الصفوف الأمامية، وأسقطتهم على الأرض في مذبحة دامية. عندما توقف الجنود ليعيدوا تذخير البنادق، توقع الضباط أن يشهدوا قدراً من الفزع في الصفوف المقابلة، لكن العنف بدا أنه لم يتأثر بحقيقة اضطرارهم إلى الدوس على جثث رفاقهم الذين سقطوا. استمروا في القدوم، رجال مسنون وفتية يقاتلون جنباً إلى جنب مع أبنائهم وآبائهم، يجرحون ويطعنون بكل قوتهم قبل أن تطلق عليهم النار ويسقطوا بحتمية رهيبة.

استمر الفلاحون في الهجوم لستة أيام في موجة إثر موجة، محتشدين ضد القوزاق الذين تمسكوا بمواقعهم واستمروا في المجزرة. حتى لم يتبق في نهاية الأمر ما يكفي من الرجال لشن هجوم آخر واختفى الناجون راجعين إلى الأحراش والغابات، مخلفين وراءهم الأثر الدامي لصراعهم.

ظهر الوضع بالنسبة لضعاف القلوب وكأن الشعب لن يتمكن من إحراز النصر على مستعبديه. ولكن بالنسبة للمخططين مثل بيطال، فقد أضافت ثورة زولسكي المزيد من الوقود إلى نار الكراهية والاستنكار التي تنمو عبر البلاد، جاهزة للانفجار.

"كيف يمكنهم أن يكونوا راغبين في تلقي مثل هذا الإخفاق" استفسر تيمور من نذير عندما وصلتهما أنباء الهزيمة. "لماذا يضحون بكل هذا العدد من رجالهم عندما أدركوا أنهم لا يمكنهم أن ينتصروا."

"لا يزال عامة الشعب بدون أية أهداف سياسية محددة وواضحة" قال نذير بعد بضع لحظات من التفكير "ولن ينتصروا قبل أن يروا الطريق التي يسيرون عليها والأهداف التي يسعون إليها. لكنهم يرفضون أن يستلقوا على الأرض ويستمروا في تلقي الإذلال. يحتمل أن يوفر لهم الشيوعيون ذلك الهدف. لقد أصبحت أيام القيصر معدودة كما هي أيام الأمير حاتقشوقه. سيصبح الأمر مسألة بضع سنوات قليلة قبل أن يتم محوهم من على وجه البسيطة."

قال تيمور واجماً "إن بيطال يزداد قوة طيلة الوقت."

"هذا أمر محتوم ولا مفر منه. فكلما ازدادت إراقة الدماء، اكتسبت قضيته المزيد من التمجيد وأصبح تبريره لسفك المزيد من الدماء مقبولاً بسهولة أكبر. إنه يرى فيك عدواً هذه الآونة. إنه يعرف أنك لن تسانده ولذلك فهو يبحث عن وسائل لتدميرك."

هزّ تيمور رأسه "أعرف ذلك. أنا لا أقلل من شأنه ولا أسيء تقدير قوته. لكنني لا أستطيع أن أفعل إلا ما يمليه علي ضميري."

قال نذير "وهذا هو السبب الذي سيجعل بيطال يفوز في النهاية. لأنه لا يصغي إلى ضميره. ربما لا يكون لديه أي ضمير. فهو لم يرسل أياً من رجاله لمساعدة الفلاحين في زولسكي. فقد عرف أنهم سيقتلون، لكنه شجع العصيان لأنه يخدم أهدافه. ليس هناك فلاح واحد على مسافة ألف ميل في كل اتجاه إلا وسوف يسمع قريباً بما حدث في تلك المراعي، وسوف يصبحون جميعاً جاهزين للموت في سبيل القضية، والانتقام لمقتل رفاقهم، أخشى أن الضمائر الحية لا تفلح دائماً."

قال تيمور "إنني مضطر إلى الأمل في أن تكون مخطئاً، وإلا فإنني سأكون قد أضعت حياتي سدى وأنا أحاول أن أفعل الصواب."

"أنت رجل فاضل يا تيمور، والقضية بحاجة إلى المزيد من أمثالك."

استقبل بيطال بعض الناجين من العصيان في مخبئه. وصلوا إليه، مرهقين وملطخين بالدماء، لتقديم تقريرهم عن الفظائع، التي شهدوا عليها. أصغى إلى كل ما لديهم ليقولوه وبعدها بدأ يصرخ ويخطب بشكل استفزازي ضد جميع الأرستقراطيين وضد تيمور بشكل خاص.

"لقد كانت خيانة الأشخاص من أمثال تيمور الآتي من التيريك السبب في هذه الكارثة، فقد أتى إلينا متظاهراً بأنه صديق. إنه يختلط بين الناس، يستمع إلى مشاكلهم ويتظاهر أنه يتعاطف معهم، ويعد بالمساعدة. ولكن هل يجيء بقومه ليناضلوا إلى جانب قومنا؟ كلا! إنه يذهب إلى بيوت الأمراء ويأكل على موائدهم بشراهة ونهم، ثم يفشي إليهم الأسرار التي أئتمنه عليها أبناء الشعب، ساخراً من متاعبهم، ومطمئناً إلى أن القوزاق سوف يحمونه، لكن القوزاق لن يتمكنوا من البقاء لحمايته. سيضطر إن عاجلاً أو آجلاً للذهاب إلى فراشه لوحده وسيكون من واجب الشعب القضاء عليه. يجب أن تقابل الخيانة بالخيانة. يجب بعث رسالة إلى الأمراء، مفادها أن الذين يدعونهم أصدقاءهم لم يعودوا بمأمن وسرعان ما سيحين دورهم. إن عدد الحراس والأسلحة التي تحيط بهم غير ذي أهمية، فنحن نمتلك الصبر الذي لا يعرف النهاية وسوف نعثر عليهم كلهم. إنهم يسرقون أعمارنا ببطء، يميتوننا وأولادنا من الجوع، لكن الذي سينتهي أولاً هو حياتهم."

استمر في التبشير والمداعبة ساعات طويلة، ومعبئاً نفوس الناس البسطاء الذين يتبعونه، يحمسهم، يحركهم ويوجه أفكارهم نحو سفك الدماء، الذي يستحقونه على شكل ثواب لهم، مع انقضاء الليل، بدأوا يقسمون الإيمان المغلظة على الانتقام لأنفسهم قبل انبلاج الفجر، واستمر بيطال في تغذية نيران سخطهم.

سهر تيمور لساعة متأخرة من تلك الليلة مع كريم، متحدثاً عن العصيان وعن حمام الدم الذي نتج عنه. كان الأطفال الثلاثة الصغار الموجودون في البيت قد أووا إلى فراشهم، ولا بد أن

النساء قد تبعنهم لأن كل شيء كان هادئاً مع انتهاء أحاديث تيمور مع أخيه. عاد تيمور إلى كوخه ولم يجد أية صعوبة في الاستغراق في النوم بمجرد أن استلقى على فراشه.

انتظرت مجموعة الدعاة إلى الثورة في الخارج، متلفعين بالظلام. ران عليهم الهدوء التام، بانتظار لحظتهم المناسبة. في نهاية المطاف، وفي حوالي منتصف الليل، لم يكن هناك أي صوت يصدر من داخل الكوخ، ولم تكن هناك أية حركة سوى تراقص أشعة الجمرات التي بدأت تخبو. حطموا الباب بالبلطات في اندفاعهم إلى داخل البيت، مهشمين خشبات الباب حتى تمزق سكون الليل. قفز تيمور واقفاً على قدميه في اللحظة التي اندفعوا فيها داخل غرفته، وانغرزت سكين في أعماق قلبه قبل أن يتمكن حتى من رفع يديه لحماية نفسه. بمجرد أن سقط إلى الأرض، تحرك المهاجمون باتجاه البيت الرئيس.

استلقى تيمور على الأرض، مدركاً أن دماؤه تنزف منه وتنتشر عبر الأرضية النظيفة. تيقن من أنه سيموت لا محالة. فقد رأى كثيراً من الناس يموتون خلال حياته، لكنه لم يتخيل أبداً أن أيامه ستنتهي على هذا الشكل، مذبوحاً في بيت عائلته. لقد شهد العديد من المخاطر ونجا منها، فيكف يمكن أن تنتهي حياته بهذه الطريقة المخزية؟ لقد كرس حياته لخدمة بني قومه، وثبت أن الذين انتزعوا منه حياته في نهاية الأمر هم بنو قومه أنفسهم. كان بوسعه سماع الصيحات والصراخ الآتيين من بيت أخيه عبر الساحة، لكنه لم يعد قادراً على تحريك جسمه ليهب لنجدتهم. بدأ ذهنه يسرح، وكأنه في حلم، ولاحظ أنه لم يعد يشعر بأي ألم. بدا له الأمر وكأنه يسافر داخل نفق طويل، ينظر منه إلى الخلف نحو جسده المحطم، ملقى على الأرض، تنعكس عليه أنوار الجمرات المائتة في المدفأة. أصبح بوسعه أن يرى معلمه، أصلان، يمشي مبتعداً عنه في سبيك، واهباً حياته حتى يتمكن بنو قومه من الهروب إلى فلسطين. شاهد وجوه اللاجئين الطافحة بالأمل وهي تنظر إليه باحترام بمجرد

ذهاب أصلان، معتمدين عليه في أن ينقذهم ويأخذهم إلى وطن جديد.

شاهد مزرعة ناخو في سيواس وتذكر دعوة ناخو له بالبقاء بدلاً من العودة إلى القباردا. وبات يعجب مما إذا كان قد أضاع حياته سدى، لكنه وفي نفس الوقت شعر بالاطمئنان إلى فكرة أن النضال بالنسبة له قد انتهى.

في اللحظة التي خرجت فيها تنهيدة الحياة من رئتي تيمور، كان المغيرون يحطمون جمجمة كريم بالهراوات حتى انفجرت. لم يتمكن العجوز من سحب نفسه من فراشه ليتسنى له مجرد الاعتراض على انتهاكهم لحرمة بيته قبل أن يجهزوا عليه.

دفعوا النساء والأطفال الذين أصيبوا بحالة هستيرية إلى الخلف نحو الغرفة التي كانوا ينامون فيها وأحكموا سد الباب عليهم. تمكنت إحدى النساء من تحطيم أحد المصاريع التي تسد الشباك وتفتحها، ثم أجبرت الأطفال المذعورين على الخروج إلى الظلام الدامس في الخارج.

فحَّت فيهم "اركضوا، اتجهوا نحو الأشجار واستمروا في الركض."

ألقى الأطفال بأنفسهم خارجين، وحشرت النساء أنفسهن في فتحة الشباك حتى خرجن بينما كان الغزاة ينهبون كل ما تصل إليه أيديهم في المنزل. اتجه أحدهم نحو المدفأة وركل قطع الحطب المشتعلة إلى الخارج نحو البساط الممدود على الأرضية الخشبية، مقلداً حيلة طالما كررها بيطال في السابق، اشتعلت أطراف قطع الفحم النباتي الملتهب بشراسة وهي تطير في الهواء وأرسلت شلالاً من الشرر عبر الصوف الخشن أثناء هبوطها. تصاعد الدخان من البساط للحظات ثم اشتعل. انتشرت ألسنة اللهب وألقى الرجال على الأرض ما هو قابل للاشتعال في الغرفة. بحلول الوقت الذي اندفع فيه الرجال عائدين إلى هواء الليل البارد في الخارج، كان البيت قد

تحول إلى جحيم مستعر، وهرب الأطفال والنساء عبر الأشجار بينما كان الرجال يراقبون صنائع أيديهم الليلية.

حمّل الغزاة جيادهم بمقتنيات الأسرة على ضوء النار التي تطاولت فوقهم وهي ترمي بشررها إلى السماء الحالكة السواد.

***

الفصل الثاني والعشرون

تركيا

فرح شامرزا عمر بالطريقة التي يتقدم بها شمس في أكاديمية العسكرية. وراوده شعور الواثق بأنه كان محقاً في الإصرار على أن يترك ناخو واحداً على الأقل من أبنائه في تركيا لتعليمه وإدخاله إلى المؤسسة التركية الحاكمة. لم يكن أحد ممن يقابلون شمس في منزل جده أو في الأكاديمية ليخمن على أن لديه شقيقين لا يكادان يتكلمان التركية، وشقيق ثالث هارب من الجيش، ومطلوب في جريمة قتل. بقامته الفارعة ووسامته، وهيئته العسكرية وسيماء القيادة التي تميز بها بما لا يتفق مع سنوات عمره الغضة، كان يبدو متقفاً وراقياً مثل أي من زملائه المرشحين، ومثل عمه، برهان. بات عمر واثقاً من أن الفتى منذور ومهيأ للعظمة.

حين كان شمس يحضر لزيارة بيت جده، كان يسمع أن عائلته تتأهب للرحيل عن منطقة سيواس إلى عمان حتى تكون قريبة من شقيقه حميد. لكن كل ذلك ظل يبدو له مغرقاً في البعد عن حقائق حياته في المدينة، حيث كان الجميع يتحدثون في السياسة والحرب بدلاً من الخوض في سلالات الخيل والمحاصيل الزراعية. فهو يجد حديث الرجال ذوي النفوذ محفزاً له، بحيث يتعجل تخرجه ولعب دوره في هذا العالم المتغير بسرعة.

إلا أن شمس ظل يشعر بالإثارة بشكل خاص حين يعود إلى البيت ليجد برهان هناك، جالساً بين الرجال الآخرين، يشربون القهوة ويتحدثون في التغييرات التي تستجد في كافة أنحاء الإمبراطورية القديمة. فهو يعرف أن عمه يختلط بأناس على درجة من الخطورة والطموح وأنهم سيشكلون مفاتيح السلطة عندما يبدأ شمس مسيرة صعوده الخاصة في المؤسسة.

لذلك ظل يلاحق برهان في أرجاء المنزل، يمطره بالأسئلة في محاولة منه لفهم ما يجري في الدنيا وأين سيكون الموقع الذي سيشغله فيها بمجرد تخرجه برتبة ملازم أول. ظل عمه يتحلى بالصبر وحاول أن يشرح له الظروف والأوضاع بأفضل ما يستطيع، متأثراً بحماس الفتى وقدرته على فهم كل ما يقال له.

كان معظم الحديث يدور حول منطقة البلقان، حيث كان السكان المحليون يتغلبون، بمساعدة وتشجيع من روسيا، على اختلافاتهم لكي يتوحدوا ضد الأتراك. كانت الإمبراطورية تعاني سكرات الموت النهائية. فقد وقعت كل من صربيا، بلغاريا واليونان معاهدة، تشتمل على حلف عسكري موجه ضد تركيا، مما أدى إلى حصار القسطنطينية بدول لا تضمر لها سوى سوء النية. بعد ذلك أعلن ملك الجبل الأسود الحرب على تركيا، فلحقت به كل من صربيا، بلغاريا واليونان. سقطت موناستير بيد الصرب وسالونيك بيد اليونانيين.

بينما اندفع اليونانيون إلى داخل المدينة، أجبر المسلمون على الفرار، سمعت كل من والدة مصطفى كمال وشقيقته الأنباء عن الغزو الحتمي قبل مجرد سويعات من وصول الجنود. فقد تم تناقل الأخبار من بيت إلى الآخر مثل انتشار النار في غابة جافة أثناء قيام النساء والأطفال بحزم أغلى مقتنياتهم ومغادرة بيوتهم. لم يتعبوا أنفسهم بإقفال الأبواب أو إغلاق مصاريع الشبابيك، مدركين أنهم كلما سهلوا على الغزاة دخول البنايات، أصبح الدمار الذي يسببونه لها أقل. أصبحت الشوارع التي شهدت النمط المسالم للحياة يوماً بيوم عبر السنوات الطويلة، رهينة الفزع والهستيريا بشكل مفاجئ. بعد ذلك ساد صمت غريب خلال الفترة القصيرة التي انقضت ما بين هروب السكان ووصول الجنود الفوضويين.

انضمت المرأتان إلى الحشود من الآلاف، غير قادرتين على أن تأخذا أكثر مما تقدران على حمله لأجل الرحلة، واختفتا عن الأنظار على الفور في الكتلة الهائلة من الناس الذين أصبحوا بلا

جذور ويهيمون على وجوههم في الدنيا الواسعة.

لم تتوقف والدة كمال المسكينة، المضطربة عن القول "إن أبني مع الحكومة، يجب أن أعثر عليه حتى يتمكن من مساعدتنا" لكل من يكلف نفسه عناء الاستماع إليها.

تعاطف الناس مع نداءات المرأة العجوز قدر استطاعتهم أثناء محاولتهم التعامل مع مشاكلهم الشخصية. فكانوا يحاولون تهدئتها مؤكدين لها أن ابنها سيجد طريقة للوصل إليها وبعد ذلك يختفون للذهاب والعناية بعائلاتهم.

أي شخص يتلفت حواليه في هذا الخضم المتلاطم من البشر الذي يتم نشره في الريف وبعثرته في كافة الاتجاهات، لا بد وأن يدرك مدى استحالة مهمة أي رجل في العثور على عائلته.

استبد القلق بمصطفى كمال أثناء محاولته الحصول على أية أخبار من مركزه في طرابلس الغرب حول ما يمكن أن يحدث لعائلته. فقد سمع أن السلطان السابق عبد الحميد، قد تم إخلاؤه من المدينة على متن سفينة حربية ألمانية، ولكن لم تتوفر أية أنباء عن أي من اللاجئين الأقل شهرة وتميزاً. أدرك أن والدته أكبر سنا من أن تقدر على الاستمرار في الحياة لمدة طويلة على الطرقات، حتى مع وجود شقيقته لترعاها، لكنه لم يستطع أن يفكر بأية طريقة لإنقاذهما. خمَّن أنهما سوف تتجهان صوب القسطنطينية على أمل أن يكون موجوداً هناك حتى ينقذهما، لكن لم تكن لديه أية طريقة للتأكد. إذ يحتمل أيضاً أنهما توفيتا.

بعد تلك الحادثة، وقعت تركيا معاهدة سلام مع إيطاليا واستطاع مصطفى كمال أن يعود إلى الوطن، القسطنطينية. فإذا تواجد في المدينة، سيظل الاحتمال قائماً بأن يعثر على عائلته وسط الحشود المرهقة الرثة.

تزامن وصوله مع برهان إلى المدينة، مع قرب انتهاء حروب البلقان وهزيمة الأتراك. انتهت الإمبراطورية وأصبحت احتمالات

التغيير وإعادة النماء في تركيا أكثر من أي وقت مضى. حانت لحظته في التقدم إلى الأمام والحصول على اعتراف الجميع بزعامته.

سأل شمس عمه برهان "كيف حدث أن خسرنا كل هذا القدر؟"

شرح برهان لابن أخيه "يعطينا الألمان كل هذه المعدات الحديثة، ولكن لا ضباطنا ولا جنودنا يعرفون كيفية استعمالها. إن نظام الإمداد عندنا في حالة فوضى شاملة. ربما كانت الإمبراطورية أكبر مما يجب بحيث أصبحت إدارتها مستحيلة. وقد حانت ساعة نهايتها."

"كيف تلقى مصطفى كمال خسارة سالونيك؟" سأل شمس، وهو يعلم أن برهان قد قضى وقتاً طويلاً بصحبة الضابط ذي الشخصية الجذابة.

أخبره عمه "إنه صامت ومتفكر معظم الوقت. ثم ينفجر فجأة على أي من زملائه الضباط القادرين على سماعه، مطالباً أن يعرف كيف هان عليهم أن يسلموا مدينته الجميلة إلى اليونانيين. إنه حزين على سالونيك وخائف على سلامة عائلته. وهو يقضي معظم وقته في البحث عن أقربائه بين حشود اللاجئين. لقد رافقته في مسيره الصامت بين الجماهير البائسة التي تكاد تتجمد، المتكومين حول الجوامع، وعيناه تبحثان طيلة الوقت. إنه لا يتكلم ولا حتى يبتسم، بل يكتفي بالبحث".

جاء وصف برهان دقيقاً. فقد أمضى كمال جزءاً على الأقل من كل يوم متجولاً بين حشود الناس اليائسين، يمسح وجوههم بعينيه، كان الناس الذين يلاحظون أنه رجل صاحب نفوذ من هيئته، يمدون أيديهم باتجاهه ويطلبون منه العون حين يتمشى قريباً منهم أو تحط عيناه على وجوههم للحظات. فكان يرد على كل سائل بشكل إفرادي، محاولاً أن يمنحهم بعض التشجيع أو النصيحة. لكنه وجد أنه إذا توقف لأكثر من بضع لحظات وتحدث

إلى أحدهم، فالناس لا يتركونه يمضي. بل يتعلقون به تعلق الرجل الغريق وسرعان ما يتشكل حشد، كل فرد فيه يصرخ به طالباً مساعدته. لذلك توقف عن إبداء أية تعابير من شأنها أن تشجع أي شخص على التحدث إليه، وبقيت عيناه نائيتان باردتان.

في نهاية الأمر، أثمر جهده الدؤوب فتمكن من العثور على والدته، شقيقته وآخرين من أفراد عائلته، يكاد الجوع والبرد يفتكان بهم، وسط الحشود المجهولة. كاد أن يتجاوزهم أثناء مسيره من أمامهم وهم متكومون، متكئين إلى جدار، وقد تدثروا بالبطانيات، محدقين أمامهم وكأنهم فقدوا كل أمل. توقف لعدة لحظات، وقد تجمد في مكانه، لا يجرؤ على النطق بكلمة خوفاً من أن يكون مخطئاً، كما حدث له مئات المرات من قبل. فكثيراً ما كان يعتقد أنه تعرف على وجه ما، فيقفز قلبه بين أضلاعه فرحاً، ليكتشف فيما بعد أنها مجرد عائلة أخرى تحمل شبهاً عابراً لأحبائه.

شعرت شقيقته أن شخصاً ما يحدق فيهم فرفعت رأسها ونظرت مباشرة إلى عينيه. فتح كلاهما فمه ليناديي على الآخر لكن الصوت لم يصدر عن أي من حنجرتيهما المتوترتين، ركض باتجاههم، معانقاً كل واحد منهم بدوره، وكأنما أحس بالذعر من أن تسحبهما قوة مجهولة بعيداً عنه مرة أخرى.

أسرع بتوفير بيت ودخل لهم يكفيهم لإطعام أنفسهم. بعد أن تحرر ذهنه من عناصر القلق الشخصية، استطاع أن يركز تفكيره على واجباته في رئاسة الأركان، والإشراف على الدفاع عن شبه جزيرة غاليبولي.

ظل كمال يشكو لبرهان، في لحظات يأسه "إن الفرص تتجاوزني" فقد كان يدرك أن أحداً لا يريد أن يسند إليه أية مهمة، تنطوي على ممارسة أي نفوذ فعلي.

قال له برهان "ذلك لأنك رفضت أن تساوم وأن تحاول استرضاء الناس الذين يملكون السلطة التي تمكنهم من تعزيز

وإنجاح سيرتك الذاتية. لقد احتفظت بنزاهتك وستكون هذه مصدر قوتك في النهاية."

اعترف كمال بوجوم "إنني أفتقر إلى السيطرة على النفس. لو كنت أستطيع أن أتراجع وأتصالح أكثر قليلاً ولم أفرض طموحاتي على الناس، فربما لا تشكك المؤسستان العسكرية والسياسية في شخصي بهذا القدر. أخشى أحياناً أن يكون قدري هو الموت طي النسيان."

أصر صديقه على القول "لا أعتقد أن ذلك سيحدث، فكلما طال زمن نمو الشجرة، كلما زاد ثبات جذورها في الأرض. أنت فقط في حالة انتظار حتى يحين دورك."

سأل شمس عمه حين أخبره برهان بهذه المحادثة "هل أنت تعتقد بذلك فعلاً. هل تعتقد أنه سيصبح قائداً عظيماً؟"

أجابه برهان "إذا استطاع أن ينجو من الاغتيال، فإنني على ثقة من أنه سيجد مكانه في التاريخ".

* * *

الفصل الثالث والعشرون

جنوب تركيا

لم تستطع عائلة ناخو أن تتجنب كونها ملفتة للأنظار أثناء توجهها إلى الجنوب. لأن أية مجموعة، تضم النساء والأطفال، هي عرضة للأخطار على الدوام. وإذا ضمت المجموعة المواشي القيِّمة بالإضافة فإنها تصبح هدفاً أكثر إغراءً لأي شخص طامع أو عنيف يحتمل أن يصادفهم أثناء تدحرج عرباتهم ببطء عبر التضاريس غير المأهولة على الأغلب. ظل ناخو، ومجيد وحسن على حذر باستمرار، إذ ظل أحدهم يقظاً وخافراً إذا كان الآخرون نائمين. حافظوا على هدوئهم وتواضعهم قدر الإمكان وهم يمرون عبر القرى، غير راغبين في إعطاء أي إنسان الفكرة بأنهم أناس ذوي شأن وإمكانيات، أو أنهم يحملون أكياساً من الذهب في العربات، مخبأة تحت كميات الطعام لأنفسهم والعلف لجيادهم. ولكن بكل الأحوال، فإن أي شخص لديه أية معرفة بالجياد، سيكتفي بإلقاء نظرة على الأحصنة والأفراس ليدرك أن ناخو وحاشيته لم يكونوا تجار خيول عاديين.

لم يتعجلوا سفرهم، غير راغبين في إرهاق الجياد أو إصابتها بالعرج. فقد شكلت الجياد الستة عشر ذات الأصول النقية البذار لثروتهم المستقبلية ولذلك باتوا مضطرين إلى الاهتمام بها قدر اهتمامهم بأنفسهم. لو أن واحداً منها جرح ساقاً أو أصيب بانقباض عضلي، فإن القافلة بأسرها كانت ستضطر إلى التوقف لأيام، أو حتى أسابيع، حتى تشفى، مما قد يتسبب في نفاذ معظم مؤنهم. كانت ديسا أكثرهم استعجالاً على الاستمرار في التحرك. لم تكن حتى ترغب في التوقف لقضاء الليل، بل تحثهم باستمرار على السير قدماً لبضع ساعات إضافية، حتى تقترب أكثر من عمان ومن ابنها الغائب وأحفادها الذين لم ترهم. فيضطر ناخو إلى الإصرار

على أن الوقت قد حان للاستراحة وتناول الطعام قبل أن توافق على مضض.

في أوائل أيام الرحلة، وخلال إحدى محطات التوقف الليلي، كان مجيد يقوم بدور الحراسة بينما يقوم الآخرون بطهي الطعام والعناية بالجياد. شاهد الدورية تقترب منهم من مسافة بعيدة فأصدر الإنذار. جاء حسن وناخو للانضمام إليه وراقبوا الجنود القادمين لعدة دقائق. حتى من ذلك البعد، كان من السهل عليهم أن يروا أن هذه مجموعة من الرجال غير المنظمين وذوي هيئات رثة. فكر ناخو بسرعة. لم يكن لديهم وقت للتحرك وتجنب المواجهة لأن الخيول مقيدة والعربات غير مجهزة بحيوانات السحب. وكل ما يمكنهم عمله هو الاستمرار في عملهم بشكل طبيعي وانتظار ما سيحدث. وضعت النساء الطفل عزت في إحدى العربات، آملين أن يظل نائماً ولا يبكي، واستمرين في إشغال أنفسهن عند نار الطبخ. قام ناخو وحسن بتهدئة الجياد، والتأكد من أنها مربوطة بإحكام. فقد أرادوا التيقن من أنه إذا صدرت أية أصوات مفاجئة أو اشتباكات، لن تقدر على الإفلات والهروب. اقتربت الدورية أكثر، وأصبح واضحاً أنها ليست على عجلة من أمرها، واثقين من أن المخيم لن يذهب إلى أي مكان.

مع زيادة اقترابهم وإمكانية تركيز النظر عليهم، أصبح بالإمكان رؤية مقدار الإرهاق واليأس الذي يحيط بمظهر الجنود. فقد كانت أزياؤهم العسكرية مغطاة بالغبار من طول الطريق وظهرت خيولهم مجهدة ونحيلة. وجوه الرجال هزيلة ونظراتهم غير مستقرة. لم تكن لدى أحد منهم الهيبة العسكرية. انتظموا في صف واحد، مجموعهم ستة، يحدقون بصمت بينما استمرت العائلة في عملها.

"تحياتي" تقدم ناخو ولاحظ أن الرجال يتبادلون النظرات. فقد أدركوا أنهم يتعاملون مع رجل مهم وظهر عليهم قدر من التحفظ والتوتر أكثر مما ظهر في البداية. فحيث يوجد رجل ذو شأن،

يوجد المال في العادة.

سأل قائدهم بفضول "إلى أين أنتم متجهون؟"

"نحن متجهون إلى حلب" لم يتطوع ناخو بتقديم معلومات أكثر مما هو مضطر إليه.

"لمن هذه الجياد؟" أشار الرجل باتجاه الحيوانات.

"لقد تم شراؤها من قبل قائدكم في المنطقة" كذَّب ناخو "وها نحن نقوم بتسليمها إليه."

"هل لديك الوثائق اللازمة؟"

نهضت ديسا عن موقعها إلى جانب النار، حيث كانت تقوم بالطهي "هل أنتم جائعون أيها الرجال؟ هل ترغبون في الانضمام إلينا لتناول وجبة؟"

نظر إليها القائد بشيء من الريبة للحظة ثم هز برأسه بحزم إلى رجاله فترجلوا عن جيادهم. مشى أحدهم نحو نورسان، التي أبقت عينيها مسمرتين في الأرض. تناول ذقنها بيده ورفع وجهها نحوه حتى يتمكن من النظر إليها ملياً. تحرك حسن خطوة إلى الأمام، وقد امتدت يده إلى السوط المعلق داخل حزامه. استدار الرجل ليواجهه بدون أن ينزل يده عن وجه نورسان. أخذ يقرص وجهها بقوة وشعرت أنه سيحطم فكها لكنها بقيت صامتة، غير راغبة في إيقاد غضب حسن أكثر مما هو حاصل فعلاً.

أشار ناخو إلى حسن بالبقاء حيث هو، وقال موجهاً كلامه بحزم إلى القائد:

"أرجوك، أطلب من جنديك أن لا يسيء إلى كرم ضيافتنا. إن زوجة ابني يسعدها أن تقدم له الطعام، لكن يتوجب عليه أن يعاملها بنفس الاحترام الذي يتوقع أن يعامل زوجته به".

ضحك الجنود كلهم من فكرة أن يكون لرفيقهم زوجة، واستمر

هو في الإمساك بوجه نورسان إلى أن شعر القائد بأن ناخو يوشك أن يفقد السيطرة على الشباب، فأصدر إليه أمراً بأن يتركها لشأنها.

أخذوا الطعام الذي قدمته كل من ديسا، نورسان وبابوشكا وهم مستمرون في إطلاق النظرات الشهوانية والتعليقات الذئبية باتجاه النساء، والتي فهم كل من حسن ومجيد فحواها من النبرات، حتى ولو أنهم لم يفهموا معاني الكلمات بالضبط. بعد أن تناولوا الطعام وجلسوا يدخنون ويشربون الشاي، والجنود مستلقون بثقة واسترخاء حول النار.

"نحن بحاجة إلى جياد جديدة، سوف نبادلكم بالمطايا التي لدينا."

بسط ناخو يديه بأسف "أخشى أن ذلك أمر مستحيل. فقد دفع الجنرال الذي طلب هذه الجياد ثمنها مسبقاً، ولن يقبل بأي شيء آخر بدلاً عنها."

اقترح أحد الجنود "يمكنك أن تعيد له نقوده في أي وقت تشاء."

اكتسب صوت ناخو قدراً من الحدة، ولم يعد صوت ذلك المضيف المرحب، بل مال إلى المفاوض "أنك تسيء الفهم. لقد ائتمنت أنا وأبنائي على تسليم هذه المطايا بأمان ولذلك فإن قيامنا بهذه المهمة أصبح مسألة شرف. ولن نكون راغبين في الفشل."

تحرك الجنود بانزعاج، وقد أدركوا أن ناخو يوضح لهم بجلاء أنه وعائلته سيقررون الموت بدلاً عن التخلي عن ماشيتهم. ومع أنهم عرفوا أنهم سيهزمون العجوز وابنيه غير المسلحين في نهاية المطاف، إلا أن أحداً منهم لم يرغب في أن يخاطر بالإصابة بجراح من أجل بضعة جياد.

بعد فترة وجيزة، قال الضابط "نحن نسيطر على هذا القطاع من الطريق. ويتوجب عليكم أن تدفعوا رسماً مقابل المرور نحو القطاع التالي."

سأل ناخو "وكم سيكون مقدار هذا الرسم؟ نحن مزارعون، ولسنا تجاراً أغنياء." أصبح الآن يمارس عملية هو أكثر دراية بها من غيره، وهي المساومة على الثمن الذي سيطلبه هؤلاء الرجال حتى يتركوهم في سلام.

أحسّ الطفل عزت بالملل داخل العربة وأطلق صرخة صغيرة يطلب فيها أمه. ذهبت نورسان إليه، بينما راقبت أعين الرجال حركتها بشهوانية. قد لا يكونوا راغبين في القتال لأجل بضعة جياد، ولكن بضعة جياد مع امرأة ربما تجعل الأمر يستحق المخاطرة. أجبر حسن نفسه على التحديق في النار، وقد توترت كل عضلة في جسمه، جاهزاً للقفز إلى الهجوم إذا ما وضع أي رجل مقدار إصبع على زوجته أو طفله. بينما وقف مجيد، المعروف بمزاجه الحاد، شاهراً "القاما" الشركسية كمؤشر على استعداده لذبح أول من تسول له نفسه التعدي.

أخرج ناخو جراب ذهب صغيراً في الوقت الملائم لصرف انتباه الرجال وقام هو والضابط بإتمام الصفقة على عجل لتجنب أية إراقة للدماء. في نهاية الأمر، ركب الجنود خيلهم مبتعدين وأوت العائلة إلى ليلة نوم قلقة. بعد تلك الحادثة، تكرر الأمر كل يوم تقريباً، إذ يقابلون مجموعة أخرى من العساكر ذوي المعنويات المتدهورة، وفي كل مرة يضطرون إلى دفع المال لهم لاتقاء شرهم. فما أن وصلوا إلى الأراضي الخصيبة المحيطة بمدينة حلب في شمال سورية حتى كان الإرهاق قد نال منهم قسطاً وفيراً.

عثر ناخو وولديه على قطعة أرض محمية، قريبة من إحدى القرى، حيث يمكنهم أن يتركوا الجياد ترعى وتستريح.

أملى عليهم ناخو بتعليماته "سأستمر في السفر باتجاه عمان لعمل الترتيبات لشراء بعض الأراضي إضافة إلى بيت، ابقوا أنتم هنا واعتنوا بالجياد. سوف أعود لاصطحابكم بمجرد أن يصبح لدينا مكان نعيش فيه."

وافق الشابان، لكن ديسا استشاطت غضباً من الفكرة، وأصرت عليه، "أنا قادمة معك إلى عمان! لقد افترقت عن ابني أكثر مما يجب، سيكبر أولاده قبل أن تتاح لي إمكانية رؤيتهم."

أصر ناخو على موقفه "كلا، يجب أن تبقي هنا. لن يطول الأمر كثيراً بعد الآن. إنني بحاجة إلى السفر لوحدي حتى لا أجلب الانتباه إلى حميد إلى أن نتأكد من أن الوضع آمن، وأريدك أن تساعدي نورسان والشابين في عملهما مع الجياد. يجب أن تتحلي بالصبر فترة إضافية قليلة، يا ديسا، لكنني أعدك بأنك ستتمكنين من رؤية أطفال حميد قبل أن يكبروا بوقت طويل."

تجادلا حتى ساعة متأخرة من الليل، وظل كلاهما مصمماً ومعانداً، ولكن في النهاية، كسب ناخو النقاش لأن ديسا لم تكن ترغب بدورها في التخلي عن بقية العائلة في أرضٍ غريبة.

بعد بضعة أيام، ركب ناخو القطار في مدينة حلب، وقد جهز نفسه للرحلة الطويلة نحو عمان، حضرت ديسا معه إلى المحطة وراقبت ابتعاد القطار، والدموع تترقرق في عينيها. وقفت بلا حراك، لعدة دقائق، حتى سألتها امرأة كانت مارة إن كانت بخير، فانتفضت من سهومها.

أجابت "نعم، أنا بخير، أشكرك على سؤالك". ثم استدارت واتخذت طريقها ببطء عائدة إلى الحقل حيث كانت عائلتها بانتظارها.

كان القطار يغص بالركاب حتى قبل أن يصعد إليه ناخو، فوجد صعوبة في العثور على مقعد بين الأجساد المحشورة فوق بعضها. أدرك أن الرحلة ستكون شاقة وحارة وغير مريحة. أثنى على نفسه لإصراره على تخلف ديسا، وشعر بالراحة والامتنان لأنه سيكون مسؤولاً فقط عن سلامة نفسه لفترة طويلة.

توقف القطار في دمشق. نظر ناخو إلى خارج الشباك وفوجئ بمقدار النشاط الدائر في المدينة وخارج القطار. علاوة على مئات

الجنود، كانت هناك أعداد كبيرة من الجياد والعربات الملأى بالأسلحة والمعدات. والناس كلهم يتصايحون ويتجولون في دوائر. أما التنظيم والانضباط فكانا في أدنى المستويات. اتضح له أثناء مراقبته وجود صراخ بداخل القطار، أصوات غاضبة تتجادل والخناقات تتفجر في كل ناحية. بدأ الخبر ينتشر في العربات: يتحتم على الجميع أن يغادر القطار لتمكين الجيش من الاستيلاء على القطار بكامله.

أخبره أحد الرجال "هنالك عصيان في الكرك. إنهم مضطرون إلى نقل الجنود من أجل التصدي له."

كان ناخو يعرف أن الكرك ليست بعيدة عن عمان.

نهض واقفاً ونظر خلفه. كان الجنود الذين يقومون بإخلاء العربات من الركاب صغار السن وينفذون الأوامر. لذلك لم يكن هناك أية فائدة ترجى من النقاش معهم. مشى من خلال الحشد وخرج نحو نسيم المساء. سأل أول جندي صادفه "من هو الضابط المسؤول؟" لم تكن لدى الرجل أية فكرة، لكنه أشار إلى شخص قد يعرف. نفض كل رجل طرح عليه السؤال كتفيه وأحاله إلى الآخر، حتى وصل في نهاية المطاف إلى ضابط متعرق عصبي المزاج محاط بأناس يصرخون ويتجادلون، ويتوسلون أن يسمح لهم بالسفر على متن القطار مع جنوده.

تقدم منه ناخو وعرف بنفسه. حدجه الرجل بنظرة عابرة وهز رأسه بتحية مقتضبة قبل أن يعود إلى مجادلة الحشد. انتظر ناخو بصبر حتى توقف اللغط قليلاً، ثم تقدم منه مرة أخرى قال له، وهو يسلمه كيساً صغيراً مليئاً بالذهب "بما أنه من الواضح أنك الضابط الأعلى رتبة في المنطقة، فإنني أود أن أقدم احتراماتي. أستطيع أن أرى أنك رجل صاحب نفوذ وأن وقتك ثمين. هذه الهدية هي مؤشر احترام."

ظهرت على الرجل الدهشة ودفع بنفسه مبتعداً عن الحشد

الصاخب في محاولة لجذب انتباهه، مصطحباً ناخو معه بعد أن جذبه من ذراعه.

قال له ناخو، على سبيل المحادثة "لقد فهمت أن لديك عصيانا يتحتم عليك قمعه، لا بد وأن هذه أوقات عصيبة لرجل في موقع السلطة."

وافقه الرجل "هذه هي أصعب الأوقات لأن يكون الرجل فيها عثمانياً" وهو يمسح جبينه ويدس هدية ناخو في جيبه "لقد ثار أهل الكرك، وينوي حاكم دمشق أن يلقنهم درساً قوياً. إنه يرسل قوة كبيرة لإخضاعهم" اقترب الرجل من أذن ناخو "لقد صدرت أوامر بأن لا نظهر أي قدر من الرحمة تجاه الثوار".

"ولماذا حصل العصيان في تلك المدينة؟" سأل ناخو، متلهفاً على معرفة نوع الأخطار التي يحتمل أن يقود عائلته باتجاهها.

"لأننا محكومون من قبل زمرة من الحمقى." اصطحب الضابط ناخو إلى عربته الخاصة، مسروراً بأن يحظى بشخص يتعاطف مع متاعبه. فتح الباب له "أرجوك، أجلس في أحد المقاعد. سنكون برفقتك أنا وزملائي الضباط عما قريب. سوف نتحدث أثناء سفرنا باتجاه الجنوب."

صعد ناخو إلى داخل المقصورة واستمر في مراقبة الفوضى في الخارج طيلة الساعتين التاليتين بينما كان يجري تحميل الجياد والمعدات ثم الرجال إلى القطار. تجمهر الركاب المطرودون في مجموعات غاضبة، يطلقون التشنيعات والشتائم على الضباط الذين يحاولون بث شيء من النظام في الفوضى العارمة. في نهاية الأمر صعدت الوحدة العسكرية كلها إلى القطار وتم ربطه بقاطرة من الأمام. قام صديقه الجديد، بعد أن استرخى قليلاً في مقعده، بتقديم ناخو إلى زملائه. كانت الرحلة طويلة وشاقة واستمر الضباط طيلة الوقت في التحدث عن المتاعب التي يرون أنها قادمة. فقد باتوا مقتنعين بأن حرباً عالمية رئيسة هي أمر لا مفر من وقوعه، وأن

منطقة شرق الأردن مهيأة لأن تكون برميل بارود محتمل. قال أحد الضباط "إن العرب يكرهوننا الآن، وسوف يكرهوننا أكثر بعد هذه المغامرة. إننا نخزن لأنفسنا المزيد من المتاعب مثل هذه. يفترض فينا أن ننسحب ونتركهم ليتدبروا شؤونهم بأنفسهم. إن السياسيين في القسطنطينية مجموعة من المجانين، إنهم يدفعوننا جميعاً نحو هلاكنا".

عندما وصل القطار في نهاية المطاف إلى عمان، شعر ناخو بقلبه يمتلئ حبوراً. بقي الشركس على مسافة بعيدة عن القطار، بسبب كثرة الجنود في المحطة. لم يكن حميد موجوداً في المحطة لاستقبال والده، لأنه لم يكن يعلم بقدومه أساساً. ودع ناخو أصدقاءه الجدد وغادر القطار.

كان الضباط منشغلين في الصراخ على الجنود بحيث أنهم لم يلاحظوا خروجه من المحطة بطريقة مختفية، فاتخذ طريقه نحو البلدة وحيداً وبدون أن يعلن عن قدومه أحد. منحته الوحدة الوقت الكافي للتلفت حواليه والتعرف على المناظر حوله. سرّه ما شاهده. فقد وجد المنطقة خصيبة ومخضرة مع وجود دليل قوي على سنوات طويلة من العمل الشاق، الذي بذله المستوطنون في كل مكان. الجدران المحكمة البناء تحيط بالبساتين الصغيرة التي تزخر بالخيرات والماشية، والبيوت المتينة، المبنية بطريقة ثابتة التي تنفث مداخنها الدخان، تملأ الطريق الذي كان يسير عليه.

لدى دخوله حي المهاجرين في القرية، شاهد سوسروقة، وهو صديق قديم له من القفقاس، يقطع الحطب خارج منزله. نادى عليه فرفع الرجل رأسه عن عمله. لم يصدق ما تراه عيناه للوهلة الأولى. حدق بناخو وقد ارتسم على وجهه تعبير حائر، ثم انتشرت ابتسامة عبر وجهه المليء بالخطوط.

صرخ بصوت جهوري "يا إلهي، ناخو! وهكذا قمت بالرحلة لتزانا أخيراً." ركض نحوه وألقى بذراعيه حول صديقه القديم.

خرجت زوجته، التي سمعت هتافه من داخل البيت، راكضة وهي تصرخ فرحاً. لم يمض وقت طويل حتى امتلأت الجادة بالناس الذين يلقون الأسئلة يمنة ويسرة، والتي عمل ناخو أفضل ما بوسعه للإجابة عليها. فجأة، ران على الحشد الصمت والهدوء، وانشق الجمع إلى قسمين. فقد وقف زوجان شابان بخجل وسط الطريق، يحمل كل منهما طفلاً بين ذراعيه. فتح ناخو ذراعيه وتقدم حميد لعناقه. سالت الدموع من عيني كليهما أثناء العناق. وقفت زوجة حميد على مسافة صغيرة، مرتبكة إلى أن تذكر حميد وضعه فقام بتقديمها إلى والده.

أعجب بها ناخو على الفور وقهقه حفيداه بسعادة عند تقديمهما إليه ليحملها. راقب الحشد المتجمهر في الجادة التئام شمل العائلة بصمت. ساد شعور بأنهم سينطلقون بالتصفيق في أية لحظة.

اصطحب حميد والده إلى بيته، محاطاً بجمهور متزايد. لم يكن أحد منهم يريد أن يكون أول من يترك ناخو بحاله، فقد كان لدى الكل منهم أسئلة ليطرحها وأخباراً ليرويها. ابتسم ناخو وهز رأسه باتجاه الأصوات العديدة التي ارتفعت حوله في ثرثرة محببة، وظل يسترق النظرات إلى ابنه، كنته وحفيديه كلما استطاع. جلسوا حول الطاولة داخل البيت وتم تحضير الشاي. حاول كل أفراد الحشد الدخول بدورهم لكن لم يكن هناك متسع إلا للقلة، فبقي الآخرون في الخارج، يمدون رقابهم إلى الأمام، محاولين أن يسمعوا ما يقال ويجري.

صدرت عن الجمع صرخات من الفرح والاحتفال حين أعلن ناخو عن كونه يخطط لإحضار عائلته إلى عمان بمجرد أن يمتلك بيتاً لتعيش عائلته فيه.

قال له سوسروقه "يوجد الكثير من الناس هنا ممن سيساعدونك على بناء بيتك" وعلى الفور وافقه اثنا عشر صوتاً.

بعد لأي، لاحظ الكبار أن ناخو قد بدأ يتعب وأنه متلهف على

أن يترك لوحده مع عائلته التي عثر عليها حديثاً، فبدأوا يخرجون الآخرين من البيت حتى يمنحوه بعض الخصوصية.

بعد انصراف الناس، جلس ناخو وحميد بهدوء لفترة، يستمتعان بالفرح الذي أسبغه عليهما وجود أحدهما بصحبة الآخر بعد ذلك الزمن الطويل.

سأل حميد "كيف هي والدتي؟"

"إنها بخير. إنها لا تكاد تطيق صبراً للقدوم إلى هنا ومشاهدتك. بصعوبة بالغة أقنعتها بالبقاء في حلب حتى أرتب أمر البيت. إنها تريد أن تراك" وأحنى رأسه باتجاه كنته "وهي تريد أن تحتضنهما بين ذراعيها" مشيراً إلى الطفلين، وابتسم الزوجان الشابان بفخر.

"وكيف حال حسن ومجيد، وبابوشكا وشمس؟"

"لقد تزوج حسن من نورسان، ولديهما ابن، هو عزت. لم يتزوج مجيد بعد. إنه يقسم على أن لا يزعج نفسه بالزواج، لكنني أعتقد أن أمك تعمل على تغيير ذلك."

ضحك الرجلان.

"إن بابوشكا تزداد جمالاً في كل يوم. سوف تصاب بصدمة عندما ترى ما تحولت إليه أختك الصغيرة. ما زال شمس في استنبول. وهو في الأكاديمية العسكرية ويبدو في طريقه إلى أن يجعلنا نفخر به كلنا."

أشاح حميد بعينيه للحظة، إذ عادت إليه الذكريات المؤلمة لحياته في الجيش. ثم سأل "وهكذا، هل تخطط للانتقال إلى عمان؟"

قال ناخو "سأكون بحاجة إلى شراء بعض الأراضي، إذ لن تخصص لي السلطات أي شيء لأنني لست ضمن مجموعات اللاجئين الرسمية."

قال حميد "لن يشكل ذلك الأمر مشكلة، فالعديد من العائلات الموجودة هنا تريد أن تغادر وتعود إلى القباردا. إنهم يتحدثون عن ذلك طيلة الوقت، متذمرين من البدو والمناخ. لقد أصبح القفقاس في أذهانهم نوعاً من جنة عدن. إذا قدمت لهم عرضاً، فإنني واثق من أنهم سيبيعون لك بسرور."

"كلما أسرعت في تسوية هذه المسألة، كلما زادت سعادة أمك وأشقائك."

قال حميد "ستكون رؤية الجميع أمراً طيباً. كنت قد بدأت أظن أنني قد لا أراكم مرة ثانية أبداً".

طأطأ ناخو برأسه. فقد أصبح يميل إلى الاعتقاد بأن ديسا كانت محقة طيلة الوقت. كان يفترض فيهم أن يجيئوا إلى عمان من قبل. لأن إعادة جمع شمل حميد بعائلته أمر محتوم.

تجول في أرجاء عمان خلال الأيام التالية، يقابل الناس، متحدثاً ومعايناً الأراضي. ظل الناس يقولون له "يجدر بك أن تكلم عائلة حفيتسه، فهم جاهزون للعودة. سيكونون سعداء في بيع الأرض لك."

ذهب ناخو لزيارة العائلة التي استقبلته بحفاوة في بيتهم المتواضع. قدموا له الطعام وحضَّروا الشاي وتحدثوا في كل شيء تحت الشمس ما عدا الصفقة التي كانوا جميعاً يأملون في إبرامها. أثناء حديثهم، ظل ناخو يعاين الأرض والبناء وقرر أنها ستشكل قاعدة وأساساً يستطيع هو وأبناؤه أن ينطلقوا منها ويضيفوا إليها. فقد كانت القطعة تمتد نزولاً حتى ضفة السيل وتضم ما يكفي من المساحة لإنشاء الحظائر والبيوت الإضافية مستقبلاً. فقد ترتب عليه التفكير بأبنائه الذين يكبرون، فسوف يحتاج حسن ونورسان إلى مسكن خاص لهما وسرعان ما سيتزوج مجيد ويحتاج إلى نزل لعائلته. في نهاية الأمر، تطرق في الحديث إلى الناحية التجارية وقدم لهم عرضاً سرعان ما قبلوه بسرور.

في القرية الواقعة خارج حلب، حيث كانت العائلة تنتظر عودة ناخو، أخرجت ديسا بعض الطعام إلى ولديها، فلقيت حسن يحمل على وجهه علائم القلق.

أخبرها "إن أحد الأحصنة الفحول مريض، ولكننا لا نستطيع أن نفهم كنه المشكلة."

راقبت ديسا بينما قام الشابان بمعالجة الحصان الذي كان يتلوى ويتخبط على العشب في حالة جلية من الألم. قال حسن

"هناك شيء ما ملتوٍ في أحشائه، يجب علينا أن نثبته حتى أتمكن من تحسسه وفحصه."

أشار مجيد على ديسا ونورسان حتى تقتربا "لتمسك أحداكما برأسه، حاولا أن تعملا على تهدئته، ولتحاول الأخرى أن تسيطر على قائمتيه الأماميتين. احذرا جيداً."

بعد ذلك ألقى بنفسه على قائمتي الحصان الخلفيتين، وهو يصعد وينزل بينما كان المخلوق القوي يكافح تحته بجنون. أدخل حسن ذراعه في إست الحصان، يتحسس أمعاءه بحثاً عن مصران ملتوٍ أو إنسداد ما، لكنه لم يعثر على شيء. كانت عينا الحصان تدوران داخل محجريهما في مزيج من الخوف والألم، وبحركة جهد عنيفة هائلة، استطاع أن يلقي بالمرأتين بعيداً عنه ويلوي نصفه الأمامي، مستعداً للنهوض على أقدامه مرة أخرى. سحب حسن ذراعه وقفز هو ومجدي سوية مبتعدين. نهض الحصان قائماً ثم وقع مرة أخرى، وكأنما أنهكه الجهد الذي بذله. لم يقاوم هذه المرة. بل اكتفى بالرقاد ساكناً، يرف بأجفانه ويخرج أنفاساً قصيرة متقطعة. أثناء وقوف الأربعة يراقبونه، أخرج تنهيدة حارة أخيرة، وأسلم الروح.

في تلك الليلة، وبينما كان الآخرون نائمين في الكوخ الذي أجره لهم أحد القرويين، استيقظ حسن على أصوات معاناة غريبة صادرة عن الحقل. أيقظ مجيد، عثر على فانوس واتخذ الاثنان

طريقهما إلى الخارج. استطاعا بمساعدة الضوء الخافت الذي ألقاه الفانوس أن يريا كل الجياد في حالة قلق وقد أجفلت من شيء ما. عندما دفعا بنفسيهما عبر الجياد، وصلا إلى فرسين ملقاتين على الأرض، وتئنان بشكل يثير الشفقة.

عمل الشقيقان بجهد كبير لعدة ساعات محاولين أن يتعرفا على سبب الألم، ولكن بحلول الفجر تخلت كلا الفرسين عن الكفاح نفقتا. عاد مجيد وحسن إلى النساء. وهما في حالة قريبة من اليأس. لقد غادرهما ناخو وترك جياده الغالية عليه في عهدتهما ووضع ثقته فيهما، وشعرا بأنهما قد خذلاه. لم تكن لدى أي منهما أدنى فكرة عما أخطآ في عمله أو ما ينبغي عليهما عمله لضمان عدم إصابة أي من الآخرين بنفس المرض.

بمجرد أن تناولا طعامهما، عادا إلى الحقل، محتارين في المشكلة، متسائلين عما إذا كان شخص ما قد قام بتسميم الحيوانات. وكلما أطالا في الحديث، تشعبت تخيلاتهما وزادت غرابة. قررا أن يقيما رقابة على الخيل على مدى الساعات الأربع والعشرين، متقاسمين الوقت بينهما. خلال الأيام الثلاثة التالية، نفق الحصانان الباقيان وست من الأفراس بنفس الطريقة تماماً. لم يعد لديهم سوى ست من الأفراس، وقد نفقت باقي أفراسه ذات السلالة العريقة.

كان رد فعله الأولي هو الصراخ بغضب على حسن ومجيد، مفترضاً أن السبب هو شيء فعلاه أو أمر آخر لم يفعلاه، لكن أمهما تدخلت دفاعاً عنهما.

"لقد عمل الشابان كل ما كان بوسعهما عمله." قالت له "وما كان بوسعك أنت أن تفعل أي شيء مختلف."

قال ناخو، بعد أن هدأ غضبه "إنه خطأي، ما كان يجدر بي أن أترككم هنا في منطقة غريبة. فقد كانت المخاطرة كبيرة."

قالت ديسا "لا فائدة ترجى من لوم نفسك أو أي شخص آخر. فقد حدث الأمر وليس هناك ما يمكن عمله بشأن ما حدث، ربما

تكون هذه إشارة إلى أن العائلة يجب أن تتوقف عن تربية الخيل كأسلوب حياة".

وقف ولداه بعيداً خلفه بينما انطلق ناخو يتمشى في الحقل ويتفحص الأفراس المتبقية، ويهز رأسه بأسى. قال وهو يركل الأرض "لا بد وأنه شيء في المرعى. لا بد وأن نبتة هنا قد سببت لهم مغصاً من نوع ما. يجب أن نخلي الأفراس الناجية بأسرع ما يمكن. سوف نرتحل إلى عمان على الفور."

مع أن حزن ديسا على فقدان الأفراس والأحصنة لم يكن ليقل عن حزن الرجال، إلا أنها لم تستطع أن تكبت دفقة من الإثارة جراء فكرة مشاهدة حميد في وقت أبكر. في الأسبوع التالي، وبينما كان قطار الشحن يقلهم وهو يترنح ببطء باتجاه الجنوب حاملاً القطيع المنخسف، لم تعد تطيق الصبر. فكل ساعة تقربها أكثر فأكثر نحو جمع كل أطفالها عدا شمس، سوية في مكان واحد. أخذت الصحراء تبدو لهم مكاناً معادياً أكثر فأكثر مع تحركهم متوغلين بداخلها، لكن ناخو أبقى على حماسهم بقصصه حول كم ستكون الحياة رغيدة في عمان، وكيف اشتغل أصدقاؤهم بجد ودأب لتنظيف الأرض وجعلها قابلة للسكنى والفلاحة.

بحلول وقت وصولهم إلى وجهتهم، كانوا قد تعودوا على الحرارة التي لا تتوقف نهاراً وعلى برودة الليالي. اعتادوا على مناظر الصحراء المترامية الأطراف والغبار الذي يطير في الهواء. بدت لهم عمان واحة بنفس الكيفية التي وعدهم بها ناخو. خرج حميد وعائلته لاستقبالهم، وقد سبقتهم أخبار وصولهم بساعات، وبدا كأن حي المهاجرين برمته يحتفل بوصولهم. تعلقت ديسا بابنها الذي فقدته طويلاً وكأنها تخشى أن تفلته. بعد لأي، تمكن حميد من الإفلات ضاحكاً، وقدمها إلى زوجته وطفليه.

بعد وصولهم بوقت قصير بدأت الأخبار تتسرب حول القوة الرهيبة التي استخدمتها السلطات العثمانية لإخضاع العصيان في

الكرك. تضاعفت كراهية العثمانيين في المنطقة مئة ضعف، فاضطرت السلطات إلى إعلان العفو العام والشامل عن جميع الجنود الفارين والسجناء في محاولة منها لإعادة استمالة قلوب الناس. شمل العفو حميد وأصبح من ضمن أولئك الذين لم يعودوا مطلوبين للسلطات بسبب جرائمهم.

في تلك الليلة، أقامت العائلة وليمة للاحتفال باجتماع شملهم وزوال خطر واحد على الأقل من الأخطار التي كانت تحدق بحياتهم. فلن يضطر حميد بعد الآن إلى الاختباء عندما يجيء الجنود إلى القرية، وسيكون بإمكانه أن يتحدث بصدق وصراحة مع كل من يلتقي به في مجال عمله. ولم يعد مضطراً إلى إعطاء أجوبة مراوغة إذا سأله أي شخص عن خلفيته العائلية أو تاريخها.

بأن الأمر وكأن عصراً جديداً قد ابتدأ بالنسبة لهم.

***

الفصل الرابع والعشرون

القفقاس

تحققت أسوأ مخاوف كل شخص في البلقان يوم الثامن والعشرين من حزيران عام 1914 عندما قتلت رصاصة أحد القتلة الأرشدوق فرانز فرديناند، ولي العهد النمساوي. قيل وقتها أن القاتل، وهو طالب، قد تم تسليحه وتدريبه من قبل منظمة إرهابية صربية. كنتيجة لذلك، أعلن النمساويون الحرب على صربيا، فدعمهم الألمان واشتعلت بذلك شرارة الحرب العالمية الأولى. تكون تحالف سرّي بين تركيا وألمانيا ضد الروس. فقد أراد كل طرف أن يتأكد من أنه عندما تضع الحرب أوزارها، سيكون بين المنتصرين في تكوين العالم المستقبلي.

وصلت أخبار الأحداث، التي كانت تهز العالم بأسره، إلى أكثر المناطق انعزالاً في الدنيا. حاول القيصر في مركز موسكو أن يوحد الإمبراطورية كلها تحت قيادته الشخصية، وقام تبعاً لذلك بإرسال ألوية كاملة من الجنود إلى حتفها شبه المؤكد في مهمات سيئة التخطيط. حاول جنرالاته الذين لم يكن العديد منهم أكثر كفاءة منه، أن يمارسوا نفوذهم ولم ينجحوا إلا في جعل المذبحة أسوأ.

صرخ بيطال "نحن بحاجة إلى منظمة" وهو يضرب بقبضته الطاولة في اجتماع مع أقرب الرفاق إليه. "إذا لم يكن الناس منظمين، فسوف يتمكن سادة العبيد الروس في الاستمرار باستخدامنا مثل حجارة الشطرنج القابلة للاستغناء عنها في ألعابهم."

اشتكى قراشييف، أحد رفاقه الموثوقين بقوله "ليس الأمر بهذه السهولة، نحن قد بدأنا بتغيير الأوضاع فعلياً، لكن الأمر يستغرق الكثير من الوقت. إن صراعنا ضد الأمراء في قباردا يؤتي ثماره طيلة الوقت. إننا نتحرك مقتربين من الحرية. أنت لا تستطيع أن تجعل هذه الأمور تسير بأسرع مهما ترغب هي. سنحصل على

الحرية. في نهاية المطاف."

أراد بيطال أن يعرف "ماذا ستكون فائدة الحرية إذا تم إرسالنا إلى الجبهة ليتم ذبحنا كالماشية؟ لن نكون أكثر من شوكة محلية في جنوبهم إذا لم ننشر أفكارنا خلال الإقليم ونسحب المزيد من الناس إلى شبكتنا. إن الحرب تكشف عن غباء القيصر وضعفه. هذه فرصتنا للحصول على السلطة وسحقهم مرة واحدة وإلى الأبد، بينما كل اهتمامهم مركز على الألمان والنمساويين".

أراد بيسلانييف أن يعرف "كيف يمكننا أن نقاتلهم بينما هم يأخذون أفضل رجالنا إلى الجيش؟"

اشتعل بيطال غضباً "يجب أن ننشر الفكرة، نخبر الناس بأن لا يذهبوا، أن يرفضوا الانضمام إلى الجيش الإمبراطوري." ران على رفاقه الصمت من حوله، مخافة أن يتحول غضبه إليهم إذا لم يكونوا حذرين. انطلاقاً من تلك النواة الصغيرة، المدفوعة بقناعات بيطال وقناعات آخرين مثله، بدأت الأفكار تنتشر خلال الإقليم. عندما حضر مسؤولو التجنيد التابعين للقيصر باحثين عن رجال أقوياء، شجعان ليقوموا بالقتال لأجلهم، جوبهوا بجدار صلب من المقاومة.

"يجب أن نمنح الرجال شيئاً آخر لينضموا إليه غير الجيش" قال بيطال لكل من استمع إليه "ليس أحد منهم قوياً بشخصه بما يكفي للوقوف في وجه القيصر ونظامه الاستعبادي، لكنهم إذا أحسوا أنهم جزء من شيء آخر، شيء أكبر، فأنهم سيمتلكون القوة على المقاومة. بمجرد أن يؤمنوا بأنهم يمتلكون القوة على المقاومة، لن يعود هناك شيء يستطيع مسؤولو التجنيد أن يفعلوه".

من هذه البذرة، تولدت الثورية المسماة "كاراخالك" وبالتالي لم تلتحق ألوية كاملة من الخيالة الذين كان يفترض أن يكونوا متوفرين للقيصر للذهاب إلى الجبهة. أصبح الرجال في جميع قرى الإقليم متحفزين لسماع الرسالة التي مفادها أنهم غير مضطرين لترك

نسائهم وعائلاتهم ليعانوا مزارة الجوع في غيابهم. لم يكونوا بحاجة إلى الاستقواء عليهم وإجبارهم على المخاطرة بأرواحهم لأجل قضية لا تعني لهم شيئاً. للمرة الأولى، تم إعطاؤهم الأمل في أنهم قد يصبحوا قادرين على التأثير في مصائرهم والأمل في أساليب حياة أطول عمراً وأفضل مما حصل عليه آباؤهم وأجدادهم.

قضى بيطال وزملاؤه كل ساعة من ساعات يقظتهم في التنقل من قرية إلى قرية، يجندون الأعضاء ويرفعون معنوياتهم بالخطابات، يجلسون بعدها لساعات بين الناس، يتحدثون ويستمعون وينشئون شبكات من الاستياء التي بدأت تنمو من قوة دفعها الذاتية. لأن شخصاً واحداً مقتنعاً سيقود شخصين أو أكثر وهكذا ستستمر الأرقام في النمو والانتشار، وبدأ الناس يشاهدون قبساً من النور في نهاية نفق التاريخ المظلم.

***

الفصل الخامس والعشرون

شرق الأردن

لم تنقض سوى أسابيع قليلة على وصول عائلة ناخو، ورغم ذلك صار أهل عمان يشعرون أن العائلة كانت موجودة بينهم دائماً. تحول البيت البسيط الذي اشتراه ناخو خلال أشهر إلى منزل مناسب لعائلة مرموقة. فقد أنشئ أسطبل ضخم أمام البيت أمامه ساحة، وبدأ برنامجاً جديداً في استيلاد الخيول وتربيتها مع الأفراس التي نجت وبقيت من مزرعة سيواس. برز بيتهم من بين بيوت الآخرين في عمان، كرمز للرخاء القادم الذي ستبنيه الأجيال القادمة.

مثلما فعل أسلافه من قبل، خرج ناخو إلى شيوخ بني شمر على حدود العراق واشترى منهم حصاناً عربياً. شعر الشيوخ بالتشريف لأن يكون بينهم رجل له مثل هذا التاريخ، ويحل ضيفاً عليهم، يقبل ضيافتهم. فإن حفيد كازبك، الاسم الذي ما زال يذكر باحترام لدى قبائل شمر، كان سيحظى بالترحيب بغض النظر عما جاء يسعى إليه.

انقضت ايام بطولها وهم يتحدثون عن الخيل ويتبادلون قصصاً من الماضي. شعر ناخو بالفخر والتكريم لكون عائلته تحظى بكل هذا الإجلال، وشعر الشيوخ بالفخر بدورهم لأنه جاء ليزورهم. في نهاية المطاف، وبعد أن توثقت عرى الصداقة وترسخت الثقة المتبادلة، جيء بالأحصنة وعرضت عليه. كانت حيوانات جميلة، تقف على قوائمها بخفة، رقابها طويلة مثل رقاب البجع وجبهاتها صغيرة رقيقة. وكلها من رسن الصقلاوي النقي الأصيل، وهو رسن كان ناخو يرغب في اقتنائه. أراد أن يشتري أحدها على الفور، وكذلك أراد مضيفوه أن يبيعوه، لكن توجب أن تكون المفاوضات طويلة ومليئة بالمديح والأدب، حسب التقاليد.

في نهاية الأمر، اشترى ناخو أروع فحل بينها وجاء به إلى البيت، وهو يعرف أن مضيفيه ما كانوا ليقبلوا أو يشعروا بالسعادة لو أنه انتقى حصاناً أقل شأناً.

خرجت العائلة كلها لتتفحص آخر مشترياتها بينما هو يرمي بعرفه في صلافة، ويضرب الأرض بقدميه بنفاذ صبر ويلوح بذيله الهائل على الحشرات التي تخرج في الأمسيات الدافئة لتتغذى. شعرت العائلة بالسعادة النابعة من الإحساس بالاستقرار ولكونهم اجتمعوا أخيراً ليغرسوا ويؤسسوا جذوراً بين بني قومهم، رغم أنها بلاد جديدة عليهم. تخيلوا كم ستكون الأمهار التي تلدها أفراسهم جميلة حين تستولد من هذا المخلوق الجميل.

قال حسن في أحد الأيام، بينما كان يمرن الجياد "يا أبتِ، لقد كنا نتحدث، مجيد وأنا."

"نعم؟" قال ناخو، الذي لم يكن يستمع بكامل انتباهه، لأن ذهنه مشغول بالطريقة التي تتحرك بها الجياد، وقد برزت عضلاتها تحت جلودها اللماعة.

"الآن وقد تم بناء الإسطبلات، لم يعد هناك عمل كافٍ لنا كلنا. ما لم نكن نفكر باقتناء نفس كمية الجياد التي كانت لدينا في سيواس، فإننا، مجيد وأنا، يفترض فينا أن نبحث عن أعمال أخرى ننخرط فيها."

هز ناخو رأسه "نعم، أعرف ذلك، لقد كنت أفكر بنفس الموضوع. لا أعتقد أننا يجب أن نضع كافة جهودنا في تربية الخيل بعد الآن. لن يبقى الجيش على ظهور الجياد إلى الأبد وهناك احتياجات أكثر إلحاحاً في عمان. لقد فكرت في شراء المزيد من الأرض وزراعة الحبوب. فقد قيل لي أن التجار يجيئون من القدس ودمشق لشراء الحبوب مثل القمح والشعير."

هزَّ حسن رأسه بالموافقة، وقد أحسّ بالانفراج لأن والده لم يكن يغضب منه على الإفصاح عن رأيه. ما كان ليناقش في أي

قرار اتخذه ناخو، ولو أن أباه قال أنهما كانا مخطئين وسيظلان يعملان في الإسطبل فربما لم يعد إلى إثارة الموضوع مرة أخرى. ولكن، على أية حال، هذا قرار أفضل بكثير. فقد رأى هو ومجيد أن سكان عمان متلهفون على الدوام لتنويع مأكولاتهم وأن أي برنامج زراعة سوف يزدهر. وكان اهتمامه أكبر بزراعة الخضروات والفواكه.

عثر ناخو بعد ذلك على قطعة أرض واشتراها، وعمل الثلاثة بدون توقف على جعلها خصبة صالحة للزراعة، بمساعدة حميد كلما توفر له الوقت من وظيفته لدى السكة الحديد.

قدمت العائلة مستوى جيداً من الوفرة إلى المجتمع واضطلع ناخو بدور أحد وجهاء القرية بشكل آلي، وأصبح الرجل الذي يجيء الناس إليه بهمومهم ومشاكلهم. أصبح هو الذي يتعامل مع مشاكل الجيران البدو والسلطات العثمانية، تماماً كما فعل تيمور في الماضي. لم يعد الناس يعتبرون البدو تهديداً للمجتمع، رغم أن كثيراً من كبار السن الشراكسة ما زالوا يجدون صعوبة في قبول طريقتهم في عمل الأشياء. أصبحت النظرة إليهم الآن على أنهم حلفاء، وعمل العديد منهم كمساعدين ومزارعين أو رعاة أغنام لدى شراكسة المهاجرين.

عندما شاهدت مجموعة من العمال الآنسة جيرترود بيل وجماعتها يقتربون من عمان، ظهر الأمر طبيعياً أن يؤتى بها إلى منزل ناخو. في البداية، لم يستطع ناخو أن يفهم ويحلل من يمكن أن تكون هذه المرأة الإنجليزية الغريبة، المنهكة من السفر، ولكن عندما تقدم حميد وحياها باعتبارها صديقة قديمة، ازدادت حيرته.

أخبرته الآنسة بيل "إن ابنك وأنا رفيقا سفر قديمين. أمر رائع أن أراه مرة أخرى."

طمأنها ناخو بقوله "إن أي صديق لابني هو موضع ترحيب في بيتي. أرجوك أن تقبلي ضيافتنا طيلة المدة التي ستمكثين فيها في المنطقة."

"أشكرك على عرضك هذا، ولكن إذا سمحت لي فقط بالحصول على قطعة من الأرض أنصب فيها خيمتي. فأنا أفضّل أن أحافظ على استقلاليتي."

"سنكون سعداء باحترام ذلك، ولكن يجب أن تقبلي ضيافتنا خلال النهار وتتناولي الطعام معنا" أصر ناخو.

أجابته "سيكون ذلك من دواعي سروري وميزة لي."

أصبحت جيرترود بيل جزءاً من المجتمع الشركسي للأسابيع القليلة التالية، تحمل عزت الصغير وتتجول به في سعادة، وترد بصبر على جدول أسئلته التي لا تنتهي، وتتناول كل وجباتها مع العائلة ثم تأوي إلى خيمتها في الليل بينما ينام خادمها ومترجمها الأرمني على مقربة. حلت كضيفة شرف على إحدى حفلات الزفاف في البلدة ورقصت في مثل عنف أي من الرجال بينما استمرت الاحتفالات لعدة أيام بلياليها. كانت تعجب على الدوام من كيفية تمكن هؤلاء الناس الذين اضطهدوا في كل مكان ذهبوا إليه بعد مغادرتهم القفقاس، من الحفاظ على هذا القدر من معنوياتهم العالية والقدرة على التكيف. فهي تستطيع أن ترى أنهم يعملون بنفس جدية وتعب أي من المزارعين وعمال السكك الحديدية في بلدها إنجلترا، لكنهم لا يتصرفون كفلاحين، ولا مثلما يتصرف الأرستقراطيون في بلادها. بل كانت القرية برمتها تعمل بجهد مجتمعي، ويعمل قادة المجتمع، مثل ناخو، بنفس اجتهاد أصغر الرجال سناً وأقلهم مرتبة. لاحظت في حفلات الأعراس والولائم التي دعيت إليها، إن الجميع يحظى بنفس الاحترام وبدا أن الجميع يحتفل ويستمتع بنفس الانفتاح.

أسرّت إلى ناخو في إحدى الأمسيات بينما كانا جالسين في ساعة الغسق الرطبة، يحتسيان القهوة "إن الأتراك لا يسهلون الحياة عليّ. هذا زمن يصعب فيه أن يكون المرء رحالة."

قال ناخو "السفر صعب في كل الأوقات، أنت على الأقل تسافرين باختيارك. لن يقدر أحد في بريطانيا أن يفهم معنى مغادرة وطن بدون أن يأخذ المرء معه إلا ما يقدر على حمله."

"لا أظن ذلك" وجلست هادئة للحظات "لقد عانى شعبك بشدة. أخبرني قصتك."

جلسا حتى ساعة متأخرة من الليل، يدخنان ويشربان، بينما كان ناخو يقص كيف غادرت عائلته القفقاس وارتحلت إلى تركيا. أخبرها عن الفظاعات التي عانى منها قومه في البلقان,. أخبرها بكل شيء عرفه من تيمور عن بطولات صديقه القديم أصلان، والميتة الشنعاء التي أجبر على تحملها حتى تمكن من تحرير شعب الشابسوغ الذين تعرفت عليهم في القرية.

قالت "لكن تجاربكم ومعاناتكم جعلتكم أقوياء وقادرون على التكيف. أشك في أن يكون هناك ظرف لا يستطيع الشركس أن يتعاملوا معه بنجاح وينفذوا بجلودهم."

" ربما تكونين على حق" هز ناخو رأسه موافقاً "لكنني أشعر بالتعب أحياناً."

قالت "يجب أن تسمح لأبنائك بعمل المزيد. فهم رجال رائعون، يجب أن يضطلعوا بالمزيد من أعبائك."

سرح ناخو في صمت متفكر. كان هنالك شيء محير فيما يتعلق بهذه المرأة الإنجليزية القوية. فعلى الرغم من مظهرها المنفتح الودود، إلا أنه كانت لديها فيما يبدو أسرار، تحرص على إبقائها دفينة في أعماق قلبها. عندما كان موضوع السياسة الدولية

يطرح، تبدأ بإلقاء الأسئلة المتواصلة، لكنها لم تدل برأي لها مطلقاً، وكأنها تقوم بجمع المعلومات لإرسالها إلى شخص ما.

بعد رحيل جيرترود بيل بوقت قصير، لإتمام رحلتها نحو الشرق، حضر مسافرٌ آخر إلى عمان، محمولاً على الريح، في الماء ومع آلاف الناس المشردين الذي يجوبون عالماً مزقته الحرب. جاءت الكوليرا مثل جيش لا يمكن إيقافه، تجتاح كل مجموعة من السكان تقف في وجهها، تمزق أحشاء الذين أصابتهم العدوى وتتركهم ليموتوا جراء الجفاف والألم. لم تكن تميز بين ضحاياها، إذ تهاجم الجنود والعمال، البدو والمستوطنين، الرجال والنساء بإعداد متساوية. كان الأطفال ضعفاء بشكل خاص أمام الجائحة، فقد كانت أجسادهم أصغر وأضعف في مقاومة التقيؤ والإسهال.

وصلت إلى بيت حميد وأصيبت بها كل عائلته خلال أيام قليلة. بقيت ديسا معهم في الليل والنهار، غير مكترثة بالخطر المحدق بصحتها، تواسيهم وتمسح وجوههم، تنظف القذارة الرهيبة وتحاول أن تبقي الماء ينقط في حلوقهم المتشققة.

أصاب الهزال الأطفال أولاً، فقد ضمرت أجسامهم الصغيرة بين عشية وضحاها حينما بدأت معدهم ترفض الطعام والماء وتطرد كل ما بداخلها. برزت أضلاعهم بحدة من خلال جلودهم التي ألهبتها الحمى، وثقلت أعينهم وزاغت من شدة الإجهاد والاضطراب. أصاب ديسا اليأس في محاولاتها للإبقاء على حياتهم عندما لم يعودوا قادرين على فعل أي شيء لمساعدة أنفسهم. رقد والداهم يرتعشان قريباً منهم، وقد بات جلياً أنهم فقدوا الرغبة في الحياة بيما كان أطفالهما ينسحبون من الحياة في الغرفة نفسها. لم يحضر إلى البيت أي زوار آخرين، فقد كان الجميع مذعورين من أن يأتي دورهم في التقاط العدوى تالياً.

قامت ديسا بغلي أباريق الماء وإذكاء النار لتجلس بعد ذلك صامتة لساعات طويلة، تصغي إلى الغمغمات المحمومة لابنها الأحب إلى قلبها وهو يتقلب بين الصمود والغياب عن الوعي. شكرت الله تعالى على أنها وصلت إلى عمان في وقت مناسب للسهر عليه خلال هذه المحنة. عندما توفي الطفل الأول، كان حميد وزوجته في حالة من الضعف بحيث لم يتمكنا من البكاء على فجيعتهما، تاركين ديسا لتبكي نيابة عنهما.

مات الطفل الآخر ووالداه خلال أيام، تاركين ديسا جالسة لوحدها في البيت في حالة صدمة، حتى جاء ناخو باحثاً عنها. شاهد السكون المخيم على ولده وكنته، وسمع الصمت. لم يعد هناك أي بكاء أو أنين، وحده السلام. أنهض ديسا واقفة على قدميها واحتضنها حتى هدأ نحيبها.

أصبح دفن الأموات ملحاً بسبب الحرارة ولأجل إيقاف الوباء من الانتشار أبعد من ذلك. بحلول الوقت الذي أحرقت فيه الكوليرا نفسها وانطفأت، كان السكان عبر الإقليم كله قد تناقصوا. وقضت الحرب على المزيد من الأرواح أثناء اكتساحها الصحراء جيئة وذهاباً. وصلت السلطات العثمانية إلى حد اليأس في حاجتها للمزيد من الجنود فصعَّدت من حملة التجنيد خلال شرق الأردن، بحيث أخذت كل رجل لائق صحياً استطاعت أن تعثر عليه.

قالت ديسا وهي تراقب بصحبة ناخو مجموعة التجنيد راكبة إلى داخل البلدة "أحمد الله على أن حميد نجا من هؤلاء" ذكرها ناخو: "هناك شباب آخرون يجب حمايتهم من هؤلاء الناس."

أحنت رأسها، وقد زمت شفتيها بقوة، مدركة أن لديها ولدين آخرين يحتمل أن تفقدهما.

أحضر الجنود إلى بيت ناخو وحياهم بكل كرم الضيافة الذي يمكن أن يتوقعوه. استمر حسن ومجيد في عملهما بالحقول، بدون أن يرفعا رأسيهما أو يلفتا نظر أحد إليهما.

تبادل الضباط أطراف الحديث المؤدب مع مضيفهم حول المنطقة ومسلكية تطورات الحرب. بدا عليهم التعب وصار بوسع ناخو أن يرى في وجوههم بلادة الهزيمة الحتمية.

قال أحدهم "لديك ثلاثة أبناء رائعين هنا"، وهو يراجع دفاتر سجلاته "يفترض فيهم أن يخدموا الإمبراطورية,"

قال ناخو بهدوء "لقد توفي ابني حميد، ويقوم الاثنان الآخران بخدمة الإمبراطورية مسبقاً بحماية خط السكة الحديد من الهجمات. عندما خصصت السلطات هذه الأراضي للشركس فقد فعلت ذلك لنقوم نحن بمراقبة الخط والتأكد من منع البدو من تخريب عملها العظيم. وهي مهمة قمنا بها بإخلاص، وأعتقد أنك ستتفق معي في هذا."

طمأنه الضابط قائلاً "لم يتذمر أحد"

"لم يكن ابني الوحيد الذي توفي في القرية. لقد خطف الموت بعضاً من أفضل رجالنا. أصبح أمر الحفاظ على سلامة الخط أكثر صعوبة الآن من أي وقت مضى. نحن بحاجة إلى تجنيد المزيد من الرجال هنا، وليس عدد أقل. إذا خسرتم وسيلة اتصالكم بدمشق فقد أصبحت حربكم في هذه المنطقة في حكم المنتهية إلى خسارة."

تشاور الضابط مع زملائه لفترة بدت لكل من ناخو وديسا كأنها عمر بكامله، وبعد ذلك هزوا رؤوسهم بالموافقة. لم تتمكن ديسا من حبس ابتسامة انفراج عن احتلال وجهها، فقام ناخو بإخراجها إلى المطبخ لتحضر الطعام لضيوفهم المكرمين.

"لدي ابن آخر في استنبول" قال ناخو وشاهد أعين الرجال تتقد اهتماماً. رفع يده "إنه يخدم الإمبراطورية مسبقاً، فهو يدرس في الأكاديمية العسكرية".

قال الرجل "لا بد وأنك فخور به."

أجابه ناخو "إنني فخور بكل أبنائي".

الفصل السادس والعشرون

روسيا

في موسكو، أدرك القيصر أن الأمور تسير بشكل خاطئ لكنه في حيرة مما ينبغي عليه عمله ومعرفته حتى يوقف التحرك اللولبي النازل باتجاه الكارثة الشاملة. وصلته تقارير جديدة في كل يوم من أنحاء مختلفة من الإمبراطورية، تحذره من الكيفية التي بدأ صبر الشعب فيها ينحسر. قال له مخبروه أن الناس لا يؤمنون بالحرب، لكنه لم يسمح لذلك بأن يغير آراءه الخاصة.قالوا له أن هناك ثورة في مرحلة المخاض، تهدد بتحطيم البنيان بأكمله. قرر أن أفضل طريقة لتجنب الثورة هي في إيقاف مناقشة جميع الأفكار. طبيعي أنه لم يتمكن من إيقاف الفلاحين عن الكلام، لكنه كان قادراً على منع ضباطه. حاول أن يبقيهم جاهلين بكل ما يجري، آملاً بأنه إذا تجاهل الحقيقة فإنها سوف تختفي. وهكذا ظل يرسل الرجال والخيل إلى الجبهة، يجندهم من أي مكان يستطيعه، وقد ازداد يأس مسؤولي التجنيد من المقاومة التي يلاقونها في المصانع والحقول.

لم يستطع أن يفهم أن أعماله الجنونية الهائلة الباذخة في مسارح الحروب الدولية قد عملت على تصفية الدماء الحيوية من بلاده. فقد فرضت الضرائب التي خلَّصت الناس من آخر فلس يملكونه، لمجرد تمكين جيوشه الهائلة من الأكل والحركة. اضطرته الحاجة لصنع الأسلحة إلى مصادرة كل الفولاذ الذي تنتجه المصانع، وصادر محصلو الضرائب أية كميات من الذهب يمتلكها أي شخص. وهكذا تم إفقار الشعب الذي كان فقيراً في الأصل إلى درجات أدنى نتيجة أحكامه الخاطئة.

استمر في مساءلة كل من يستمع إليه "ألا يفهمون أن القتال من أجل الوطن والله أمر يحمل المجد في ثناياه؟ لماذا لم يعودوا يثقون فيَّ؟ يجب أن نخوض هذه الحرب وننتصر فيها."

بحلول شهر شباط لعام 1917، وصل الغليان بين عمال المدن إلى درجة من الخطورة بحيث أنهم نهضوا في النهاية ضد الحكومة التي لم يعودوا يؤمنون بها.

امتلأت الشوارع بهدير الأصوات الغاضبة وبحر من الناس الذين يرتدون الأسمال ذات الألوان الكابية، المندفعين اندفاعة رجل واحد نحو غاية ما زالت مجهولة. سمع القيصر بالأنباء من أقرب مستشاريه، والذين نصحوه جميعاً بمغادرة البلاد فوراً مع عائلته، حماية لأرواحهم. مع أنه بات راغباً في قبول حقيقة أن أيامه في السلطة قد تكون معدودة، إلا أنه لم يستطع أن يقنع نفسه بأن شعبه قد يرغب في إيذائه أو زوجته أو أطفاله فعلياً. شعر، وهو محاط كالعادة بالحلقة الداخلية من الناس الأذلاء المخلصين ظاهرياً، بالثقة من أنه لا يزال محبوباً من قبل البلاد، حتى لو كانت الأغلبية تختلف مع الأسلوب الذي يدير به الحرب.

تنهد قائلاً "إذا اضطررت إلى التنازل عن العرش" عندما جاءته مجموعة من وزرائه، يتوسلون إليه كي يهرب "فليكن إذن، لكنني لن أهرب خارجاً. هذا هو وطني ووطن أطفالي. إذا اقتنعت بأن هذه هي إرادة الشعب، فسوف أحيا في تقاعد هادئ وسوف أظل هنا في حال قررت بلادي أنها بحاجة إلى خدماتي مرة أخرى."

تنامت القلاقل من حوله لمدة شهر آخر، حتى أجبر في الثاني من آذار على الانصياع لرغبات كل الذين حوله. تنازل عن العرش، وهو يتوقع كلياً أنه سيسمح له بالبقاء حراً غير مقيد، ويعيش بسلام في قصوره المتعددة، ويتابع هواياته واهتماماته المتنوعة. لذلك أصيب بالصدمة عندما ألقت عليه السلطات القبض

بعد فترة وجيزة، مع عائلته. حصل تغيير في أسلوبهم سببَّ له الحيرة والصدمة. بالنسبة لرجل ظل منذ لحظة مولده، معتاداً على احترام وخضوع كل المحيطين به، فقد كانت مجابهته من قبل رجال واضح أنهم يحتقرونه، رجال بدون أخلاق، أمراً سبب له التشويش.

ظهر له أن إمكانية القبض عليه أمر باعث على السخرية ولا يمكن التفكير به، فكيف يمكن لعائلة احتفظت بالسلطة المطلقة لكل هذا الزمن الطويل أن تصبح فجأة مجموعة ضحايا عاجزة؟ صار يفكر، وهو يرى أطفاله يجري دفعهم وتجميعهم في عربات محروسة، أنه ستقوم حتماً ضجة دولية وسوف يتم العثور له على مكان يعيش فيه سنوات تقاعده؟ ربما يكون ذلك في لندن أو باريس، أو حتى في أميركا حيث يهاجر الكثير من الناس في هذه الأيام؟.

ثم قال ساخراً، موجهاً كلامه إلى القلة الذين ظلوا يستمعون إليه "كيف يستطيع الرعاع من العمال الثوريين أن يأملوا في حكم بلاد بهذا الحجم وهذه الدرجة من التعقيد؟ ستعم الفوضى في الشوارع. سيضطر الجيش إلى التدخل لإعادة فرض السيطرة. سوف يتوسلون إلينا للعودة خلال أسابيع."

ولكن، على أية حال، امتدت الأسابيع لتصبح شهوراً. إتحد الجنود مع العمال في بيتروجراد، وهو الاسم الجديد لمدينة سانت بطرسبرج، ليشكلوا سوية منظمة شبه حكومية سميت سوفييت بيتروجراد وأصبح مقر السلطة في القصر الشتوي. كان قادتها يمثلون حزبين سياسيين: الثوريون الاشتراكيون والمنشفيون. أيام حكم القيصر، كان الدوما هو الجسم البرلماني. والآن قامت لجنة الدوما المؤقتة بتسمية الوزراء للمجلس الوزاري الأول. أصبح الأمير لوبوف رئيساً لمجس الوزراء وبافل ميلينكوف وزيراً للشؤون الخارجية.

مع أن الحزب الثوري لم يلعب دوراً بارزاً في ثورة شباط، إلا أن البلشفيين تصرفوا على الفور لاستغلال أجواء الحرية الجديدة التي خلفتها الثورة، إذ قاموا بتجميع القوات اللازمة للقيام بهجوم. منحت الحكومة الألمانية الأذن في نيسان لفلاديمير أوليانوف،وهو روسي منفي إلى سويسرا، للعودة إلى وطنه من خلال الأراضي الألمانية في قطار مقفل.

سيعرف أوليانوف خلال السنوات القادمة بعدة أسماء مختلفة: إيليان، بيتروف وفراي لكن أشهر اسم له هو لينين. بينما كان قطاره يتهادى بتثاقل عبر الأراضي الشاسعة غير الخاضعة للسيطرة لوسط أوروبا، غرق لينين في خضم أفكاره. فقد كانت لديه أفكار وخطط عديدة في رأسه، والعديد من المخططات حول كيفية تحويل بلاده إلى مكان سعيد مزدهر مرة أخرى، وتوزيع إمكانيات بلاده الهائلة في الثراء بشكل متساوي على سكانها ذوي الأعداد الهائلة والتنوع الكبير وتحويلها إلى دولة عصرية حديثة مثل أوروبا الغربية وأمريكا. فقد انتهت سنين انتظاره، وحان الوقت لكي يبدأ عمله بشغف. جعل بطء تحرك القطار نفاذ صبره أمراً لا يكاد يحتمل.

في القفقاس، حدثت معظم الأنشطة الثورية والمعارضة للثورية في إقليم تيرسكي، الذي كان يضم جميع جمهوريات الحكم الذاتي في شمال القفقاس ما عدا الأديغي والداغستان. أما الجيش فكانت قاعدته في فلاديكافكاز، التي تتحول إلى المركز الصناعي والثقافي في الإقليم.

كان البلشفيون بزعامة شاب يدعى سيرج كيروف، أقوياء في المنطقة، وقد دأبوا على تحريض العمال في المصانع للقتال ضد نظام القيصر. ازدادت قوة النضال البلشفي غير القانوني تدريجياً في البلدات المحيطة. دأب كيروف على العمل في دار الطباعة الشرعية "تيريك"، مستخدماً الصحيفة كآلة دعائية، ينشر من خلالها الأفكار الثورية بين الجماهير. وقد توصل إلى نشر أكثر من 1500

مقالة ضد طغيان القيصر بحلول الوقت الذي تم فيه إلقاء القبض على العائلة الحاكمة.

أحسّ كيروف بدفقة من الإثارة عندما سمع بأن القيصر قد احتجز، مع أنه أدرك أن ذلك لم يكن يعني أن النصر قد تم إحرازه.

سأله أصدقاؤه "لماذا أنت غير منشرح الصدر، أننا نحرز الانتصارات تباعاً."

شرح كيروف "نحن لا نحرز أية انتصارات، لأن البرجوازيين لا يزالون في السلطة. ربما أرادوا أن يتخلصوا من القيصر، لكنهم لا يريدون أن يتخلصوا من نظام حكمه. لن يحصل أي تغيير في إقليم التيريك. لن يقوم أحد بإعطاء الأرض إلى الشعب. لن يقوم أحد بالتأكد من وجود ما يكفي من الطعام لكل الناس. لم يتغير شيء سوى الوجوه الموجودة في القصر الشتوي. سوف يستمرون في إرسال رجالنا ليقتلوا على الجبهة."

بدا أن توقعاته تتحقق عندما شكلت المجموعة البرجوازية حكومة مؤقتة في تيريك، برئاسة كوزسيف، وهو مربي خيول شهير. قام كيروف بمقابلة جميع القادة الشعبيين في المنطقة، بمن فيهم بيطال، الذي كان متلهفاً على توحيد قواته مع البلاشفة.

زمجر بيطال قائلاً "لقد سنحت فرصتنا الآن –بينما هم منشغلون بالحرب والتغييرات، نستطيع الآن أن نتقوى ونجند الشعب إلى جانبنا. إن الحكومة المؤقتة تريد أن ترسل أربعمئة خيال إلى الجبهة النمسوية لتدعيم "الفرقة العنيفة". ولذلك يجب أن نعمل على إيقافهم."

قال له كيروف "نحن متفقون بشكل كامل حول تلك النقطة."

"يجب أن نستمر في التحدث داخل المصانع، نستمر في تثوير الناس، نمنحهم الشجاعة على رفض يصبحوا علفاً للمدافع."

مع مرور الشهور، بدأت الحكومة المؤقتة تفقد الدعم الشعبي لها. عمل بيطال، كيروف و القادة الآخرون ليل نهار لكسب قلوب وعقول الشعب ضد الشركة والسلطة العسكرية وضد الحكومة. استجاب الشعب الروسي، وقد اقتنع في هذا الوقت بعبثية الحرب، للدعاية، فانهارت القيادة العسكرية مع حلول فصل الصيف. بدأت عمليات الفرار الجماعية من الجبهة تتواصل. أصبح بالإمكان مشاهدة رجال يلبسون الزي العسكري وهم يتجمهرون عائدين إلى بلداتهم وقراهم، وقد امتلأوا بالغضب على رفاقهم الذين فقدوهم وعلى ضياع سنوات عمرهم، وقد صمموا على إجراء تغييرات دائمية في الطريقة التي تدار بها بلادهم. مع تنامي أعداد الفارين، أصبحوا يشبهون جيشاً غازياً. بالإضافة إلى إعادة قواتهم وإرادتهم للعمل إلى الوطن، فقد أعادوا أيضاً بطونهم الخاوية التي تحتاج إلى أن تملأ، فتناقصت الموارد الموجودة في الريف، والتي كانت هزيلة أصلاً، بدرجات كبيرة. في شهر حزيران، كان لينين حاضراً المؤتمر السوفييتي الروسي الأول، وصرح أن البلشفيون ينوون الاستيلاء على السلطة. كانت ميول البلاد تدعمه. إذ لم يكن الناس مستعدين ليقبلوا أي شيء أقل من النقض الكلي لتركيبة السلطة.

ولكن، على أية حال، كان الحلفاء مصممين على الاستمرار في الحرب وأصروا على أن تقوم روسيا بتقديم العدد الكافي من الرجال للقيام بهجوم كاسح على طول الجبهة. أصدر أمر عسكري بهذا المعنى ولكن الناس كانوا قد سئموا. انفجرت المظاهرات العارمة في الشوارع، وتصاعد تصميم وشجاعة المحتجين مع تنامي أعدادهم. أصيبت الحكومة بالذعر واستعانت بالجنود الموالين للقضاء على المحتجين. لكن الجنود باتوا يخشون قوة الرعاع الذين يواجهونهم. فقد أصبح بوسعهم أن يروا أنهم ما لم يتصرفوا بسرعة ووحشية فإن قوة الأعداد المطلقة سوف تسحبهم وتقضي عليهم. كانوا مسلحين ومدربين فانقلبوا إلى القسوة لشدة خوفهم. استطاعوا من خلال مذبحة عربدت فيها الدماء والعظام المكسرة أن يقمعوا

العصيان، وأوسعوا المحتجين ضرباً حتى أخضعوهم. أثبت ذلك الإجراء أنه كافٍ لإنقاذ رئيس الحكومة، الذي سرعان ما استبدل بالكسندر كيرينسكي، وهو محامٍ واشتراكي مشهور.

حدث شقاق بين القادة، فقد كانوا جميعاً مذعورين لعدم تأكدهم مما سيحدث تالياً.

صرخ كانيلوف، القائد العام للجيش الروسي "هنالك مجرد طريقة واحدة لإنقاذ هذا البلد، يجب أن نتصرف بحزم ونتحلى بالقوة!"

أدخل "فرقته الشرسة" إلى بيتروجراد في محاولة لتأسيس دكتاتورية عسكرية، لكنه أخفق. فقد حُلَّت الفرقة الشرسة، وألقي القبض عليه.

مع تزايد الفوضى بين الحكام، استمر البلاشفة في التحدث إلى الجماهير، وتزايد عدد الناس الذين يصغون إليهم ويستجيبون إلى دعواتهم للدعم. خاض لينين والقادة والمفكرون الآخرون في المدن حرباً دعائية بتصميم شديد. شكلوا لجنة عسكرية ثورية للتخطيط للاستيلاء على السلطة وتنفيذ المخطط. كانت القوات العسكرية مجموعات ذات تنظيم غير محكم وتسمى الحرس الأحمر.

بدأ المد يتغير وصار البلاشفة يزدادون قوة بمرور الوقت. سمعت الحكومة المؤقتة المتمركزة في القصر الشتوي إشاعات مفادها أن الحرس الأحمر يخططون لاقتحام المبنى. فقاموا ببناء استحكامات من جذوع الأشجار على عجل، ولكن، حتى أثناء قيامهم ببنائها، كان بوسع الحرس أن يروا أنها لن تكون ملائمة لإيقاف أي هجوم منسق. كانت القوة المناط بها حماية القصر تتألف من المجندين صغار السن وكتيبة من النساء. عندما وصلتهم الأخبار بأن البلاشفة قد استولوا مسبقاً على معهد سولين، هبطت معنوياتهم إلى درك أسفل. اقتحم الحرس الأحمر القصر الشتوي يوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول ووقع الاشتباك

العسكري الأول للحرب الأهلية الروسية. واجهت قوات الحرس الأحمر أفراد القوزاق الموالين للحكومة التي أسقطت حديثاً خارج بيترو جراد. ألقي القبض على الجنرال القوزاقي كراسنوف، لكنه أفرج عنه فوراً تقريباً وتم تأسيس سلطة السوفييت في ظرف أسبوع، بدون إراقة أي دماء تذكر، عبر مناطق الإمبراطورية السابقة كلها تقريباً. بعد مجرد سنة، كان كيرنسكي في وضعية هروب من البلاشفة، هارباً على متن بارجة بريطانية بجواز سفر صربي. لم يتمكن من العودة مطلقاً.

رغم ذلك، بقيت هناك معارضة في موسكو، فقد قام مرشحو ضباط موالون للحكومة المؤقتة بالاستيلاء على قصر الكرملين، مبنى الدوما وعدة أبنية أخرى في وسط المدينة. هاجمهم الحرس الأحمر وانتصرت قوتهم، لكن النصر جاء بخسارة الفارجل وتدمير وسط موسكو دماراً شديداً.

أودع الجنرال كانيلوف وأركان قيادته السجن في بلدة بوكو، بعد محاولته الفاشلة في الاستيلاء على السلطة في بيتروجراد. ولم يحاول أحد منهم الهروب بسبب قناعاتهم بأنهم سيكونوا قادرين على تبرير أفعالهم. أصبحت أرواحهم في خطر عندما سقطت موسكو. قام قائد الجيش الروسي بالإفراج عنهم، فاتخذوا طريقهم إلى الجنوب باتجاه نهر الدون، آملين في الانضمام إلى القائد القوزاقي، اليكسي كالينين، الذي كان قد استولى على السلطة في المنطقة ورفض أن يعترف بالحكومة البلشفية. ذهب العديد من الناس الذين كانوا موالين للحكومة السابقة جنوباً إلى منطقة نهر الدون حيث تم تشكيل الجيش التطوعي الأبيض من بقايا قوات الجيش الروسي. بلغ مجموعه أربعة آلاف رجل، متحدين جميعاً في كراهيتهم للبلاشفة ولكن تنقصهم الأسلحة والذخائر بدرجة رهيبة لأن الصناعات العسكرية أصبحت في هذا الوقت تحت السيطرة الكلية للبلاشفة. عندما وصل كانيلوف إلى المنطقة، تولى القيادة العسكرية.

اتجهت القوات البلشفية بدورها إلى منطقة نهر الدون جنوباً، وقامت بتجميع وحدات الحرس الأحمر المبعثرة في طريقها، ثم شرعت في حرب "إيشالون". كانت القوات العسكرية الحمراء وحدات صغيرة ومتحركة، لكن قوزاق الدون كانوا مدربين بمستوى عالٍ لأنهم كانوا يشكلون قوات المهمات الخاصة التابعة للقيصر. ولكن، على أية حال، كان العديد من القوزاق يائسين بسبب معاناتهم في الحرب العالمية الأولى.

عام 1918، قاد كانيلوف الجيش التطوعي إلى منطقة الكوبان في القفقاس وتحالف مع حكومة الكوبان البيضاء. زحفوا بعد ذلك إلى ايكاتيرينودار، عاصمة الكوبان، في مسيرة عبر السهوب التي تغطيها الثلوج والتي أصبحت تعرف "بمسيرة الجليد".

حاول كانيلوف أن يستولي على المدينة لكنه فشل ووقعت في صفوفه خسائر فادحة. ومع أنه لم يبق لديه سوى ألف وخمسمئة رجل، قرر أن يهاجم مرة أخرى.

أصابت إحدى القذائف مبنى قيادة الجيش التطوعي في الساعات الأولى من صباح يوم الرابع عشر من نيسان، فقتلت كانيلوف. تولى الجنرال دينيكين القيادة وأمر بالانسحاب.

قرر الجيش الأحمر أن لا يطارد المتطوعين. لكنهم استخرجوا جثة كانيلوف المشوهة وعرضوها في المدينة لرفع المعنويات وتوضيح أن البلاشفة قد أصبحوا الآن لا يقهرون.

لكن صراعهم لم يكن قد انتهى بعد. إذ قاد دينيكين جنوده عائداً بهم إلى منطقة نهر الدون وزاد المجندون الجدد أعداده التي تناقصت بفعل المعركة حتى أصبحت ثلاثة آلاف، مما جعلها تشكل تهديداً للبلاشفة مرة أخرى.

كان العدو العظيم الآخر في ذلك الشتاء هو الجوع. فقد كانت المؤن تتهاوى في كل مكان وصارت طوابير الغذاء أطول باطراد. عمل البلاشفة ما بوسعهم لإطعام الشعب لكنهم لم يستطيعوا أن

يتغلبوا على مشاكل الإمداد. فقد كانت نصف كميات الخبز التي يتم جلبها إلى المدن التي تعاني من المجاعة تأتي عن طريق تجار جوالين يعرفون باسم "رجال الأكياس". ومع أن البلاشفة قد نعتوهم وعرفوهم على أنهم أعداء للدولة إلا أنهم أرغموا على السماح بقيام المتاجرة الخاصة بالخبز، لمجرد الإبقاء على حياة الناس.

يوم الثامن من حزيران سنة 1918، تم توقيع معاهدة بين الإمبراطورية العثمانية وشمال القفقاس. بموجب تلك المعاهدة، اندفع سبعة وسبعون ضابطاً وخمسمئة جندي آخر من مختلف الرتب في الجيش العثماني إلى بلاد الداغستان لتدريب القوات المتشرذمة.

كانوا جميعاً من أصول شمال قفقاسية، رجال عائدون إلى مواطنهم بعد إبعادهم إلى تركيا بسنوات طويلة. كانت تلك حقبة مشحونة بالعواطف، عندما وجد الرجال البالغون الذين تجولوا في العالم ومروا بمشاهد رهيبة بدون أن يرف لهم جفن، أنفسهم ينخرطون في البكاء لمجرد رؤية مناظر ذكرياتهم القديمة. كان قائدهم هو إسماعيل بيركوك، وهو نفسه شركسي. قام هؤلاء المدربون ذوي الخبرة العميقة بتنظيم ثلاثة ألوية مشاة وثلاث كتائب من الفرسان. لم يكن ذلك كافياً. فعندما اندفع عشرة آلاف جندي روسي، هم بقايا وحدات الجيش الإمبراطوري القادمين من بلاد فارس، داخلين إلى مدينة بيتروفسك، بمساندة سفن من الأسطول الروسي في بحر قزوين، سقطت المدينة. بعدها حضرت خمس عشرة فرقة تركية يقودها ضابط شركسي آخر لمساندة القوقازيين وأعادت احتلال المدينة. لم يكن القفقاسيون في موقف قوي. فقد وجدوا أن الجهد المطلوب لمقارعة الروس يقضي على مواردهم، خاصة وقد أضعفهم الجوع والحملات الطويلة، فلم تعد لديهم الطاقة الكافية لإبعاد البلاشفة الذين ارتفعت معنوياتهم وتضخمت أعداد أتباعهم عندما اشتموا رائحة النصر النهائي وأدركوا أنها ستكون من نصيبهم.

مع نهاية الحرب العالمية الأولى، دخلت قوة بريطانية بقيادة الجنرال ثومسون مدينة باكو وأعلنت أنه ستتاح لشمال القفقاس الفرصة ليحكم نفسه حتى تسوى مسألة الاستقلال في مؤتمر السلام الذي سيعقد في باريس.

بمجرد خروج القوات التركية، ألحق البلاشفة هزيمة ساحقة بقوزاق التيريك في إقليم "موزدوك". بعد ذلك انسحبوا إلى الداغستان وانضموا إلى اتحاد شعوب القفقاس الجبليين. كانت خطتهم تقضي بهزيمة البلاشفة سوية وبعدها حل مشاكل الأراضي في الاتحاد على أسس العدالة الاشتراكية بدلاً من الأسس الثورية.

على الرغم من مؤتمر السلام المنعقد في باريس، استمر الغليان في شمال القفقاس بينما قام الجنرال دينيكين باحتلال بياتيجورسك وتحرك باتجاه الجنوب. حاول أعضاء الحكومة في شمال القفقاس أن يفاوضوه ويتحادثوا معه، في محاولة لإقناعه بأن يتوقف في حملته، لكن ذلك لم يجدِ نفعاً. في التاسع من شباط سنة 1919، ذهب رئيس جمهورية شمال القفقاس لمقابلة الجنرال ثومسون في باكو وطلب منه أن يوقف زحف القوات البيضاء. كذلك تم إرسال ملاحظات إلى حكومات أذربيجان، جورجيا وأرمينيا. أرسلت قوة مؤلفة من لواء مشاة، كتيبتي فرسان ومدفعية إلى الجبهة في بلاد الشيشان. فدفع البيض بقوة قوامها ثلاثة عشر لواء مشاة، تسعة وأربعين سرية خيالة، ستة وعشرين مدفعاً وسرب من قوات سلاح الجو. استمر القتال طيلة فصل الربيع.

استولت قوات البيض على بيتروفسك في أيار وخط السكة الحديد المتجه إلى الحدود مع أذربيجان. أخذ بعض أعضاء الحكومة القفقاسية يشعرون أن الاستمرار في المقاومة بلا جدوى، لكن أولئك الذين أرادوا الاستمرار في الصراع، تراجعوا نحو الجبال، حيث شعروا بالأمان وحيث بدأ نضالهم أول الأمر...

اتحدت قوات المقاومة في شهر آب مع مجموعة من المواطنين البارزين في شمال القفقاس لتنظيم مجلس الدفاع لشمال القفقاس، وتسلمت كامل المسؤولية عن قيادة حركة المقاومة الوطنية. قتل عدة آلاف من هؤلاء الرجال خلال شهري أيلول وتشرين الأول أو وقعوا في الأسر، وفقدوا عشرات المدافع والرشاشات إضافة إلى آلاف البنادق.

اشتبك شمال القفقاس مع أكثر من ثلث جيش دينيكين، بحيث أوقفه عن الاستمرار في زحفه متجاوزاً خط السكة الحديد. على أية حال، لم تكد الحرب مع دينيكين تنتهي، حتى استبدل البيض بالحمر الذين قاموا بنقض تعهداتهم بالاعتراف باستقلال شمال القفقاس وغزوا البلاد. وهكذا ابتدأ عصر الاحتلال السوفيتي.

* * *

الفصل السابع والعشرين

القفقاس

بقي بيطال متعطشاً إلى أخبار من الشمال طيلة فترة الصراعات. فقد كان يؤتى بأي مسافر يصل إلى القفقاس حاملاً أية شائعات مهما صغر شأنها، إلى بيطال ويقدم له الشراب والطعام حتى تنحل عقدة لسانه. فقد كان صعباً تحليل الوضع على حقيقته من تلك المسافات، لأنه ظل يتغير من يوم إلى الآخر. لم يهتم بيطال فيما إذا كانت القصص متناقضة طالما كان يحظى بالعديد من الأخبار الطيبة ليقوم بتمريرها نزولاً في الكوادر لإلهام العمال في كفاحهم. عرف أن الناس بحاجة إلى إعطائهم الأمل والثقة. لأنهم إذا رأوا أن النصر ممكن: وأنهم سيتمكنوا من التحكم بحياتهم، فهم سيكونون راغبين في القتال بشكل أكثر صلابة في سبيل القضية.

ظل بيطال يقول لزملائه المرة تلو الأخرى "يجب أن نهيئهم لحرب شاملة ضد السلطة الحكومية". أصبح أشد ضراوة ووحشية في غاراته على أملاك النبلاء بسبب سعادته من مسيرة الثورة في موسكو.

كذلك استماتت قوات الحكومة المحلية في محاولاتها لوقف الهجمات، لكن المنطقة التي شملتها أنشطة بيطال ورجاله كانت واسعة جداً. وهكذا، بحلول وقت وصول الجنود إلى الموقع، يكون هو قد عاد إلى الاختفاء في الجبال، جالساً إلى جانب نار مشتعلة، يطبخ أي طعام تمكن هو ورفاقه من العثور عليه، ويتبادل معهم الأحاديث الصاخبة عن مغامرات ذلك اليوم.

بالإضافة إلى حفلات إغارته العنيفة، استمر بيطال في إلقاء المحاضرات وعقد الاجتماعات لنشر العقيدة البلشفية القادمة من

الشمال. تنامى عدد الرجال تحت أمرته بالجنود العائدين من الجبهة حتى قدره البعض بحوالي ألف رجل. بدأ يرسل الموفدين إلى موسكو وبيتروجراد لتنسيق أعماله مع القادة البلاشفة. كانت أنباء إنجازاته موضع ترحيب في المدن على الدوام، حيث أراد الثوريون أن يطمئنوا إلى أن نفوذهم ينتشر في الأرياف والمقاطعات.

قائد آخر بدأ يسترعي اهتمامهم هو نذير كاتخانوف. فقد بدأ العديد من أحلامه، التي أسرًّ نذير بها إلى تيمور قبل مقتله، يتحقق ويثمر. فقد أصبح وهو في منتصف عشرينات عمره، متمرساً في قتال الحراس البيض دفاعاً عن سلطة السوفييت في القباردا وبلقاريا. وقد قام بتشكيل طابور الشريعة، المؤلف من رجال متدينين من بين القبارديين، البلقار، الإنجوش والشيشان. وقد أعجب كل شعبه به باعتباره كوميساراً عسكرياً شجاعاً موهوباً.

تقابل هو وبيطال رسمياً بصحبة قواد عسكريين بارزين آخرين في نالتشك عام 1918. أبدى نذير تأدباً واحتراما تجاه بيطال لكنه كان قد سمع أكثر مما ينبغي من القصص حول قسوة الرجل وتنمره بحيث لم يعد يتمكن من معانقته على اعتباره رفيق سلاح. أحسّ بيطال بالتحفظ من جانب زميله القائد وراقب بضيق متنامي مجيء الآخرين إلى نذير وإظهارهم الاحترام والإعجاب بشخصه.

في ذلك الاجتماع، ضغط الحضور على نذير طالبين منه إلقاء كلمة، فلما فعل. جعل الحشد يقف على رجليه، يهتفون له مؤيدين. تحدث عن إعادة بناء الجمهورية لخلق مجتمع سعيد آمن من سفك الدماء. فقد أراد أن يحيا الناس بدون تدخل في معتقداتهم الدينية. حين أنهى نذير كلمته، كاد يختفي عن الأنظار بسبب اندفاع الناس الذين تجمهروا حوله ليربتوا على ظهره ويهنئوه على قدراته الخطابية، على ذكائه وشجاعته. راقبه بيطال من زاوية جانبية، غير قادر على كبت الغيرة التي أحسّ بها تجاه هذا الرجل الذي ينحدر من سلالة نبيلة بشكل واضح ويبدو قادراً على استمالة

الجماهير إلى جانبه بدون أي جهد ظاهري. كانت بذور الكراهية تبذر في روح بيطال ووجدت لها تربة خصبة. فقد أدرك أن نذير سيشكل خصماً له في الوصول إلى السلطة مستقبلاً.

كان الحكم الذاتي لشمال القفقاس قد أعلن عنه مسبقاً في الثاني من كانون الأول عام 1917، وبدأت الشعوب تسير على الطريق المؤدي إلى تحقيق نظام روسيا السياسي الاتحادي المؤسس على الحرية في تقرير المصير.

أصبح اتحاد شعوب شمال القفقاس ولاية دستورية ضمن الجمهورية الفدرالية الروسية. وأصبحت اللجنة المركزية هي الحكومة المؤقتة، وتولت مقادير السلطة الكاملة بين يديها لحين يمكن إقامة حكومة ديمقراطية مركزية في روسيا، يعترف بها الجميع.

في نفس الوقت، أبرمت الحكومة المؤقتة لشعوب شمال القفقاس اتفاقية مع حكومة القوزاق في إقليم التيريك لتأسيس السلطة الموحدة للتيريك والداغستان. عندما سمع بيطال هذه الأنباء كاد يتميز من الغضب. حتى أقرب مساعديه الموثوقين ابتعدوا عنه أثناء هيجانه وصراخه.

صاح بهم "من هم هؤلاء الناس؟ نحن لسنا بحاجة إلى كل هؤلاء الشركاء."

خطت حكومة شمال القفقاس خطوة أخرى باتجاه الاستقلال يوم الحادي والعشرين من كانون الأول عام 1917، بإعلانها أنها ستقوم بالانفصال عن روسيا. وإنها لن يكون لها أي دور في أعمال المجلس التأسيسي الروسي ولن تسلم الحق في تقرير شؤون شمال القفقاس إلى المجلس التأسيسي الروسي.

غضب السكان الروس والقوزاق في المنطقة وحدثت اشتباكات مسلحة مع السكان الأصليين. مع بداية عام 1918 كان القتال قد

انتشر إلى فلاديكافكاز، مما تسبب في هروب العديد من أعضاء الحكومة الإقليمية إلى الأرياف. انضم الروس والقوزاق وتوحدوا تحت رايات "البلشفية الروسية". دخل الروس البلاشفة، الذين تضاعفت صفوفهم بالهاربين من كلا الجيشين الروسي والقوزاقي، إلى العاصمة، مستغلين ظروف الحرب التي استعرت لسبعة أشهر بين الإنجوش والشيشان من جهة، والقوزاق من جهة أخرى، في شهر آذار، ودمروا كل الصلات القائمة بين الشعوب القفقاسية والمنظمات الروسية – القوقازية.

كان هدف الشعوب هو طرد القوزاق من المنطقة. أحرقت بعض "الستانيتزات" القوزاقية الواقعة على خط نهر السونجا وسويت بالأرض، وطرد سكانها إلى الشمال، خلف نهر التيريك.

أصبح بيطال أحد المحركين الرئيسين في إيجاد جمهورية جور سكايا (الجبل) في إقليم تيرسكي. رغم أن قوتهم كانت تتزايد طيلة الوقت، إلا أنهم كانوا يقاتلون دفاعاً عن حياتهم.

فقد شكلت العناصر المحافظة في المجتمع القديم الحرس الأبيض، الذين كانوا أقوياء في أعدادهم إلا أنهم كانوا منقسمين ومتفرقين بين المناطق الحدودية، بدون أي ترابط أو وحدة في الغاية. لو كان لديهم قائد مثل بيطال، قادر على إيقاد النار في قلوبهم، لربما تغير مسار التاريخ. تمكنوا تحت قيادة الجنرال دينيكين من احتلال القباردا، وتدمير جمهورية جور سكايا ومهاجمة عاصمة السلطة السوفيتية، موسكو، على التوالي. حاولوا عبثاً الوصول إلى المدينة لثلاثة أشهر.

حاولوا أن يضموا كل من وجدوه إلى صفوفهم، لكن الكثير من هؤلاء فروا من صفوفهم وانضموا إلى القوات المعادية فور مواجهتهم للصعوبات. بات دينيكين يتوقع أن يتلقى المساعدة من القوات الحليفة في كل يوم، لكن المساعدة لم تأتِ أبداً. فقد سئم العالم الخارجي من خوض حرب عالمية بحيث لم يعد راغباً في

التدخل بمشاكل روسيا الداخلية. ظهر الوضع وكأنه لا حل لمسألة الفوضى.

ظل أيديك، والد بيطال، يؤمن بقضية ابنه ويساعده بالاستمرار في تأجيج المشاعر ضد أعداء الثورة، مكرراً التنديد بدينيكين والحراس البيض. كان متواجداً في أحد المصانع، بصحبة شقيق بيطال ذو الأعوام الأربعة عشر، عندما فتحت الأبواب عنوة واندفع الحراس البيض على الاجتماع، واختطفوا ايديك والصبي، وهم يضربونهما بلا رحمة أثناء جرهما إلى خارج المبنى. عندما سمع بيطال بالحادثة، كان أبوه وشقيقه قد أعدما. أعماه الغضب العنيف حتى ابتعد عنه كل من حوله اتقاء سورة غضبه، متمنين لو أنهم يعرفون كيف يواسون الوحش الضخم المعذب الدائر بينهم، يرغي ويزبد بالعنف والتعاسة.

استمرت الحرب خارج روسيا بالاشتعال. قام الألمان يوم الثامن عشر من شباط بهجوم عبر خط الجبهة الذي يمتد من البحر الأسود وحتى بحر البلطيق، ودخلوا إلى استونيا ولاتفيا.

بعد بضعة أيام، انسحبت البحرية الروسية نحو فنلندا واضطر البلاشفة إلى الموافقة على معاهدة سلام مذلة. فقد أجبروا على تسريح قواتهم، التخلي عن مطالباتهم في ليتوانيا وبولندا والاعتراف باستقلال أوكرانيا وفنلندا، والاعتراف باحتلال الألمان لمناطق روسية شاسعة. تمكن الألمان في شهر آذار من أسر ثمانين ألف جندي والاستيلاء على كميات هائلة من الأسلحة والذخائر. وبحلول نيسان كانوا قد استولوا على أوديسا وتقدموا نحو حدود إقليم الدون القوزاقي.

أجبر التهديد الألماني لبيتروجراد، لينين على نقل الحكومة البلشفية إلى موسكو وبحلول منتصف آذار تم إسكان القادة وعائلاتهم في قصر الكرملين. تسبب الهجوم الألماني في سقوط سلطة السوفييت في إقليم الدون، وقامت دائرة خلاص الدون

بانتخاب الجنرال كرازنوف في منصب الأتامان في شهر أيار. أصدر أمراً بإعدام قادة لجنة الدون الثورية، وقايض الأغذية بالسلاح الألماني الحيوي للعمل العسكري الذي يخطط للقيام به لتحرير إقليم الدون.

في صيف وخريف عام 1918 بات الجيش الأحمر يواجه كلا من القوزاق وجيش دينيكين التطوعي، الذي تلقى المساعدة الأجنبية من الخلفاء أخيراً.

شن دينيكين هجوماً آخر على أيكاتيرينودار وتمكن من دخولها، وطرد القسم الأكبر من القوات الحمر إلى أطراف السهوب الشبيهة بالصحراء.

في بلاد عبر القفقاس، أعلنت الجمهوريات الثلاثة: جورجيا، أرمينيا، وأذربيجان الاستقلال عن روسيا لكنها لم تتمكن من مقاومة الأتراك. أرسل مجلس مدينة باكو التماساً بطلب المساعدة من بريطانيا فوصلت وحدة بريطانية صغيرة. ولكنها عندما غادرت بعد مضي شهر، قامت القوات التركية بدخول المدينة. بدأت قوات إمارة بخارى بمهاجمة القوات السوفييتية في طول الإقليم وعرضه، ولكن مع نهاية عام 1918 وصل تعداد جيش تركستان الأحمر إلى عشرين ألف رجل.

عندما انتهت الحرب في أوروبا، أصبح بالإمكان تحويل موارد الحلفاء إلى التدخل على نطاق واسع إلى جانب البيض. سرعان ما وصل عدد جنود الحلفاء في الجنوب إلى مئة وثلاثين ألفا.

جلبت انزالات الحلفاء في منطقة فلاديفوستوك أكثر من مئة وخمسين ألف جندي من اليابان، بريطانيا، بولندا، تشيكوسلوفاكيا، صربيا، الصين، كندا، إيطاليا، والولايات المتحدة الأمريكية، وكلهم مصممون على تحرير روسيا العظيمة وإصلاحها. قامت اليابان بتقوية حضورها العسكري في الشرق الأقصى الروسي، تمهيداً

لتحسين نفوذها في البر الآسيوي. بحلول نهاية عام 1918 أصبح الشرق الأقصى الروسي برمته خاضعاً لتأثير الجيوش الأجنبية.

وبات اقتصاد البلاد في حالة دمار تام. انتشر الجوع والمرض في كل مكان وصار آلاف الأطفال المشردين يجوبون الأرياف وكأنهم جيش عملاق من الشحاذين. دمرت خطوط السكة الحديد في معظم المواقع، مما سبب إغلاق وتعطيل المشاريع الصناعية الضخمة. أصبحت الخسائر البشرية الاقتصادية عصية على الإحصاء. ولكن، على أية حال، أصبح لدى البلاشفة في هذا الوقت جيش قوى، ضخم، ويتمتع بجاهزية قتال عالية.

تواجد بيطال ونذير ورفاقهم في السلاح سوية في مدينة تبليسي عند نهاية عام 1919، يخططون الطريقة التي سيقومون فيها بتدمير الثورة المضادة بشكل نهائي. كان التوتر بين هذين القائدين قد وصل إلى درجة يكاد المرء يلمسها في الهواء، وأصبح باقي القادة في حالة من الضيق وهم يشاهدون بيطال ونذير يتداوران أحدهما حول الآخر. كان التناقض بينهما صارخاً. فقد كان نذير طويلاً ووسيما في ردائه التشيركاسكا باللونين الأبيض والذهبي، وطاقية الاستراخان البيضاء ونظارة العين الواحدة الذهبية، بينما ظل بيطال يرتدي نفس السروال الفلاحي والسترة الطويلة الضيقة التي لا أكمام لها، والتي ظل يرتديها على الدوام.

كان نذير يقول "هنالك ثلاثة آلاف ضابط من الحرس الأبيض في المنطقة الآن".

بينما استمر بيطال يحدجه بنظراته من تحت حاجبيه السميكين. "كما أن هناك ألف ملا. إذا نجحنا في استمالتهم إلى قضيتنا، سنكون قد انتصرنا. إذا حاولنا أن نقضي عليهم، كما تريد أنت، فسوف نخسر الآلاف من الرجال".

زمجر بيطال قائلاً "نحن مجبرون على القتال" وما زالت نظرته مسلطة على نذير "لقد ارتكبت الكثير جداً من الأخطاء سابقاً،

يا نذير. لم يعد في وسعنا أن نثق بك بعد الآن. لأنك لن تفهم كيف تقاتل أبداً ما لم تبدأ بالبحث عن نقاط ضعف العدو ومهاجمتها." مازحه نذير "سوف ينتهي بك الأمر إلى قتل الجميع، يا بيطال، ولن يبقى لنا سوى بلاد ملأى بالجثث."

زعق فيه بيطال قائلاً "لا تسخر من الثورة". فتصالب نذير، مدركاً أن الرجل الآخر مصمم على كسب الجدال. "لا يحق لك أن تستغل الثورة لتغذية طموحاتك الدينية يا نذير. إنك تسخر عرق الشعوب ودماءها لتخدم غاياتك. إن المواطنين الفقراء يقاتلون حتى يخلصوا أنفسهم من ربقة مستغليهم ويصبحوا سادة أقدارهم."

قال نذير، ببرود "أنت تطلب مني أن أخون ديني. وذلك ما لن أفعله مطلقاً. إنني تلميذ للنبي محمد عليه الصلاة والسلام. وما كنت لأخونه مطلقاً. أنت تريد أن تحقق الشيوعية في هذه البلاد، ولكن كيف يمكن أن تأمل بإنجاز ذلك بدون مساعدة الله العلي القدير؟"

"الله العظيم؟" وبصق بيطال على الأرض فذهبت يد نذير إلى المسدس المعلق بحزامه، لكنها توقفت بعيداً عنه بضع بوصات. "لقد اخترع الناس من أمثالك الله حتى يخيفوا الناس الفقراء العاملين باسمه. لقد دعمت الناس الأغنياء طيلة حياتك. أنت كاذب وسوف يتم تعريتك في يوم ما. لقد قمت باستغلال الفقراء طيلة هذه الأعوام ولكنك تريد الآن أن تظهر إيمانك الطيب. من يريد أن يأكل الثمر، عليه أن يتسلق الشجرة."

تلاحقت أنفاس نذير بقوة، وقد اتسع منخراه من الغضب بسبب إهانات بيطال له. خيم الصمت على الرجال الآخرين في الغرفة بينما تواجه الخصمان اللدودان. احتفظ نذير بالصمت بينما استمر بيطال في تهجمه. صرخ قائلاً:

"أنا لا أستطيع أن أغيرك يا نذير، قد يفقد الذئب أنيابه لكنه لن يغير طبيعته. أنت غير ذي فائدة لنا. أنت تعمل معنا لكنك تكذب

على الدوام. أنت لم ترغب أبداً في الدفاع عن سلطة السوفييت. فأنت كاذب ورفيق سفر وقح للثورة."

توسعت الهوة بين الرجلين مع كل أسبوع ينقضي. عندما اكتشف بيطال أن نذير قد أعطى إذنه لحلفائه بنهب بيوت الأغنياء بعد أن تمت هزيمتهم، استشاط غضباً. "إن أملاك الأمراء تعود إلى الناس الكادحين، وليس للنهابين! يجب على جميع البلاشفة أن يكونوا شرفاء صادقين. يجب عليك أن تعيد كل الجياد التي سرقتها".

ساءت العلاقات بين بيطال ونذير في الأعوام التالية. مع استيلاء البلاشفة على السلطة، تمكن بيطال من تطبيق معتقداته التي آمن بها طيلة حياته حول الأفكار الشيوعية. أصبح تابعاً حقيقياً لأفكار لينين. فقد ترسخت لديه آراء قوية حول كل شيء ابتداء من الطريقة المثلى لتربية الأطفال في المجتمع وحتى تأسيس المزارع الجماعية والتابعة للدولة.

أصبح كذلك يؤمن بمنع المدارس الدينية وتشكيل المدارس ذات الأقسام الداخلية. استمر نذير في الإصرار على الحفاظ على التقاليد وعادات سكان الجبال، آخذاً في اعتباره مشاعر القبارديين والبلقار الدينية. شكّل نذير بالنسبة لبيطال بطلاً أكبر من يتمكن من تدميره على الفور، لكنه ظل يستغل كل فرصة تسنح له في إذلاله، وظلت المشاعر السيئة تتعمق بينهما.

***

الفصل الثامن والعشرون

شرق الأردن

تخرج شمس من الأكاديمية العسكرية برتبة ملازم أول مع بدايات الحرب العالمية الأولى. وصل إلى بيت جده في استنبول، مزهواً بزيه العسكري الجديد. دعا عمر عدداً من أبرز أصدقائه ومعارفه من المدينة وحولها حتى يتم تعريف حفيده إليهم بشكل رسمي. فقد أراد للصبي أن يكون معروفاً لدى الناس الذين يتخذون القرارات. لم يستطع العجوز أن يكبح ابتسامة الفخر والرضى من أن تكتسح وجهه بينما هو يراقب شمس وهو يتحدث إلى السياسيين والعسكريين ذوي المراكز المرموقة، التجار الأغنياء ووجوه المجتمع. شعر بأن الثقة التي أولاها لشمس قد كانت مبررة. لأن الصبي مؤهل حتماً لأن يصبح عنصراً هاماً في هذا العالم.

ظل شمس يتسلل إلى غرفة جدته ليرى إن كانت صاحية. لم تكن في أغلب الأوقات كذلك، فكان يكتفي بمراقبتها أثناء نومها الهادئ الآمن، قبل أن يعود إلى المجموعة. إذا وجد عينيها مفتوحتين، كان يجلس ويتحدث إليها لوهلة، حتى يصيبها التعب ويبدأ جفناها بالانسدال مرة أخرى. مع أن جسمها ذي الأعوام التسعين قد بدأ يخذلها، إلا أن ذهنها ظل متيقظاً وبقيت راغبة في معرفة كل ما يحدث. وقد كان هناك الكثير مما يتوجب الحديث فيه. فقد كان العالم حول استنبول يتغير. بدأت دول جديدة في الظهور مع قادة جدد وجيوش جديدة للدفاع عنها. وحده الله يعرف ما ستكون عليه حاجات العالم بمجرد أن تنتهي الحرب في أوروبا، لكن من المؤكد أنه سيظل هناك مستقبل عظيم ينتظر جندياً جيد التدريب وموهوباً.

سيتمكن شمس من اختيار المكان الذي سيذهب إليه والمنصب الذي يريد أن يسعى إليه. يمكن أن ينتهي به المطاف في حكم تركيا

إذا أراد أن يلقي بنفسه إلى جانب صديق عمه، مصطفى كمال. أو يمكنه أن يسافر إلى عمان ويساعد أسرته في بناء دولة جديدة هناك. ربما حتى ينضم إلى الجيش الأبيض في روسيا. لأنه يبدو من المؤكد أنهم في حاجة إلى المساعدة.

كان جميع مدرسي شمس في الأكاديمية مقتنعين بأنه مقدر له أن ينال سيرة حياتية براقة، فقد كان يبرز من بين الجماهير بطوله الفارع، ملامحه الجميلة، شعره الأشقر، عينيه الزرقاوين وذقنه الحليقة. كان بوسع أي شخص أن يرى أنه عسكري واعد.

تلقى أوامره خلال أيام قليلة من تخرجه. كانت تقضي بأن ينضم إلى فرقة المشاة التي يجري إرسالها إلى دمشق وأسندت إليه قيادة كتيبة قوات خاصة صغيرة. أبدع منذ اللحظة الأولى التي وصل فيها: فقد أوحى إلى رجاله بالأمل وخلق جواً من الثقة. استطاع خلال أسابيع قليلة أن يقود هجوم خيالة رائعاً وتمت ترقيته إلى رتبة نقيب ونقل إلى فلسطين حتى يساهم في منع البريطانيين من الاختراق. أصبحت فكرة الذهاب إلى الحرب مثيرة له، وأصبحت أكثر إثارة عندما اكتشف أن أقرب أصدقائه من أيام الأكاديمية، الملازم الثاني أورهان، قد أرسل كمساعد له.

أصبح شمس وأورهان صديقين لا يفترقان خلال السنوات القليلة الأخيرة، فقد كانت شخصية كل منهما مكملة للأخرى على نحو مثالي.

فحين يميل شمس إلى الغرور والصلافة، كان أورهان يسخر منه بطيبة قلب إلى أن ينتبه إلى خطأ أساليبه. وعندما يميل أورهان إلى الكسل أو الإهمال، كان شمس هو الشخص الذي يدفعه باتجاه الإنجازات العظيمة. كان أورهان يبحث عن حياة هانئة، ولأن يكون محاطاً بأشخاص مرحين. لكن شمس ظل يشعر أنه يريد من حياته المزيد، مع أنه لم يكن متأكداً مما يريده تحديداً بعد. أثبت شجاعته في معركة بئر السبع، ضد قوات الجنرال اللنبي الأسترالية حيث

أصيب بجرح بسيط في كتفه الأيسر، لكن نتيجة المعركة كانت خاسرة وانتهت إلى الفوضى بالنسبة للعثمانيين. إذ هرب الناجون الباقون أحياء، بمن فيهم شمس وأورهان، من أرض المعركة.

لم يكن ناخو وديسا يعرفان أي شيء عن تخرج ابنهما أو عن تعيينه حتى تم إيقاظهما من النوم في منتصف الليل بدق شديد على الباب. تناول ناخو مسدساً وتأكد من أنه محشو بالرصاص وهو يتخذ طريقه خارجاً من غرفة النوم في الظلام.

"من بالباب؟" أراد أن يعرف.

أجابه الصوت "إنني ابنك، شمس الدين، ومعي صديق".

"شمس؟" كانت ديسا قد وصلت إلى الباب راكضة وبدأت تسحب الأقفال الثقيلة "أهذا أنت حقا؟"

لم تستطع أن تميز الشابين وذوا الهيئة الرثة، الواقفين على عتبة بابها: فقد كان كلاهما يرتدي الملابس العربية الرثة. نظرت من أحدهما إلى الآخر، محاولة أن تستنتج من منهما هو ابنها.

تقدم شمس إلى الأمام نحو ضوء المصباح المتراقص الذي تحمله "مرحبا يا أمي". شهقت من منظره. فقد أصبح الصبي الصغير الذي تركته خلفها في استنبول، رجلاً. كانت ذقنه قد استطالت وهيئته قذرة. ظهر وكأنه على وشك الانهيار لشدة الإعياء. وهناك بقعة دماء على كتف ردائه، امتدت يدها إليها بشكل غريزي لتلمسها، ثم تعود إلى سحب يدها بسرعة عندما رأته يجفل متألماً.

"ماذا حدث؟" أراد ناخو أن يعرف "ومن أين جئتما؟"

تقدم أورهان ليتكلم "لقد هزمتنا القوات البريطانية بقيادة الجنرال اللنبي في بئر السبع يا سيدي، وهم ما زالوا يطاردوننا إلى هنا، لقد تمكنا من الوصول إلى القدس، وبعد ذلك عبرنا نهر الأردن."

سأل ناخو "وكيف تمكنتما من تجنب القبض عليكما؟"

شرح شمس "لقد اختبأنا في العديد من قرى فلسطين، كنا نسافر ليلاً حتى وصلنا إلى هنا، متحاشين البريطانيين حيثما ذهبنا."

سألت ديسا "أو لم يقم أحد بالوشاية عنكما؟"

شرح شمس "لقد استخدمت هويتي الشركسية."

وأضاف أورهان "وافق بدوي على إحضارنا إلى هنا مقابل المال."

سأل ناخو "وأين هو لواؤك الآن؟"

"إنهم محاصرون في وادي الأردن. سيكون معظمهم قد قتل أو وقع في أسر القوات البريطانية بحلول هذا الوقت."

قال ديسا "توقف عن طرح الأسئلة. دعهما يدخلان ويستريحان. يجب أن نفحص كتفه لنرى إن كان بحاجة إلى إعادة تضميده".

ساعدهما ناخو على الدخول مع حقائبهما، التي كانت تحوي أزياءهما كضابطين عثمانيين، وانهمكت ديسا على الفور في تنظيف جرح ابنها القبيح، وتهيئة الطعام لهما. ما كاد الشابان ينتهيان من تناول الطعام حتى أغفيا فوق المقاعد المحيطة بمائدة الطعام. عاد ناخو وديسا إلى فراشهما.

عندما أفاق شمس وأورهان في الصباح كانت ديسا قد عثرت لهما على ملابس وجلس حسن ومجيد ينتظران قبيل ذهابهما إلى العمل لمقابلة شقيقهما الأصغر.

قالت ديسا بفخر "هذان هما أخواك الكبيران" سعيدة بوجود واحد آخر من أبنائها في البيت.

نهض شمس واقفاً وصافح كلاً من الرجلين الأكبر سناً بأناقة. تبادل حسن ومجيد نظرات حائرة، لم يفت مضمونها على شمس الذي قال "هذا هو زميلي، الضابط أورهان."

صافح الشقيقان أورهان وتأثرا على الفور بابتسامته الدافئة وقوة قبضته. بعد أن تناول الشابان طعام الإفطار، خرجا للفرجة على أملاك العائلة. شعر أورهان، المتحدر من خلفية بلدة ريفية، بما يعادل السحر. فقد أحب كثيراً فكرة وجود العائلة الكبيرة التي تعيش وتعمل سوية لإطعام نفسها. أحب مظاهر الرخاء في البيت وعطاء الأرض، وضمور الجياد ونضوج المحاصيل في الحقول. تسلل الإحساس بالسلام والأمان إلى روحه وجعله يحس بالهدوء والقناعة، بعد معاناته في صراعه مع التدريب العسكري وخوض المعارك. سأل حسن "هل هناك أعمال يمكننا القيام بها؟"

ابتسم حسن "طبعاً" وقد سرَّته نظرة الرعب التي ارتسمت على وجه شمس من اقتراح صديقه بأن يعملا أثناء وجودهما هناك. "توجد دائماً أعمال يمكن أداؤها هنا."

اعترض شمس "يفترض فينا أن نستريح، استعداداً لرحلتنا القادمة."

سأل حسن "أية رحلة؟ محقق أنكما قد وصلتما إلى وجهتكما."

قال شمس، وهو ينتصب على امتداد قامته "نحن تركيان وضابطان في الجيش العثماني. سوف نستأنف طريقنا عائدين إلى تركيا بمجرد أن نسترد قوانا ويكون كتفي قد شفي تماماً."

قال حس بهدوء، مصمماً على أن لا ينتابه الغضب على شقيقه الصغير الصلف "ستحب أمنا لو أنك تقضي بعض الوقت هنا."

قال شمس "لقد كانت أمنا غريبة بالنسبة لي حتى الأمس."

"ربما يجدر بك أن تقضي معنا بعض الوقت حتى تتعرف إلينا."

قال شمس "هنالك عالم يتغير حولنا، يا حسن، أنا لا أستطيع أن أقبر نفسي إلى الأبد في مكان متخلف مثل هذا." عند هذا القول، استدار شمس ومشى عائداً إلى البيت.

انقضت لحظات قبل أن يقول أورهان "حسناً، أين هي الأعمال التي كانت تتحدث عنها؟"

أخرج حسن نفسه من سهومه بصدمة، وربت على ظهر الشاب التركي ثم اصطحبه إلى الإسطبلات.

قال أورهان أثناء سيرهما "هنالك سبب آخر يدعوه إلى العودة إلى تركيا."

"آه، أهكذا؟ وماذا يمكن أن يكون ذلك؟"

"إنها شابة اسمها حكمت."

"وهل هو واقع في حبها؟"

ضحك أورهان "لقد علقّته في حبائلها كلياً."

"ربما يتمكن من إحضارها إلى عمان."

"لا أظن أن ذلك سيكون ممكناً. لأنني أعتقد أنها تحب نمط حياتها في استنبول."

"يحتمل أن ينساها إذا بقي هنا لمدة معقولة. هنالك العديد من الفتيات الشركسيات الجميلات."

نفض أورهان كتفيه "ربما. لكنني لا أعتقد ذلك. فهو لا يتحدث عن أي شيء آخر عندما نكون لوحدنا. لو كان الأمر يعنيني أنا، يا حسن، فما كنت لأغادر مكاناً كهذا أبداً. لكن شمس يختلف. إنه مسحور. لقد سمحت له هذه الفتاة بأن يشاركها الفراش. إن شمس رجل شريف وصادق، وهو يعرف أنه ما دام قد أزال عذرية فتاة ما، فهو ملزم بالوقوف إلى جانبها لأنها لن تعثر على زوج شريف غيره."

سأل حسن "وهل قامت هي بإغوائه إلى ذلك الموقف؟"

"أعتقد أن بإمكانك أن تقول ذلك، لكن شمس لن يعترف أبداً. لقد قادته إلى الإيمان بأنه مدين لها ببقية حياته."

"هل يعرف عمر بهذا الوضع؟"

"آه طبعاً. فقد ذهب شمس إليه وطلب الإذن منه ليتزوج حكمت."

"وماذا قال الرجل العجوز؟"

"يقول شمس أنه تعامل مع المسألة على أنها افتتان أحمق. قال له أنه سيتكلم مع عائلة الفتاة عندما يعود شمس من الجبهة، ولكن ليس قبل ذلك. أعتقد أن لدى جدك طموحات عظيمة بالنسبة لشمس، ولن يرضى أن تقوم امرأة داهية متآمرة ترغب في الزواج والارتباط بأسرة بارزة أن تدمر هذه الطموحات."

لم يسمح شمس خلال الأيام التالية بأي احتمال لأن يغير قناعته حول المغادرة. جربت أمه كل ما خطر ببالها لإقناعه بالبقاء فترة أطول قليلاً، لكنه أعار أذناً صماء لكل توسلاتها حتى يئست في نهاية الأمر وتوسلت بناخو حتى يحاول.

قال ناخو في إحدى الأمسيات عندما كان الاثنان لوحدهما "بني، لم لا تنسى موضوع تركيا؟ ابقَ هنا في الأردن. هنالك مستقبل باهر لضابط شاب متعلم في هذا البلد خاصة وأن المنطقة قد استقلت عن الحكم التركي."

قال شمس بحزم "أنا ما زلت ضابطاً في الجيش العثماني، يا أبتِ. ولا أستطيع أن أهرب من الخدمة."

خيَّم الصمت على ناخو لفترة، وهو يفكر في حميد.

استمر شمس في كلامه "هذا بالإضافة إلى أنني أخطط لقضاء حياتي في تركيا، وليس بين العرب."

بينما كان أورهان يعمل مع حسن ومجيد في سعادة في الحقول، بات واضحاً أن شمس قد ملَّ من العمل اليدوي ومتلهفاً على الانطلاق في طريقه. بينما استطاع حسن أن يتعامل مع صلف شقيقه الأصغر بسخرية ماكرة، وجد مجيد أن أسلوب شمس المتعالي مدعاة للغيظ. فقد كانت عودته إلى البيت بعد عمل يوم شاق ليجد الشاب الأصغر جالساً في جو البيت الرطيب، وتقوم كل من ديسا ونورسان بتلبية رغباته، أكثر مما يحتمله مجيد بحيث تشاجر الشقيقان كل ليلة تقريباً. في إحدى المناسبات ثارت أعصاب مجيد إلى درجة أنه لوح بلكمة نحو رأس شقيقه الأصغر، فأسقطه عن ظهر كرسيه. عاد شمس إلى الوقوف على قدميه خلال ثوان وتعارك الاثنان عبر الغرفة حتى قام ناخو وحسن بتفريقهما. في نهاية المطاف، وقعت بينهما هدنة قلقة احتراماً لمشاعر أمهما، لكن بات واضحاً أنهما لن يتمكنا من التعايش في البيت نفسه لوقت طويل.

بعد مرور شهر، طلب شمس الإذن من ناخو بسؤاله إن كان هو وأورهان يستطيعان الانطلاق في اليوم التالي. جلس أورهان بهدوء، غير متجاوب مع الأنباء التي تشير إلى كونه سوف ينطلق. لم تكن تلك عائلته ولم يكن قادراً على مجادلة شمس، الذي كان ضابطه الأعلى رتبة منه إضافة إلى كونه صديقه. أدرك ناخو أن بقاء شمس سوف يؤدي في النهاية إلى أن يؤذي أبناؤه بعضهم بعضاً، ولذلك، فقد منح شمس الإذن بالمغادرة على مضض. أعطاه بعض المال والزاد وأفضل جوادين لديه من أجل الرحلة.

سأل ناخو بينما كان الشابان يقومان بسرج جواديهما "في أي اتجاه ستذهبان؟"

أجابه شمس "لقد سمعت أن الجيش العثماني قد انسحب إلى ما وراء الحدود السورية داخل تركيا."

"وكيف ستصل إلى هناك؟ إن البريطانيين يسيطرون على جميع الطرق المارة بدمشق."

"سوف تحتاجون إلى أصدقاء في الصحراء. اسألوا عن عائلة الفرحان. إنهم من عرب قبيلة شمر ويعيشون في منطقة الجزيرة، بين نهري الفرات ودجلة في الشمال. سوف يقدمون لكما المأوى ويساعدونكما في طريقكما."

عانق شمس أباه وأمه "أشكرك، يا أبي."

وعده حسن "سوف أحضر وأزورك في استنبول عندما تنتهي الحرب."

"إفعل ذلك" عانق شمس أخاه الأكبر "وأنت كذلك، يا مجيد."

أومأ مجيد برأسه بحزم بدون أن يتكلم. تعانق الرجلان واعتلى شمس مطيته. كذلك قام أورهان بمعانقتهم جميعاً وكأنهم عائلته نفسها، قبل أن يتبع صديقه.

نادى عليه ناخو "في رعاية الله يا ولدي"، ولكن ديسا لم تستطع أن تعثر على صوتها لتنادي عليه بشيء.

مع بدء تنامي حرارة النهار، انطلق الرجلان راكبين إلى خارج عمان باتجاه الحدود العراقية. عند هبوط الليل، ظهر لهما أن الطريق التي كانا يتبعانها قد إختفت وسط الرمال.

قال أورهان وهما يترجلان ليستريحا "هل من الممكن، يا صديقي، أن نكون قد تهنا؟"

قال شمس بثقة "طالما نحن مستمران في التوجه إلى الشمال، فسيكون كل شيء على ما يرام."

لم يقل أورهان شيئاً واستقرا ليقضيا ليلتهما الباردة الأولى في الصحراء. استمرا بعدها في الركوب لعدة أيام، ولم يكن أي منهما متيقناً من أنهما يسيران في الطريق الصحيح. وكلما لمحا قافلة أو

مجموعة من البدو يغيران مسارهما لتجنبهم، خوفاً من انتقال المعلومات عبر الصحراء إلى السلطات البريطانية. كانا يحفران لنفسيهما فراشاً لهما في الرمل، وهما يرتعشان من البرد بحيث يناماان بصعوبة بالغة. وخلال النهار ظلت الشمس تلسعهما بلا رحمة، تستنزف قواهما وقوى جواديهما.

بدأت زوادتهما تقل بعد ستة أيام وبدأ شمس يقلق من أنه ربما يقود صديقه إلى حتفه. عندما أشرفا على الوصول إلى نقطة فقدان الأمل، ظهرت لهما غلالة من الخضرة على خط الأفق. عند اقترابهما وجدا أن الصحراء قد انتهت وأنهما في واد مخضوضر.

قال شمس بسعادة "لا بد وأننا قد عبرنا الحدود. مؤكد أننا داخل تركيا."

استمرا في الركوب لبضع ساعات ولمحا مخيماً عسكرياً في المدى البعيد. "يستحسن أن نرتدي زينا العسكري" قال شمس "في حال أخطأؤا وظنوا أننا جاسوسين وأطلقوا النار قبل أن يطرحوا الأسئلة."

وافق أورهان وترجلا وبدلا ملابسهما العربية إلى الزي العثماني الذي نظفته النساء في عمان وكوينه لهما. بمجرد أن أصبحا يرتديان الزي، تبادلا ابتسامات سعيدة، وقد أحسَّا بالانفراج والارتياح لقرب عودتهما إلى الوطن. فقد عانى كلاهما من القلق بأكثر مما صرح به أحدهما للآخر في الصحراء. "هيَّا بنا" وقفز شمس عائداً إلى سرجه، متلهفا على إنهاء الرحلة "فلنذهب".

انطلقا عدواً بأقصى سرعة باتجاه خيوط الدخان التي ترتفع من بين صفوف الخيام باتجاه السماء. أطلقا صرخات الفرح بينما كانت حوافر جواديهما تطرقع على أرضية الوادي. ظهرا بالنسبة للرجال المقيمين في المعسكر كنقطتين في منتهى الصغر، وقام جنود الاستطلاع بتسليط مناظيرهم المقربة، فقام عدة جنود بسرج جيادهم واستعدوا للخروج لملاقاتهما.

مع اقتراب شمس وأورهان أكثر، بدأت قوة الخيالة تركب باتجاههما بنفس السرعة، لم يدرك أي من شمس أو أورهان. إنهم جنود بريطانيون إلا بعد دنوهم. سحبا أعنة جواديهما.

صرخ أورهان "إنهم بريطانيون!"

أجابه شمس صارخاً "محقق أننا ما زلنا في الأراضي العراقية! اركض!".

استدارا إلى الخلف وعادا متجهين نحو الصحراء التي فرا منها لتوهما. لكن جواديهما كانا متعبين وعطشانين بحيث لم يعودا يشكلان نداً لمطايا الفرسان النشيطة. أحسّ شمس بجواده يتباطأ تحته. غرز كعبيه في جنبي جواده وأجبره على المضي قدماً لكنه لاحظ أن الجواد قد بدأ يفقد السيطرة على قوائمه وأصبح في خطر من التعثر والسقوط.

صاح شمس منادياً على أورهان "لنفترق!"، آملاً أنه ستكون لديهما فرصة أفضل وهما متفرقان من كونهما سوية. استدارا في اتجاهين مختلفين، ولكن في هذه اللحظة كان كلاهما متجه صعوداً وبدأ الجوادان يشهقان بحثاً عن النفس. أمر قائد فصيلة الفرسان رجاله بالانقسام واستمروا في المطاردة. عندما وصلوا إلى مئة متر من الصديقين أطلقوا عيارات نارية تحذيرية في الهواء فعرف كل من شمس وأورهان أنهما سيقتلان في سرجيهما ما لم يستسلما. خلال نصف ساعة من اكتشافهما، كان البريطانيون قد لحقوا بهما وتم اقتيادهما عائدين إلى المعسكر بصفة أسيرين.

***

الفصل التاسع والعشرون

العراق

حدق قائد المعسكر البريطاني في الشابين المتسخين غير مصدق لما يراه.

"هل ظننتما أنكما في تركيا؟" قال في النهاية "وما الذي جعلكما تفكران بذلك؟"

قال شمس "لقد بقينا نتجول في الصحراء منذ معركة بئر السبع. لقد اختلط الأمر علينا."

ظهر على العقيد الإعجاب والتأثر "لا بد من أن أتخيل ذلك. لقد حدثت المعركة قبل أشهر. أنت لا تشبه الأتراك" وقال وهو يحدق متمعناً في عيني شمس "أنت عيناك زرقاوان."

"إنني شركسي."

"آه". ابتسم العقيد، مسروراً من كونه استطاع أن يلاحظ أن هناك أمر غير صحيح. تفحصهما من الأعلى إلى الأسفل لعدة لحظات. "سوف أرغب في معرفة الطريق التي سلكتموها بالضبط منذ أن غادرتم فلسطين."

قال شمس "سيكون من دواعي سروري أن أساعدك، يا سيدي، ولكن ليست لدينا أية فكرة عن الأمكنة التي كنا فيها. فالناس الوحيدون الذين تحدثنا إليهم هم البدو الذين مروا بنا ولم نقترب من أية قرية منذ أسابيع."

حاول العقيد أن يبدي بعض التهديد في صوته "بإمكاننا أن نجعل الحياة مزعجة جداً بالنسبة لكما إذا لم تتعاونا."

احتفظ شمس بأدبه "يؤسفني عدم تمكننا من مساعدتك أكثر من هذا. أننا نرغب في إعادتنا إلى استنبول".

"ها!" وأطلق العقيد ضحكة أشبه بالنباح. "إنني أجرؤ على القول أنكما ترغبان فعلاً. أخشى ما أخشاه، أيها النقيب، أنك وملازمك سوف تضطران إلى اعتبار نفسيكما سجناء طيلة استمرار هذه الحرب. إذا عاودتما التفكير في احتماليةَ التعاون معنا بمعلوماتكما، فربما نستطيع أن نعاود التفكير في وضعكما."

شدَّ شمس قامته إلى امتدادها ووقف بصلابة "إنني آسف، أخشى أننا لا نعرف شيئاً آخر."

بعد بضع ساعات، أعيدا إلى ظهر جواديهما، وقد قيد معصماهما، مع وحدة حراسة مرافقة إلى بغداد، للانضمام إلى سجن مليء بعثمانيين آخرين. أثناء اقترابهما من الأسوار المبنية من الطوب الطيني، أصيب شمس بصدمة من الحجم الهائل للمكان. فقد بدا أشبه ببلدة كاملة، إلا أنه معزول عن العالم الخارجي بالحراس المسلحين والأسلاك الشائكة. أظهر قائد القوة المرافقة أوراقه إلى الحرس الواقفين عند البوابات الخارجية، وبعد قدر هائل من النقاش، سمح لهم بالدخول. كانت هناك منطقة حرام بين السياجين، تسير عليها دوريات من مزيد الحراس، ثم طقم آخر من البوابات التي اضطروا إلى التفاوض لدخولها.

بعد أن تجاوزوا تلك المنطقة، وصلوا إلى مجمع مفتوح واسع مليء بالرجال. كان الانطباع الإجمالي عن المكان هو الغبار والقذارة. بدت ثياب الرجال مهترئة ومتسخة رثة، ومعظمها في مثل رداءة الزي الذي يرتديه كل من شمس وأورهان. طغت سمة الاستسلام على مجموعات الرجال الذين تحلقوا جالسين وهم يدخنون ويحدقون في القادمين الجديد. سادت الأجواء مشاعر الملل التي اختلطت بروائح التعرق والطبخ السيء.

تم اقتياد الرجلين إلى ثكنتهما وأرشدا إلى مهجعيهما. كانت عبارة عن رفوف ضيقة قاسية، جزءاً من نظام تصفيف للرجال يصل من الأرض إلى السقف في كل مبنى. كانت الغرفة ملأى بالرجال، وكلهم يدخنون ويحدقون، تماماً مثل الرجال في الخارج. أما الرائحة المنبعثة من المراحيض فكانت خانقة مسيطرة.

أصبح كل من شمس وأورهان جزءاً من الرعاع المجهول الهوية، ذوي الملابس الرثة، الذين تشكل منهم هؤلاء المساجين لمدة عام كامل. قاما بأداء واجباتهما عندما طلب منهما ذلك، لكنهما قضيا معظم الوقت في الجلوس والتدخين. ظلت الأنباء تتسرب إلى المعسكر من القادمين الجدد، الحرس، أو المواطنين المحليين الذين يقدمون الطعام أو الخدمات. سمعا كيف يعمل البريطانيون مع العرب لإجبار آخر العثمانيين على المغادرة إلى الشمال باتجاه تركيا. كان يجري الحديث عن رجل اسمه العقيد لورنس، وهو إنجليزي مجنون يقاتل مع قوات الأمير فيصل ويقوم بنسف الخط الحديدي الحجازي وخطوط اتصال العثمانيين المتراجعين. كذلك وصلت الأخبار من تركيا عن مصطفى كمال و "الأتراك الشباب" الآخرين الذين يقومون بالتهيئة للثورة هناك. تمكنوا حتى من سماع قصص الرعب الآتية من روسيا.

تخيل هؤلاء الرجال، أثناء جلوسهم على هامش الأحداث العالمية، أنه بحلول وقت تحريرهم، لن يكون هناك شيء يذكر ليعودوا إليه. فقد تخيلوا أن العالم كله يقوم بتمزيق نفسه إلى نتف وسرعان ما لن يبقى شخص واحد إلا ويقاتل جاره. كان ذلك مكاناً للاكتئاب وفقدان الأمل واليأس. كان السجناء الأقوياء يستقوون على الأصغر سناً والأضعف منهم طيلة الوقت، يغيرون على مهاجعهم في الليالي الحارة الدبقة بطريقة مؤلمة، ويسرقون منهم حصصهم في المؤن نهاراً. تهاوت المعنويات ووصل المستوى الأخلاقي الذي يتحكم في المكان إلى مستوى حفرة المجاري.

بقي شمس وأورهان قريبين من بعضهما للحماية المتبادلة فلم يحاول أحد أن يسبب لهما أية متاعب. كان بعض من الأتراك الأكبر سناً يحدجون ملامح شمس الحسنة بنظرات ملؤها الاشتهاء، لكن عينيه الزرقاوين الحادتين وقوة شخصيته إضافة إلى رتبته منعتهم من الإتيان بأية أفكار عدوانية. فكانا يتناولان جرايتهما ويبقيان ضمن شأنهما، وبنيا الصداقات والاتصالات بين زملاؤهم السجناء وكذلك مع الحراس والعمال الزائرين، بكل أناة وبطء. لمح شخص داغستاني يجلب تموينات الطعام من بغداد شعر شمس الأشقر وعينيه الزرقاوين. أجرى معه حديثاً في أحد الأيام، عندما أنيطت بشمس مهمة تفريغ العربة.

"لا بد وأنك شركسي، يا صديقي".

أجابه شمس بلهفة "إنني من استنبول".

أجابه الرجل بصوت خافت "إنني من القفقاس. أنا آفاري".

استطرد الرجل قائلاً "هنالك قدر كبير من التوتر في المدينة. لقد فقد البريطانيون شعبيتهم وحدثت قلاقل في الشوارع، وقد اضطر كثير من حراس المعسكر إلى المغادرة للذهاب إلى بغداد لحراسة المباني البريطانية."

تشنفت أذنا شمس "أهذا صحيح؟ إذن، أفلا يوجد الكثير من الحراس محيط السجن؟"

"هنالك نصف العدد العادي. من المحتمل أن تحصل اضطرابات خارج البوابات مباشرة، مما سيؤدي إلى تحويل انتباه حتى المتبقين هنا".

"هل يمكنك أن تخبرنا متى يحتمل حدوث ذلك؟"

"سوف أحاول".

لم يحدث شيء طيلة أيام عديدة، مع أن قصص أحداث الشغب في المدينة ظلت تتوارد إلى السجن.

لم يتوقف كل من شمس وأورهان عن الحديث حول احتمالات الخروج والرحيل إلى الشمال مرة أخرى بحثاً عن الحدود مع تركيا. حتى احتمال القبض عليهما وإعدامهما بات أفضل من البقاء في السجن إلى الأبد. بعدها، وفي أحد الأيام، بدت العصبية على صلتهما الأفاري أكثر مما هو معتاد. أومأ شمس برأسه باتجاه أورهان وذهب كلاهما سوية لمساعدته في تفريغ حمولة العربة.

همس له "هنالك متاعب يجري التحضير لها في الشوارع خارج السجن" بدون أن يرفع رأسه.

"هل يمكنكا سماعها؟"

أصاخا السمع بحدة وخيل إليهما أن بإمكانهما سماع أصوات تصرخ وأسلحة تطلق.

"عندما يتم تفريغ حمولة عربتي سوف أتوجه عائداً إلى البوابة. لا يوجد سوى رجلين على البوابة الداخلية وأولئك في الخارج لاهون. لم تقفل البوابة الخارجية مثل الأيام العادية".

ألقى شمس بلمحة إلى أورهان للتأكد مما إذا كان قد سمع، فأعطى صديقه إيماءة خفيفة. وقفا إلى الخلف يستظلان بأحد الأبنية بينما قام العربجي بتفريغ الطعام الذي أحضره، ينتظران وقلباهما يخفقان بحدة تعصف في أذنيهما. أكمل العربجي عمله وتوقف قليلاً يدردش باسترخاء مع بعض العمال الآخرين في المستودع. عندما صعد إلى عربته ونفض سروع جواده، بدأت العربة تتحرك بتثاقل إلى الأمام باتجاه البوابة. مشى شمس وأورهان إلى جانبها باسترخاء، وقد تسمرت عيناهما إلى الأرض.

توقف صديقهما عند البوابات ونادى على الحراس بأسلوب سفيه. رفعا رأسيهما إليه وابتسما، مع أنه كان واضحاً أنهما

متوتران. فقد أصبحت أصوات الصراخ مسموعة في هذه اللحظة خارج الجدران وبشكل واضح. شتمهما العربجي بطيبة قلب، طالباً منهما الإسراع في فتح البوابات. وضح أحد الحارسين سلاحه على الأرض للحظة وقام بفتح الأقفال ليسمح للرجل بالمرور. انطلقت بضع طلقات في الشارع وأدار الحارس رأسه ليرى ما حدث، وهو ينحني عائداً نحو سلاحه ليلتقطه بينما نفض العربجي سروعه وتحركت العربة إلى الأمام ببطء. استمر شمس وأورهان بالمشي، ببطء، وقد حالت العربة بينهما وبين الحارس اللاهي.

صاح الحارس الأول على رفيقه حتى يغلق البوابة الداخلية وهو سائر نحو البوابة الخارجية برفقة العربة. حين مروا عابرين إلى الشارع، رأى شمس فسحة يبلغ اتساعها حوالي عشرين متراً بين الجدران الداخلية والجماهير الغاضبة الصارخة. ألقى الحارس الذي يقوم بإغلاق البوابة الداخلية نظرة إلى الخارج ليشاهد ما يحدث هناك، فرأى السجينين يتمشيان بطريقة غير متكلفة إلى جانب العربة.. صاح بهما ورفع البندقية نحو كتفه.

سمع كل من شمس وأورهان الصيحة وأخذا يركضان باتجاه الحشد. دوّى صوت طلقة وألقي بأورهان إلى الأمام. انتبه شمس إلى انفجار الدماء عند مؤخرة رأس صديقه أثناء سقوطه إلى الأمام، في ما يشبه الحركة البطيئة، نحو التراب. عرف أن أورهان قد مات وزاد من سرعته. أطلق الحارس رصاصة أخرى فأصيب الحشد بالذعر. ركض الناس في كافة الاتجاهات، يتصايحون ويزعقون. ظهر للحظة وكأنهم ينوون مهاجمة الحارس الذي يحمل البندقية، لكن جنوداً آخرين أخذوا يركضون لمساعدته من داخل المعسكر.

أحنى شمس قامته وجعل الحشد يبتلعه، متجهاً نحو الأزقة الضيقة، والتي كانت في هذه اللحظة تعج وتغلي بكثرة الناس. كانت مشكلته الأولى تتعلق بالتخلص من ملابسه. رأى باباً مفتوحاً يؤدي إلى بيت صغير، حدق في الظلمة الداخلية. كانت هناك كومة من

الملابس ملقاة في إحدى الزوايا. اندفع إلى الداخل، خطفها وخرج راكضاً. لم يصرخ به أحد ليتوقف بينما هو يتوارى في زقاقين آخرين، عثر على زاوية مهجورة حيث تمكن من ارتداء الثوب العربي غير المميز فوق ملابس سجنه. في اللحظة التي أتم فيها ارتداء الملابس، بدأ يمشي باتجاه الشمال، سالكاً الطرق المتعرجة لمدينة بغداد، بدون أن يلفت انتباه أحد أو يركض مطلقاً.

بحلول نهاية النهار كان قد وصل إلى طرف المدينة واستمر في المسير شمالاً، متوجهاً نحو الحدود التركية. غلبه الإجهاد في النهاية واستسلم للنوم على قارعة الطريق، غير مبالٍ بالبرودة. أفاق في الصباح جائعاً وظمآناً، لكن لم يكن هناك شيء يلوح أمامه مما يمكن أن يقدم له أية تغذية.

أجبر نفسه على الوقوف على قدميه، بينما تتأرجح ساقاه تحته، واستمر في مشيته المتعثرة بينما بدأت حرارة النهار تتزايد. بحلول ظهيرة اليوم الرابع لمسيره كان قد اقترب من الانهيار، ولم يجد في نفسه القوة للهرب أو المقاومة عندما اقتربت منه مجموعة من البدو الخيالة، وقد أشهروا بنادقهم باتجاه رأسه. لم يستجب لأسئلتهم التي طرحوها وهم يصرخون، فقد انصرف كل تركيزه وطاقاته إلى محاولة البقاء واقفاً على قدميه تحت الشمس اللاهبة.

أخذوه إلى مضاربهم حيث أعطي الماء وبعض الطعام قبل أن يؤخذ لمقابلة شيخهم. نظر إليه الرجل باستغراب.

"من أنت؟"

أخبره شمس باسمه.

"هل أنت شركسي؟"

"نعم، أنا حفيد كازبك، الذي كان صديقاً لعائلة الفرحان من قبائل شمر. إنني أحاول العودة إلى تركيا حيث ولدت وترعرعت."

قال الشيخ "إنني قريب لعائلة الفرحان" موضحاً أنه لا يزال متشككاً. "أخبرني المزيد عن هذه الصداقة المزعومة."

جلس شمس حيث أشير إليه بالجلوس وبدأ يقص جميع الحكايات، التي كان قد سمعها عن أبيه، وأمه أو من جده. صار بإمكانه أن يرى اضطراداً في قناعة الرجل بصدق ما يقوله مع تقدمه في الرواية. أحضر الطعام، وجهزت القهوة. ثم أخذ الشيخ يعامله معاملة الضيف المكرم. قال الشيخ في نهاية الأمر، "إلى الشمال من هنا في الجزيرة، تقع مضارب الشيخ فايز الفرحان العظيم. بعد أن تستريح، سوف أرتب أمر أخذك إليه. سيكون سعيداً بمقابلة أحد أحفاد كازبك ويغدو ممتناً لي على إرسالك إليه".

اضطجع شمس على الوسائد الموجودة خلفه، وبعد زوال الخطر المباشرة عن ذهنه، بدأ يُحسّ بالحزن على صديقه الذي فقده، أورهان.

في اليوم التالي، برَّ الشيخ بوعده وأرسل شمس إلى الشمال مع قافلة من الإبل. بات شمس يحلم بالعودة إلى استنبول وإلى حكمت، بينما الحيوانات الهائلة تتهادى بثبات عبر الرمال والشمس تضرب بأشعتها فوق رأسه. كان التفكير في عينيها السوداوين وشفتيها الناعمتين يلاحقه في صحوه ومنامه على السواء. فقد طفق يتذكر الطريقة التي لامسته بها، وهي تسحبه إلى فراشها وتهيء له الإحساس بأنه ملك. لم يعد بمقدوره أن ينظر إلى أية امرأة أخرى بدون أن يقارنها بحكمت ولم تقترب أي منهن بأي شكل من المقارنة بجمالها وسحرها في عقله الملتاث بالهيام.

خرج الشيخ فايز الفرحان من خيمته لتحية ضيفه المكرم. فقد كان يعتبر أي شخص من سلالة كازبك وابن لناخو، وكأنه ندٌ له. كان رجلاً طاعناً في السن، أنيق إلى حد الكمال، ولكنه على ما يبدو قوي الشخصية حاد الطبع. بعد أن استراح شمسٍ وتناول الطعام، أكرمه الشيخ برواية القصص التي سمع جده يرويها عن

الأفراس الجميلة التي كانت كازبك قد أحضرها معه من مكة المكرمة.

اصطحبه إلى الخارج وقد وضع ذراعه حول كتفه ليريه أحفاد تلك الفرس الجميلة، التي كانت قد قدمت إلى جده كهدية.

"هذه هي أروع الخيول في العالم" قال الشيخ بفخر "لقد أسس والد جدك وجدي سلالة دماء لا يمكن الإضافة إليها".

بقي شمس ثلاثة أسابيع في ضيافة القبيلة، يحيا ويعامل مثل ملك. أعطي له كل ما أراده. كان ينام ويتناول الطعام ويخرج للركوب مع الشيخ وأبنائه، الذين بدوا سعداء لو أنه قرر البقاء معهم إلى الأبد. لكن أحلامه بحكمت أصبحت أكثر إلحاحاً مع توالي الأيام. عندما أخبر مضيفه أن الوقت قد حان لكي يستأذن في المغادرة، أصر مضيفه على أن يرسل معه أدلاء يوصلوه إلى الحدود التركية بأمان.

انطلقوا في الصباح الباكر لليوم التالي، قبل أن تصبح الشمس شديدة الحرارة. ارتدى شمس الملابس العربية، لأن زيه الرسمي ضاع منه أثناء إقامته في بغداد. بمجرد أن لاحت له الحدود التركية، ودعه أدلاؤه وتمنوا له حظاً سعيداً في مغامراته المستقبلية. شكرهم على مساعدتهم، وبمجرد اختفائهم عن ناظريه، اتخذ طريقه راكباً بثبات نحو الحدود التركية.

لم يكن قد تجاوز أكثر من خمسة أميال داخل الحدود التركية عندما صادفته دورية حدودية. كانت مؤلفة من جنود صغار السن، يبحثون عن المشاكل. ظهر لهم رجل عربي يركب جملاً، كهدف مثير للاهتمام. مع اقترابهم منه، رفع شمس يده بالتحية لهم وابتسم لهم. شعر بالارتياح لرؤية الملابس العسكرية العثمانية بعد ذلك الوقت الطويل. عندما سمعوا صوته وشاهدوا عينيه الزرقاوين الحادتين استلوا أسلحتهم وأمروه بالترجل عن راحلته. فقد تيقنوا بشكل واضح أنهم قد عثروا على فار من الخدمة، يحاول أن يتسلل

عائداً إلى البلاد بدون أن يراه أحد. لم يشعروا بأكثر من الاحتقار لمثل هذا الجبان، وكلهم على ثقة من أنهم لو منحوا شرف خوض المعارك على أراض أجنبية لما حلموا بالهروب متنكرين كأعراب. ضحكوا وسخروا من كل اعتراضاته وادعاءاته بالبراءة واكتفوا بالاستمرار في الطلب منه أن يبرز لهم الأوراق التي تثبت إدعاءاته. لم يكن لديه أي شيء يعرضه عليهم، فأحسّ برهبة عميقة عندما سمح لهم باقتياده إلى سجن (كايسري). اشتم نفس روائح الطبخ السيء والمراحيض الآسنة التي اعتادها في السجن الذي هرب منه ببغداد أثناء عبوره البوابات، وتمنى أن لا يضطر إلى تحملها مرة أخرى. لم يكن أورهان موجوداً في هذه المرة ليدعمه أو يوفر له الرفقة. تركوه في الكوخ، الذي سيصبح بيته الجديد، واستدار نحوه مئة وجه معادي.

حاول في كل يوم أن يشرح قضيته للسلطات، مسمياً لهم أسماء الأشخاص الذين يمكنهم الاتصال بهم والذين سيشهدوا لصالحه، وفي كل يوم كان الرجال المسؤولون يسخرون منه ويهدئونه بوعود بالعمل الذي لم يتحقق. أصبحت العودة للمعيشة مع أدنى الطبقات صدمة رهيبة لشمس، خاصة بعد أن قضى ثلاثة أسابيع مثل ملك في الصحراء. ولم يعد يحتمل فكرة اقترابه إلى هذا الحد من حكمت، ثم اختطافها منه بهذا الشكل مرة أخرى.

بعد ثلاثة أشهر من الجوع والضرب من قبل زملائه المساجين الذين كانوا يعترضون على وجهه الفتي الوسيم، شاهد شمس ضابطاً برتبة رائد كان قد قاتل إلى جانبه في بئر السبع، وهو يدخل من البوابات. ركض باتجاه الرجل، ينادي على اسمه صارخاً من خلال السياج الشائك. أدار الرائد رأسه، وكان واضحاً أنه لم يتعرف على النقيب الناحل، الممتلئ ندوباً الذي قاتل بشجاعة هائلة في فلسطين.

صاح به "هذا أنا، شمس الدين، قل لهم إنني لست هارباً من الخدمة."

شعر الرائد بالذهول من منظر زميله السابق "يا إلهي، أيها الرجل، كيف حدث أنك وصلت إلى هذه الحالة؟"

"أرجوك، يا صديقي، أشهد لصالحي."

"طبعاً"

أشار الرائد إلى الحرس القادمين ليروا لماذا يضايق أحد السجناء زائراً لهم، بالابتعاد واصطحب شمس معه إلى مكتب حاكم السجن.

بحلول نهاية اليوم أصبح شمس رجلاً حراً، يسافر عائداً إلى استنبول مرتدياً زياً جديداً لنقيب وقاصداً بيت حبيبة حياته. مع اقترابه من المدينة، بدأت مخاوف جديدة تهاجمه. ماذا إذا كانت حكمت قد تعبت وملت من انتظاره؟ ماذا إذا كان شاب آخر قد استطاع التوصل إليها وتمكن من الدخول إلى قلبها؟ لنفترض أنها فكرت أنه قد توفي وتخلت عن الأمل في عودته؟ ماذا إذا لم تعد تقيم في استنبول ولم يعد بمقدوره أن يعثر عليها؟

عند وصوله إلى أطراف المدينة، اتخذ طريقه مباشرة إلى منزل عائلتها، مع أنه أدرك أنه يتوجب عليه الذهاب لتقديم فروض الاحترام إلى جده أولاً. مع أن بيت حكمت قريب من منزل عائلته، إلا أنه تمكن من الدخول إلى باحة منزل والدها بدون أن يراه أي من خدم جده. أعلن عن قدومه للزيارة فخرج والد حكمت لاستقباله والترحيب به. أصيب الرجل بصدمة جلية من مرأى الضابط الفتي المقدام الذي تذكر أن ابنته قامت بتوديعه قبل حوالي السنة. دعا شمس إلى دخول البيت وجلسا سوية لتناول القهوة. أمطره الرجل التركي بالأسئلة وحاول شمس أن يجيب عليها بأدب، مع أن كل ما كان يرغب فيه هو السؤال عن المرأة التي ظل يفكر فيها بما يقارب كل ساعة منذ غادر البيت.

في نهاية الأمر، خرجت له من خلف بعض الستائر وكانت بمقدار الجمال الذي عهده فيها بكل التفاصيل. وفي الحقيقة، كانت

قد ازدادت جمالاً، فقد أضافت الأنوثة مزيداً من زهوة الأنثى إلى محاسنها السابقة كفتاة. ابتسمت له في حياء فأحسّ بكل ما في داخله يذوب. كيف استطاع أن يصبر على ابتعاده عنها كل تلك المدة؟ أيقن في تلك اللحظة أنه لن يتمكن من الابتعاد عنها مرة أخرى، أبداً.

بقي يتحدث مع الفتاة وأبيها الساعات الطوال، يخبرهما بكل مغامراته بعد معركة بئر السبع. قبل أن يتخذ طريقه إلى بيت جدته. على الرغم من تكتمه وحرصه، إلا أن نبأ عودة شمس وصل إلى مسامع عمر. لم يقل الرجل العجوز أي شيء لكنه بات منزعجاً بشكل واضح لكون حفيده والواقع تحت حمايته لم يحضر لتقديم فروض احترامه إليه أولاً. عندما سأل شمس، بشكل يكاد يكون فورياً، عما إذا كان بوسعه أن يعرِّف حكمت إلى عائلته على اعتبارها زوجته المقبلة، لم يستطع عمر أن يخفي امتعاضة. فتذمر بقوله:

"يبدو أن هناك عنصر من العجالة غير اللائقة في هذه العلاقة".

"لقد نفذت ما قلته لي يا جدي، ذهبت إلى الجبهة وقدمت ما يمليه علي واجبي تجاه بلادي. وقد عدت الآن وما زلنا، حكمت وأنا، نرغب في إتمام زواجنا".

أدرك عمر أن ليس بوسعه أن يفعل شيئاً ليمنع قيام هذه المصاهرة، رغم أنه كان مقتنعاً أن الفتاة وعائلتها غير مناسبين وبات يخشى من أنها سوف تدمر سيرة شمس العملية.

أحضرت حكمت لمقابلته وتمكن من إبداء التأدب تجاهها. تمت تحضيرات الزفاف. عاد شمس إلى عمله في الجيش وحصل على وسام لشجاعته في الحرب. قدمه عمر، الذي بات مصمماً على أن لا يفقد شمس شيئاً من الزخم في سيرته العملية، إلى قائد شركسي اسمه أدهم، كانت سمعته تصعد في صفوف الجيش التركي مثل

الشهاب. كان قد خدم في الحرب كما فعل شمس وأصبح الآن قائداً بارزاً لمجموعة من الأنصار العقائديين في الأناضول الغربي، يقاتل الغزاة اليونانيين.

قال عمر لشمس "إن مصطفى كمال شديد التأثر والإعجاب بهذا الشاب. يأمل مناصروه أن تتوحد كل جماعات الأنصار لخلق حركة تحرير وتشكيل جيش تركي نظامي."

ضحك أدهم قائلاً "ربما يأمل الكماليون في ذلك، لكنا نفضل أن نحتفظ باستقلاليتنا".

قال له عمر "ربما تدعي بأنك مستقل، لكنني متأكد من حقيقة وجود ما لا يقل عن أربعة عشر عضواً في البرلمان من بين أعضاء مجموعتك".

أجابه أدهم بطيبة قلب "إنهم مجرد أناس يثق فيهم كمال ثقة مطلقة".

أعجب شمس بالرجل على الفور وتحدثا حتى ساعة متأخرة من الليل.

استأذن عمر، وقد سرَّ برؤية حفيده وقد عاد ليفكر في المسائل العسكرية والسياسية، وليس فقط في إرضاء عروسه المقبلة التي تسبب له الضيق، وذهب لينام، تاركاً الرجلين وحدهما. عند نهاية حديثهما، طلب أدهم من شمس أن ينضم إليه في "فرسانه الطيارين". كاد شمس، للحظات قليلة، أن يقول "نعم". لأن فكرة القتال إلى جانب هذا الرجل كانت غاية في الإثارة. ثم تذكر حكمت وتخيل نفسه يتركها مرة أخرى ليقضي شهوراً، أو سنوات، على الحدود التركية. صار يتخيل كم ستكون حكمت غاضبة من مثل هذه الفكرة. فهي ما فتئت تحدثه عن حلمها في البقاء معه في استنبول، تبني له بيتاً مريحاً وتستقبل فيه أصدقاءها. فهي حتماً لن تفكر في التنقل في الدنيا مثل زوجة جندي طارئة جوالة، ولن تفكر في أن تترك في استنبول لوحدها لشهور متواصلة بدون زوج.

قال لأدهم "إنني آسف" وهو يشعر وكأنه خائن "لكنني لا أستطيع أن أقبل عرضك. يجب أن يكون مستقبلي هنا، في استنبول".

عندما سمع عمر في اليوم التالي بقرار حفيده، أصيب بخيبة أمل عميقة. فقد بان له وكأن شمس قد أصبح على وشك أن يتخلى عن كل ما عمله لتحقيقه. لأن رجلاً يرغب في التخلي عن مثل هذه الفرصة، يسعى حتماً إلى أن تقصقص أجنحته. بدأت آماله العظيمة في مستقبل شمس تضمحل أمام ناظريه.

بعد أسابيع قليلة، تسلّم شمس واجباته مع شركسي آخر هو الجنرال عزت باشا جناتوقه، المتحالف مع مصطفى كمال بشكل وثيق، بعد أن قام عمه برهان بتعريف شمس إليه. أحسَّت حكمت بأنها قد أنصفت، فها هو زوجها سيصعد نجمه حتى بدون أن يغادر استنبول. فلم تعد تقدر على احتواء سرورها. أدرك الرجل العجوز أنه قد هزم، وعرف بحكمته، أنه لن يصل إلى أية نتيجة طالما بقي مرتبطاً بإمرأة مثل هذه.

جاء حفل الزفاف في غاية الفخامة، تماماً كما ظلت حكمت تحلم على الدوام. فقد ازدحمت قائمة المدعوين بأسماء الجنرالات، السياسيين، والدبلوماسيين. فكل واحد من الحضور كان له مستقبل في المعترك السياسي المضطرب في تركيا في ذلك الوقت، وهو زمن سيسمى من قبل الأجيال المستقبلية "ثورة الأتراك الشباب". كانت تلك أرقى حقبة في حياة شمس.

***

الفصل الثلاثون

شرق الأردن

"بإمكانك أن تصاحبني في زيارتي إلى السوق بعد ظهر اليوم". قال ناخو لحفيده عزت، البالغ الثانية عشرة من عمره، بينما هما يركبان عائدين باتجاه عمان بعد قضاء صباح يومهم في تدريب الجياد.

كان عزت يحب البقاء في الخارج، في الهواء الطلق مع الجياد، ويحب البقاء مع جده. فكان يتبع ناخو أينما ذهب، وقلما أمره الرجل العجوز بالعودة من حيث أتى.

قضى كل من حسن ومجيد كل وقتهما في شراء الأراضي هذه الأيام لتوسيع أملاك العائلة، أو يعملان في الحقول التي اشترياها. فقد أصبحت الأفراس الاثنتي عشرة المتبقية مسؤولية العجوز والصبي بشكل رئيس.

سأل عزت "ولماذا؟"

ضحك ناخو "سوف ترى. أنت تطرح من الأسئلة أكثر مما ينبغي. فقط افتح عينيك وأذنيك وسترى ما تتعلمه".

دخلا إلى البيت لتناول الطعام، وبعد تناول الوجبة رأى عزت جده يخرج جراباً جلدياً كبيراً. اتسعت عينا الصبي من الدهشة والإعجاب عندما رأى ناخو يفتح صندوقاً مصفحاً ويبدأ بملء الجراب بحفنات من القطع النقدية الذهبية "العصملّي" والعديد من القضبان الذهبية.

سحرت القطع النقدية البراقة عينيه الفتيتين أثناء تساقطها تحت النور الخافت في الغرفة التي أغلقت مصاريعها. أشغلت ديسا، جدته، نفسها بأعمال البيت ولم تهتم بالاحتفال الطقوسي الصغير

الذي يؤديه زوجها. فقد كانت راضية بأن تترك كل مفاوضات الأعمال العائلية في عهدته وعهدة ولديها. فقد نجحوا إلى حد بعيد في جعل العائلة الأكثر ثراء على مدى عدة أميال حولهم.عندما أصبحا خارج البيت، أخفى ناخو الجراب الجلدي تحت بطانية على سرجه وامتطى جواده.

قام عزت بامتطاء جواده هو الآخر، مصمماً على أن لا يطرح أياً من الأسئلة الكثيرة التي باتت تطن داخل رأسه.

قال ناخو "وهكذا، أنت توشك الآن على إنهاء الدراسة الابتدائية." بعد أن ركبا لفترة.

"أعتقد أنك سوف ترغب في الاستمرار بالدراسة".

لوى عزت وجهه علامة الرفض.

لم يقل ناخو شيئاً لبضع لحظات، وقد استغرق في التفكير. "لم تسنح لأبيك ولا لعمك أية فرصة في الحصول على التعليم بسبب واجباتهما مع الخيل ولأننا كنا نرتحل من مكان آخر عندما كانا صغيرين".

اعترض الصبي "لقد أبدعا فيما يفعلانه."

قال ناخو "لكن مستقبل هذه البلاد سوف يكون بيد أولئك الذين يحصلون على قسط من التعليم. سوف يتعين على الناس الذين في وضع أبيك وعمك أن يظلوا مزارعين بسطاء ومربي خيول. ستكون هناك فرص عظيمة تنفتح هنا في السنوات القادمة. سرعان ما ستكون لدى هذا البلد حكومة. سيصبح أمة وسيحتاج إلى شباب متعلمين مثلك لإدارته. يجب أن تفكر في المستقبل".

تذمر عزت "أنا أستمتع بالعمل مع الجياد أكثر من أي شيء آخر".

"أعلم أنك تستمتع، وأنت فارس ماهر، لكن ذلك لن يكون كافيا ليجعل منك رجلاً ناجحاً. هنالك مدرسة ثانوية جيدة في السلط. أحب لو أنك تذهب إلى هناك لإتمام دراستك".

ظهر الرعب على وجه عزت. فهو لم يكن ميالاً إلى فكرة الاضطرار إلى الابتعاد عن بيته بذلك القدر، عن عائلته وأصدقائه، فقال بعد بضع لحظات "إن معظم أصدقائي ينضمون إلى وحدة تدريب الخيالة للجيش البريطاني في صفد بفلسطين".

رفع ناخو حاجبيه متسائلاً "ثم ماذا؟"

"وهذا ما قد أرغب في عمله إذا اضطررت إلى مغادرة عمان".

قال ناخو "ليس هناك أحب إليّ من أن تبقى هنا، فأنت مصدر الرفقة الرئيس بالنسبة لي، كما تعلم، ولكن يجب عليك أن تصنع من حياتك شيئاً أكثر من ذلك، وأنت ما زلت صغيرا جداً على الانضمام إلى الجيش البريطاني. احصل على التعليم أولاً، وبعد ذلك ستختار، فإما أن تلتحق بالجيش أو تفعل مئة شيء آخر. لأنك بدون التعليم ستظل خياراتك محددة بين القتال أو الزراعة.

شعر عزت بالارتياح عندما وصلا إلى السوق وتوقف جده عن الكلام. ترجلا عن جواديهما وربطاهما. رأى عزت جده ناخو وهو يسحب الجراب الجلدي خلسة ويضعه تحت سترته بينما هو يأخذ طريقه نحو كشك قائم في وسط السوق المركزية. ظهر رجل أفغاني بلحية ذات لون أحمر صارخ في الزاوية المظلمة من الكشك، يضحك بسعادة عند مشاهدته لناخو.

صاح به "صديقي القديم! أدخل. أنت على الرحب والسعة."

قال ناخو وهو يدخل إلى الكوخ الرطب المنعش "هذا عزت، حفيدي".

صافح الرجل العجوز عزت وحدَّق في وجهه بحدة "يا له من صبي وسيم. لا بد وأنك فخور به، يا ناخو".

ضحك ناخو "أنا فخور به فعلاً، ولكن لا تخبره بذلك، فهو مغرور بما يكفي"

"أنت أيضاً يجب أن تفخر بأن لك جداً مثل هذا" قال العجوز ذو اللحية الحمراء لعزت. أحنى الصبي رأسه، وقد أعيته الكلمات.

استفسر منه الرجل العجوز "هل لديك أشقاء وشقيقات؟"

"إن شقيقي محمد نور في الرابعة من عمره، ولدي شقيقة طفلة، حليمة، وهي لم تبلغ السنة من عمرها بعد". أجاب عزت، بأدب.

"فإذن أنت رجل العائلة، يجب أن تتعامل بجدية مع هذه المسؤولية".

"هذا ما كنت أقوله للفتى ونحن في طريقنا إلى هنا" قال ناخو بينما كان صديقه يدلهما على حشية مريحة.

جلسوا جميعاً وتحدثوا بدون تكلف لفترة قصيرة، بانتظار أن يحضر المستخدم الزنجي الشاي. بمجرد أن جاء الرجل وانصرف، تطرق ناخو إلى الهدف من زيارته.

قال "إنني أخطط للقيام بأداء فريضة الحج إلى مكة المكرمة. وسوف أتغيب شهوراً عديدة. لا أريد أن أترك الكثير من الذهب في البيت مخافة سطو اللصوص. فهلا احتفظت لي بهذا الجراب لحين عودتي؟" أخرج الجراب الجلدي من مخبئه ومرره إلى الرجل العجوز. جلس عزت يراقب، وقد عقدت الدهشة لسانه، بينما تناول ذو اللحية الحمراء الجراب ومشى به عبر الغرفة إلى بساط معلق في الجدار الواقع خلفه. أزاح البساط الذي أثار سحابة من الغبار في الهواء، وكشف عن وجود قاصة. فتح القفل بمفتاح، كان يحمله

في سلسلة داخل طيات أثوابه التقليدية، ووضع الجراب في داخلها بدون حتى أن يزعج نفسه بتفقد محتوياته.

أطلق ابتسامة كشفت عن أسنانه الذهبية قائلاً "إن مدخراتك آمنة الآن حتى تعود لأخذها". وعاد الرجلان إلى التحدث في أسعار الأراضي ومخزونات الأعلاف. أثناء عودتهما راكبين إلى البيت، قال عزت "كيف يمكنك أن تناول ذلك القدر من المال إلى ذلك الرجل بدون حتى أن تطلب إيصالاً؟"

"يا عزت، إن أحد الدروس العظيمة في الحياة، هو أن تتعلم كيف تمحض الثقة. لأن الحياة بدون ذلك لا تطاق".

"ولكن ما الذي سيمنع ذلك الرجل العجوز من فتح الجراب وإخراج بعض القطع الذهبية؟ أو ماذا لو قال لك أن الجراب قد ضاع أو سرق، عند عودتك؟"

قال ناخو "يجب أن تتعلم من الذي تثق فيه إضافة إلى كيفية الوثوق به."

فكر عزت لفترة قبل أن يتكلم مرة أخرى. "ولكن ماذا يحدث إذا حصل مكروه ما أثناء رحلتك وتأخرت، أو أنك، لا سمح الله، لم ترجع. ليس لدى العائلة أي برهان حسيّ أو إيصال للمطالبة باستعادة المال".

"هذا هو سبب اصطحابي لك. أنت برهاني الحسّي. سوف يتذكرك العجوز صاحب اللحية الحمراء وسوف يقوم بتسليم المال إلى والدك. لا تقلق يا عزت، لن يحصل لي شيء. سأعود بعد بضعة أشهر، وستكون قد ازددت طولاً، وسوف أكون قد أحضرت لك هدية خاصة من الحجاز".

"كم سيمضي من الوقت قبل رجوعك؟"

"لا أعرف تحديداً، عندما قام جدي، كازبك بالرحلة، استغرقته عاماً كاملاً، لكنه كان يسافر كل المسافة من القفقاس على ظهور الخيل. يفترض أن لا تطول غيبتي أكثر من ثلاثة أشهر.

***

الفصل الحادي والثلاثون

شرق الأردن

قبل موعد عودة ناخو إلى البيت بأسبوع، أصدر حسن تعليماته لعزت بأن يتأهب لمصاحبته إلى محطة القطار في معان. شارحاً له السبب "إننا ذاهبون للترحيب بالأمير عبد الله، نجل شريف مكة، في الأردن". جهز عزت نفسه حسب التعليمات وأسرج جوادين للركوب لنفسه ولوالده. بعد أن مضيا في طريقهما، سأل عزت عن السبب في قدوم الأمير.

فشرح له حسن "أثناء الحرب، أعلن العرب الثورة، بقيادة شريف مكة وانضموا إلى البريطانيين ضد العثمانيين. بالمقابل، وعده البريطانيون بالمناداة به ملكاً على المملكة العربية المتحدة. قاموا بنسف الخط الحديدي الحجازي، وقام جيش الأمير فيصل باحتلال العقبة، مما سهل سقوط عمان ودمشق في أيدي الحلفاء. لكن البريطانيين كانوا أيضاً قد وعدوا الحركة الصهيونية بوطن لليهود في فلسطين. كذلك وقَّع البريطانيون والفرنسيون اتفاقية تم بموجبها تقسيم المنطقة بينهما، فذهبت سوريا ولبنان إلى فرنسا، وكان العراق وشرق الأردن وفلسطين من نصيب البريطانيين. قام الأمير فيصل بالمطالبة بسوريا كمملكة له، لكن الفرنسيين أجبروه على مغادرتها مؤخراً. والآن، ها هو شقيقه الأمير عبد الله يصل إلى عمان على رأس جيش كبير قوامه ألفي رجل لقتال الفرنسيين واستعادة سوريا لشقيقه".

سأل عزت "وأين هو الأمير فيصل" متلهفا على محاولة التوصل إلى فهم لكل الشائعات التي كانت تحوم في عمان.

"يقال أن الأمير فيصل قد سافر إلى أوروبا. يحتمل أنه موجود في إنجلترا ليفاوض البريطانيين الذين خذلوه، مرة أخرى".

"لماذا لا يحضر إلى هنا ويقاتل مع عبد الله ضد الفرنسيين لاستعادة مملكته؟"

"هنالك عدة وسائل للنضال يا ولدي. يحتمل أنه يقاتل، بعقله، بنفس القدر من القوة".

"ولكن لماذا يتوجب عليه أن يثق بالبريطانيين بعد ما فعلوه به؟"

"ذلك هو ما يدعى السياسة يا عزت. أنا لا أثق بالسياسيين".

قال عزت "لقد قال لي جدي أنه يجب علي أن أتعلم بمن أثق".

ضحك حسن قائلاً "إن جدك رجل مسن حكيم. إن الأمير قادم للمطالبة بما هو حق لعائلته".

"وهل سيصبح أميرنا؟"

"نحن لا نعرف حتى الآن".

"وهل سيقاتل الشراكسة إلى جانبه؟"

"أعتقد أننا سنفعل ذلك. إنه من نسل النبي نفسه عليه صلوات الله. إنه أمير نبيل يستحق القتال لأجله والقتال إلى جانبه."

استغرق عزت في التفكير لوهلة "إن جدي متحمس على فكرة ذهابي إلى المدرسة في السلط".

قال بعد لأي "لكن يبدو لي أن الجيش سيكون أكثر ملاءمة لي. إنني أحب أن أذهب إلى فلسطين، يا أبتِ، بعد أن أنهي دراستي، فهل تكلم جدي عندما يعود؟"

نظر إليه حسن ملياً لوهلة، ثم هز رأسه "سوف أكلمه".

عندما وصلا إلى معان، وجدا العشرات من زعماء القبائل، بمن فيهم قادة آخرون من المجتمع الشركسي، في الانتظار. كان ماميلا، الفارس القباردي الأسطوري موجوداً مع أصدقائه بأزيائهم

التشيركيسكا الزاهية. بدوا لعيني عزت الشابتين في غاية الإبهار والتأثير.. كان هناك عدد من قوات الأمير موجوداً ويجهزون أنفسهم لمرافقته حيث يختار أن يسافر. وكان هناك آخرون ينتظر وصولهم. تجول حسن وعزت بين الشراكسة الآخرين، وهم يتبادلون الأحاديث الهامسة.

قال أحد الوجهاء لحسن "هنالك إشاعات مفادها أنه ينوي أن يجعل مركز قيادته في عمان".

أجابه حسن "أنا أعرف أنه يثق فينا".

وقال رجل آخر "لقد تلقى علومه في استنبول وكان يعرف الشراكسة التابعين للإمبراطورية العثمانية السابقة. وكان يثق فيهم".

قال الوجيه العجوز "سيغير ذلك الاختيار مراكز القوى في المنطقة، إذا أقيمِ البلاط فيها، فإن عمان ستصبح المركز".

"سيغضب زعماء القبائل".

"سوف يكون البريطانيون راغبين في تشجيعه على الاستقرار هناك إذا تخلى عن مطالب أخيه في سوريا".

قال وجيه آخر "لقد سمعت أنه يحضر معه قوة من ألفي رجل" وقد تداخلت في صوته رنة إعجاب.

نظر الرجال الشراكسة عبر المسافة التي تفصلهم عن الفصيل البريطاني من مجموعة الاستقبال، الذين كانوا يتحركون بين الحشود، يصافحون الناس وينحنون كأنه ليس لديهم همّ واحد في الدنيا.

قال حسن "سوف يتعينِ عليهم أن يعملوا بجدية لإقناعه بالتخلي عما وعدوا أباه به".

عندما وصل الأمير عبد الله. اندفع عبر الحشود بكل هيبة الحاكم وعظمته. انحنت الرؤوس وتصافحت الأيدي. جرت معانقات هنا وهناك، وتبادل الأحاديث مع البعض.

شكّل المسؤولون البريطانيون حوله حاشية بينما هو يخترق الحشود. عندما وصل إلى مجموعة الشراكسة، توقف وعلت وجهه ابتسامة عريضة. صافح كلاً منهم بدوره، ولم يبق لدى أي من الحضور أقل شك بأنه سيشاهد الأمير مرات أخرى في عمان. استدعى الأمير ماميلا ليتقرب منه وأبدى إعجابه بزيه الشركسي. تفحص جيادهم وأبدى إعجابه بها. علم فيما بعد أن الأمير عبد الله قد وجه الدعوة إلى ماميلا وأصدقائه للانضمام إليه ليكونوا حراسه الشخصيين.

تحول الاستقبال إلى احتفال. فربت حسن على كتف ولده عزت قائلاً "يحتمل أن الأمير باق بيننا وعلى هذه الفرضية سوف يكون بحاجة إلى جيش، أنت على حق. سوف أقوم بإجراء الترتيبات لذهابك إلى فلسطين للتدريب. ولكن يتعين عليك أن تنهي دراستك أولاً."

لم يتمكن عزت من السيطرة على الابتسامة التي انبسطت فوق وجهه إلا بصعوبة بالغة من فرط سعادته بالخبر. وبات يأمل في رؤية جده قبل أن يغادر. بات احتمال عودة ناخو من الحج وشيكاً في أي يوم، وسيخيب أمله لأنه لن يذهب لإكمال الدراسة في السلط. لكنه سيضطر إلى الاعتراف بأن هنالك فرص تفتح أمامه في عمان والتي يمكن أن تحمل معاني عظيمة لمستقبل الشباب الذين هم في مثل سنه إذا استطاع أن يثبت أنه رجل مفيد.

وكما كان متوقعاً، تم إقناع الأمير عبد الله، بمساعدة ضباط بريطانيين مثل العقيد بيك الذي يقود الوحدة البريطانية في شرق الأردن، بتقوية مركزه، ونودي به أميراً على شرق الأردن الجديد. قامت القبائل البدوية بتقديم الولاء والطاعة له وبايعته بالإمارة.

أصبح ماميلا وأربعة من أصدقائه حراسه الشخصيون، واحتفظوا بأزيائهم الشركسية كزي رسمي. بعد بضع سنوات، احتاج العقيد بيك إلى ضابط تدريب للفرسان ليقوم بتشكيل قوة فرسان الفيلق العربي، فاستدعي عزت من فلسطين إلى عمان لتولي المهمة.

أول شيء فعله عند وصوله إلى مسقط رأسه هو الذهاب إلى منزل جده. فوجئ لدى رؤيته جده كم شاخ الرجل خلال فترة غيابه القصيرة. تماماً بقدر ما فوجئ ناخو وتأثر بمقدار طول القامة والقوة اللتين لمحهما في حفيده. أصبح بإمكانه الآن أن يرى أن قرار عزت بالذهاب إلى الجيش كان صائباً. فقد أصبح رقيباً ذا حضور قوي ولم يعد هناك شك في أنه سيصبح قادرا على التأثير في مراكز السلطة، خاصة وأنه قد عاد إلى عمان حيث هناك حاجة ملحة للجنود المثاليين.

تظاهر العجوز بأنه يوبخ حفيده "وهكذا تجاهلت نصيحتي، فانظر إلى ما حل بك".

ظن عزت لوهلة أن العجوز غاضب عليه فعلاً، وشعر لهنيهة أنه طفل صغير مرة أخرى، يجرى تعنيفه لأنه أتعب الجواد بركوبه بقسوة. إلى أن لمح طيف ابتسامة على زاوية ثغر ناخو.

فقال "إذا استطعت أن أصل إلى أي شيء، يا جدي، فسيكون ذلك بفضل الدروس التي علمتني إياها وأنا بعد صبي".

تعانق الرجلان.

***

الفصل الثاني والثلاثون

القفقاس

أصبح بيطال في هذه الآونة القائد غير المنازع للجماهير العاملة في القباردا. فقد أصبح لديه ألف رجل مقاتل تحت تصرفه وصار جميع القادة الآخرين في المنطقة أكثر من سعداء للتعاون معه، مهما كانت التحفظات التي يبديها أو يحتفظ بها شخص مثل نذير. انتشرت جماعات الجيش الأبيض في كل مكان لكنهم لم يعرفوا متى ستضربهم قوات بيطال. كانوا في العادة غافلين عندما يهاجمون بحيث يجتاحهم رجال بيطال وتخترق معسكراتهم بكل عنف قائدهم، يذبحون ويدوسون كل شيء وكل شخص يقف في طريقهم. يستولون على الأسلحة والجياد وأي شيء آخر، يمكن أن يساعدهم في صراعاتهم، قبل أن يعدوا بخيلهم عائدين إلى الليل الساتر، تاركين كومة من الرجال الأموات، الجرحى والذاهلين خلفهم.

حيثما ذهب بيطال، كان الناس يحتفلون به كبطل فاتح: رجل ثوري، قوي، شجاع ونزيه. لم يفكر مطلقاً في بناء ثروة لنفسه: كل ما أراده هو زيادة سلطته وقوته حتى يجبر الثورة على النجاح. لم تخمد نار كراهية الطبقات العليا، التي ظلت تغذي كل حركة قام بها منذ طفولته.

عمل بالتعاون مع محمد اينييف، الذي كان أحد قادة فلاحي إقليم جورسكي. مثل نذير، كان اينييف مدرس لغات، مما جعل بيطال يشكك فيه، لكنه كان في مثل إدراك بيطال لمحنة أبناء الطبقة العاملة الرهيبة في بلده.

حين كان نذير في سن العشرين، سمع المنشفيك يلقون الخطب في قريته، يتحدثون عن الحرية وحقوق جميع الأمم. قرر وقتها أن

ينضم إليهم. سرعان ما أقنعه اجتماع مع كيروف أن الطريقة الوحيدة لمحاربة المستغلين هي الطريقة البلشفية وعلى ذلك الأساس انضم إلى الحزب.

ضم نذير قواته إلى بيطال للقتال ضد جيش الجنرال دينيكين المنسحب. كان دينيكين يقوم بتجنيد كل من يعثر عليه، وفي كثير من الأحيان يلجأ إلى إجبار الناس على الالتحاق بجيشه، فكان العديد منهم يفرون من خدمته وينضمون إلى أعدائه عند أول معركة.

انتقل نذير إلى موسكو عام 1921، ليعمل كممثل رسمي لقباردينو بلقاريا، بحيث يكون مسؤولاً أمام بيطال مباشرة. في العام 1925 أصبح نذير ممثلاً اقتصادياً للاتحاد السوفيتي وأصبح بيطال مضطراً لأن يكون مسؤولاً أمامه. أصبح هذا وضعاً لا يطاق بالنسبة لبيطال الذي ظل يكره زميله القباردي بقوة.

في تلك السنة، توفي بشير، الأخ الأصغر لنذير، عندما وصل القطار الذي يحمل جثمانه إلى نالتشك، كان كلاً من بيطال ونذير موجودين لاستقباله.

قال بيطال "طبعاً ستدفنه في نالتشك، على اعتبار أنه رجل ثوري صادق".

"كلا" لم ينظر نذير إلى الرجل الآخر، مغضباً من حقيقة أن بإمكانه حتى أن يفكر بالتأثير في مثل هذه المسألة الشخصية. "لقد أعطيت كلمتي لبشير بأنني سوف أدفنه في مسقط رأسه، قرية بسيشواري".

خيم الصمت على جميع المتواجدين في المحطة، منتظرين أن ينفجر بيطال.

راقبوه بينما هو يكافح للسيطرة على أعصابه من مخالفة رأيه أمام هذا العدد الكبير من الناس. فحَّ فيه بيطال من خلال صرير أسنانه "سوف تندم على هذا". انتظر بيطال، بنفاذ صبر هائل، لعدة

سنوات حتى يتسبب لنذير بجرح قاتل. أدرك أنه سيعثر على طريقة لتشويه سمعة الرجل في نهاية المطاف وقلما توقف عقله عن التخطيط.

مع تنامي سمعته، صار بيطال يتلقى زيارات من ستالين. أصبحت المثاليات الشيوعية قيد التطبيق في هذه الآونة، بما فيها اعتبار الدين أمراً غير قانوني.

لم يفهم أبناء الطبقة العاملة بشكل كامل أن هذا يعني أنه لم يعد يسمح لهم بالاعتقاد أو ممارسة العبادات كما فعلوا لمئات السنين. عندما أخبر فلاحو الباقسان أنه لا يمكنهم افتتاح مدرسة دينية، كما كانوا يريدون، غضبوا وشعروا بالإهانة إلى درجة أن بعض القادة المحليين حَرَّضوا الناس أن يثوروا معترضين. سمع ستالين بهذا العصيان القليل الشأن وأمر بإحاطته علماً بما يجري. إذ كيف يجرؤ بضعة فلاحين على أن يقوموا بمثل هذه الوقفة ضد القوانين الجديدة؟

"هل تسمح لي بقول بضع كلمات عن ذلك؟" قال بيطال عندما سئل من قبل الدكتاتور حول آرائه عن الموضوع.

"سأقدّر رأيك تقديراً عالياً، يا بيطال".

اختار بيطال كلماته بعناية "كما تعلم، فأنا أكن لنذير كاتخانوف أعظم درجات الاحترام، فقد قاتلنا سوية وقد ظل على الدوام عنصراً نافعاً للثورة".

زمجر ستالين "لقد سمعنا جميعاً عن عظمة هذا الرجل".

"هذا صحيح. لكن نذير لم يخفِ في يوم من الأيام أن هدفه الأسمى هو خلق دولة يستطيع كل رجل فيها أن يعبد الآلهة التي يختارها. ولا ينسجم ذلك الأمر مع القوانين الموجودة لدينا ونحترمها في بلادنا الآن. هذه القوانين التي ستجعل منا قوة عظيمة في هذا العالم".

سأل ستالين "هل لديك أي سبب لتربط به بين نذير وهذا العصيان؟" وهو يدير بصره في الرجال الآخرين الموجودين في الغرفة، يسألهم آراءهم. غضى الجميع أبصارهم في تواضع، ليسمحوا لبيطال بالاستمرار في كلامه.

"لقد عمل نذير بلا كلل في القرى والأرياف، في المصانع والمدن، لتحويل الطبقة العاملة إلى الثورة- ثورته هو."

"وهل تعتقد أنت أن هذا يمكن أن يكون سبب العصيان؟"

"ليست لدي طريقة أتأكد بها، أيها الرفيق. لكنني أعتقد أن هذه الأفكار تشكل خطراً على قضية الشيوعية العظيمة".

كان بيطال يعرف تمام المعرفة أن نذير لم يكن قد زار القباردا لأربعة أعوام على الأقل، كما كان يعرف العديد من الأشخاص الموجودين في الغرفة، لكن أحداً لم يجهر برأي. بعد بضعة أسابيع ألقي القبض على نذير وسجن، وأعدم بعد شهرين بإطلاق النار عليه باعتباره "عدواً للشعب". لم يكن قد تجاوز السابعة والعشرين من عمره.

كان بيطال قد بدأ الاستمتاع والتلذذ بالسلطة الحقيقية. عمل خلال السنوات التالية على تدمير كل أصدقاء نذير وأصدقاء جميع أعدائه الآخرين. اكتشف أنه بوجود السلطة في يده، يمكنه أن يشبع نهمه وشهواته، التي اضطر حتى ذلك الوقت إلى كبتها.

أصبحت قسوته أسطورية. وهكذا نجحت الثورة في استبدال نظام حكم وحشي بآخر شبيه له في القسوة والوحشية.

***

الفصل الثالث والثلاثون

القباردا

كان ن. د. مانرجولو من رجال نقابات العمال. لم يكن قد رأى مثل هذه المرأة قبلاً في حياته. كان قد نشر إعلاناً في الصحيفة يطلب فيه طابعة لتساعده في مكتب اتحاد العمال في شارع ريسبوبليكانسكايا في نالتشك. فقد أخذ العمل المكتبي يتراكم مع صدور كل تلك التعليمات والقرارات التي كانت تصدر كل يوم، ولم يعد يستطيع أن يواكبها.

جاءت التشكيلة المعتادة من المستجيبات للإعلان: نساء ضخمات بشفاه علوية مشعرة وأصابع قوية جراء قضاء ساعات طويلة في التدرب على الآلات الكاتبة في المدارس العديدة التي بدأت تظهر إلى الوجود لتعليم هذه المهارة المستقبلية.

قمن جميعاً بأداء اختبارات الطباعة بينما هو واقف فوق رؤوسهن ممسكاً بساعة يده، وغادرنه بعد أن تركن لديه توصياتهن وسيرهن العملية. كان يحضر نفسه لقضاء الأمسية وهو يدرس التوصيات قبل أن يتخذ قراراً نهائياً حينما انفتح باب المكتب ودخلت رؤيا. استعلمت بسؤالها "السيد مانرجولو؟" بينما وقف هو فاغراً فاه ينظر إلى ملابسها الأنيقة، التي احتوت على قبعة باريسية وقفازات يدوية ناصعة البياض.

أعترف "هذا أنا".

مدت نحوه إحدى يديها المقفزتين قائلة "إسمي انتونينا اليكساندروفنا كودينيتوفا". في إيماءة أوحت إليه بأنها معتادة على أن يقبّل الرجال يدها بدلاً من مصافحتها.

لم يكن ما نرجولو من نوع الرجال الذين يقبّلون أيدي النساء، لكنه صافح القفاز الممدود نحوه بحرارة وقوة وابتسم بحماقة.

"ماذا بوسعي أن أعمل لك؟"

"إنني أستجيب لإعلانك عن طلب طابعة".

"وهل أنت طابعة؟" أصيب بالذهول.

"ولماذا يفاجؤك ذلك يا سيد ما نرجولو؟ يجب على الجميع أن يعملوا في هذه الأوقات لإقامته أود أنفسهم."

"هذا صحيح تماماً".

خاض مانرجولو في نفس روتين الإجراءات الرسمية مع انتونينا كما فعل مع كل الأخريات، من ناحية لأنه كان قلقاً من أنه إذا لم يلتزم بإجراء صحيح فإنه سيذوب ليصبح طبق جيلي يتراجف. حتى ولو أنها لم تنجح في الاختبار بامتياز هائل، فهو كان سوف يستخدمها، لأنها امرأة يستحيل أن يقال لها "لا". حتى عندما اعترفت أنها الزوجة السابقة للأمير كودينيتوف، وهو جنرال من البيض وعدو للشعب، كان قد فر من البلاد، لم يتمكن من التوقف عن التحديق فيها وطأطأة رأسه كالأحمق. خلال نصف ساعة، كان قد عرض عليها الوظيفة وكافأته بابتسامة مبهرة إلى درجة أنه شعر بوجهه يحمر.

توقع جزءيًا أن يستيقظ في صباح اليوم التالي ليجد أن الموضوع برمته كان حلماً رائعاً، لذيذاً، لكن عندما وصل مانرجولو إلى المكتب صباحاً، وجد أنتونينا تنتظره داخل غمامة من العطر الفواح.

اعتادت على الوظيفة وكأنها ظلت تؤديها طيلة حياتها.

كان مكتب نقابة العمال يقع في منتصف الطريق بين مكتب بيطال وبيته. وكان من عادة بيطال أن يعرِّج مرة أو مرتين في الأسبوع ليطمئن على أحوال وأوضاع جماعة نقابة العمال. فعندما ظهر في الممر في المرة التالية، أصيب بصدمة لمرأى أنتونينا الجميلة جالسة خلف آلة الطباعة. حيَّته بأدب، كما تفعل مع الجميع،

وعادت إلى عملها.

تعوَّد بيطال، منذ صعوده إلى مركز السلطة، على الحصول على أية امرأة يضعها نصب عينيه. فإذا كان هناك زوج غير ملائم في طريقه، يرتب للرجل أن يلقى القبض عليه ويرسل إلى سيبيريا، أو يصيبه حادث قاتل من نوع ما. ثم يتولى مهمة تعزية الزوجة إلى المدة التي تلائمه. ولكن، على أية حال، لم تكن لأي من النساء اللاتي عاشرهن، بما فيهن زوجتيه السابقتين، ذلك التأثير الدرامي عليه مثلما فعلت أنتونينا. فقد أصيب بالإعياء والبله من جمالها وتهادى عبر المكتب لزيارة مانرجولو وكأنه صبي مزرعة غرٌ ضخم صامت.

شهق أنفاسه بمجرد أن أغلق وراءه باب المكتب الداخلي وسأل مانرجولو "تلك المرأة، من هي؟"

أخبره مانرجولو "إنها الزوجة السابقة للجنرال الأمير كودينيتوف، وهي تطبع بطريقة رائعة".

أمره بيطال "أرسلها إلى مكتبي غداً، لدي عدد من المهام بالنسبة لها".

أدرك مانرجولو بالضبط نوعية المهام التي تدور في ذهن بيطال، وراوده شعور رهيب بأنه سوف يضطر إلى العثور على طابعة أخرى في القريب العاجل. بات يأمل في أنه لم يلق بالطلبات القديمة المرفوضة من الأسبوع الماضي في سلة المهملات. تثاقل بيطال خارجاً من المكتب بدون أن يستدعي الشجاعة لأن يفعل شيئاً أكثر من أن يزمجر قائلاً "مساء الخير" لانتونينا أثناء مروره بها.

صباح اليوم التالي أصدر مانرجولو تعليماته إلى طابعته لكي تذهب إلى مكتب بيطال. شاهد حاجبيها يرتفعان من الدهشة وعرف أنها لا بد قد سمعت عن ذوق بيطال في النساء الجميلات، كما سمع كل الناس. لكنها لم يصدر عنها أي اعتراض على الذهاب. كان بيطال بانتظارها. شعر، لوجوده على أرضه، ولكونه قد استعد

للقائها ليلة بطولها، أنه أقدر على التعامل معها، ولكن بهاءها سيطر عليه رغم ذلك. أدرك أنه قد وقع في الحب. بدأ بأن يصدر إليها تعليمات فظة بشأن الطباعة، التي كان بحاجة إلى تمامها، والتي أطاعتها بدورها بكل أدب وكفاءة.

طلب بيطال من مانرجولو أن يرسلها إليه على مدى الأسبوعين التاليين يومياً.

قرر أن يعاملها بشكل مختلف. فقد بات يأمل أن بالإمكان إغواؤها، إذا لم يكن بشكله وملامحه، فليكن بفضل سلطته وقوته. ففي نهاية الأمر، كان قد سمع ستالين يقول أن السلطة هي أعظم منشط جنسي. أصبح مهووساً بكل ما يتعلق بها، لكنه لم يشأ حتى ذلك الوقت أن يفرض نفسه عليها. لم تشعر أنتونينا، التي اعتادت على شخصية الأمير كودينيتوف القوية، بالرهبة أو الخضوع تجاه بيطال، وهي حقيقة جعلتها تصبح أكثر جاذبية بالنسبة إليه. في البداية، لم تتأثر بخشونته، ولكن بدأت رويداً تدرك مدى قوته كرجل، فاعتادت عليه وألفته، وتغلبت على نفورها.

في البداية، سمحت له أن يضع يده على كتفها أو ركبتها أثناء عملهما سوية، ثم أصبح تدريجياً أكثر حميمية معها، إلى أن صار يتوقع في كل يوم أن يمارس معها الحب، بمجرد وصولهما إلى المكتب. عندما أحاط خصرها بذراعيه للمرة الأولى، سمحت لنفسها أن تذوب فيه، مدركة أن مقاومته كانت تعني أنها ستوقع على وثيقة موتها بنفسها. جاء اتصالهما الأول قصيراً وعنيفاً، لكنها أقسمت لنفسها أنها إذا كانت ستتخذ هذا الرجل عشيقاً لها، فسوف تضطر إلى تعليمه بعض الأساليب الفنية الراقية في إدخال السرور إلى قلب المرأة.

في الماضي، كان بيطال يمل من المرأة ويتخلص منها بعد أن تسلمه نفسها بفترة قصيرة، لكن أنتونينا استمرت في فتنته حتى أصبح متيقناً من أنه يرغب في الزواج منها. فهي لم تلبي كل

رغباته وشهواته فقط، بل كان جمالها الواضح ملائماً أيضاً للوضع الذي شعر أنه يستحقه.

"أخبرني عن زوجاتك الأخريات"، قالت عندما أخبرها عن خططه بالنسبة لهما كزوجين.

"باه" حاول أن يصرف الموضوع على أنه غير مهم.

راوغته بقولها "لابد وأنه كان هناك عدد كبير من النساء اللواتي حظين باهتمامك. أخبرني عنهن".

قال بنبرة كبرياء في صوته "كانت كيرفوفا من الورَق، إمرأة نبيلة". وقد سره أن يعلمها أنه معتاد على التعامل مع نساء من طبقتها. "من عائلة نبيلة. كان كلانا صغير السن وكنت أتغيب في الجبال فترات طويلة جداً من الوقت. لم تحبني عائلتها". أطلق ضحكة فظة كأنها النباح، وابتسمت أنتونينا. فقد كان بوسعها أن تتخيل مقدار الرعب الذي أحسته أية عائلة نبيلة في الأيام الأولى للثورة من المواجهة مع فلاح قاتل مثل بيطال، وأن يصبح صهراً لها.

استمر في الكلام "بينما كنت أنا متغيباً، انضم أشقاؤها إلى الحرس الأبيض. وكانوا فعلياً يقاتلون ضد شعبي. أقنعها أخوتها بأن تتركني وتعود إلى بيت عائلتها. فغضبت منها". ضغط على مؤخرة رقبة أنتونينا بشرود ذهن وهو يتذكر الإذلال الذي شعر به في زواجه الأول. لم يدرك ما كان يفعله إلا حين أطلقت زعقة ألم صغيرة، فأرخى يده. "وهكذا طلقتها".

"هل رزقتم بأطفال".

"كلا، لا أطفال".

"إذن من أين جاءت زوجتك الثانية؟"

"كانت ماريا فيليبوفنا إمرأة روسية ثورية تعيش في الجبال أيام

الحرب الأهلية. وكانت ثائرة ممتازة، ضابط اتصالات وإشارة في مجموعتي من المقاتلين. وقد عشنا معاً عدة سنوات."

"وهل رزقتم بأطفال؟"

"لدي ابن" قال لها، غير قادر على إخفاء ابتسامة فخر "إسمه بوريس. وهو يعيش معي هنا في نالتشك".

قالت "أنا أيضاً لدي ابن، اسمه أناتولي".

كانت حقيقة كونها الزوجة السابقة لرجل يعتبر خائناً في أعين رؤساء بيطال، تعني أنه لا يمكنه أن يحملها بين ذراعيه ويطير بها نحو الزواج كما كان يرغب. فقد كان مضطراً إلى كسب موافقتهم. سافر إلى موسكو لبحث المشكلة مع صديقيه وحليفيه كيروف وفورشيلوف. شعر كلاهما بالدهشة حيال عمق مشاعر بيطال تجاه هذه المرأة ومنحاه مباركتهما، وهما يعتقدان أنه سرعان ما سيمل من هذه المرأة ويهملها مثل الأخريات. كذلك شعر بيطال بدوره أنه إذا وقع بينه وبين أطراف أخرى تريد به سوءاً أي خلاف، فإنهم سوف يستعملون هذا التحالف للعمل على إسقاطه. على الرغم من ذلك، فقد تزوج هو وأنتونيا وشعر بقدر من السعادة لم يشعر به من قبل مطلقاً. فقد أحسّ أنه، في نهاية المطاف، سيكافأ ببعض الجوائز في الحياة، والتي كانت تبدو في السابق محجوزة للآخرين.

يعيش الأمير الجنرال سلطان كودينيتوف، زوج أنتونينا السابق في الغرب، في مدينة باريس تحديداً، بعد أن هرب على أثر هزيمة الحراس البيض في الحرب الأهلية. وهو يتحدر من عائلة نبيلة في القباردا، من مدينة تشيجيم. أصبحت الحياة لا تطاق بالنسبة للعائلة أثناء الحرب الأهلية. فقد كانت حياتهم مهددة في كل يوم تقريبا، إضافة إلى نهب أراضيهم. دعا والد كودينيتوف العائلة كلها إلى اجتماع. ذهب كودينيتوف إلى الاجتماع لأنه ما كان ليحلم بأن يعصى أمر والده. ولكن، كانت أنتونينا في شهر حملها التاسع، ومقيمة في المستشفى.

قال الرجل العجوز "لم يعد لنا أي مستقبل في القباردا". فصدرت همهمة موافقة من جميع أرجاء الغرفة.

"إذا لم يقتلنا الثوريون، فهم حتماً سينتهي بهم الأمر إلى مصادرة كل أراضينا وتركنا بلا أي شيء. ليست هناك فائدة ترجى من بقائنا هنا، ننتظر النهاية المحتومة. إنني أنصح العائلة بالرحيل إلى تركيا حيث سيمكن لنا بناء حياة جديدة كما فعلت عدة عائلات قباردية. ربما، بعد انتهاء السلطة السوفييتية، سنتمكن من العودة إلى أراضينا الأصلية".

وافق كل من في الغرفة مع الرجل المسن. فهو كبير العائلة ووجيهها وهم مجبرون على اتباع قيادته حيثما قرر أنهم يجب أن يذهبوا. غادر كودينيتوف اجتماع العائلة بينما كان الآخرون ما زالوا يبحثون في تفاصيل الرحيل. فقد بات ملهوفا على العودة إلى زوجته.

وجدها في المستشفى تحتضن وليده الصغير. قبلها بشغف وجلس إلى جانبها ليحمل الطفل المغرق في الصغر. أحسّ بدفقة من الكبرياء والحب العميق لكل من زوجته وطفلهما.

قال "لقد حمل والدي إلينا اليوم بعض الأخبار. لقد قرر أن العائلة يجب أن ترتحل إلى تركيا. أعتقد أنها خطوة حكيمة".

"تركيا؟" شعرت أنتونينا بالذعر "أنا لا أستطيع أن أسافر إلى تركيا مع طفل حديث الولادة".

"لا، لا بالطبع" قال زوجها بسرعة "سوف ننتظر حتى يكبر الطفل بما يمكنه من السفر".

قال له بصوت جدي "لا يا سلطّان، أنت لم تفهمني. لن أسافر إلى تركيا مع طفل. أنا روسية. لا أريد أن أصبح لاجئة".

قال كودينيتوف بحنان ولكن بحزم "أنت متزوجة من قباردي ويجب عليك أن تفعلي ما يقوله زوجك، لقد رحب بك والدي في

العائلة على الرغم من كونك روسية. فقد رأى أنني واقع في حبك وشرَّفني بعدم إثارة أية اعتراضات على الزواج. والآن جاء دورنا لنرد له ذلك التشريف. يجب أن نفعل ما يأمرنا به".

قال له بنبرة حادة "يمكنك أن تفعل ما يحلو لك، لكن الطفل وأنا باقيان هنا".

تجادلا على مدى عدة أيام لكن شيئاً لم يستطع أن يغير رأيها. أدرك كودينيتوف في النهاية أنه لن يفلح معها أبداً. فقد أخذت العائلة تعد العدة للمغادرة إلى تركيا وشعر أنه سيكون من المستحيل عليه أن ينكر نسبه ويهجر أباه وأشقاءه في مثل هذا الوقت الصعب. عاد إلى المستشفى في اليوم المقرر فيه سفرهم ليحاول للمرة الأخيرة أن يقنعها بالقدوم معه. لكنها بقيت على إصرارها.

قبَّلها بحنان على شفتيها وقد تعمَّق الحزن في قلبه، ثم حمل وليده الصغير وقبل وجهه الدافئ الناعم.

وعدها بقوله "سوف أعود في اللحظة التي تضعف فيها قوة السوفييت". ثم استدار خارجاً من الغرفة بدون أن يلقي نظرة إلى الوراء.

مرت السنوات ولم تضعف قوة السوفييت. بل نمت وقويت وأصبحت أشد خطورة مع كل شهر ينقضي. أخذت أنتونينا الطفل وذهبت به إلى أمها ليعيش معها في نالتشك".

وصلت أخبار إلى كودينيتوف في باريس، مفادها أن زوجته وابنه، أناتولي، اللذين تركهما في القباردا، على علاقة ببيطال. أرعبته فكرة أن يتمكن شخص مثل هذا من الوصول إلى ابنه، لكنه تيقن من أنه غير قادر على فعل أي شيء، فكان يستلقي في الليل يقظاً، يحلم بأن الصبي يلعب معه تحت أشعة الشمس، يركب أمامه على جواده، متوهجاً بالكبرياء لكون أبيه رجلاً على تلك الدرجة من الأهمية، واشتاق إلى رؤيته.

عمل كودينيتوف كمترجم حتى يتمكن من إعالة نفسه، آملاً طيلة الوقت أن يحمله عمله إلى السفر عائداً إلى القباردا حتى يتمكن من رؤية ابنه.

أثمرت سنوات الإصرار والكفاح وعيِّن عام ١٩٣٠ ملحقاً بوفد زراعي أوروبي مسافر إلى نالتشك. غيّر اسمه على أمل أنه لم يبق أحد قادر على تمييز وجهه، الذي شاخ كثيراً خلال سنوات نفيه. دخل إلى البلاد بدون أية مشكلة وبدا أنه لم يجذب انتباه أي شخص خلال الاجتماعات.

لاقى صعوبة كبيرة في النظر إلى وجه بيطال، الذي كان رئيساً للوفد المضيف، وفي الإصغاء إلى ثرثرته غير المهذبة، بدون أن يتخيل ذلك الرجل في بيته ومع ابنه وزوجته السابقة. ذهب خلال أحد أيام وجوده في نالتشك لزيارة أنتونينا حين علم أن بيطال كان موجوداً خارج البيت. في اللحظة التي رأته فيها، أدخلته وأغلقت الباب خلفه لإبعاد أية عيون متطفلة.

"ما الذي تفعله هنا؟" سألته، وقد أرعبتها التفكير في المخاطر، التي يمكن أن يجلبها لها، ولابنهما.

سأل كودينيتوف، وهو يتلفت حواليه "هل تولا هنا؟"

"كلا، إنه في المدرسة".

"سأمكث هنا لبضعة أيام فقط، ويجب عليّ أن أراه. أعدك بأن لا أتسبب له بأية مخاطر. أرجوك أن تساعديني على ترتيب الأمر".

قالت أنتونينا "لا أستطيع ذلك مطلقاً. ليست لديك أية فكرة عن مدى عنف بيطال. إنه يصدر أحكاما بالإعدام على الناس كل يوم. لقد تخلى عن زوجتين حتى الآن، ما الذي سيحدث لي ولتولا إذا ألقى بنا خارجاً؟".

توسل إليها كودينيتوف "أرجوك، أعدك أنها ستكون المرة الأخيرة التي أطلب فيها هذا. إنني بحاجة ماسة لأن أراه مرة

أخرى. لقد نظم بيطال حفلة هائلة للوفد الأجنبي في دالينا نارزان. يتحتم علي أن أتواجد هناك بحكم عملي. بإمكانك أن تحضري وتصطحبي تولا. سيبدو الوضع طبيعياً جداً. لن يشك أحد بالأمر. أتوسل إليك".

نظرت أنتونينا إلى الرجل الذي شغفها حباً فيما مضى ورأت أنه يكبر في العمر ويشيب شعره. ما زال يبدو مثل أمير، على الرغم من ثيابه غير المميزة، لكنه قد بدأ ينحني مع ثقل حزنه. قالت "حسناً" متلهفة على إخراجه من البيت بأسرع ما يمكن "سوف نحضر". بعد مضي يومين انطلقت مع ابنها إلى المنتجع الجبلي الصغير القريب من نالتشك حيث كانت الحفلة ستقام. كان أناتولي سعيداً لأن يصطحبها ويراقب بيطال أثناء عمله. ومع أن الصبي لم يكن يحمل أية محبة في قلبه لزوج الأم المتوحش التسلطي، إلا أنه لم يستطع أن يغالب التأثر العميق بالسلطة والقوة اللتين كان يتمتع بهما الرجل.

كانت أنتونينا ممثلة بارعة متفوقة بحيث لم يكن أحد ليتخيل أن لها علاقة بالمترجم المغمور. وجدت لها مكاناً، بعيداً بما يكفي عن الأبنية التي يجري فيها تكريم الضيوف وطلبت من كودينيتوف أن يقابلها مع ابنهما هناك في تلك الأمسية. اصطحبته ليتمشيا سوية قبيل العشاء، بينما كان بيطال محشوراً في إحدى الغرف مع المندوبين الآخرين. كان كودينيتوف بانتظارهما. خرج من بين الظلال، مما جعل الصبي يقفز مجفلاً.

شرحت انتونينا الموقف "هذا هو والدك. لقد خاطر بحياته من أجل أن يعود إلى هنا ليراك. يجب أن لا يكتشف أحد أبداً أنه كان موجوداً هنا".

نظر أناتولي إلى الرجل الواقف أمامه، وعندما حدّق فيه متفحصاً، استطاع أن يتبين الرجل الذي عاش في مخيلته وذاكرته، من صورة باهتة سرية لأمه. تعانقا وتحادثا بأسلوب مهذب. أعتقد

كودينيتوف أن قلبه سينفطر وهو ينظر إلى مقدار الطول والوسامة اللتين اكتسبهما ولده. لكن كبرياءه كانت ملطخة بعلمه أنه يحتمل أن لا يتمكن من التحدث إليه مرة أخرى على الإطلاق.

ظلت أنتونينا متوترة طيلة فترة اللقاء بسبب معرفتها بمدى خطورة زوجها عندما يغضب ومدى استخفافه بإصدار أحكام الإعدام على الناس. ظل زوجها السابق وابنها يتحادثان بأسلوب مصطنع بينما هي تتحرك باضطراب، وتلقي بنظراتها في هذا الاتجاه وذاك، قافزة مجفلة من أي صوت يمكن أن يكون وقع خطى.

رغم أن بيطال بقي داخل الغرفة ولم يرهم طيلة فترة اللقاء. إلا أن ذاك الاجتماع لم يخف على رجال السرية. فقد كان جهاز المخابرات يعمل بقانون يخصه وحده. فطالما ظل بيطال مفيداً للقضية، كان يسمح له بأن يقفز على مسرح السلطة متباهياً، ولكن، شأنه شأن كل شخص آخر ترقى إلى درجة التميز، كان يجب السيطرة عليه. فقد كان أفراد جهاز المخابرات يحتاج أن يعرف أنهم قادرون على تقليص نفوذه والتخلص منه في أية لحظة يختارونها. وذلك يعني أنهم كانوا يملأون ملفاً عنه، تماماً كما يفعلون مع كل شخص آخر. كانوا يعرفون من هو كودينيتوف ويعرفون لماذا اضطر إلى العودة إلى نالتشك. يعرفون صلته ببيطال ويعرفون أنهم إذا احتاجوا إلى تلك المعلومة في أي وقت، فسوف يستخدمونها للإطاحة بالرجل. قاموا بتدوين كل شيء حصل خلال زيارة ذلك الوفد الأجنبي ووضعوه في الإضباره التي خزنوها بصمت، تاركين كودينيتوف وأنتونينا بانطباع مفاده أنهما نجحا في الإفلات بذاك اللقاء، وتاركين بيطال غارقاً في جهله، إلى حين.

الفصل الرابع والثلاثون

تركيا

أصيب أدهم الشركسي بخيبة أمل من جراء الأوضاع السائدة في تركيا. فقد قاتل في حروب البلقان وفي الحرب العالمية الأولى وجرح عدة مرات. أصبح مشهوراً بشجاعته وشخصيته القوية لكنه لم يعد يؤمن أن مستقبله في الجيش بعد ذلك الوقت. ترك الجيش عندما كان برتبة ملازم وشكّل سلاح "الفرسان الطيارون"، وهو قوة تحرير قوامها مقاتلون شراكسة وقفقاسيون على الأغلب. أصبح حليفاً مقرباً من مصطفى كمال وساعد على دحر الغزوات اليونانية في الأناضول الغربي.

منذ شهر حزيران سنة ١٩١٩، بات جنود أدهم يسيطرون على مدن "أيواليك"، "صالحلي"، "آيدين"، "أوديميس"، "صوما" و"آك حصار"، التي تغطي جبهة يبلغ طولها مئة وخمسين كيلو متراً. وقضى هو ورجاله ستة أشهر متواصلة وهم يقاتلون اليونانيين والعصاة الذين يحاصرونهم. أفلحت جهوده في إيقاف اليونانيين عن التقدم لكن تحذيراته حول القوة المتنامية للعصاة المحليين لم تجد آذاناً صاغية في استنبول. حذر من الأخطار الكامنة في مناطق "باندرما"، "بيجا" و "ماياس"، وقدم مقترحات تفصيلية عن الإجراءات والتدخلات التي يعتقد أنها كانت ضرورية. سمح انعدام الاهتمام من قبل قادة كمال لهذه التحذيرات للثائر أنزور أحمد، أن يزيد في نفوذه كما أدى إلى قيام الإنجليز بإرسال جنود بكامل أسلحتهم ومعداتهم إلى "بانديرما".

نتيجة لذلك، خسر الجيش الوطني المعركة في بيجا وغنم أنزور كل أسلحته وذخائره، وهو شركسي آخر متحالف مع المحافظين، الذي لم يصدق مقدار حسن حظه على تشرذم خصومه وانعدام التنظيم لديهم. قام الحلفاء بإصدار إنذار نهائي إلى حكومة

استنبول، طالبين منها الانسحاب إلى مسافة ثلاثة كيلو مترات بعيداً عن خط التماس في الجبهة مع اليونانيين، مما جعل موقف أدهم أكثر صعوبة أضعاف مضاعفة. تهاوت المعنويات بين جنود أدهم إلى درك غير مسبوق. شكّل مصطفى كمال قوة أخرى تحت قيادة حليفه، عصمت أينونو، قوامها على الأغلب من فلول مشاة الجيش العثماني. مما وضع إينونو في مركز القائد العام، لكن أدهم قلما أطاع أوامره مما أدى إلى نشوء منافسة سيئة بين القائدين العسكريين.

قال كمال لصديقه برهان بينما هما جالسان سوية في إحدى الأمسيات "ليست هذه مجرد حركة عسكرية، أنا لا أريد للقلة أن تفرض إرادتها على الأكثرية. يجب أن يكون هذا حكم الأغلبية، وهذا أمر لم تعهده تركيا من قبل أبداً، هذه حركة تتصاعد عضوياً من وسط الشعب. نحن بحاجة إلى أن تكون لدينا حكومة تستقي سلطتها وقوتها من رغبات وقرارات أغلبية الشعب. لقد كنت أمتلك دعم الأمريكان. فقد وعدني الرئيس ويلسون بالتدخل إلى جانبنا. وهو الآن مريض ولا أحد يعلم إلا الله وحده ما إذا كان أي شخص آخر سيمسك بالأعنة ويتدخل لصالحي هناك. يجب علينا الآن أن نعتمد على البريطانيين".

لكن البريطانيين كانوا يفقدون صبرهم. فقد أصبح تدفق الأسلحة غير الشرعية إلى الأناضول يسبب لهم القلق. فقد كانت المنظمة السرية، المشكلة من ضباط أتراك مسرحين من الخدمة في غالبيتهم، تقوم بتهريب الأسلحة المسروقة تحت حماية الدوريات البريطانية والفدائيين اليونانيين، يخفونها في عربات الفلاحين تحت حمولات التبن أو الفحم. كانوا ينقلونها في الليل، يدفنونها أثناء النهار ثم ينبشونها ثانية تحت ستار الظلام لاستئناف رحلاتهم.

يوم التاسع والعشرين من نيسان عام ١٩٢٠، قامت ثورات في طول البلاد وعرضها. وبات واضحاً أن البريطانيين يقفون خلفها. بدأت قوات أنزور أحمد، والتي كانت مجهزة ومسلحة بشكل

يضاهي جيشاً كامل العدة والعتاد، بنشر الذعر حول مدينة "باليك إسير"، إذ قام بقتل جميع الأسرى لديه حتى يجعل سمعته أكثر إرهاباً.

أدرك قائد الجبهة الغربية علي فؤاد باشا، أنه حسب الظروف السائدة، سيكون من غير المحتمل أن يتمكن الجيش النظامي من هزيمة أنزور. وعليه فإن المهمة يجب أن توكل إلى أدهم. في هذه الأثناء، انضم إلى أنزور الضباط الذين يعارضون الكفاح الوطني، والذين أحضروا معهم مدفعية ثقيلة. بدت قوته وكأنها تنمو بمعدل لا يمكن إيقافه.

ترك أدهم مهمة الدفاع عن جبهة صالحلي في عهدة الجيش النظامي واتجه بكل قواته نحو باليك إسير. في تلك الأثناء، اندلع عصيان في "دوزجه" و "هينديك". هاجم أكثر سبعة آلاف ثائر السجون وأطلقوا السجناء. نصب كمين لقائد الفرقة الرابعة والعشرين، محمود بك، وأعدمه الثوار قبل حتى أن يدخل إلى منطقة القتال. تبعاً لذلك، فقد تم تسريح تلك الفرقة من الجيش. لم يعد هناك أي شيء قادر على منع العدو من الزحف على أنقره.

قام أدهم بشن هجمات بأسلوب حرب العصابات على أنزور بدون أن ينتظر أي دعم من الجيش، ونجح في هزيمة قواته. أدرك كمال مقدار الخدمة التي أداها له القائد الشركسي. وقد جرح أنزور نفسه وأجبر على الفرار إلى استنبول على متن سفينة إنجليزية. يوم العشرين من حزيران لسنة ١٩٢٠ شكل عصيان آخر في "يوزجات" تهديداً لأنقرة، واستدعي أدهم مرة أخرى من قبل كمال عندما ظهر أن الجيش النظامي غير قادر على السيطرة على الموقف.

بدأ أدهم يفقد صبره تدريجياً. فهو يؤمن أن حركات العصيان سببها خطأ الحكومة، التي لم تكن قادرة على تصحيح أخطائها فتضطر إلى الاستعانة به. على الرغم من امتعاضه وعدم رضاه

على الوضع، قاد قواته إلى يوزجات وقضى على الثوار بسرعة. وعندما بدأ بطرح الأسئلة في المنطقة، اكتشف أن قوات الحكومة كانت أكثر إهمالاً مما تخيل سابقاً. اكتشف أن رفعت بك كان يختبئ في "كوروم" أثناء المعركة وأن جنود علي بك قد هربوا من "أكداغ معدني" بدون أن يطلقوا رصاصة واحدة.

بدأت سمعة أدهم كبطل قومي تنتشر بين صفوف الشعب والبرلمان على حد سواء. إلى حد أن، الناس بدأوا يشيرون إليه على أنه "القائد". لو أنه كان سياسيا بدلاً من كونه جندياً، ولو أنه استطاع أن يسيطر على ميله لأن يصرح بأفكاره بدون مواربة أو تردد، لربما استطاع أن يستغل شعبيته ويهدد موقع كمال فعلياً. لكنه بدلاً من ذلك بدأ يصرح بأفكاره بوضوح والتي مفادها أنه رغم موافقته على كون جنوده الأفضل تأهيلاً لمقارعة الثوار، إلا أن الحكومة بحاجة إلى جيش نظامي جيد التنظيم لقتال اليونانيين الذين تقدموا على الجبهة الغربية أثناء انشغال أدهم بقتال الثورات.

في تلك الأثناء، وفي استنبول، راقب برهان كيف أخذ أينونو يتقرب من كمال تدريجياً، ويتآمر على أدهم بحذر واستمرارية. فبينما كان كمال يكيل المدائح لإنجازات أدهم على سمع من الناس، كان يخطط مسبقاً لإسقاط الجنرال الشركسي.

قال برهان عندما أصبح هو وكمال وحدهما "إن إينونو سياسي محنك. إنه يستغلك لبناء نفوذه الشخصي".

أجابه كمال "كل من يعرفني يستغلني لأمر ما. هذا أمر لا مفر منه".

"لكن أدهم مجرد جندي. إنه لا يدرك أن إينونو يعمل على خلق مشاعر سلبية بينكما".

قال كمال "إن أدهم غير منسجم تماماً مع رؤيتنا للمستقبل". وقد تضايق لكون صديقه يلمح إلى أنه يختار مستشاريه بالحكمة المفروضة. "إن إينونو يتفهم الحاجة إلى تشكيل جمهورية تركية

حسب الأصول تضم جيشاً قوياً، بتنظيم جديد. إن أدهم يستغل كل فرصة لتدمير جهودنا".

قال برهان "ذلك هو ما يرغب إينونو في أن تصدقه".

"كفى!" نهض كمال واقفاً، متأهباً للإنصراف "أنت لا تفهم تعقيدات القضايا التي نتعامل معها هنا. لا تتحدث في أمور لا تفهمها فهماً كاملاً".

أدرك برهان أنه تجاوز حده. "أنا آسف يا كمال. لم أقصد أن أخرج عن الطاعة. لقد اعتقدت أننا نتحدث كأصدقاء".

غمغم كمال بشيء غير مفهوم، مما دل على أنه لا يعرف كيف يستجيب وغادر الغرفة. تسنى له الوقت الكافي عبر الأسابيع التالية لأن يعيد التفكير بعناية أكثر بكلمات برهان. بعد شهرين، تلقى برهان دعوة لزيارة كمال أثناء ساعات الدوام الرسمي. أصيب بصدمة عندما وجد إينونو في الغرفة حينما أدخل. نهض كلا الرجلين وصافحاه بشكل رسمي.

"لقد كنت أتحدث إلى إينونو حول ما قلته فيما يتعلق بأدهم. "دخل كمال في صلب الموضوع مباشرة. شعر برهان بدفقة حارة من القلق مصدرها تفكيره بأنه قد أصبح لتوه عدواً لإينونو بدون أن يعي وبدون قصد منه. تمنى لو أنه كان أكثر تكتماً في نصيحته.

تكلم إينونو قائلاً "إن أدهم يتمتع بشعبية كبيرة بين قواته" ولم يستطع برهان أن يلاحظ أي عداء في نبرته. "وذلك يجعل منه تهديداً بشكل أو بآخر لسلطة كمال".

"أنا لست واثقاً......" بدأ برهان يتكلم لكن كمال رفع يده لإسكاته. قال:

"فقط استمع إلى ما لدينا لنقوله".

"نحن نعتقد أن من الحكمة لنا أن نسَرِّح جماعات الأنصار"

استمر إينونو في الكلام "بما فيها فيلق أدهم الطيار"

سأل برهان "وهل هو يعرف عن هذه الخطة؟"

أطلق كمال ابتسامة ماكرة "إنه يعرف، وهو لا يوافق عليها كلياً. إنه يعتقد أن الوقت غير ملائم للتسريح خاصة وأن ثلث مساحة البلاد لا يزال يرزح تحت الاحتلال الأجنبي".

"وهل أنت متفاجئ؟"

وافقه كمال "كلا، لست متفاجئاً، لأن أحداً لم يشرح لأدهم الخطة بحذافيرها. نحن نريد أن نشكل قوة عسكرية واحدة، بدلاً من الاستمرار في محاولة التنسيق بين وحدتين منفصلتين، على أن تخضع بكاملها لإينونو".

أبقى إينونو عينيه مسبلتين إلى الأرض في تواضع، متجنباً تحديق برهان.

استطرد كمال قائلاً "نحن نعتقد أنه يجب عليك أن تذهب إلى أدهم وتتحدث معه في كل الأمور. أنت شركسي وهو يعرفك حق المعرفة. أنه يحترمك. وسوف يصغي إلى ما لديك لتقوله".

وهكذا وجد برهان نفسه يسافر عبر البلاد، على غير اقتناع منه، لمقابلة أدهم الشركسي. جرى استقباله بكل الحفاوة والاحترام الذي يتوقعه المرء من صديق قديم. لكن عندما اكتشف أدهم من الذي أرسل برهان إليه، اتخذ موقف الحذر منه فوراً. تبع ذلك اللقاء عدة لقاءات ومفاوضات مكثفة بينما شرح برهان خطة كمال وإينونو لتأسيس "جيش أخضر"، يضم جميع فرسان ومشاة الأنصار، ويسمح لأدهم بالاحتفاظ بفيلقه الطيار ضمن الجيش الجديد. في نهاية الأمر لمس أدهم المنطق في نقاش برهان ووافق من حيث المبدأ.

قال برهان، بعد أن جلس الاثنان يستريحان، وقد شعر كلاهما أن عملهما قد انتهى:

"هل تعتقد أن تشكيل هذا الجيش سيعني أن إينونو سيتوقف عن الدس عليّ في أذن كمال؟ يمكنك الآن أن تكلمني على أنك شركسي وليس على أساس أنك دبلوماسي."

ضحك برهان ثم فكر للحظة قبل أن يجيب "يبدو لي أنك ستظل تشكل تهديداً لإينونو، وطالما أنه قريب جسدياً من كمال وأنت في مكان بعيد، فهو ستتاح له الفرص للتأكد من أن أفكاره هي التي يتم الاستماع إليها أولاً. إذا اختلفت أفكارك عن أفكاره، فقد يعطي الانطباع أن لديك أسباباً أخرى غير الإخلاص لكمال لأي شيء تقوله أو تفعله".

"هذه كلمات ابن عرسيه صادرة عن دبلوماسي، وليس عن صديق" قال أدهم ضاحكاً، "لكنني أسامحك لأنني أعتقد أنني أفهم ما تقوله. فهل فكر إينونو أنه يجب إعطائي منصباً جديداً في جيشه الجديد هذا؟"

"لقد قال إنه يعتقد أن مثل هذه الأمور يجب أن يقررها البرلمان".

لم يضحك أدهم، بل خيم عليه الصمت والتفكر.

أصبح أدهم الجنرال الأكثر بطولة وفعالية في الجيش الجديد خلال الأشهر التالية. لم يستطع إينونو أن ينكر نجاح مغامراته وعملياته مع الفيلق الطيار لفرسانه الشراكسة في الأناضول الغربي، لكنه إضافة إلى ذلك أصبح بمقدوره أن يرى أنه كلما ازداد نجاح أدهم، زاد احتمال أن يشكل تهديداً له ولكمال مستقبلاً. لأنه إذا أصبح الرجل بطلاً عظيماً، فإن الشعب قد يبدأ بالتفكير فيه على أساس أنه قائد محتمل لتركيا الحديثة.

بات برهان يدرك من بعض ما كان كمال يقوله أن إينونو لم يفوت أية فرص لتسميم عقله ضد القائد الشركسي. سرعان ما توضحت مؤامرات إينونو للعيان عندما تمكن من إقناع كمال والبرلمان أن الوقت قد حان لتسريح الجيش الأخضر وتأسيس جيش

تركي.

جادل بقوله "يجب علينا أن ننزع أسلحة جميع مجموعات الأنصار، أو نجبرهم على الانضمام إلى الجيش الجديد". مرة أخرى، تم إرسال برهان ليخبر أدهم بالقرار الذي اتخذ في غيابه.

انفجر أدهم صائحاً عندما أكمل برهان الشرح "هذا مدعاة للسخرية! أنا لا أثق بذلك الرجل وعليه فأنا حتماً لن أطيع أوامره".

أوضح برهان "إذا رفضت أن تطيع الأوامر، فسوف تسهل على إينونو أن يقنع كمال أنك تشكل خطراً على سلطة".

"فأذن، يجب عليك أن تقنع كمال أن إينونو هو الشخص الذي يفترض أن لا يثق فيه. أخبره إنني قلت هذا وأنه يجب عليه أن يصغي".

لم يستسغ برهان فكرة العودة برسالة غير مقبولة ولا مرحب بها مثل تلك.

عندما وصلت الأنباء إلى كمال، عن طريق إينونو، بأن أدهم لا يزال يخطط ويتآمر ضده، فقد أعصابه في النهاية.

قال لبرهان "سوف أصدر الآن أمراً مباشراً له بأنه يتوجب عليه أن يحل قوته ويسلم أسلحته، يجب عليك أن تعود وتخبره بذلك".

أدرك برهان أن الأفضل له أن لا يعترض عندما يكون كمال في تلك الحالة الذهنية. هزّ رأسه بالموافقة وغادر الغرفة. ولكنه، على أية حال، لم يغادر البيت مباشرة. توقف مع بعض زملائه الضباط لتناول فنجان من القهوة وبحث شؤون العالم. عندما اتجه إلى المغادرة أخيراً، مر بالباب الداخلي لغرفة كمال، الذي ترك مفتوحاً قليلاً، وسمع صوت إينونو.

"لايهم كم مرة ترسل برهان عبر البلاد ليتحدث إلى الرجل،

يجب عليك أن تستأصل الخطر. كلاهما شركسي وسوف تصبح الرسائل مشوهة على الدوام".

أصر كمال "إنني أثق ببرهان ثقة مطلقة".

وافقه إينونو "أنت محق في ثقتك به، لكنك لست محقاً إذا كنت تفكر أنه قادر على تغيير طبيعة أدهم. الرجل يشكل خطراً على مركزك وسيظل كذلك، طالما هو حي. يجب عليك أن ترسل قتلة مأجورين لزيارته، وليس الأصدقاء والدبلوماسيين".

"وهل تعتقد أن الوقت قد حان لمثل هذا الإجراء المتطرف؟" سأل كمال واعترت برهان صدمة لأن صوت صديقه لم يبدُ عليه انعدام الحماس للفكرة.

"نعم أعتقد ذلك. وإلا فإن مركزك لن يكون آمناً على الإطلاق".

قال كمال "لا أعتقد أنهم سيتمكنوا من الوصول إليه. فهو محروس من رجاله بشكل جيد".

"إذن، وجه له الدعوة ليحضر إلى هنا للاجتماع بنا. وعندما يصل إلى هنا لن يكون أي منا في استقباله. بدلاً من ذلك ستقوم مجموعة من القتلة بتنفيذ العملية".

قال كمال "وسوف أصر على أن يدفن بموجب مراسم عسكرية بكامل التشريف. باعتباره منقذ الشعب وبطل الجمهورية الجديدة".

قال إينونو "طبعاً. لأن أي شيء أقل من ذلك سيكون إهانة لذكراه".

"حسناً، في هذه الحالة قم أنت بتدبير الأمر".

تحول حديثهما إلى مواضيع أخرى، ومشى برهان مسرعاً إلى الخارج ليفكر بما سمعه لتوه. كان يحمل لكمال أقصى درجات الإخلاص والولاء. فقد ظل، في نهاية الأمر، صديقه لسنوات

عديدة. لكنه أحسّ برابط أقوى بكثير تجاه قريبه، أدهم.

أول فكرة خطرت له هي الركوب نحو أدهم وتحذيره من المؤامرة، حتى يرفض الدعوة إلى الاجتماع التآمري. لكنه إذا فعل فهو يخون ثقة صديقه كمال، بشخصه. ظل يجوس الباحة جيئة وذهاباً، ورأسه يكاد ينفجر بالأفكار المتناقضة. اهتدى في نهاية الأمر إلى خطة وذهب باحثاً عن مراد، وهو فارس شركسي مخلص، يعرف برهان أنه رجل جدير بالثقة.

فرح مراد برؤية برهان، وصافحه بحرارة، ثم عرض عليه المرطبات من إمكانياته الشحيحة.

تحدثا لفترة عن أصدقائهما المشتركين والأمكنة التي سمع بها كلاهما ولم يزرها أي منهما. تظل الرابطة التي تجمع أي شركسيين بصرف النظر عن منزلتهما الاجتماعية قوية على الدوام، مهما كانت البلاد التي انتهى بهما المطاف بالمعيشة فيها وخدمتها.

قام برهان بتوجيه الحديث إلى نقاط القوة والضعف لدى أدهم، فوجد أن مراد يتفق كلياً معه فيما يتعلق بالقائد.

أخبره برهان "هناك إشاعات تدور" محاولاً أن يبدو وكأنه يجري حديثاً عرضياً. "مفادها أن إينونو يخطط لدعوة أدهم إلى هنا لإجراء محادثات معه ومع كمال. وبعد ذلك ينوي أن يدبر مقتله بمجرد أن يخطو إلى داخل المبنى".

قال مراد "سيكون ذلك يوماً سيئاً بالنسبة إلينا كلنا" وهو يهز رأسه بحزن.

"أنا أتفق معك" انتظر برهان لحظة قبل أن يستأنف "أعتقد أن أدهم يستحق أن يتم تحذيره من هذه اللحظة. ولكن، بصفتي ووضعي كصديق وموضع ثقة لكمال، لا أعتقد أنني الشخص الملائم للذهاب إليه بهذا التحذير. فهل تعرف أي شخص يمكن أن يكون راغباً في حمل مثل هذا التحذير إلى أدهم؟"

قفز مراد واقفاً على قدميه "أنا بالتأكيد أعرف. سوف يشرفني أن أحمل مثل هذه الرسالة."

بعد مرور يومين، كان أدهم جالساً إلى جانب النار، يصغي إلى القصة التي يرويها له مراد. بعد فراغ الجندي الشاب من روايته، لم يقل أدهم أي شيء. فكر في الأمر للحظة، ثم استدعى توفيق، شقيقه، للانضمام إليهما. فقد كان توفيق مستشاراً مخلصاً لأدهم وكان كل منهما يعتمد على الآخر ويستمد منه القوة.

قال أدهم لمراد "أرجوك، أخبر أخي بما قلته لي لتوك".

كرر مراد قصته. بعد أن انتهى منها، استدار أدهم نحو شقيقه. "أنت تعلم أن الدعوة للذهاب إلى هذا الاجتماع قد وصلت فعلاً. يفترض فيّ أن أسافر خلال يومين. فهل تعتقد أن إينونو قادر على ترتيب مثل هذه المؤامرة؟"

ضرب توفيق على فخذه مغضباً "أنا أعتقد ذلك بكل تأكيد". مرسلاً سحابة من الغبار من زيه العسكري. "أعتقد أن الأمر أكثر من محتمل. أنا أعتقد أنه صحيح دون أدنى شك. لقد أدى لك هذا الشاب خدمة عظيمة". ربَّت بقوة على كتف مراد. ابتسم مراد بفخر واعتزاز. قال: "أحب أن أطلب الإذن منك بالبقاء معك والقتال إلى جانبك مهما كان المسار الذي تختار اتباعه".

قال له أدهم "سيكون شرفاً لنا أنا تكون في الوحدة. يجب أن نقرر الاتجاه الذي سنسلكه قدماً".

في تلك الليلة، وبينما بدأت جحافل الظلام تخيم حولهم، اجتمع كل ضباط أدهم الكبار الموثوقين سوية، يبحثون فيما يتوجب عمله. كانوا خمسة، جميعهم شراكسة مثله. اشتعل الغضب، توترت الأعصاب وارتفعت الأصوات. أعتقد كثير منهم أن هذه فرصة أدهم لمواجهة إينونو والاستيلاء على قيادة البلاد.

حذرهم أدهم "إذ تحديناه فسوف نشعل شرارة حرب أهلية

رهيبة. سيقع قدر هائل من سفك الدماء وقد يستمر القتال عدة سنوات. سينتهي الأمر بآلاف الأتراك الشباب بالتضحية بأرواحهم وقد لا نقترب بأي شكل من الحل النهائي".

سأله أحد الضباط "فهل تخطط لتسليم نفسك إليهم بكل بساطة، وتسمح لهم بأن يذبحوك مثل أي كلب قبض عليه وهو يقتل الغنم؟"

سأله آخر "وهل تنوي أن تغادر تركيا وتحيا في المنفى؟"

حدَّق أدهم بقوة في الرجل الذي اقترح المنفى، وكأنه يفكر في ذلك الخيار بجدية.

حذره توفيق "إذا فعلت ذلك، فسوف تعتبر خائناً. وهكذا سيدَّون اسمك في كتب التاريخ. فهل هذا هو ما تريده؟"

قال أدهم "طبعاً، ليس هذا ما أريده، لكن أياً من هذه الخيارات أفضل من السماح بقيام حرب أهلية كارثية الأبعاد. أن حياة رجل واحد أو سمعته غير مهمة بالمقارنة مع مستقبل بلاد بكاملها".

خيَّم صمت ذاهل على الجمع الملتئم. لم يكن أحد منهم واثقاً من أنه لو أعطي الفرصة سيمتلك الشجاعة الكافية للتخلي عن كل ما قاتل من أجله أو حلم به من أجل خدمة هدف اسمى.

قال أدهم بتأنٍ وروية "أعتقد أنني يجب أن أحضر ذلك الاجتماع وأواجه المصير الذي ينتظرني، مهما كان نوعه."

سأل توفيق "ولكن ماذا عن قومك؟ كيف سيشعر الشعب الشركسي إذا ذبح بطلهم بدون أن يبدي أية مقاومة. الأفضل هو أن تذهب إلى المنفى".

تبودلت الأحاديث بين مد وجزر طيلة الليل وسحابة النهار التالي. في نهاية الأمر اتخذ القرار القاضي بأن يسلم أدهم نفسه إلى اليونانيين في إزمير. دعا أدعم جنوده إلى اجتماع بعد ظهر ذلك اليوم نفسه. وقف أمامهم بصوت متهدج، وقد ظهرت عليه علائم

الإجهاد لانعدام النوم، وغلبته العاطفة لاضطراره إلى أن يقول كلمات ما كان يصدق أنه سينطق بها في يوم من الأيام. شرح لهم ما هو مضطر إلى الإتيان به، وأخبرهم أنهم أحرار في الانضمام إلى إينونو والاستمرار في القتال من أجل الاستقلال، أو العودة إلى قراهم.

سأل صوت من بين الصفوف "وماذا لو أراد رجل ما أن يتبعك إلى المنفى؟"

"سوف يسعدني أن آخذ معي كل من يسره أن يجيء، لكنني لا أنصح بذلك"، قال أدهم، وقد تأثر لوجود شخص ما يرغب في دعمه حتى بعد أن يتوقف القتال.

قال صوت آخر "أنا سأذهب معك".

وقال آخر "أنا أيضاً".

في اليوم التالي، قاد أدهم وتوفيق المجموعة الصغيرة من الضباط والجنود عابرين بهم نحو الجانب اليوناني في إزمير، وكانت جيادهم تتحرك بخطى بطيئة لإظهار أنهم قادمون بدون أية نيات قتالية.

كان القائد اليوناني بانتظارهم وتقبّل استسلامهم.

لم يستطع إينونو ولا كمال أن يصدقا حسن حظهما عندما بلغتهما الأخبار.

***

الفصل الخامس والثلاثون

تركيا

ترقرقت دموع الحزن واليأس في عيني عمر العجوزين المتعبتين. كان جالساً مع برهان في حديقة منزل العائلة باستنبول. وكانت أصوات نحيب النساء في المنزل تصل إليهما، حزينة، نائحة.

قال عمر "يجيء وقت على الإنسان يشعر فيه أنه قد عاش ما فيه الكفاية، كنت أشعر أن لدي سبب للبقاء على قيد الحياة طوال فترة وجود أمك هنا. وها هي الآن قد رحلت وانتهت معاناتها، وقد حان الوقت لكي أخلي الطريق لجيلكم".

قال برهان "لن يأتي ذلك اليوم الذي لن يعود فيه جيلي بحاجة إلى نصح وهداية آبائنا". أصيب بصدمة من جراء رؤية والده منكسراً إلى تلك الدرجة. فقد ظلت أمه مريضة لسنوات طويلة، وحملت وفاتها عنصراً قوياً من الانفراج لمعظم الناس في المنزل.

"ما كانت أمي لتريد لك أن تحزن عليها إلى هذا الحد".

قال عمر "لست أبكي أمك وحدها. إنني أبكي من أجل شعبنا بأكمله. لقد تمكن أينونو من تنفيذ مآربه والآن يعتقد كل واحد أن أدهم كان خائناً. لقد أطلقوا عليه رسمياً كنية أدهم الشركسي "الخائن". لقد أصبح كل مجتمعنا مجللاً بالخزي والعار في الوقت الذي يفترض فيه أن يتمجد أبناؤنا بعظمة رجل مثل أدهم".

"لقد اتخذ قرار البرلمان باعتبار أدهم خائناً بأغلبية صوتين فقط." ذكّره برهان. "هناك كثيرون يعرفون الحقيقة لكنهم لا يجرؤون على النطق بها، لكن سيصبح هؤلاء الناس كباراً في السن يوماً ما ولن يعود لديهم ما يفقدونه جراء التحدث عن حقيقة ما

جرى. سوف يكتب التاريخ الحقيقي لأدهم الشركسي وسوف يعاد الاعتبار إلى اسمه النبيل".

استطرد برهان في التفسير، بهدوء ولطف، أن الأمر لم يكن ذنب مصطفى كمال، بل أينونو لوحده. لأنه بذهاب أدهم، فقد صعد أينونو إلى مرتبة ثاني أقوى رجل في البلاد بسهولة. هز العجوز رأسه دلالة على تفهمه.

"يبدو أن قدر الشراكسة في كل مكان أن يكونوا جنوداً مخلصين في خدمة حكوماتهم. أنهم يخدمون الآخرين بامتياز لكنهم لا يخدمون أنفسهم. تلك هي مأساة تاريخنا في الشتات".

"إنهم لا يفعلون ذلك في الشتات فقط يا أبتِ، انظر إلى ما يفعله قادتنا في القفقاس".

"نعم، أعرف ذلك. نحن راغبون في خدمة الأجانب على حساب مصالح شعبنا. إن مأساة شعبنا تتلخص في أننا لا ننتج سياسيين. نحن رعايا مخلصون في تركيا، ومع ذلك، فهل يقبل بنا الأتراك على أننا مواطنون مخلصون؟ إنني أعجب لما سيحدث لأبناء جيلك والأجيال التي تليه من الأديغه في هذه البلدان الأجنبية".

"يا أبتِ، سيصبح أولادنا أتراك، لكننا لا ننسى أصولنا وتقاليدنا". قال له ابنه مواسياً.

"وسوف يخرج من بيننا سياسيون بارعون قريباً. بعد ذلك لن تحدث لنا مواقف مشابهة لقضية أدهم".

ربَّت الرجل العجوز على يد ابنه بفخر "أعرف. أنك وأصدقاءك تؤدون عملاً طيباً ويجب أن لا تعتبروا هذياني انتقاداً لكم. القصة هي أننا قضينا الكثير جداً من الوقت في السفر حتى نصل إلى هذه النقطة وقد اعتقدت أنه يفترض فينا أن نصل إلى إنجاز أكبر قبل أن أموت".

***

الفصل السادس والثلاثون

القبادرا

فتح جورياكين ذراعيه على اتساعهما لمعانقة بيطال: كان وجهه مزداناً بالابتسامات وكأن مقابلته لهذا القائد المحلي هي أكثر الأحداث مدعاة للفخر في حياته. أخبرت بيطال حاسته السادسة أن هناك خطراً يحلق في الهواء. فقد قيل له أن جورياكين مرسل من قبل اللجنة المركزية في موسكو وأنه عضو مهم في الحزب الشيوعي. ما لم يعرفه هو السبب وراء إرساله. أصبح ممكناً، بالاستدلال من تصرفات زائرة، التفكير بأن السبب هو كون بيطال حليفاً مهماً لهم، شخصاً يعتمدون عليه ويريدون الإبقاء على صداقته بكل ثمن.

لكن ظل هناك إحساس في الجو أن بيطال تجري محاكمته بطريقة ما، وربما يكون مصدر ذلك الإحساس الوجوه الحجرية لحراس جورياكين الشخصيين الذين يحومون خلفه، وقد أخفت ملابسهم الثقيلة حجم أجسامهم والأسلحة التي يحتمل أنهم يحملونها.

ظل بيطال على الدوام متلهفاً حد اليأس على خلق انطباعات إيجابية لدى المسؤولين في موسكو. فقد حملته طموحاته إلى أقصى ما يحتمل ذهابه في القبادرا. فإذا كان يرغب في زيادة سلطته، سيتوجب عليه النظر باتجاه موسكو. لذلك أصبح من المهم لديه أن يخلق انطباعاً إيجابياً لدى شخص في أهمية جورياكين.

بادله العناق بحماس مماثل واستمر الرجلان في الضحك وإلقاء النكت بينما كان بيطال يصب الشراب لكليهما ويشربان نخبيهما ونخب عظمة الاتحاد السوفييتي. أحضر الطعام وجهزت مائدة عامرة بالأطايب. جلس الرجلان بين أصدقائهما ومستشاريهما وسيطر على مائدة الوليمة جو من المرح المتوتر.

قال له جورياكين وهو يملأ فمه بالطعام "هذه وجبة رائعة، يا صديقي، أتمنى لو أن كل شخص في الاتحاد السوفييتي يمكنه أن يأكل بهذه الدرجة من الفخامة".

تكلم بيطال بشغف وحماس "لا بد وأن يكون ذلك أحد أهدافنا" فهذا موضوع ظل عزيزاً على قلبه منذ أن كان طفلاً صغيراً، يقاتل ضد الأفعال الظالمة لنظام أحال عائلته إلى ما يقارب العبيد. "حياة كريمة لكل رجل وكل امرأة".

لطمه جورياكين على ظهره بقوة متحبباً "أنت محق جداً. أنت في منتهى الصواب يا صديقي. يجب على كل شخص أن يعمل بأقصى جهده لإنتاج ما يكفي من الطعام لتموين كل رجل وكل امرأة وطفل بمائدة مثل هذه. إن ذلك غاية شيوعية في منتهى النبل".

وصل بيطال في هذه اللحظة إلى حالة رفاقية مسترخية. فهذا الرجل مثله تماماً، فإذا استطاع جورياكين أن يصعد إلى قمة الحزب، فليس هناك من سبب يحول دون صعوده هو. وبما أنه يقوم الآن بالتعرف على الناس الملائمين، فهو منذور للتقدم بعيداً. فهو يعرف أعلى صلة في البلاد. فقد حضر ستالين العظيم بنفسه في أكثر من مناسبة ليستجم في مصحات نالتشك. وقد عقد صداقة مع بيطال. فلماذا لا يتم التفكير فيه لاستلام منصب مرموق في موسكو؟ تجشأ ليريح نفسه أكثر ودفع بالمزيد من الطعام إلى فمه.

قال جورياكين، بدون أن يغير من تعابير وجهه "ولهذا السبب نحن قلقون، يا بيطال".

"قلقون؟" لم يستطع بيطال أن يتبين أن الجو النفسي قد تغير.

"ما الذي أنتم قلقون عليه؟"

"حتى تنجح الخطة العظيمة، يجب علينا أن نحصل على نفس كمية المجهود من كافة أنحاء الاتحاد السوفييتي. أننا مدركون

لكونك قدمت بعض الوعود الهائلة حول كميات الإنتاج التي ستكون قادراً على تسليمها من هذه المنطقة." ترك جورياكين كلماته معلقة في الهواء بينما استطاع بيطال أن يتوصل إلى فهم معانيها.

تلعثم بيطال ثم قال "آه، لدينا كل النيات على توريد حصتنا من المحصول الذهبي القادم". كان يعمل على كسب الوقت وهو يحاول أن يفكر فيما يمكن أن يكون أفضل شيء سيقوله.

"ولكن على أية حال، فإن حمل أمة متأخرة من الناس على تغيير أساليبهم وزيادة إنتاجهم، يستغرق الكثير من الوقت".

وضع جورياكين ذراعاً أخويه حول كتفي بيطال واقترب من إذنه "الماء، يا صديقي".

"الماء؟"

هز جورياكين رأسه بوقار وحكمة "السر يمكن في الماء. نحن ندرك أننا نطلب منكم تحقيق المعجزات يا بيطال، لكننا ما كنا لنطلب منك ذلك لو لم يكن لدينا إيمان عظيم بقدراتك. لو كانت لديك أنظمة ري محترمة في إقليم التيريك لكنت قادراً على تحويل آلاف الهتكارات الجافة، غير النافعة إلى أراضي زراعية خصبة".

وافقه بيطال "بوجود الماء، يمكنني حقاً أن أحقق المعجزات".

قال جورياكين "عليك إذن أن تنظم الأمر" وكأنما هذا الأمر بديهي إلى درجة أنه فوجئ لاضطراره على النطق به.

"أنَظِّمُه؟"

"قم ببناء نظام ري يقوم بإداء ما نحتاج إليه".

"سأقوم بذلك بكل سرور" رأى بيطال في هذه السانحة إمكانية أن يكون قد عثر على طريقة يكسب بها المزيد من الأمجاد في موسكو، إضافة إلى سلطات إضافية للسيطرة في إقليمه الخاص.

"لكنني لا أمتلك الآليات اللازمة لأعمال البناء على ذلك المقياس في هذه المنقطة. إن معظم المزارعين هنا ما زالوا من طبقة الفلاحين الذين يعملون بأيديهم ومعاولهم. سوف يتحتم عليك أن تزودني بالأدوات الضرورية للقيام بالمهمة".

"ولكنك تمتلك قلوبهم، يا بيطال. أنت بطلهم. إنهم مستعدون للعمل أفضل من أية آلة من أجلك. لو كانت لدي آليات تحت تصرفي لكنت أرسلتها إليك على الفور، لكن ليس لدينا أي شيء يمكننا الاستغناء عنه. إننا نقوم ببناء أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ على الإطلاق، ولذلك فإن مواردنا تواجه الضغوط. وعليه فالأمر عائد لكل رجل، وامرأة وطفل، لأن يعملوا ويكدوا بمطلق قدراتهم حتى يتمكنوا من تحقيق الأهداف المجيدة التي وضعناها نصب أعيننا. سوف تكون قادراً، بما أوتيت من قدرات خطابية بليغة، وبالمحبة التي يكنها لك شعبك في قلوبهم، على أن تلهمهم لأن يسموا إلى مقامات أعلى. تماماً كما ألهم الفراعنة شعوبهم ببناء الأهرام. أنت فرعونهم، يا بيطال. أنك قادر على جعلهم يفعلون أي شيء تريده".

أضاء وجه بيطال تيهاً وفخاراً من سماع كلمات الرجل، وبدأ قلبه يخفق بعنف جراء الإثارة من إمكانية تحقيق إنجاز يرسخه في موسكو على أنه رجل عمل ورجل قادر على تنفيذ وعوده. سيكون واجباً رهيباً، لكنه أدرك أنه قادر على أدائه.

ابتسم ·جورياكين قائلاً "إن الحزب راغب في منحك الصلاحيات المطلقة لتنفيذ المهمة بأية أساليب تراها ملائمة". وعرف بيطال أنه إنما يعطى الإذن لتحقيق الغايات المطلوبة من خلال عهد من الرعب إذا كان ذلك ضرورياً. وإذا اضطر إلى قطع رؤوس بعض الناس ليجعل البقية تتعاون، فليكن.

ردّ له بيطال الابتسامة "لقد فهمت. إنه يشرفني أنك تعهد إلي بمثل هذا الواجب. أؤكد لك إنني لن أخذلك أو أخيب ظنك. سوف يتم بناء القناة. وستتدفق المياه في إقليم تيرسكي وسوف ينمو الغذاء".

زمجر جورياكين ضاحكاً وضربه على ظهره بقوة تحبباً. "أستطيع أن أعدك، يا صديقي، أن أي شخص يتمكن من تحقيق مثل ذلك الإنجاز سيصبح بطلاً للشعب. سيغنّي الحزب المدائح لهكذا بطل من فوق كل أسطحة المنازل. ستجد أسمك منشوراً في كل الصحف والمجلات عبر الاتحاد السوفييتي كله. ستصبح شخصية شهيرة في الحزب وستصبح قادراً على أن تحقق فرقاً حقيقياً في تاريخ بلادنا. إننا نعتمد عليك أن تساعدنا في كفاحنا، لتصبح واحداً من أبطالنا العظماء".

لم يعد بيطال قادراً على أن يمنع نفسه من الابتسام كالأبله. "سوف أسعى جاهداً لكي أكون جديراً بالشرف الذي تسبغه علي بأن تضع كل هذا القدر من الثقة في قدراتي".

صفعه جورياكين على ظهره مرة أخرى، وكأنما ليؤكد له أنه لا داعي لشكره، وأن التشريف كله له. تحدثا لفترة أطول قليلاً، ثم قال "يوجد مهندس روسي في نالتشك يدعى جفوزديف، ويتوجب عليك تعيينه ليرأس المهمة من أجلك".

قال بيطال "لدينا العديد من المهندسين القادرين على القيام بالمهمة". غير راغب في تقاسم مجد إنجاز المهمة مع أي شخص آخر.

تجمدت قسمات جورياكين وتحول صوته إلى البرودة المخيفة "إن جفوزديف شخص موثوق من قبلنا. نحن نصر على أن يقوم بإدارة المشروع. استدعه ولنجتمع سوية." أدرك بيطال أنه يؤمر بالتنفيذ.

"سوف أطلبه على الهاتف فوراً". طلب هاتفاً وأدار رقماً. لا بد وأن جفوزديف كان ينتظر المكالمة لأنه رد على الفور وكان يعرف ما سيطلبه منه بيطال بالضبط. حضر على الفور إلى المجمع الذي يضم مكتب بيطال.

"أنا بحاجة إلى مخططات كاملة لسد عبر نهر التيريك وقناة لتسحب الماء إلى المناطق الجافة في إقليم تيرسكي. وأنا أريدها خلال أسبوع بالضبط. "صاح به. أراد أن يفهم جورياكين الذي يستمع أنه ربما يكون راغباً في استخدام هذا الرجل، ولكنه رغم ذلك سيكون المسؤول الأول عن العملية، وأنه سيكون الشخص الذي سينفذه بالقوة من خلال قوة شخصيّته.

"خذ معك أفضل المهندسين والمخططين الروس الموجودين في جمهوريتنا، وأنجز المهمة".

رد عليه جفوزديف بكل الاحترام الواجب لرجل على وشك أن يصبح بطلاً حزبياً كبيراً.

بحلول وقت مغادرة جورياكين مدينة نالتشك، كان بيطال قد ركز تفكيره على الواجب المنوط به بشكل مطلق، لقد أعطي الشيء الوحيد الذين طالما أراده، وهو الفرصة لاكتساب المجد والقوة عبر الاتحاد السوفيتي بكامله وأصبح لديه جماع النية والتصميم على إدراك قدره، بغض النظر عن الثمن الذي سيدفعه بشخصه أو بآلاف الأشخاص الذي سيتوجب عليه تعبئتهم وتسخيرهم لأداء المهمة.

بدأ الحفر خلال أسابيع قليلة. أصدر بيطال أوامره بوجوب تجنيد كل فلاح قباردي وبلقاري قادر بدنياً لتنفيذ الواجب. جاء تصميم القناة بحيث يكون طولها خمسة وخمسين ميلاً، كما توجب بناء السد، لبنة إثر لبنة، بعرق العمال. عرف الناس في كل قرية أنهم مطلوبون للعمل لبيطال وأن المشروع سيجلب له المجد، لهم وللإقليم بكامله. انطلقوا في العمل حتى قرابة آخر واحد فيهم

بحماس وعزيمة متوقدة. لأنه إذا نجح المشروع فسوف يعني ذلك مزيداً من الطعام في جوفهم ومكانة اسمى لإقليمهم في تقديرات موسكو. وإذا نظرت موسكو إليهم بعين الرضى فإذن ذلك سيعني أنه سيتبع ذلك مشاريع أخرى كثيرة، مزيد من العمل، مزيد من الاستثمار، والمزيد من الطعام على المائدة.

عام ١٩٢٦، وبينما كانت أولى المعاول تضرب في الأرض، شاع جو من الأمل والتفاؤل خلال المنطقة. فكل شيء ممكن إذا رغب فيه عدد كافٍ من الناس وسخروا أنفسهم لتحقيقه.

عندما جاء الشتاء ولم يكن هناك ما يكفي من المؤن لإطعام العمال بما يكفي، لم يتوقف العمل. أصيب كثير من الفلاحين الطاعنين في السن أو الضعفاء بدنياً بالأمراض نتيجة قلة التغذية وساعات العمل المضنية التي أجبروا خلالها على العمل. مع استمرار المدراء والمشرفين في دفعهم نحو العمل بجهد متعاظم للوفاء بمواعيد الاستحقاق التي وضعها لهم بيطال، صار الأمر يبدو أكثر شبهاً بالعبودية.

كان بيطال يزور مواقع العمل في كل أسبوع، يدفع العمال إلى بذل المزيد من الجهد في مزيج من المداعبة والترهيب. في إحدى زياراته، وجد رجلاً مسناً جالساً، يستريح إلى جانب نار صغيرة، كان قد أشعلها لنفسه، أثناء مرور بيطال وجماعته. بدأ المدراء، المتلهفين على كسب إعجاب مستخدمهم المرهوب الجانب، بالصراخ على الرجل ودفعه لمعاودة الحفر مرة أخرى. بينما أخذ الرجل يتحامل على نفسه للنهوض على قدميه ورفع معوله، صفق له بيطال بحرارة، وهو يصرخ ليسمع كل شخص في مدى السمع

"هذا الرجل بطل حقيقي من أبطال الحزب. إنه يرغب في العمل: رغم أن ظهره يؤلمه وعظامه قد أخذت تهزل وتضعف مع كبر سنه وسنوات العمل الشاق. إنه يعلم أننا إذا بذلنا جهداً واحداً أخيراً فسوف نحرر أنفسنا من الجوع والفقر".

رفع العديد من العمال الذين في مجال السمع رؤوسهم عن عملهم وانضموا إلى بيطال في التصفيق للرجل العجوز. فأخذ الرجل يحفر بهمة ونشاط يعادلان ضعفي سرعة الناس الذين يحيطون به، رغم أن العديد منهم كان في نصف عمره، نتيجة التشجيع الذي دفعه إلى بذل المزيد من الجهد. وقف بيطال يراقب للحظة بابتسامة مشرقة. ثم رأى الرجل وقد تجمدت قسمات وجهه في اندفاعة ألم رهيبة وذهبت يده لتمسك بصدره. استمر بيطال في طريقه بلباقة. استطاع العامل المسن أن يبقى واقفاً لبضع ثوان قبل أن تصبح الآلام في صدره أشد من أن تسمح له بالتنفس للحظة أخرى. تهاوى إلى الثلج عندما توقف قلبه عن الخفقان. أكمل بيطال جولته بدون أن يستدير باتجاهه، وحمل زملاء الرجل المتوفى من الفلاحين –العمال جثته بعيداً لتدفن إلى جانب ضحايا المشروع الآخرين. أدرك الجميع أنه إذا كان ثمة أمر عظيم ينبغي تحقيقه، فسيكون هناك دائماً ثمن يتوجب دفعه.

***

الفصل السابع والثلاثون

القباردا

في اليوم الأول من أيار عام 1930، أشرقت الشمس الساطعة على بيطال وإنجازه المجيد. اختيرت بلده جولوفنوي لتكون موقع الافتتاح الرسمي لنظام الري الجديد.

خلال الأشهر الأخيرة، دفع العمال بقوة لإنجاز أعمال تكاد تكون غير إنسانية في طول التحمل حتى يكون كل شيء جاهزاً لدى وصول أعضاء مهمين من الحزب من موسكو. التمعت البلدة وكأنها دبوس جديد، وقد تجهزت لاستقبال قافلة السيارات، التي تحمل القادة العظام إلى الإقليم لمعاينة إنجاز العمل العظيم.

وصل بيطال قبل وصول الوفد القادم من موسكو، يبتسم ممتلئاً بالفخار ويصافح كل شخص يتم تقديمه إليه. لم يذكر أحد عدد الأشخاص الذين ماتوا في سبيل أن يجعلوا هذا اليوم ممكناً، فقد كان كل منهم يريد أن ينسى الكلفة وينظر إلى الأمام باتجاه المنافع، التي ستندفع حتماً نحو الإقليم.

وصل رتل السيارات القادم من موسكو وبدأ يفرغ الوجهاء والأعيان في الشارع. صعب على الفلاحين الذين يراقبون معرفة الرجل الأقوى من بين الرجال المختلفين الذين ترجلوا من السيارات، عابسين، إلى حيث كانت الشمس أكثر تسلطاً. هذا إلى أن خرج أندرييف من سيارته، وتحلق كل الآخرين حوله، ليوصلوه إلى بيطال الواقف، ينتظر.

قال أندرييف "هذا يوم عظيم لك، يا بيطال"، وهو يشد على يد البطل المحلي ويعانقه بحرارة.

"لا بد وأنك فخور بشعبك".

أجابه بيطال "لقد كنت على الدوام فخوراً بشعبي، أيها الرفيق، فهم، بوجود القيادة الملائمة، قادرون على تحقيق أي شيء"

هدر صوت أندرييف "أستطيع أن أرى أنه توفرت لهم القيادة الملائمة. لقد أديت أكثر مما نثق بقدرتك على أدائه، يا بيطال. لو كان لدينا عشرين رجلاً مثلك في الاتحاد، لكنا استولينا على العالم حتى الآن".

ضحك الجميع بأدب على نكتة الرجل القوي. أضاء وجه بيطال بالفخر. رافق رسميي الحزب إلى المنصة التي سيراقبون من فوقها افتتاح نظام الري، وقام كل منهم بإلقاء خطبة رسمية أشعرت الحضور بأنها تأخذ وقتاً طويلاً جداً لكنها لم تترك مجالاً للشك لدى أحد منهم بوجوب الافتخار بأنفسهم في ذلك اليوم. بعد ذلك عزفت الفرق الموسيقية ألحانها في الشوارع ورقص الناس وأكلوا وشربوا حد الشبع. كان كل منهم يعتقد أن الأيام المظلمة قد ولت أخيراً وأن بلادهم تسير اليوم إلى الأمام باتجاه الرفاهية. فقد استحقوا مكانهم تحت أشعة الشمس وكانوا ينوون الاستمتاع به.

قال أندرييف لبيطال "ستكافأ على هذا الإنجاز بشكل طيب" بطريقة سرية أثناء تناولهما طعام الغذاء الذي أولم للزائرين. "سوف تحصل على وسام لينين على تمكنك من إلهام الناس بهذه الطريقة وعلى مساعدتك العظيمة للقضية".

أصبح بمقدور بيطال أن يتخيل مستقبله كاملاً في هذه اللحظة. طريق من المجد لكامل المسافة نحو موسكو. إعتقد أنه اقترب من الانفجار لشدة سعادته.

***

قذف بيطال القصعة عبر الغرفة وقد انفجرت أعصابه. تحطمت إلى ألف قطعة على الجدار بينما هو يزأر مثل ثور جريح. أصيبت أنتونينا بصدمة. إذ لم تكن قد شهدت مثل هذا العرض منه طيلة أشهر. فمنذ افتتاح مشروع الري قبل حوالي سنة وهو يتلقى

المدائح وكلمات الإطراء. وقد كتبت كل صحيفة في البلاد مقالات مضيئة حول مهاراته القيادية والإلهام الذي جلبه إلى شعب إقليمه.

بمجرد أن أصبح لدى الأرشيف بضع مقالات تصنفه على أنه بطل رسمي للحزب، أعادت الصحف طباعتها وكأنها حقيقة راسخة. فقد أصبح أحد الأشخاص المسؤولين عن تأسيس الشيوعية بنجاح في المنطقة وامتدح تطبيقه لسياسات العمل الجماعي في المزارع بوصفه عملاً لشخص نابغة.

سألته "ما الذي يزعجك إلى هذا الحد؟" وقد ظلت على مسافة آمنة منه إلى أن تتمكن من تحديد ما إذا كانت هي التي أغضبته، أم أناتولي، أم أحد الأبناء الصغار.

تلعثم قائلاً "منذ سنة وأنا أنتظر التكريم، ولا شيء. أنا رجل منسي. لقد غيروا رأيهم في موسكو وأصبحت من غير المقربين."

احتارت أنتونينا بشكل جدي من سخطه على طريقة سير الأمور "كيف يمكنك أن تقول شيئاً كهذا؟ فحتى ماكسيم غوركي سماك" رجل قباردي حكيم "وكل صحيفة ومجلة تحمل المدائح عن إنجازاتك. فكيف تستطيع أن تقول أنهم يتجاهلونك؟"

ضحك بيطال بسخرية فشعرت بالخوف. فقد كان يحتوي على قدر هائل من القسوة عندما يكون بهذه الحالة، قال لها "أيتها المرأة الغبية. حتى ماكسيم غوركي لا يكتب إلا ما يمليه عليه الحزب. كان يجب أن أمنح وسام لينين. ذلك ما وعدوني به، لكنهم بدلوا رأيهم. إن الوسام هو الشيء الوحيد الذي ينطوي على وزن حقيقي. لأن مقالات الصحف سوف تستعمل في إيقاد النار بعد طباعتها ببضعة أيام. يمكنهم أن يقولوا إنني حاكم روسيا ولن يعني ذلك شيئاً للناس بعد بضعة شهور".

"أنا واثقة من أنك غير منسي. أنت فقط شديد التعجل".

غامرت بالاقتراب منه ومسَّدت جبينه لتهدئة مزاجه. "أنت واحد من أنجح الرجال في الاتحاد السوفييتي. ستكون السلطة من نصيبك".

دفع بيطال يدها بعيداً وكأنها ذبابة مزعجة. نهض واقفاً واندفع ماراً بها ليخرج من الغرفة. فهي لم تفهمه، ولديه مسائل أكثر أهمية بكثير من التعامل مع امرأة غبية. تُركت أنتونينا مغضبة ثم أحست بأنها مرفوضة. تمالكت نفسها وسحبت نفساً عميقاً. فمن غير الحكمة أن تكتئب.

بعد بضعة أيام، كانت أنتونينا تشرب الشاي مع صديقة لها، إيرينا إيفانوفنا.

"وهكذا يا عزيزتي". قالت إيرينا بعد أن اتخذتا مقعديهما براحة "أخبريني عما يحدث مع ذلك الرجل المثير زوجك".

اعترفت أنتونينا "إنه يحيرني، يا إيرينا. سيظن أي أحد آخر أنه سيكون سعيداً مع كل المدائح التي تكال له".

"تقولين أنه غير سعيد؟" جاءت نبرة أيرينا غير متكلفة.

قال أنتونينا "إنه غاضب، فقد توقع أن يتلقى أعلى تكريم في البلاد؟"

سألت إيرينا "تقصدين وسام لينين؟"

"بالتحديد. إنه متألم. إنه يشعر أنه منسي أو أصبح من غير المقربين."

"أعتقد أن ذلك أمر بعيد الاحتمال جداً. إن الحزب يكافئ أبطاله دوماً وزوجك هو أعظم الأبطال."

"ذلك هو ما أقوله له، لكنه مقتنع بالعكس تماماً".

"قولي له أنه يجب أن لا يقلق. الأمر متعلق ببطء البيروقراطية. إنه بطل وسيتم تكريمه على ذلك الأساس".

تنهدت أنتونينا "أخشى أن لا يصدقني، فهو يعتقد أنني مجرد امرأة حمقاء، زوجة متكبرة لا تستطيع أن ترى الحقيقة".

انتقل الحديث إلى مواضيع أخرى، ولكن بمجرد أن غادرت أنتونينا، أجرت إيرينا مخابرة هاتفية إلى موسكو على الفور. عندما أجابتها بدالة ال كي جي بي، أعطت اسمها الرمزي وطلبت التحدث إلى رئيسها المباشر.

قال بمجرد أن أعطيت الخط "لقد تناولت الشاي لتوي مع الزوجة. موضوع الرقابة تعيس لأنه لم يمنح التشريف الذي وعد به. إنه قلق. لقد طمأنتها إلى أن التأخير مسألة وقت لكنها متشككة. أعتقد أن السلطات يجب أن تكون على دراية بهذا الوضع".

"لقد تلقيت معلوماتك. تابعي مراقبتك للموضوع وزوجته."

صمت الهاتف في يدها فأعادت السماعة إلى مكانها. بعد بضعة أشهر، تلقى بيطال وسام لينين، وتبعه بعد ذلك بوقت قصير وسام الراية الحمراء والعمل.

أغاظته أنتونينا مداعبة بينما هو يحتضنها فرحاً قائلة "أرأيت؟ لقد قلت لك أن الحزب لا يمكن أن ينساك. أنت رجل عظيم، يا زوجي، ولن يقف الآن شيء في طريق تقدمك نحو الذروة".

"أعرف ذلك يا عزيزتي" قال ضاحكاً "أعرف".

أثناء الاحتفال بتقليده الوسام الأول، أخذ جورياكين بيطال إلى ناحية لتناول كأس من الشراب. "أنا فخور بك جداً، يا صديقي" قال له "إنهم ينظرون إليك بإعجاب شديد ومنزلة رفيعة في موسكو. إن الطريقة التي نظمت بها حياتك كلها هي مثال يفترض بالكثيرين جداً أن يحتذوه".

أجابه بيطال "أشكرك أيها الرفيق" وقد أصابه قدر ضئيل من الحيرة على هذا الاندفاع من المديح" إنني أحاول أن أحيا بشرف وأعمل بجهد دؤوب".

"أنت تفعل ذلك حقاً. يجب عليك أن تتعمد تشجيع الآخرين أن يتشبهوا بك أكثر فأكثر. زواجك، على سبيل المثال".

فكر بيطال لثانية. بات يتعجب مما إذا كان هذا تهديداً مبطناً. فهل كان جورياكين يحذره من أنه يعرف عن زواج أنتونينا السابق ولم يوافق عليه كلياً؟ فسأل "زواجي؟"

"يجب أن يكون مثالاً يحتذى لجميع أفراد الحزب في قبارديو بلقاريا. إن الزيجات المختلطة بين رجال القباردي والنساء الروسيات يتوافق كلياً مع روح الدولة السوفييتية الجديدة حيث نرى كل الناس سواسية وبنفس القدر".

"لا يمكن أن يكون هناك مجال بعد الآن للاختلافات العرقية والثقافية التي تبعدنا عن بعضنا وتضع الرفيق في مواجهة الرفيق الآخر. هنالك ثقافة واحدة اليوم، وهي الثقافة السوفييتية، وشعب واحد، هو الشعب السوفييتي. إن خلط الدماء يؤدي إلى تقوية الاتحاد. "وضربه على ظهره بمرح وتحبب "لكنك تعرف كل ذلك. لست مضطراً لأن أقوله لك. يجب أن نقوم بنشر هذه الأفكار لدى أولئك الذين يمتلكون بصيرتك ويحتاجون إلى أن يفسر المستقبل لهم. فهل توافقني؟"

"بشكل مطلق" تنفخت أوداج بيطال تيهاً وفخاراً وصمم على الانطلاق في مهمة لنشر المبدأ بمجرد عودته إلى نالتشك.

لم ينقطع عن التفكير في كلمات جورياكين طيلة رحلة عودته، وطلب عقد اجتماع لطاقم موظفيه فور وصوله. حضر كل فرد منهم. فليس الوزير بيطال شخصاً يمكن تجاهله، إلا إذا كنت راغباً في فقدان وظيفتك وحتى، ربما فقدان حريتك.

ابتسم لهم جميعاً مثل أب فخور "يا أصدقائي" استرخى بعضهم، وهم يشعرون أنه ما دام قائدهم في مثل هذا المزاج الطيب، فسوف يسير الاجتماع بيسر وسهولة ولن يقع أحد منهم في أية متاعب. "إنهم مسرورين منا في موسكو. لقد تم تشريفكم كلكم

عندما تم تشريفي". صفق لهم فتحركوا في أمكنتهم بإحراج. لم يكن أحد متأكداً من أسلوب رد الفعل. فصفقوا له بحكم العادة. "يجب أن نستمر في العمل باتجاه المصير العظيم الذي ينتظر الاتحاد السوفييتي بكل طريقة ممكنة. يجب عليكم جميعاً أن تراقبوا قادتكم وتتبعوا المثال الذي يطرحونه".

بدأ يثرثر حول المستقبل المجيد، الذي سوف يستمتع به شعوب الاتحاد السوفييتي عندما يصبحون متجانسين أكثر فأكثر. كان بعض موظفيه يجدون صعوبة في التركيز، رغم أن أحداً منهم لم يكن راغباً في جعل بيطال يرى أن انتباههم قد أخذ يتشتت.

قال "الزواج المختلط" فعاد أولئك الذين كانوا يمارسون أحلام اليقظة إلى واقعهم بصدمة. "كما تعرفون كلكم. فأنا متزوج من امرأة روسية، وتلك هي طريق التقدم بالنسبة إلى الدولة. لا يمكن لرجل أن يتوقع أن تتم ترقيته إلى مركز مسؤولية إلا إذا كان متزوجاً من امرأة روسية. يجب أن نفكر في المستقبل، في تحطيم الحواجز وخلط الفروقات الإثنية حتى نصبح شعباً واحداً، موحدين في كل ما نفعله. يجب أن نجتث كل الانقسامات العرقية لأجل الصالح العام".

"يفترض في النساء القبارديات أن يتزوجن رجالاً روس بنفس الطريقة. يجب أن نشجع أخواتنا وبناتنا على القيام بالعمل الصائب، على المساعدة في النضال للقضاء على القبلية. يجب أن تختلط الدماء الروسية والقفقاسية إلى درجة من الكمال بحيث لا تبقى أية حاجة على الإطلاق إلى فصل مصالحنا المشتركة عن بعضها. فنحن جميعاً الآن مواطنون سوفييت".

كان بعض الموظفين يحدقون فيه بنظرات ملؤها الدهشة الحيرى. والبعض الآخر يحدق في الأرضية، إذ لم يكونوا يثقون بالنظر في عينيه، مخافة أن يتحداهم شخصياً بطريقة أو بأخرى.

مراد الدين شاب ينتظره مستقبل مشرق. على الرغم من إعجابه الشديد وانبهاره، مثل أي شخص آخر، إلا أنه كان رجلاً واثقاً بنفسه ويحمل أراءً قوية خاصة به.

قال رافعاً يده "أيها الرفيق السكرتير"

توقف بيطال في منتصف اندفاعة، ولم يظهر عليه السرور. حدق في مراد الدين مكشراً "نعم؟"

"هل تقضي خطتك بالنسبة لعامة الشعب أن يتبعوا أمثالك، أيها الرفيق السكرتير؟ أن يتزوج كل الشراكسة من الروس؟"

تصلب بيطال، وقد داخلته شكوك في أنه ربما يستشف انعدام الرضى في نبرة الشاب. أحسّ جلاوزة الشرطة السرية الموزعين حول الغرفة بانزعاج قائدهم وتحركوا باتجاه مراد الدين بشكل خفي، أيقن أعضاء آخرون في الجهاز الوظيفي أن شيئاً ما قد تغير في الجو العام.

"تلك هي طريق التقدم لنا جميعاً" قال بيطال.

"ولكننا إذا قمنا بخلط دمائنا إلى تلك الدرجة الشمولية، ألا نخاطر بفقدان هويتنا الإثنية إلى الأبد؟ فهل لن يكون لدينا إلا السوفييت بعد خمسين سنة من الآن؟ ألن يبقى قبارديون بعد الآن؟ وهل سينتهي تاريخنا النبيل؟"

قال بيطال بصوت هادئ محمل بالخطورة "مراد الدين، يجب أن نتحدث في هذا الموضوع المثير للاهتمام لوحدنا" طأطأ رأسه، بطريقة تكاد تكون غير ملحوظة، وتحرك أفراد الشرطة السرية باتجاه الشاب. لم يشاهد الخطر قادماً إليه إلا بعد فوات الأوان. ولكن حتى لو أنه انتبه، لما كان بوسعه أن يفعل أي شيء في هذا الصدد. كانت الغرفة ممتلئة بالناس المتعاطفين مع بيطال أو الخائفين منه حد الذعر. فقد كانت السيرة العملية لكل مسؤول في المنطقة مرتبطة بطريقة ما برضى بيطال ونياته الطيبة، وكل

شخص يجادله أو يخالفه مصيره الاختفاء في سيبيريا، أو ربما في قبر غير معلم في أجمة عشبية في مكان ما.

شاهد الجميع عملية القبض على مراد الدين، لكن أحداً لم يجرؤ على الكلام دفاعاً عنه. أخبره أولئك الذين تحدثوا إليه لاحقاً أنه محظوظ لأنه لم يحدث له أكثر من إعفائه من وظيفته.

قال أحد الرجال الأكبر سناً لمراد الدين الشاب "لقد كان بيطال في مزاج طيب" في تلك الليلة عندما التقيا سراً في بيته، الذي اعتقد أنه لم يكن مراقباً. "لو لم يكن يشعر بالأمان في موقعه كبطل للشعب، وسعيداً إلى تلك الدرجة بنفسه وبإنجازاته، لكنت بحلول هذا الوقت ميتاً".

كان مراد الدين ما زال يرتعش بشكل واضح للعيان من تجربته بعد الظهر. "لكنه يحلم بالمثاليات. لقد كان واحداً منا." اعترف بقوله "لا يمكن أن يؤمن حقاً بأننا يجب علينا أن نمزج دماءنا مع الروس إلى درجة شمولية تؤدي إلى اختفائنا".

قال الرجل الأكبر سناً "إنه يؤمن بهذا الأمر في الوقت الحالي. وذلك هو كل ما يهم. هو يعتقد أنه أمَّن مستقبل الاتحاد السوفييتي بزواجه من امرأة روسية. إن عقله لا يعمل إلا في اتجاه واحد. وهو لذلك يعتقد أننا يجب أن نفعل مثله كلنا".

"أو ربما أنه مجرد مطيع لسياسة ستالين في المزيد من ترويس القوميات الأخرى"

وضعت زوجة الرجل المسن قصعة الحساء بقوة على الطاولة أمامه. "وهل سيفعل ذلك حقاً؟" سألت باستهجان "وماذا بالضبط، تنوون أن تفعلوا إزاء ذلك؟ هل تنوي أن تطلقني لأنني قباردية، وتتخذ من روسية شابة في سن الزواج زوجة لك؟ أم هل سيتم دفني في أحد الحقول المجهولة بحلول نهاية هذا الأسبوع؟ كيف تنوي أن ترضي قائدنا العظيم في هذه المسألة؟:

ضحك الرجل المسن، لكن مراد الدين نظر إليه مستفهما "لقد أثارت زوجتك مسألة مهمة. فهل ستقوموا أنتم الرجال المتزوجون بالتبديل إلى زوجات روسيات من أجل إرضاء بيطال؟"

غمغم الرجل المسن قائلاً "إذا استمرت في طبخ الحساء بهذه الدرجة من السوء" بعد أن تناول رشفة من قصعة السائل البني "فربما يتم إغرائي للقيام بذلك". ابتسم، ليظهر أنه إنما يمزح، وبعدها رفع عينيه باتجاه السقف. إذ لم تكن لديه أية فكرة عما سيطلبه منه بيطال في الأشهر أو السنوات القادمة. ربَّت على يد زوجته في محاولة لتهدئتها، لكن صمتاً مربكاً خيم على الغرفة الصغيرة.

***

الفصل الثامن والثلاثون

شرق الأردن

تصعب على الإنسان المعيشة بين أعدائه. بقي أدهم الشركسي مع اليونانيين عدة أشهر وأحسنوا معاملته. فقد كان، في نهاية الأمر بطلاً، ولو أنه من بلاد أخرى، وقد منحهم استسلامه شعوراً بالفخار. تحدث إليه كثير من الرجال الذين قابلهم وكأن من المحتمل، عندما يأزف الوقت الملائم، أن يقوم بدور يتناسب مع مواهبه في اليونان. ومع أنه لم يكن جلفاً أبداً بالقدر الذي يجعله يخبر مضيفيه، إلا أنه ظل يدرك في قرارة نفسه أنه لن يفعل ذلك. ظل يحن إلى أن يحل بين بني قومه مرة أخرى.

تحدث مع توفيق مطولاً عن الكيفية التي سيقضيان بها بقية حياتيهما. أصغيا إلى كل شخص جلب معه حكايات عن بلدان أخرى، محاولاً أن يؤكد أين يمكنهما أن يجدا وطناً يمكنهما فيه أن يعيشا بسعادة وأن يكونا فيه مفيدين لزملائهما. وكل من سافر إلى ألمانيا، عاد بقصص عن الرجل النمساوي الصغير الحجم، الذي كان يخطط لإعادة ألمانيا إلى موقعها المناسب على المسرح العالمي. فقد كان أدولف هتلر يتكلم كرجل لديه مصير عظيم أمامه.

قرر الشقيقان السفر إلى ألمانيا ليشاهدا بنفسهما ما يحدث هناك. وجدا أن سمعتهما قد سبقتهما واستقبلتهما الطبقة الراقية الجديدة في ألمانيا بالترحيب. فقد ظهر أن المسؤولين يعتقدون أن أدهم ما زال قائداً محتملاً لتركيا، وهو انطباع لم يتعب نفسه باستبعاده. ظهر أنهم يفكرون في أنهم إذا أحسنوا معاملته فسوف يكون بإمكانهم تشكيل تحالف معه لأجل المستقبل.

تأثر كل من أدهم وشقيقه بالطريقة التي كانت ترفع فيها معنويات الناس والطريقة التي كانت البلاد تتحرك فيها إلى الأمام، لكنهما أدركا أنهما لم يعثرا على المكان الذي يمكنهما أن يستقرا فيه في منفاهما.

قال أدهم لتوفيق في إحدى الأمسيات بينما هما جالسين يحتسيان الجعة، بعد عشاء بصحبة كبار ضباط الجيش "إن رأيي هو أنه لا يوجد رجل يمكن أن يكون سعيداً حقاً وهو يعيش بعيداً عن بني جلدته".

قال توفيق "إذن يجب علينا أن نبدأ بالتخطيط لعودتك إلى تركيا" وهي نظرية ظل يعود إليها مراراً.

"كلا، ستكون تلك كارثة في الوقت الحالي. لأن إينونو سيعمل جاهداً على أن تتم محاكمتي بتهمة الخيانة. نحن بحاجة إلى الذهاب إلى مكان يوجد فيه استيطان كبير للشراكسة، ولكن خارج حدود تركيا".

اقترح توفيق "وما رأيك بعمان في شرق الأردن؟" وهو يدرك أنه يتوجب عليه أن يبقي آراءه لصالح العودة إلى تركيا في يوم من الأيام. "لقد سمعت عن كونها تتحول إلى مركز نشاط لكل المنطقة. فقد أقام الأمير عبد الله بلاطه هناك والجيش ينمو. من المحتم أن يكون لنا دور نؤديه هناك".

"لست متأكداً من أنني أريد دوراً. أي مكان أستطيع فيه أن استقر لتقاعد هادئ سيكون كافياً". قال أدهم.

"إذن ستكون عمان مثالية. هناك أراض للفلاحة، وهناك العديد من الناس الذين سيكرمونك. لدينا أقارب من الشابسوغ في عمان. أن عائلة خورما تعيش هناك حالياً، وسوف يكونوا في منتهى السعادة لاستقبالك في بيتهم".

استقر رأيهما خلال أيام قليلة وغادرا ألمانيا باتجاه شرق الأردن. وكما توقع توفيق، فقد شعرت عائلة خورما بتشريف عميق بأن أدهم قد اختارهم لطلب المساعدة على الاستقرار لبقية حياته. استضافوا الشقيقين في بيتهم وعاملوهما كعضوين مكرمين من العائلة. تم تعريفهما على كل الناس الذين لهم نفوذ في المنطقة، وأعطيا مكاناً يوفر لهما الخصوصية ليعيشا فيه.

بمجرد أن استقرا، أجرى توفيق الاتصالات مع جميع مناصري أدهم في أنقره، وأخبرهم عن مكان وجودهما، وطلب منهم آخر الأخبار. فهو لم يستطع أن يؤمن في قرارة نفسه بأن حياتهما في القتال قد انتهت، وبأنهما سيجلسان في الظلال حتى يصبحا رجلين عجوزين.

ظل يحاول، في كل مساء، أن يقنع أخاه بواسطة خبر جديد، أن الوقت ملائم للعودة إلى تركيا.

إذ ظل يقول "سوف تفاجأ بمقدار الدعم الذي ستحصل عليه في البرلمان التركي. سوف تعطى منصباً مهماً بدون شك".

"الاحتمال الأكبر هو أنني سأشنق من أول شجرة ليستطيع إينونو أن يعثر عليها، أو يطلق الرصاص على ظهري أثناء تبولي في أحد المقاهي".

استمر توفيق في القول "هناك حرب أخرى تلوح في الأفق، يا أخي، وعندما يحدث ذلك، فسوف يتغير كل شيء. إن زمنك لم ينته بعد".

كانت الحياة في عمان رغيدة وسعيدة بالنسبة لأدهم، لكنه في قرارة نفسه، والتي لم تكن على الدوام مفتوحة لشقيقه، خشية العواقب، ظل يحن إلى عائلته المباشرة وأصدقائه الذين بقوا في تركيا. فكان يقول لنفسه عندما يشعر بأنياب الحنين إلى الوطن تنهشه، أن يتوقف عن التصرف مثل الصبيان. لأن عمان هي المستقر ويجب عليه أن يبدأ بالتفكير فيها على أساس الوطن. ظل

يستمتع، مثل توفيق، بسماع القصص من المسافرين، وعندما حضر المغامر الكردي، إبراهيم بوز، إلى عتبة بيتهما، أصغى أدهم بشوق غامر إلى جميع الأنباء.

قال بوز بحماس بالغ "لقد قويت شوكة الأكراد في الجنوب هذه الأيام. سوف نكون قادرين على منحك كل الحماية التي تحتاجها يا أدهم، إذا قررت أن تجيء إلى المقاطعات الجنوبية. فقد سرت شائعات مفادها أنه ستقوم ثورة مضادة بمجرد أن تندلع الحرب وهي سوف تندلع حتماً، في أي يوم الآن".

ابتسم أدهم، غارقاً في التفكير "أنك تصور الأمر بطريقة مغرية جداً، يا إبراهيم. وأنا لن أدعي أنني لا أحب أن أعود إلى الجنوب لأكون قريباً من أهلي".

حثه بوز بقوله "إبدأ بتحضير خططك منذ الآن. ستكون القبائل الكردية سعيدة بتقديم الحماية لك. ستكون تلك بداية عودتك إلى استلام السلطة".

"كلا" وضرب أدهم بقبضته على الطاولة، مما جعل بوز وتوفيق يقفزان . "ليست بي رغبة للعودة إلى السلطة وعليك أن تحمي أحلامك عن هذه السخافة من عقلك. أنت سيء مثله" وأشار إلى شقيقه.

"كل ما أريده هو أن أكون قريباً من عائلتي وأصدقائي. بعد أن أصل إلى كايسري ربما أستطيع أن أساوم من موقع قوة لإنقاذ نفسي من المحاكمة والإعدام".

مع تقدم الوقت في الليل، بدأ الرجال الثلاثة يرسمون للخطط لمغادرة عمان سراً. فقد عرفوا أن الإنجليز لن يرغبوا بعودة أدهم إلى تركيا وأنهم سوف يسجنوه إذا تولدت لديهم فكرة عن خططه. بعد مجرد يومين اندلعت الحرب أخيراً وتسلم الحلفاء زمام السيطرة على الحدود الأردنية والحدود السورية.

ظل بوز يحثهما على المغادرة فور سماعه الأخبار "إذا كنتما راغبين في المغادرة، فيجب أن نغادر الآن. سيصبح التشديد الأمني أكثر فأكثر مع قدوم المزيد من الجنود إلى المنطقة. حالياً لا تزال الفوضى تعم في كل مكان بينما يقوم الجنرالات بمحاولة الاستيلاء على المركز. يجب أن نستغل ذلك الوضع ونتحرك بسرعة".

غادروا عمان في تلك الليلة تحت الظلام الساكن للساعات الباكرة وبدأوا يتحركون باتجاه الشمال سراً، وقد غطوا رؤوسهم بالغترات العربية ووضعوا أيديهم على أسلحتهم جاهزين للقتال عند أول بادرة.

بحلول ما بعد ظهر اليوم التالي، وصلت أنباء اختفائهم إلى العقيد جلوب، الضابط البريطاني المسؤول عن قوات الأمن الأردنية بالإضافة إلى وحدة دوريات الحدود الجديدة التي ساعد في تشكيلها.

كان البريطانيون مدركين لتحركات أدهم، رغم أنهم لم يكونوا يراقبونه. ولذلك فإن اكتشاف غيابه كان أمراً محتوماً. أمر جلوب جميع دوريات الحدود على الفور بالبحث عن مجموعة من ثلاثة أشخاص وأرسل البرقيات إلى الحدود السورية –التركية حتى تتنبه إلى وجودهم. أثناء توجههم إلى الشمال، كانت الرسالة تنتشر أمامهم.

عندما أبصروا الحدود السورية توقفوا وأخذوا يراقبون تحركات الجنود لفترة. أصبح بمقدورهم أن يروا وجود نشاط زائد عن العادي.

قال أدهم للآخرين "سوف نضطر إلى محاولة عبور الحدود تحت ستار الظلام. نحن مضطرون إلى الانتظار".

اختبأوا حتى هبط الليل وران الصمت على حراس الحدود. ثم تحركوا مشياً على الأقدام، وقد أنحنوا والتزموا الصمت أثناء اقترابهم من الأسيجة. أول ما تناهى إلى أسماعهم هو صوت خرطشة السلاح، متبوعاً بالصراخ والأضواء المبهرة بينما قام

الحراس بإشعال الأنوار الكشافة وتسليطها على الرجال الثلاثة. توقفوا مثل الأرانب تحت مرمى بنادق الصيادين. لم يكن هناك من مفر لهم ولا شيء يمكنهم قوله. خرج ضابط متمشياً نحوهم وطلب رؤية أوراقهم الثبوتية.

أعيدوا في اليوم التالي إلى عمان وأودعوا السجن. أحضر الطعام لهم، واحتفظ الثلاثة بالصمت بينما هم يفكرون في وضعهم. في المساء التالي أخبر توفيق وبوز أنهما حرين في المغادرة.

قال توفيق "لن أغادر بدون شقيقي، سأذهب حيث يذهب، وسأبقى حيث يبقى" وبقي جالساً على أرضية الزنزانة.

أمره أدهم "إذهب، يا توفيق. لا أريد أن أكون مسؤولاً عنك بالإضافة إلى نفسي".

جادله توفيق لساعات طويلة، ولكن، انتصر منطق أدهم وأقنعه بالمغادرة، بعد أن وعده بالاتصال به بمجرد أن يمكنه ذلك. في ذلك المساء، تمت مرافقة أدهم من الزنزانة لمقابلة العقيد جلوب شخصياً. في نفس الوقت كان توفيق جالساً في حضرة الأمير عبد الله. فقد استدعى الأمير توفيق للحضور إليه واستمع إلى حكايته.

نهض العقيد جلوب احتراماً عندما حضر أدهم أمامه. شعر بقدر عظيم من التعاطف مع رجل من مقامه، وجد نفسه تحت رحمة قوة أجنبية. ولم يستطع أن يتخيل كيف سيتعامل مع الموقف لو كان الوضع معكوساً.

قال العقيد البريطاني "أنا مضطر لأن أخبرك، بأن التعليمات قد صدرت لي من قبل حكومتي بأن أبقيك في السجن طيلة فترة الحرب".

ابتسم أدهم قائلاً "سيحل ذلك مشكلة مكان إقامتي للمستقبل المنظور. فهل سيسمح لي باستقبال الزوار؟"

"طبعاً، سوف تعامل بأقصى درجات الاحترام. لكن ستجري حراستك بشكل مشدد للتأكد من عدم اختفائك تحت جنح الظلام مرة أخرى. أنا لا أريد أن يضطر جنودي إلى قضاء فترة الحرب كلها وهم يطاردونك وشقيقك عبر الصحراء".

في اليوم التالي، تلقى العقيد جلوب تعليمات من الأمير عبد الله بأن يتم إسكان أدهم في كوخ خاص به داخل أسوار سجن المحطة وأن يعامل بمنتهى المجاملة.

مازحه توفيق عندما زاره ووجد الراحة التي كان يعيش وسطها "يبدو لي أنك تقاعدت فعلياً الآن".

وافقه أدهم "يبدو أنه لا خيار لي في هذا، على الأقل لبضع سنوات. بعد أن تنتهي الحرب، ربما تتغير الأمور".

كان زائره الثاني شاب شركسي لم يكن قد تعرف عليه. أعلن له الجندي اليافع: إن اسمي هو عزت، أنا حفيد ناخو، ومركزي هو جناح الفرسان هنا. إنني أنتمي إلى الفيلق العربي المشكل حديثاً تحت قيادة العقيدة جلوب. عندما سمعت أنك مسجون هنا، أردت أن أقدم احترامي واستفسر إن كان هناك أي شيء تحتاج إليه".

قال أدهم "يبدو أن لدي معظم وسائل الراحة التي أحتاج إليها، لكنني أشكرك على أية حال".

أجال عزت بصره في أرجاء الكوخ. كان مصمماً على المساعدة بوسيلة ما. فقد شعر بامتعاض من رؤية رجل شركسي على هذه الدرجة من الامتياز خاضعاً للإقامة الجبرية. فقال "سوف أنظم أمر إرسال الطعام اللائق بكم من مقصف الفرسان، إضافة إلى بعض الملابس والأثاث".

ابتسم أدهم، فقد رأى مقدار تلهف الشاب على أن يكون نافعاً وأدرك أنه يجب أن يتقبل العروض السخية بامتنان. فقال "أشكرك. أنت في غاية الكرم".

"هذا شيء لا يذكر. هل تسمح لي بإبداء اقتراح؟"

"بكل سرور."

"هل تسمح لي بأن أرسل سجيناً شركسياً شاباً للمعيشة معك والعناية بك؟ بإمكانه أن يطبخ لك طعامك ويقضي لك حاجاتك. لا يفترض في رجل من مقامك أن يضطر إلى العناية بنفسه في هذا الظرف."

قال أدهم "إنني أشعر بالإطراء من عرضك هذا. أؤكد لك إنني قادر تماماً على رعاية نفسي. ولكنك إذا كنت تشعر بأن الشاب يمكنه أن يستفيد من صحبة جندي عجوز، فاقترح عليه الفكرة حتماً".

قال عزت "إن اسمه هو أمين، وهو شاب مشاغب دخل السجن وخرج منه مرات عديدة. لكنه شركسي ويراعي "الخابزه". سوف يوقرك على أساس أنك وجيه وكبير السن. سوف أرسله إليك بعد ظهر هذا اليوم".

كما توقع عزت تماماً، حضر إلى الكوخ بعد بضع ساعات، شاب ذو وجه ضحوك وعينين مخادعتين. قدم نفسه على أنه أمين وقال أنه تم إرساله ليكون رفيقه ويخدمه باعتباره وجيهاً.

استفسر أدهم "وهل تشعر أنك ستحب أن تفعل ذلك؟ أنا لا أريدك أن تتولى واجبات قد تكرهها فيما بعد."

قال أمين "طالما أنا موجود هنا. فربما يستحسن أن أكون مفيداً لرجل من بني قومي. وهذه الإقامة أفضل حتماً من تلك التي غادرتها لتوي، ولكن إذا سنحت لي الفرصة بالمغادرة، فأنا لا أعدك بأنني سأكون قادراً على إعطائك فترة إمهال".

انفجر أدهم ضاحكاً. فقد داخله شعور بأنه والشاب سيتفقان على خير ما يرام.

فبدأ يستجوب أمين عن سبب وجوده في السجن.

سأل أدهم "من هي عائلتك أيها الشاب؟"

أجابه أمين "إنني أنتمي إلى عائلة دوغجوقه"

"أنت حتماً تجسد اسم عائلتك "ابن الذئب". لماذا أنت في السجن؟"

اعترف أمين "إنني شوكة في جنوبهم، فقد نسفت سياراتهم وقطعت خطوط اتصالاتهم.

قال أدهم "يجب أن نحاول إقناعك بالعدول عن القيام بذلك".

عاش أدهم وأمين سوية في السجن لسنتين، وأصبحا خلال ذلك الوقت صديقين حميمين. بدأ أدهم، تدريجياً، وعبر الأمسيات الطويلة سوية، يخبر أمين عن حياته. كان أمين قد سمع كل الحكايات حول بطولة الرجل وكان يمانع في السماح لأدهم بأن يستخف بأي من القصص. على أية حال، أصبح أدهم أكثر رغبة في التذكر مع قضائه المزيد من الوقت وهو يفكر في ماضي حياته.

قال "لقد تسببت في الكثير من المصاعب للعديد من الشراكسة الذين تبعوني. وإنني نادم حالياً لكوني عاملتهم بتلك الدرجة من الخشونة، فقد كنت في ذلك الوقت أؤمن بقضية التحرير التي أقاتل من أجلها ولم أكن أستطيع أن أفهم أي شخص لا يشاركني في عواطفي. فكنت إذا ذهبت إلى قرية ما باحثاً عن متطوعين ووجدت الوجهاء غير راضين على التخلي عن أي من شبابهم الأقوياء، كنت اتخذ إجراءات قاسية، أقل من منصفة. فقد كان هؤلاء الرجال يحاولون فقط حماية مجتمعاتهم. يعلم الله أن ظروف معيشتهم كانت صعبة بما يكفي بدون أن أجعلها أصعب".

قال أمين "ما دمت تؤمن بعدالة قضية ما، فأنت مضطر إلى عمل ما بوسعك لتحقيقها. لقد فعلت ما كنت مضطراً إلى فعله".

قال أدهم "من السهل عليك أن تفقد منظورك المنطقي عندما تكون صغير السن. عندما توفيت والدتي لم آخذ إجازة من الحرب للذهاب وحضور جنازتها. لقد بدأت الحرب وانتهت ومن يدري إن كنت قد أحدثت فيها فارقا لو غبت تلك الأيام القليلة. لن تدفن أمي مرة ثانية أبداً، على أية حال، عندما أفكر فيها أعرف أنني خذلتها في ذلك اليوم. ما الذي كنت أقاتل من أجله إن لم يكن من أجل أناس مثل أولئك القرويين وأمي؟ إذا لم أكن قادراً على تكريمهم حين يفترض فيَّ ذلك، فلماذا كنت أقاتل من أجلهم؟ ربما كنت أقاتل من أجل مجدي الشخصي بأكثر مما أردت أن أعترفَ به".

مع انقضاء الساعات الطويلة، بدأ الرجلان يقرآن القرآن الكريم. طلب أدهم من أمين أن يترجم له بعض المفردات العربية.

قال أدهم "لو إنني قرأت هذا الكتاب قبل حرب التحرير. لتصرفت بطريقة مختلفة".

بعد أن ترسخت عرى الصداقة بينهما بطول المدة، طرح أمين على أدهم السؤال الذي ظل يحترق مشتعلاً داخل رأسه "لماذا فررت من الجيش. لماذا سعيت إلى المنفى لدى أعداء بلادك؟"

نظر إليه أدهم لمدة طويلة بدون أن ينبس ببنت شفة، ثم قال بعد لأي "في يوم ما، يا صديقي، ستروى الحقيقة عن تلك الحقبة في حياتي. وعندما يحدث ذلك، سوف يبرأ اسمي ويحترم مرة أخرى. كل ما يتوجب عليك معرفته هو أنني اتخذت قراراً لأنقذ تركيا من الكارثة".

هزَّ أمين رأسه في حيرة، لكنه أدرك أن من الأفضل أن لا يطرح المزيد من الأسئلة.

* * *

الفصل التاسع والثلاثون

القباردا

قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية بخمس سنوات، منحت جمهورية قباردينو بلقاريا وسام لينين على إنتاجيتها الزراعية. وكانت تلك لحظة المجد الأسمى لبيطال.

هدر بسعادة مخاطباً اجتماعاً لأتباعه المخلصين "أرأيتم، إن موسكو بهذا تكرمنا جميعاً. لقد قلت لكم إن هذا إنجاز للشعب كله. إنهم يكرمون كل الذين ضحوا بأرواحهم لجعل هذه الأرض خصبة معطاءة، لكل أولئك الذين عملوا حتى لم تبق لديهم أية قوة حتى يتوفر الكثير لأولادهم وأولاد أولادهم".

صفق كل من في الغرفة، مراقبين من قبل رجال الشرطة السرية ذوي الوجوه القاسية الذين يتواجدون في الصفوف الخلفية عندما يكون بيطال بين الناس. لم يكن هناك شخص واحد يريد أن يتفوه بأية شكوك مفادها أن الإنجاز الوطني كان يستحق كل التضحيات. فما كان أحد ليجرؤ على أن يشتكي قائلاً أنه على الرغم من الآخرين هم الذين كدحوا وقدموا عرقهم وأرواحهم، إلا أن المجد ما زال كما هو واضح يجلس على كتفي بيطال وحده. طأطأ الحضور رؤوسهم موافقين على كل كلمة يقولها، ووافق الجميع على وجوب عمل مناسبة للاحتفال بالجائزة، وأنه يجب دعوة المسؤولين العظام من موسكو لتهنئة الناس الذين جعلوا كل ذلك ممكناً، شخصياً.

قال بيطال، بينما بدأت الخطط تتخذ شكلها داخل رأسه "يجب أن نجعل هذا اليوم، أعظم ما شهده هذا الإقليم، يجب أن نتأكد من أن العالم كله يسمع بانتصارنا، حتى يرغب آخرون في احتذاء نجاحنا".

انتشر النبأ مثل انتشار النار في الهشيم خلال البلدات والقرى بأن يوم المجد لبيطال يقترب. فقد كان الجميع يعلمون أن الحزب يرى فيه الرجل الذي جعل كل شيء ممكناً، وبات أولئك الراغبون في حياة هادئة آمنة، يقبلون بمسايرة الفكرة القائلة أن بيطال بطل الشعب. ولكن كان في كل عائلة قباردية شخص ما قد مات أو اختفى في السنوات القليلة الماضية كنتيجة مباشرة لسخط بيطال. فكان في تلك البيوت الحزينة شخص واحد على الأقل، يجلس في عتمة الليل، يشحذ سكينه، أو ينظف ماسورة سلاحه، ويحلم بأن يتمكن من قتل الرجل الذي تسبب في كل ذلك القدر من الألم والشقاء.

فقد قتلت صعوبة الأحوال التي سادت خلال العمل في مشروع السد والقناة الكثير من العمال الذين أدعى بيطال أن كل شيء يعمل من أجلهم. لكن العائلات المتعلمة هي التي عانت أكثر من غيرها. فكل إنسان شك بيطال في أنه مثقف، كان يقتل أو يرسل إلى سيبيريا.

كانوا في موسكو مدركين جيداً للثمن الذي يدفعه الشعب مقابل إدارة بيطال للإقليم، لكنهم بالمقابل يحصلون على النتائج التي يحتاجون إليها ولذلك ظلوا سعداء في الاستمرار بتكريمه وتشجيع الشعب على الولاء له وأتباعه. فقد كان في الوقت الحاضر أكثر فائدة لهم حياً بكثير من كونه ميتاً، مع أنه كان يوجد الكثير ممن يخشون أن يصل في يوم من الأيام إلى موسكو ويعيش بين نخبة الطبقة الحاكمة.

بعد بضعة أسابيع، أخبر بيطال زوجته أنتونينا "إن الرفيق أينوكيدزه بنفسه قادم إلى نالتشك لتقديم الجائزة، سيكون ذلك شرفاً عظيماً. لأنه إذا جاء فسيحضر معه العديد من شخصيات الحزب المهمة. وسينعكس هذا إيجاباً. إنه رئيس اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي. ولا يستطيع أحد أن يجادل قوة مثل هذه. "فرك يديه ببعضهما بفرح غامر.

ولم يجادل أحد، على الأقل ليس في العلن. ولكن سمعت أصوات كثيرة تغمغم خلف الأبواب المغلقة وفي وقت متأخر من الليل. كانت زوجات الرجال الذين يرفضون المشاركة في الاحتفالات يرجون أزواجهن بأن يعيدوا التفكير. لأنه إذا لاحظ بيطال غياب أي شخص مميز، فهو قمين بأن يعاقبه بطريقة ما، فماذا سيحصل وقتها لعائلاتهم والذين يعتمدون عليهم؟ كان بمقدور معظم الرافضين أن يروا المنطق فيما قالته زوجاتهم لهم. لكن كانت هناك قلة لم يسمح لها إحساسها بالعدالة والإنصاف بالخروج إلى الشوارع مع الجماهير والاحتفال بإنجازات رجل قتل أصدقاءهم.

ولكن على أية حال، بحلول يوم وصول الوفد، كان النبأ قد انتشر وعم، وتعاظم الخوف إلى درجة أن خمسة عشر ألف شخص خرجوا إلى الشوارع لتكريم بيطال ومشاهدة السيارات القادمة من موسكو، تلفظ مسؤوليها المختالين بمشيتهم. فقد كانت أصول العديد من أعظم قادة البلاد، بمن فيهم ستالين، ميكويان وبيريا، تعود إلى القفقاس، وبدا طبيعياً للعديد من المراقبين، أن بيطال سرعان ما سيكون من بينهم: بمثابة إله للملايين.

أقيم مسرح في مركز البلدة، قريباً من بيت السوفييت، فتسلقه بيطال، بين أتباعه، حتى يستطيع الحشد أن يراه ويسمعه بوضوح. غلبته العاطفة وهو يدير بصره بين الوجوه المحيطة به. فقد بقي العديد منهم إلى جانبه منذ الأيام التي كانوا فيها فتية صغاراً، يشكلون جماعات إغارة، يسرقون الجياد ويهاجمون ملاّك الأراضي. والآن تغير كل شيء وأصبح هو الرجل الأقوى في الإقليم. أحسَّ بدفقة من الكبرياء جعلته يتيه غروراً.

تمشى بينهم، يصافحهم بالأيدي ويعانقهم بينما كانت الجماهير تهتف وتراقب. وزعت كؤوس الفودكا ورفعت الأنخاب تحية للرجل العظيم، للزوار الأقوياء ولستالين وللجمهورية السوفييتية المجيدة.

هدر الجمهور موافقاً ومؤيداً في كل مرة أصبح فيها أحد المسؤولين مرئياً بالنسبة لهم. تقدم أصدقاء بيطال ورفعوا أيديهم لتهدئة الناس. صمت الحشد وأصبح في حالة توقع. بدأوا يشكرون المسؤولين الحزبيين الواحد تلو الآخر على تشريفهم بالزيارة ثم بدأوا يروون الحكايات عن صديقهم وقائدهم. تحدثوا عن إنجازاته العظيمة وعن الرخاء الذي جلبه إلى الإقليم، وعن مهاراته النضالية ورؤاه.

بينما توالت الخطب، تحرك أفراد الشرطة السرية التابعة لبيطال بين الحشود، يسجلون ملاحظات عن الناس الذين أخفقوا في الحضور لتكريم الرجل العظيم. بمجرد انتهاء الاحتفالات، سيتم تمرير القائمة إلى بيطال وسوف يقرر هو العقوبات العادلة لهؤلاء الخونة. سيرسل معظمهم إلى سيبيريا وسوف تصادر ممتلكاتهم.

بعد أن توقف أصدقاؤه عن الكلام، تقدم بيطال إلى الأمام، باسطاً ذراعيه لتلقي التصفيق الذي شعر حقيقة أنه له وحده.

"أيها الرفاق، هذا يوم عظيم لكم جميعاً. فقد منحتم اليوم أعظم تكريم يمكن أن يكتسب، وأنتم تستحقونه فعلاً. لقد عملتم بكل قواكم، ويجب علينا أن نخصص بعض اللحظات لنتذكر أولئك الذين أعطوا الكثير جداً من أنفسهم لأجلنا، حتى أن بعضهم قدموا أرواحهم فداءً لنا".

خلال الصمت الذي ساد تالياً، أخرج من جيبه وثيقة وبدأ يفتحها بحركة مسرحية مبالغ فيها.

قال بعد فاصل طويل من الصمت "هذه، هي رسالة إليكم جميعاً، من قائدنا العظيم، ستالين: يا شعب قباردينو بلقاريا. اليوم تمنحون أعظم شرف في البلاد. لا بد وأنكم فخورون بالعمل الذي قمتم به للمساعدة على نمو الجمهوريات السوفييتية. تهاني لكم جميعاً. ستالين".

في اللحظة التي انتهى فيها من القراءة، أطلق الجمهور عاصفة هائلة من التصفيق وقام رجال الشرطة السرية بزم عيونهم وتفحص الوجوه، باحثين عن أي شخص يبدو عليه أنه يخالف الحالة النفسية العامة من الابتهاج وارتفاع المعنويات. لم يجرؤ أحد في تلك اللحظة على الجهر بما يعتمل في قلبه أو قلبها. لم يكن هناك العديد ممن لم يسمعوا عن الثلاثمئة قباردي الذين قام بإعدامهم قبل بضعة شهور، وبدون محاكمة. حتى أقرباء أولئك الذين قتلهم بيطال، رفعوا كؤوسهم وهتفوا. كان هناك العديد ممن يفكرون، أثناء هتافهم لكلمات ستالين، أن هناك قدراً كبيراً مشتركاً بين الرجل الذي يصفقون له وبين الرجل الذي يحكم الاتحاد السوفييتي برمته.

***

الفصل الأربعون

شرق الأردن

تحلق الرجال حول الحفرة في الأرض، التي توشك أن تبتلع جثة ناخو. كان الحشد كبيراً، معظمه من الرجال كبار السن برؤوس محنية وأعين بللها الدمع. تدفقت مياه السيل إلى جوار المقبرة الشركسية في حي المهاجرين بينما كان الإمام يرتل آيات من القرآن الكريم. ارتفع صوته وانخفض، مشكلاً أنشودة رثاء حزينة في الجو الحار، بينما كان الجثمان الملتف بالقماش يوارى الثرى.

وقف عزت إلى جانب أبيه، وقد وصل لتوه من مقر عمله الجديد في فلسطين، وهو يحس بقلبه يكاد ينفطر. فقد ظل جده يشكل حلقة اتصاله بالماضي، والرجل الذي كان يحمل له الوقت بلا حدود والصبر بلا نهاية. وارى عينيه عن الجثمان، مخافة أن ينهار كلياً إذا لم يشغل نفسه عما يجري. ظل يحدق أمامه مباشرة، متجنباً وجوه الرجال الآخرين.

بعد أن استقر جسد ناخو في قعر القبر، تقدم أحد الوجهاء المسنين وبدأ يتلو مرثيته. جاء صوته مشروخاً من شدة التأثر واضطر إلى التوقف عدة مرات حتى يستعيد السيطرة على نفسه. قال "لقد كان المرشد والحامي للعديد من الموجودين هنا اليوم، فعندما طُردنا من بيوتنا في التيريك، خائفين وضائعين ومرتبكين، دلنا على الطريق إلى الأمام. لم يكن هناك أي شيء يشكل له تحدياً أكبر من أن يقبل. كان كثير منا سيتخلى عن الاستمرار في الرحلة التي ستلي، لكنه واسانا عندما كنا بحاجة إلى المواساة، وشجعنا عندما كنا بحاجة إلى التشجيع.

عندما وصلنا إلى استنبول، كنا مجموعة من اللاجئين المتكومين على بعضنا. لم يكن لدينا أي مأوى في المدينة العظيمة ولم نكن نعرف أي شخص نتجه إليه طلباً للعون. لكن ناخو ذهب إلى العثمانيين وخاطبهم كندٍّ لهم وحصل لنا على أراضٍ نعتاش منها، ولم يطلب أي شيء لنفسه أو لعائلته مطلقاً.

"جئنا إلى عمان، هنا، بدونه، ولكنه عندما جاء لينضم إلينا بعد سنوات عديدة لاحقة، اشترى الأرض لنفسه وعاش بيننا كواحد منا. لم تكن لديه أية إدعاءات ولم يتفاخر أو يتباهى. لكن لم يكن بيننا من لم يعرف أنه لا يزال قائد مجتمعنا".

"آه يا ناخو، يا أخي" شهق الرجل وقد أعياه التنفس، وبدا للحظة وكأنه قد لا يتمكن من الاستمرار.

"آه يا ناخو يا ابن القباردا، لقد كنت شاهداً على العديد من المصائب التي تعرض لها وعانى منها شعبنا، لكنك لم تتخلى أبداً عن السعي إلى قيادة أكبر عدد منا نحو حياة أفضل . لقد تربى أبناؤك وفق أفضل تقاليد الأديغه، وقد ترعرع أولادهم بدورهم في اجواء القوة والامتياز". أحسّ عزت بتيار صغير من الدفء والكبرياء يتوهج في أحشائه وانتصب في وقفته، وقد صمم على تكريم جده بحيث لا يبكي أمام الناس الذين يحترمونه.

"لقد زرعت جذورك في هذه الأرض الطيبة ونمت فسائلك حتى أصبحت أشجار بلوط قوية. أدعو الله أن يزدهروا ويحملوا اسمك بشرف نحو الأبدية. يقول إخواننا العرب أن من يرزق بأولاد لا يموت. سوف تحيا دائماً في ذكرياتنا وفي إنجازات أولادك. فلتقر عيناً أيها الأخ لأن هذه الطريق التي تسافر عليها الآن هي التزام علينا كلنا. سوف ننضم كلنا إليك في يوم ما أيها الصديق. ادعو الله أن يتغمدك برحمته ويدخلك في جناته. آمين".

بينما بدأ أفراد الجمع المحتشد يخرجون أنفسهم من ذكرياتهم الخاصة وسهومهم، أخذوا يتلفتون حواليهم، وانجذبت الأعين نحو

الشكل الوسيم الجريء لعزت، الذي تطاولت قامته على قامة والده بزي الفرسان الرائع.

جاء المعزون واحداً تلو الآخر، ليصافحوا حسن ومجيد وعزت، قال أحد الرجال المسنين وهو متمسك بيد عزت "نحن فخورون بك، يا عزت، أنت قرة عين أبيك، ومفخرة لجدك الراحل، وكل واحد منا. الواضح أنك ستحقق إنجازات عظيمة".

كانت لدى كل رجل ممن تبعوه كلمة مجاملة ليضيفها. شعر عزت وكأنهم يقولون له أن الوقت قد حان بالنسبة له لتولي زمام بعض مهام ومسؤوليات ناخو. فقد تغير العالم بما لا يقاس منذ الأيام الأولى لوصول المسنين إلى عمان وأصبح المجتمع بحاجة إلى نمط آخر من الرجال لقيادته نحو المستقبل.

بدا أنهم رأوا قائداً واعداً بشكل عفوي في شخص الشاب ذي الوجه الوسيم والوقفة المليئة بالكبرياء.

بعد انصراف آخر المعزين من جانب القبر، وضع حسن ذراعه حول كتفي ابنه وقاده إلى البيت،. لم يتكلم أي منهما لفترة طويلة، وعندما بدأ حسن يتكلم، جاء صوته خفيضاً.

قال "لقد عهد إليّ جدك قبل وفاته بالقيام بواجب صعب".

سأل عزت "ما هو يا أبتِ، هل يمكنني أن أساعد؟"

"كلا، لا يمكنك أن تساعد. يجب أن ترجع إلى وحدتك في الجيش. أنا مضطر للسفر إلى استنبول في مهمة خاصة".

"إن الرحلة إلى استنبول شاقة ومحفوفة بالمخاطر هذه الأيام. ما هي المهمة التي كلفك بها جدي؟"

"يجب علي أن أعثر على عمك شمس وأعيده إلى كنف العائلة. تلك كانت رغبة جدك الأخيرة، أن يعاد جمع شمل أبنائه الأحياء تحت سقف بيت عائلي واحد".

رجاه عزت "دعني أذهب معك. أستطيع أن أحصل على إجازة".

"كلا يا ولدي، لديك واجبات معينة ويتعين عليك أن تنفذها. هذه مهمة تخصني أنا وحدي".

***

الفصل الحادي والأربعون

استنبول

أصبحت الرحلة إلى استنبول أكثر مشقة بكثير منذ أن تم تدمير خط السكة الحديد من قبل القوات العربية بقيادة الأمير فيصل أثناء هجماته (بمساعدة العقيد لورنس) على العثمانيين خلال الحرب العالمية الأولى. لم تكن الخطوط الحديدية قد أصلحت واضطر حسن إلى السفر عن طريق ميناء بيروت في لبنان.

عند وصوله إلى استنبول، كان الإرهاق قد أخذ منه مأخذه، لكنه لم يشأ أن يستريح. فقد ظل طيلة الرحلة يتخيل كيف سيكون لقاؤه بشقيقه الأصغر بعد كل هذه السنوات. ظل يحاول أن يشكل الكلمات التي ينوي استعمالها لكي يخبر شمس أن أباهم، ناخو، قد توفي. كان حسن واثقاً من أن شمس سيحزن أشد الحزن لعدم تمكنه من مشاهدة أبيه قبل وفاته. وقد قيل لحسن أن ناخو حاول أن يرسل الرسائل، لكن أحداً لم يستطع أن يعثر على شمس لسنوات عديدة. أدرك حسن أن العثور على شمس سيكون صعباً لأنه غيَّر منزله، ومثل العديد من الشراكسة، بدَّل اسمه ليصبح وقعه على السمع أكثر ميلاً إلى التركي.

بحث طيلة يومين كاملين، قضاهما في مكاتب الجيش الرسمية ولدى بيروقراطيي المدينة، يحاول أن يعثر على قيود الرجل الذي كان يحمل اسم عائلته في يوم ما. وقام في الأمسيات بزيارة العناوين التي عاش فيها شمس في الماضي، بمافيها بيت والدي زوجته، حكمت، لكنهما كانا قد توفيا منذ زمن طويل وورث البيت أبناء عمومة لم يكونوا يعرفون شيئاً عن شمس ولا عن زوجته. كان يلتقط معلومات بسيطة من هنا وهناك، تقوده إلى شخص آخر، وفي نهاية تطوافه، عثر على رجل أخبره أنه زار الزوجين قبل حوالي سنة، ووصف له الشارع والبيت.

قال الرجل "لقد كان شمس صديقاً مقرباً مني، لكن زوجته لم ترحب بي في البيت. وأصبح بوسعي أن أرى أنها ستحيل حياته إلى التعاسة بعد أن انصرف، وهكذا قررت أن لا أعود إلى هناك أبداً. أمر مؤسف أن يسمح رجل طيب لنفسه أن تحكمه امرأة. إنها تشعر بالغيرة من أي شخص يقترب من زوجها وهو أضعف من أن يقف في وجهها".

أصيب حسن بصدمة لدى سماعه هذا الوصف عن أخيه، الضابط الأرعن الشاب الذي غادر عمان بمعنويات وإصرار عاليين. تذكر ما قيل له عن الفتاة التي كان شمس واقعاً في حبها، لكنه لم يتخيل أي شخص في صفات هذا الرجل. بل إنه تصور امرأة جميلة قادرة على الغواية وتملك القوى القادرة على إغراء الرجل بحيث يبتعد عن عائلته، إنسانة لطيفة وفي منتهى السحر والجاذبية.

عثر على الشارع الذي وصفه الرجل، ثم وجد الباب الذي قال أنه قرعه. تحامل حسن على نفسه وقرع الباب بقبضته، فتح شمس الباب بنفسه، رغم أن حسن قد لا يتعرف عليه لو أنهما تجاوزا بعضهما بعضاً في الشارع. فقد أخلت الهيئة العسكرية المشحونة بالكبرياء مكانها إلى إنحناءة في الظهر، وصار وجهه مشدوداً بخطوط الضيق والقلق. حدق في وجه حسن لثانية ثم تبدلت تعابير الوجه لتحل فيها ابتسامة عريضة تنم عن السعادة.

هتف شمس "أخي! أنك تبدو تماماً كما كنت في اليوم الذي غادرتك فيه، بزيادة بضع شعيرات رمادية".

قال حسن "أنت في غاية اللطف يا شمس الدين"، وهو يتبادل مع شقيقه الأصغر العناق العفوي الذي بدأه.

"لكنني أعتقد أن حدة إبصارك قد بدأت تخبو".

"أدخل، أدخل" وقاده شمس إلى داخل المنزل، وهو يفيض بالإثارة.

وقفت حكمت في الغرفة الرئيسة للمنزل تنتظر لتعرف سبب كل هذه الإثارة والضجة. كانت امرأة جميلة ذات شعر أسود فاحم وعينين سوداوين نفاذتين. لكن حاجبيها كانا ثقيلين وفمها ينحني إلى أسفل عند طرفيه، بطريقة جعلت قلب حسن يحس بالبرود. كذلك تحول شمس إلى الخنوع تحت نظرتها الفولاذية. كان البيت هادئاً وفي غاية النظافة والترتيب. لم يكن هناك أي أثر على وجود أي شخص هناك، لا أطفال، لا أحفاد.

قال شمس "حكمت، هذا شقيقي حسن". أومأت براسها لكن تعبير القرف لم يتغير في وجهها "لقد حضر لزيارتنا".

في نهاية المطاف، ذهبت المرأة على كره منها، لتجهيز الشاي وجلس حسن مع شقيقه. قال حسن "لن تجلب لك هذه الزيارة أي سرور" فنظر إليه شمس مستفسراً. "لقد توفي والدنا قبل بضعة اسابيع. أخشى أننا لم نتمكن من الاتصال بك واضطررنا إلى دفنه بدون أن تكون موجوداً".

ظل وجهه خالياً من أي تعبير "يؤسفني أن أسمع ذلك، سوف تفتقدونه كلكم هناك، أنا واثق من ذلك".

قال حسن "أنك تتلقى النبأ بكل سهولة".

قال شمس "أنا لا أريد الإساءة إليك، لكن أبي تركني هنا مع جدتي وزوجها قبل سنوات عديدة طويلة،. ولم تتح لي نفس الفرص لإقامة نفس الصلة التي أقمتها أنت وباقي إخوتي معه".

"لقد فعل ذلك لصالحك، حتى تستطيع أن تصنع لنفسك مستقبلاً في استنبول".

قال شمس ببرود "إنني مدرك لهذا الأمر، وأنا ممتن له على الفرص التي أتاحها لي. أخشى أنني كنت سأسبب له خيبة أمل كبيرة لو أنه عرف ما انتهيت إليه".

عادت حكمت حاملة الشاي وجلست معهما.

"لقد حضر أخي ليخبرنا أن والدي قد توفي" أخبرها شمس.

نفضت كتفيها وصبت الشاي قائلة "إننا جميعنا نفقد آباءنا. لقد فقدت ابي منذ زمن طويل".

عقدت الدهشة لسان حسن من جوابها لعدة لحظات وأبقى شمس عينيه مسمرتين على كوب الشاي.

بعد فترة صمت طويلة، قال حسن "قبل أن يتوفى، أبدى والدنا رغبة في أن أحضر لأعثر عليك".

"لماذا؟" ارادت حكمت أن تعرف "نحن لسنا مدينين لعائلتك بشيء".

"لم أحضر إلى هنا كجابي ديون. لقد جئت لأخبرك أن ابي كان يأمل في أن تحضري أنت وزوجك إلى عمان وتعيشان مع بقية العائلة".

"ولماذا يتحتم علينا أن نترك كل ما لدينا في أستنبول؟" بدت حكمت مذعورة من الفكرة بشكل واضح. لم يستطع حسن أن يمنع نفسه عن التلفت حوله إلى الغرفة المتواضعة التي يجلسون فيها. "إن وضع عائلتنا جيد جداً في عمان. سيكون لك ولشمس بيت مريح وهناك العديد من الفرص المتاحة لرجل عسكري بعد أن أسس الأمير عبد الله قصر إقامته هناك ونحن في مركز الإمارة. إنهم يؤسسون جيشاً جديداً وسرعان ما سيبدأوا بتأسيس حكومة جديدة. إن ابني عزت قد أصبح رقيباً منذ فترة وهو سعيد جداً. سيكون هناك العديد من الإمكانيات والفرص لرجل قد ميزّ نفسه في استنبول، رجل متعلم، ولديه خبرة عسكرية".

قال حكمت "إنه من غير المنطقي على الإطلاق أن تطلب هذا الشيء من زوجي".

رفع شمس يديه ليحاول تهدئتها، لكنها لم تلق بالاً إليه.

"أنك تستغل طبيعته الطيبة. أنت تريد منه أن يتخلى عن كل ما عمل لأجله في استبول، لمجرد أن تضيف إلى صندوق العائلة في عمان نتاج جهد زوج آخر من الأيدي. أنت تريد أن تحاول أن تجعله يشعر بالذنب بإخبارك له أن تلك كانت أمنية أبيه على فراش الموت. ربما تكون قادراً على أن تتنمر على أخيك، يا حسن، ولكنك لن تقدر على التنمر علي".

اعترض شمس "يجب أن لا تتكلمي مع أخي بهذه الطريقة، إنه ضيف في بيتنا".

"أنا لم أدعه إلى الحضور، ولا أنت فعلت"

جادلها شمس "إنه أخي".

"أخوك الذي يتجاهلك لسنوات حتى يصبح في حاجة لأن تفعل شيئاً من أجله. حريّ به أن يخجل من نفسه".

استدارت نحو حسن "أنت غير مرحب بك في هذا البيت. يجب أن تعود إلى عمان، إلى عائلتك الغالية".

صرخ شمس "إخرسي، يا امرأة، أنك تتصرفين بطريقة مرعبة".

"هل تعتقد ذلك؟" دفعت حكمت ذقنها إلى الأمام باتجاهه. "في هذه الحالة عليك أن تختار بيننا. إذا كنت تريد الذهاب إلى عمان مع أخيك الغالي، فاذهب، لكنك ستتركني خلفك. وإذا لم تكن تريد الذهاب فاطرده من بيتك. عليك أن تختار بيني وبينه".

قال شمس "إنني في غاية الأسف، يا حسن" وظن حسن لوهلة أن شقيقه ببساطة سيعتذر عن تصرف زوجته. ثم أدرك أن شمس يقول في الواقع أنه آسف ولكنه مضطر لاختيار زوجته وتفضيلها

على عائلته. لم يصدق حسن ما تسمعه أذناه "وهل ستسمح لها بالتحكم فيك بهذه الطريقة؟"

"إنها زوجتي"

"ولكنها حتى لم تحمل لك أي أطفال". أصيب حسن بالذهول. "فهل تقبل كل شيء تقوله لك؟"

لم يجبه شمس، لكن حكمت ردت عوضاً عنه "لقد حان وقت انصرافك، يا حسن، وترك شقيقك المسكين بحاله. أنت لم تجلب إلى هذا البيت غير الخلاف، والآن يتحتم عليك أن تغادره".

"هل تسمحين لي بالبقاء على الأقل حتى أرتب أمر سفري إلى موطني؟" أصبح حسن في حالة توتر لشدة غضبه.

"كلا" باتت حكمت مصرة بعناد "لن تتلقى المزيد من الضيافة منا".

نظر حسن إلى شقيقه باحثاً عن الدعم لكن شمس نظر بعيداً في خجل. فقد أدرك ما يعتقده أخوه فيه، ولكن لم يكن هناك ما بوسعه عمله. فقد سيطرت حكمت على حياته لسنوات طويلة جداً بحيث فقد القدرة على الدفاع عن نفسه. إذ لم تكن لديه أية فكرة عن إمكانية الحياة بدونها، وكانت هي تعرف ذلك معرفة وثيقة.

نهض حسن غاضباً ومشى باتجاه الباب. قام شمس وذهب معه "أنا آسف، يا أخي". قال شمس وهو يخرج أخاه نحو الشارع.

قال حسن "هذا موقف معيب على المرء أن يقع فيه، كان والدنا سيصاب بخيبة أمل عميقة لو رأى أي نوع من الرجال أصبحته".

استدار على كعبيه بدون أن ينتظر جواباً ومشى مبتعداً. توجه مباشرة نحو الميناء، مصمماً على العودة إلى عمان وإلقاء الحادثة برمتها خلف ظهره بأسرع ما يمكن. لم تكن هناك سفن مغادرة إلى

بيروت لأسبوع على الأقل. لم يحتمل فكرة الانتظار في استنبول لتلك المدة، فاتخذ طريقه نحو محطة القطارات، وهو ينوي السفر حتى حلب على الأقل. قيل له في المحطة أنه سيضطر إلى الانتظار ليومين حتى يحين موعد القطار. جلس في زاوية من زوايا المحطة وبدأ ينتظر، مفضلاً ذلك الوضع على العودة إلى منزل أخيه.

***

الفصل الثاني والأربعون

القبـاردا

كان خطاب بيطال أثناء اجتماع الحزب الشيوعي في قباردينو بلقاريا في قمة انسيابه. كلماته تتدفق بطلاقتها المعهودة: نفس الكلمات التي سمعها منه مستمعوه القلة المنتقين أكثر من مئة مرة في السابق. لم يجرؤ أحد منهم على التثاؤب، أو حتى أن يحيد بصره عن قائدهم، مخافة أن يلحظ أحد جلاوزته انعدام انتباهه فيكتب عنه لبيطال فيما بعد. ابقوا كلهم أعينهم مسمَّرة على وجهه بينما استرسل هو في الحديث. عندما رنَّ جرس الهاتف على الطاولة الموجودة إلى جانبه، قدم للمستمعين فترة راحة مرحب بها، إلهاءً صغيراً عن الملل والتوتر.

جاءه صوت متقطع عن طريق الخط "أيها الرفيق بيطال، أنا الرفيق اندرييف. إنني أهاتفك من كراسنودار".

قال بيطال بصوت مسموع "الرفيق اندرييف" ليفهم كل شخص في الغرفة مدى أهمية الرجل الذي يهاتفه.

"إنه لشرف عظيم لنا أن نسمع صوتك".

"يا صديقي" كان صوت أندرييف ودوداً بما يتلاءم مع شخص يتحدث إلى رجل ينتظره مستقبل مجيد أمامه. "إنني بحاجة إلى الإلتقاء بك لبحث مسائل مهمة".

أحسَّ بيطال برقَّة إثارة في صدره "طبعاً، يا رفيق"

"هل يمكنك أن تقابلني هنا في كراسنودار غداً؟"

"طبعاً، أيها الرفيق" شعر بيطال بالإثارة من فكرة الدعوة. فقد بدأت الأمور تبدو أخيراً وكأنها ستبدأ بالتحرك في اتجاهه وأنه على طريقه إلى موسكو.

في تلك الليلة، وبينما تقوم أنتونينا بكوي بذلته وقميصه النظيفين، تكلم عن الاحتمال بإثارة.

"لقد أدرك ستالين أخيراً إنني قد اصبحت أكبر بكثير من جمهورية صغيرة في حجم قباردينو بلقاريا. ربما تكون هذه فرصتنا للوصول إلى موسكو والانتقال إلى منصب ينطوي على سلطة حقيقية. لو كانت المسألة حزبية روتينية، لكان أندرييف بحثها معي على الهاتف، أو أرسل جورياكين لمقابلتي. نعم، أعتقد أننا سنصل إلى هناك في هذه المرة".

رفعت أنتونينا رأسها عن عملها "تخبرني إيرينا أن لدى جميع كبار المسؤولين بيوتاً ريفية "داتشا" خارج المدينة". قالت ذلك وهي لا تكاد تقدر على إخفاء شعورها بالإثارة "حيث يذهبون لقضاء عطلات نهاية الأسبوع. فهل سنعطى نحن أيضاً واحدة يا بيطال؟"

"طبعاً" ونفخ صدره إلى الأمام "سنحصل على ما يحصل عليه المسؤولون الآخرون. ألم أخبرك دائماً أنني سأنفعك أكثر من ذلك التافه زوجك الأول؟"

قالت، وهي تعود إلى كيِّها "لم أشك فيك مطلقاً، يا زوجي" بطاقة متجددة. في تلك الليلة، حلم كلاهما بموسكو العظيمة والطرق العديدة التي ستتغير بموجبها حياتهم بمجرد وصولهم إلى هناك وانضمامهم إلى طبقة النخبة.

في اللحظة التي بزغ فيها النور، نهض بيطال من فراشه وارتدى ملابسه، بينما أنتونينا تدور حوله، لتتأكد من أنه يبدو في قمة الأناقة والترتيب. وصلت سيارته قبل الموعد المحدد بعشر دقائق وقبّلته أنتونينا بمحبة على خده قبل أن يخطو إلى الخارج. لاحظت أن العديد من الجيران يسترقون النظر إليهما من خلف

مصاريع نوافذهم. فقد انتقلت الأنباء بسرعة عبر الحي، والتي تفيد أن بيطال ماضٍ في طريقه. رغم أنهم كانوا سعداء، بفكرة التخلص من الطاغية في نهاية المطاف، إلا أن العديد منهم حمل مخاوف سرية حول مقدار الضرر الذي سيتمكن من فرضه بمجرد أن تصبح لديه سلطات حقيقية. إذا كان قادراً على الحكم بالموت على المئات دفعة واحدة من نالتشك، فكم سيصبح عدد الناس الذين سيقتلهم من مكتب في موسكو؟

قال للسائق "خذني إلى محطة القطار في كراسنودار. وتأكد من أن نصل إلى هناك في الوقت المحدد. سيكون الرفيق أندرييف بانتظارنا هناك وهو ليس رجلاً تريد أن تبقيه منتظراً".

طأطأ السائق رأسه موافقاً ولم يتكلم طيلة الرحلة، لأنه رأى أن الراكب الذي يقله غارق في أفكاره. ظل بيطال يحلم أحلاماً رائعة طيلة الطريق إلى هناك، تتعلق بمسار الاجتماع. تخيل العناق الحميم الدافئ، الذي سيحييه به أندرييف، والمديح المطنب الذي سيتلقاه عن كل إنجازاته العظيمة.

بدأ في تحضير خطبة جوابية يخبر فيها أندرييف كم هو معجب به وبإنجازاته. لم يستطع أن يمنع نفسه من الابتسام لنفسه وهو يتخيل البهجة التي ستدخلها كلمات مديحه إلى قلب الرجل العظيم. أخذ يعجب مما سيكون على مائدة الغذاء. فقد سمع أن أندرييف لديه إمكانية الوصول إلى بعض أفخر أنواع النبيذ في كل الاتحاد السوفييتي.

بينما هما يدخلان إلى المحطة في كراسنودار، سرَّه أن يرى الجنود ينتظرون لإرشاد السيارة إلى بقعة محجوزة له. أبقى المدنيّون المارون أعينهم محيَّده مخافة أن يغضبوا الرجل الذي ربما يفضل أن لا يحدق فيه أحد؟ استعجلوا في طريقهم، خائفين بنفس القدر أن يشعر شخصية عظيمة بالإهانة من انعدام انتباههم.

فتح جندي الباب لبيطال حتى يخرج إلى الرصيف، وقدم له تحية عسكرية أنيقة. قال بيطال، وهو ينتصب لكامل قامته، وصوته يهدر خلال المحطة "إنني هنا لمقابلة الرفيق أندرييف".

أشار الجندي عبر الرصيف إلى عربة يقف أمامها المزيد من العسكريين خارج الباب. أومأ بيطال إشارة إلى فهمه وخطا بذلك الاتجاه. عندما اقترب. قدم عسكري التحية وفتح الباب المنزلق.أومأ بيطال برأسه مقدراً وخطا إلى الظلمة في الداخل، وقد ارتسمت ابتسامة عريضة مسبقاً عبر ملامح وجهه الثقيلة.

بمجرد دخوله، دخل الجنود الذين كانوا واقفين في الخارج خلفه. نظر حواليه لكنه لم يستطع أن يرى أية علامة على وجود الرفيق أندرييف، أو أي مسؤول آخر. "ما الذي يجري؟" أمر أن يعرف.

قال الضابط الأعلى رتبة "أيها الرفيق بيطال، أنت مقبوض عليك." بوجه جامد القسمات وصوت غير متعاطف.

هدر بيطال مثل ثور غاضب "لا تكن أحمقاً، أيها الرجل. هل لديك اية فكرة عمن أكون؟ لقد تلقيت مخابرة هاتفية شخصية من الرفيق أندرييف. إنني موجود هنا تلبية لدعوته الشخصية. إذا اكتشف أنك عاملتني بهذه الطريقة فإن سيرتك المهنية ستنتهي وستقضي بقية سنين حياتك في مناجم الملح".

لم يجبه الضابط بل أشار إلى رجاله بتقييد السجين. عندما تقدم الجنود حاملين الأصفاد أطلق بيطال زمجرة لا تحمل أي شبه بالنطق البشري. فقد كانت صوت حيوان من الغابة حاصرته مجموعة من كلاب الصيد، مزيج من الذعر والغضب. أصيب أول اثنين من الجنود الذين وصلوا إليه بشج في رأسيهما من ضربة هائلة من ذراعه صدمت رأسيهما ببعضهما، بينما تلقى الثالث ركلة قوية إلى درجة أسقطته متكوماً إلى الأرض بدون صوت يكاد يسمع.

قفز الضابط إلى الأمام للمساعدة، مطلقاً في نفس الوقت الأوامر لرجاله. اقتضى الوضع تعاون ستة رجال لإجبار القائد القباردي على الركوع إلى ركبتيه وتقييد حركته. لم يبتعد الجنود عن جسده الملقى بدون حراك إلا بعد توثيقه بقوة. سدد الضابط ركلة غاضبة أخيرة إلى معدة بيطال قبل أن يخطو إلى الوراء لموقع الحارس الصامت.

بينما هو مستلقٍ ساكناً، ينتظر زوال ألم الركلة، أدرك بيطال أن القطار قد بدأ يتحرك. كانوا يأخذونه إلى مكان ما.

سأل "إلى أين نحن ذاهبون؟" وقد تيقن أنه لا فائدة من الصراخ والتهديد، وبدأ يتعجب إذا كانت هناك أية وسيلة يستطيع بها أن يرشو الرجال ليطلقوا سراحه.

"موسكو" أجابه الضابط بدون حتى أن ينظر إليه "يريدون أن يستجوبوك".

ما زالت أنتونينا تحلم بموسكو، بعطلات نهاية الأسبوع في "الداتشات" الريفية ذلك المساء، عنما سمعت طرقة على الباب، وأخبرها مسؤولو أل إن كيه في دي الواقفين على عتبة الباب أنها قيد الاعتقال. استطاعت أن ترى شقيق بيطال، حاسيت، وزوجته، يراوحان على مسافة خلفهم في الشارع.

همس لها حاسيت بمجرد أن تمكن من الاقتراب "لقد ألقوا القبض على جميع زملاء بيطال"

"إنهم متهمون بكونهم أعداء للشعب. دعينا نحتفظ بالأطفال إلى حين عودتك".

طأطأت أنتونينا برأسها موافقة، وهي غير قادرة على أن تتخيل كيف أمكن للأمور أن تتغير بهذه السرعة. ففي ذلك الصباح كانت زوجة أقوى رجل نفوذاً في الجمهورية والآن يلقى القبض عليها وتفقد أطفالها.

بمجرد أن اختفت،أخذ حاسيت وزوجته الأطفال المذعورين إلى بيتهما. لم ينم أحد منهما ملء جفنيه تلك الليلة، وهم ينتظرون طرقة على بابهم. جاءت الطرقة في الصباح، بينما هم يتناولون طعام إفطارهم. اقتحم المسؤولون الباب إلى داخل البيت وواجهوا الناس الخائفين.

"يفترض في كافة أقارب بيطال، عدو الشعب، مغادرة نالتشك والرحيل عائدين إلى قرية كوبا"

أعلن المتحدث باسمهم "يجب عليهم البقاء في القرية حتى إشعار آخر. عليهم أن يعملوا في الحقول إلى جانب القرويين الآخرين ولن يحصلوا على أية امتيازات خاصة".

جاءت والدة بيطال واقتربت من الضابط الذي خيم فوقها بطوله الفارع "أرجوك، أخبرني، ما الذي حدث لابني وزوجته؟"

"لقد ألقي القبض عليهما باعتبارهما عدوين للشعب ويجري استجوابهما. أفضل ما يمكنك عمله هو نسيان أنك ولدته أصلاً. لأنك لن تريه مرة أخرى أبداً".

انفتح فم المرأة المسنة وكأنها تود أن تصرخ، لكن شيئاً لم يغادر حلقها سوى صوت يشبه الغرغرة. أمسكت صدرها بقوة وتعثرت إلى الأمام، ثم سقطت فوق الطاولة حيث ما زالت بقايا الإفطار موجودة، لتلقي بالفناجين والأطباق متحطمة إلى الأرضية. بدأ الأطفال يبكون وانحنى حاسيت أرضاً ليرفع والدته المنبطحة. أدرك أنها ماتت في اللحظة التي لمسها فيها. لم يعد هناك أي كفاح أو ترتر باقياً في جسدها. فقد ذهبت إلى مكان ما حيث لم يعد بإمكان مصاعب الحياة أن تلمسها. بات حاسيت يحسدها. لم يستطع أن يفهم كيف يمكن لأخيه ، الرجل الذي كرَّس حياته لقضية الشيوعية، أن يعامل على هذه الدرجة من السوء من قبل جماعته.

تم ترحيل عائلة بيطال كلها عن نالتشك بحلول نهاية ذلك اليوم، لكن بيطال نفسه لم يعرف شيئاً عما يحصل لهم. فقد كان

دماغه مركزاً على آلام الضرب المبرح والتعذيب القوي الذي يمارسه آسروه على جسمه وعقله. تيقن من أنهم سيقتلونه. أدرك أن لا فائدة ترى من التفكير في زوجته أو أطفاله أو أخيه، لأنه لن يسمح له برؤية أي منهم مرة أخرى. كانت فرصته الوحيدة في النجاة هي في الاسترحام من ستالين مباشرة. لكن ذلك لم يكن ليسمح به.

أخذ من زنزانته، يوماً بعد الآخر ليتحمل المزيد من الأسئلةوالمزيد من العقاب. ذهل بكمية التفاصيل التي تعرفها السلطات عن حياته. فقد كانوا يعرفون اسم كل واحد من آلاف الأشخاص الذين حكم عليهم بالأعدام أو أبعدهم إلى سيبيريا. ويعرفون عن جميع الممتلكات التي صادرها من الناس الذين تسببوا في سخطه عليهم وكل النساء اللواتي أخذهن لنفسه من أزواجهن. أدرك في هذه الآونة أنهم كان لديهم عشرات المخبرين الذين يراقبون كل حركة كان يأتي بها، بينما ظل على الدوام يعتقد أن أحداً لا يستطيع أن يمسه بسوء. فقد كانت السلطة، التي أقنع نفسه بأنه حصل عليها، مجرد وهم. فهو لم يكن أبداً أكثر من مجرد ألعوبة. طالما ظل يحقق لهم مآربهم، ظلوا راغبين في تركه يعتقد أنه يسيطر على الوضع. وبمجرد أن ظهر خطر بأن تبدو جرائمه وكأنها جرائمهم. اضطروا إلى تحطيمه كدليل على عدم قابليتهم للإفساد.

سري جداً

إلى اللجنة المركزية.

أرفق لكم طياً الشهادة الموقعة عن استجواب السجين بيطال كاليميكوف، السكرتير العام السابق لمجهورية قباردينو بلقاريا ذات الحكم الذاتي، المتعلقة بأنشطته كعدو للشعب.

التحقيق مستمر.

نائب رئيس كوميسارية الشعب للشؤون الداخلية (إن كيه في دي)

لافرينتي بافلوفيتش بيريا.

المستجوب: صف طبيعة علاقتك بالخائن الأمير كودينتوف.

بيطال: لم تكن لي علاقة بهذا الرجل.

المستجوب: صف طبيعة علاقتك بالخائن الأمير كودينتوف.

بيطال: لم أقابل هذا الرجل الذي تذكره أبداً.

المستجوب: لقد تزوجت زوجته وربيت ابنه.

بيطال: صحيح، لكنني حصلت على موافقة اللجنة المركزية لأن أفعل ذلك.

المستجوب: ليس هناك أي شيء مدون بهذا الخصوص في ملفات اللجنة المركزية.

بيطال: فورشيلوف يعرف. لقد بارك بالزواج.

المستجوب: فورشيلوف ليس اللجنة المركزية.

بيطال: لقد حضرت إلى موسكو خصيصاً للحصول على إذن أصدقائي قبل أن أتزوجها. تلك هي الحقيقة، كل شخص له علاقة معي في موسكو وافق على العمل.

المستجوب: صف طبيعة علاقتك بالخائن الأمير كودينتوف.

بيطال: ليس لدي ما أضيفه. كل ما عرفته هو أنه كان جنرالاً في الحرس الأبيض، هرب إلى الغرب. لقد تزوجت زوجته السابقة.

المستجوب: دعنا ننعش ذاكرتك أيها الرفيق بيطال. لقد استضفت الأمير كودينتوف في منتجع دالينا نارزان. فقد دخل البلاد بصحبة وفد زراعي أجنبي مستخدماً الإسم ميتشيل. كان المترجم

الروسي الرسمي للمجموعة لكنه كان في الحقيقة جاسوساً لجهازي المخابرات البريطانية والفرنسية. أجرى معك ثلاثة اتصالات أثناء إقامته. وقابل زوجتك سراً. نحن نشك في أنك استخدمت زوجتك لتمرير المعلومات إلى السيد ميتشيل هذا. إن الحقائق الواردة أعلاه صحيحة كلها. أرجوك أن تصادق على هذه الحقائق وتوفر على نفسك المزيد من الألم.

بيطال: لا توجد أية حقيقة فيما قلته. لم تكن لدي أية معرفة بأن ميتشيل هذا هو كودينتوف. لم أجر معه اية مقابلات منفردة. لم تكن لدي أية معرفة بمقابلة زوجتي له. إن اتهاماتك زائفةكلها. وأنا أنكرها جملة وتفصيلاً.

سري جداً

إلى نيقولاي يازوف

إن كيه في دي

أرفق طياً الشهادة الموقعة عن استجواب السجين بيطال كالميكوف، السكرتير السابق لجمهورية قباردينو بلقاريا ذات الحكم الذاتي، والمتعلقة بأنشطته كعدو للشعب.

التحقيق مستمر

سري جداً

نائب رئيس كوميسارية الشعب للشؤون الداخلية (إن كيه في دي)

لافرينتي بافلوفيتش بيريا.

المستجوب: لقد أمرت في ربيع العام ١٩٣٤ بإعدام ثلاثمئة من المواطنين من أبناء شعبك، رفاقك في السلاح، وقد خاض بعضهم العديد من المعارك إلى جانبك أثناء الحرب الثورية العظيمة. ما هي السلطة التي استندت إليها في القيام بهذا العمل؟

بيطال: سطلتي الشخصية.

المستجوب: ماذا كانت جرائمهم؟ أين هي الوثائق التي تفسر هذا الإجراء؟

بيطال: (لا جواب).

المستجوب: لماذا اتخذ هذا الإجراء؟

بيطال: لن أرد إلا أمام اجتماع كامل للجنّة المركزية.

المستجوب: لماذا قمت بإعدام كل هذا العدد من الناس بدون محاكمة أو وثائق صحيحة؟

بيطال: أنا لست مجرماً. لقد كنت أؤدي واجبي. اسمح لي أن أجري اتصالاً بجوزيف فيساريا نوفيتش. سيفهم.

بعد تسعة أشهر من القبض على بيطال، لاحق مسؤولو الــ إن كيه في دي عائلته إلى قرية كوبا حيث كانوا يصارعون من أجل البقاء على قيد الحياة مع فلاحي المنطقة الآخرين. ألقوا القبض على شقيقيه، حاسيت وطالب، بالإضافة إلى جميع نساء وأطفال العائلة، الذين أرسلوا إلى منطقة أورينبورغ حيث سيبقون هناك خمسة عشر عاماً كسجناء.

بعد ثمانية عشر شهراً من إلقاء القبض عليه. إنهار قلب بيطال من شدة آلام التعذيب المستمر. تمَّ التخلص من جثته ولكن لم يقم عليها شاهد قبر أو علامة فارقة. وكأنه لم يعش من قبل أبداً. لقد حصد الطغيان جوائزه العادلة.

لم يتمكن رفاق بيطال الشيوعيون في قباردينو بلقاريا من إعادة الاعتبار إليه إلا بعد إجراءات خروتشيف في إعادة التوطين، فأقاموا له تمثالاً في مدينة نالتشك. كانوا بحاجة إلى بطل وكان بيطال الشخصية الأقرب إلى البطولة التي يمكنهم الاحتفال بها كبطل من بينهم.

الفصل الثالث والأربعون

شرق الأردن

"رجب"، نادى حسن مشيراً إلى ابن صديقه. كان الرقص على أشده والجميع يراقب عزت وهو يدور حوالي الحلبة. فقد كان الشخصية الأكثر وسامة وبريقاً في الغرفة، بزي الفرسان وشعره الأشقر المتطاير. لحق رجب، بحسن إلى خارج الحظيرة حيث كانت حفلة الرقص قائمة، إلى برودة الليل. تقبل السيجارة التي عرضها عليه حسن. كان يحسد عزت على عائلته. فقد كان يتمنى لو أنه كان ينتمي إلى مثل تلك العائلة المتماسكة، الناجحة.

بعد أن أشعل كل منهما سيجارته، وأخذا يحدقان في النجوم بأمان واطمئنان، قال حسن "كيف إذا تجد الحياة الزوجية، يا رجب؟"

"إنها تلائمني بشكل جيد جداً، اشكرك يا "تحمادا"" أجاب رجب "إنها امرأة فاضلة. إنني رجل سعيد الحظ."

قال له حسن "أنت تستحق هذا الحظ السعيد. يقول لي العديد من الناس أن الوقت قد حان لأن يتزوج عزت".

ضحك رجب قائلاً "لا نتوقف، يونس وأنا، عن قول الشيء نفسه له بأنفسنا، لقد تزوج يونس في العام الماضي، كما تعلم. ولا يرى أي منا سبباً لأن يبقى عزت طليقاً بينما كلانا سجين".

ابتسم حسن مشاركاً في المرح "ولماذا تعتقد أنه لا يبدي اهتماماً؟ أنت في نفس سنه، لا بد وأنه يفضي إليك بسره إن كان سيفضي إلى اي إنسان".

"إنه يحب الجيش. يا تحمادا. أعني أنه يحبه بشكل حقيقي".

"هكذا يقال لي. إنني أتلقى التهاني باستمرار على تقدمه من قبل كبار الضباط. إنهم يقولون لي أنه سيذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أي شركسي في الأردن من قبل".

"إنه يعرف ذلك، يا تحمادا" قال رجب "ولديه كل النوايا على أن يحوّل هذه التوقعات إلى حقيقة".

"ولكن على حساب كل شيء آخر؟ ألا يدرك أنه سيحتاج إلى أن يرزق بالأبناء في يوم من الأيام؟ ألا تستطيع أنت ويونس أن تبينا له بعضاً من المسرات التي يمكن الحصول عليها من الزواج الطيب؟"

اعترف رجب "إننا نحاول باستمرار، إلى درجة أننا نشعر بأنه يوشك أن يضربنا. إنه يستفز بسهولة عندما يتعلق الأمر بالمسائل الشخصية. إنه لا يفكر سوى بسيرته المهنية وتقدمه. إنه لا يرى أي سبب يدعوه إلى تحمل أعباء مسؤولية العائلة في هذه المرحلة من حياته".

قال حسن بحزن "إنني أدرك ذلك. لكنني أعتقد أن الوقت قد حان لكي نصرَّ كلنا، عائلته وأصدقاؤه، بأن نفعل شيئاً حيال هذا الوضع. أريد منك أن تعرِّفه على بضع فتيات. إنني على ثقة من وجود عدد منهن ممن أبدين اهتماماً به".

انفرج وجه رجب عن ابتسامة عريضة "سيكون ذلك من دواعي سرورنا، يا تحمادا، سوف نزوجه بحلول نهاية هذا الشهر. هذا وعدٌ مني".

مدَّ حسن يده بابتسامة عريضة "إن وعدك أكثر من كافٍ بالنسبة لي. إن مستقبل عائلتي رهن يديك، يا رجب".

بعد أسبوع، كان رجب قد برَّ بوعده وعرّف عزت على أمينة، الفتاة الصارخة الجمال.

كانت أمينة أطول من أترابها في المجتمع بشكل بارز وتتصرف بدرجة عالية من الكبرياء جعلت كل شاب في المنطقة يلاحظها. كانت تعيش في وسط القرية، وليس في حي المهاجرين.

اصطحبه رجب ويونس إلى بيت الفتاة، متبعين التقاليد الشركسية المغرقة في القدم والمتعلقة بالـ"بسالوخ" وسرهما أنها قد جذبت انتباه صديقهما. كانت صديقتها زكية، بصحبتها. كانت زكية جميلة، سمراء ناحلة صغيرة الحجم، ورضيت أن تجلس في الظلال إلى جانب صديقتها الطويلة النحيلة بينما كان الضابط الشاب اللامع يتودد إليها.

كان الجو العام طبيعياً، بينما يروي الفتية النكات والبنات يضحكن.

أخبرهما رجب "عندما ذهبنا إلى صفد في فلسطين للانخراط في الجيش، شرح الرقيب، المدرب البريطاني، لعزت كيفية عمل كافة معدات الخيل. ثم عرض عليه الخطوات الأساسية في الركوب وكأنه يُكلم شخصاً لم يشاهد جواداً من قبل.

استمر عزت في طأطأة رأسه ويقول "نعم سيدي." وكأنه مسحور ومأخوذ بكل شيء يقوله الرجل".

"عندما توقف الرجل في نهاية عن الكلام" تولى يونس إكمال القصة "وطلب من عزت أن يمتطي الجواد حتى يستطيع أن يقوده ببطء، من خلال الخطوات، تصرف عزت وكأنه صبي قروي أخرق. تناول السرج عن ظهر الجواد وألقى بنفسه إلى ظهره العاري، وأرسل مطيته لتأدية أكثر الحركات التي يمكن تخيلها صعوبة مستخدماً ركبتيه فقط.

ضحك رجب قائلاً "أصبح لون وجه المدرب قرمزياً. فهو لم يكن قد رأى شيئاً مشابهاً قط. لم نستطع أن نتمالك أنفسنا من الضحك، مما جعل المدرب يزداد غضباً. فبدأ يصرخ ويشتمنا ويشتم عزت، حين خرج الضابط الأعلى رتبة منه إلى ساحة

الاستعراض. واضح أنه كان قد سمع الضجّة أو أنه راقبنا من خيمته. لذنا بالصمت علىالفور ولم يستطع الرقيب أن يفكر في شيء يقوله. جلب عزت الجواد إلى حالة الوقوف التام أمامنا. ابتسم الضابط الأعلى رتبة وقال "هؤلاء فتية شراكسة، أيها الرقيب، لقد تعلموا الركوب قبل أن يتمكنوا من المشي. الأفضل أن تنتقل بهم إلى التقنيات الأكثر تقدماً والمتعلقة بتشكيلات المعارك".

قال يونس "كم كرهنا ذلك الرقيب".

عندما هدأت عاصفة الضحك، قال عزت "أمينة، أحب أن تصبحي زوجتي. فهل توافقين على مثل هذا الاتحاد؟"

فوجئت أمينة حد الصدمة من الطلب المفاجئ. فقد افترضت أن ذلك سيأتي دوره خلال أسابيع أو حتى شهور: ولكن حتماً ليس بهذه السرعة.أعيتها الكلمات فاكتفت بهز رأسها. صفق كل من رجب ويونس ابتهاجاً وضغطت زكية على يد صديقتها مشجعة.

"ليس لدي سوى إجازة مقدارها ثلاثة أيام. ليس لدي وقت أضيعه في رسميات التودد والغزل. إذا وافقت، فسوف نتجاوز الإجراءات الطويلة ونخطف في هذه الليلة. سأجيء ساعياً إليك في منتصف هذه الليلة".

مرة أخرى، خفضت أمينة عينيها إلى الأرض، وهزَّت رأسها بالموافقة. شجعتها زكية وغمرها الفرح من شدة الإثارة التي ولدتها اللحظة.

في تلك الليلة، وبعد انصراف الشباب، تظاهرت أمينة وزكية بأنهما تتحضران للنوم.

قال زكية "أنت سعيدة الحظ جداً لكونك اجتذبت مثل هذا الشاب الجميل المظهر." بينما عيناها ما زالتا تومضان من كثرة الضحك في ذلك المساء.

قهقهت أمينة بعصبية. فقد أثر فيها عزّت وأثار إعجابها، لكنها وجدت حدة التركيز في نظراته مزعجة. فقد بدا وكأنه يحاول أن يقيِّم نوعية الأبناء الذين ستحملهم له. وأخذت تعجب مما إذا كانت جاهزة بعد للاقتران بشخصية على تلك الدرجة من القوة. وكلما اقتربت الساعة من منتصف الليل، زاد توترها وقلقها.

عند منتصف الليل، جلس الشباب الثلاثة ينتظرون داخل سيارة شيفروليه قديمة خارج بيت أمينة، رجب في مقعد القيادة والاثنان الآخران في المقعد الخلفي. لم يكن في منطقة المهاجرين كلها سوى سيارة واحدة صاحبها رجل اسمه مختار. اقتضى الأمر كل قدرات رجب ويونس الإقناعية حتى تمكنا من استعارة السيارة لتلك الأمسية. لم يستطع كل من رجب ويونس إخفاء ارتفاع معنوياتهما على هذه المغامرة. وأدرك عزت أن قلبه يخفق أكثر من المعدل الطبيعي جراء الإثارة، لكنه بقي هادئاً ومتفكراً بينما هم ينتظرون خروج أمينة من البيت نحوهم.

قال رجب "هناك" بعد أن جلسوا ينتظرون حوالي ساعة وباتوا يتساءلون إن كانت قد غيرت رأيها أو أن والديها أمسكا بها قبل أن تتمكن من الخروج "لقد رأيت حركة".

حدقوا في العتمة بأقصى ما يستطيعون. فقد انفتح باب وأغلق وكان هناك شخص يسرع قادماً باتجاههم.

قال يونس "تلك ليست أمينة. إنها ليست بالطول الكافي. إنها صديقتها".

أحسّ عزت بطعنة من الانزعاج. فقد توقع أن تكون أمينة حاسمة مثله، فتاة يمكنه الاعتماد عليها. وها هي قد جعلته ينتظرها ساعة ورغم ذلك لم تظهر بعد. فهو كرجل عسكري سيكون بحاجة إلى شخص أكثر اعتمادية من هذه كزوجة. بات مستعداً للتسامح قليلاً بسبب شبابها الغض، لكن ليس الكثير.

"عزت" كانت زكية قد وصلت إلى السيارة المعتمة وحاولت أن تتبين أي من الأشكال الظليلة هو الذي يجب عليها أن تخاطبه.

"نعم" اشعل عزت عود كبريت، اضاء وجه الفتاة الجميلة.

"إن أمينة متوترة حيال الخطيفة معك هذه الليلة. إنها معجبة بك كثيراً وتودك، لكنها تشعر أنها بحاجة إلى المزيد من الوقت للتفكير في الوضع. أعتقد أنك تسرعت أكثر مما يجب تجاهها. إنني أقدم لك اعتذاراتها".

أحسّ عزت بدفقة من الغضب على أمينة لأنها أضاعت وقته بهذه الطريقة. ألقى نظرة أخرى باتجاه زكية وأثرت فيه شجاعتها. فقد بدت سعيدة جداً بالخروج في الليل البهيم لنقل هذه الأخبار السيئة إليه. واضح أنها تتمتع بقدر كبير من الشجاعة وبدت وكأنها تتصرف كصديقة مخلصة لأمينة. كذلك بهره جمالها وتعجب لماذا لم يلاحظ تلك الحقيقة في البيت.

طلب إليها "هل تمانعين في الدخول إلى السيارة؟" وعملت زكية باقتراحه، بأن جلست بسهولة في المقعد الأمامي.

قالت مرة أخرى "إنها تودك حقيقة". حريصة ومتلهفة على أن لا يشعر الضابط الشاب الوسيم بالإساءة "يجب عليك فقط أن تمنحها بعض الوقت حتى تتآلف مع فكرة الزواج"

سألها عزت "من أية عائلة أنت؟"

"إنني أنتمي إلى عائلة شيد. والدي هو قاسم شيد".

فكر عزت للحظة "واضح أن أمينة ليست جاهزة للزواج. ولكن ماذا عنك؟ هل أنت جاهزة للزواج؟"

قالت زكية بفخر "إنني في السابعة عشرة، إنني فتاة ناضجة وبإمكاني أن أقرر إذا أردت".

"حسناً، هذا كل ما أحتاج إلى أن أسمعه"، قال عزت "ستكونين أنت أم أولادي. هيا تحرك يا رجب"

قهقه كل من رجب ويونس بطريقة تآمرية بينما ضغط رجب على دواسة البنزين وأسرعت السيارة الهرمة بالابتعاد بضجة رهيبة.

اعترضت زكية "توقف، لايمكنك أن تقوم بالأمر بهذه الطريقة. أرجوك، ستقلق عائلتي عليَّ، ارجوك، يجب أن أشرح الأمر لأمينة".

قال عزت "لا تقلقي، أيتها البنت الصغيرة، ستكونين بمأمن مني. على الأقل حتى ما بعد الزفاف الرسمي".

"أرجوك لا تنادني بالبنت الصغيرة، أمينة هي البنت الصغيرة" ضحك الفتيان من ردها وبدأ عزت يحس بالثقة من أنه قام بالاختيار الصائب.

استمرت زكية في الاعتراض بينما هم يقودون السيارة خلال الشوارع المعتمة، لكن قلبها كان يغرد داخل صدرها. فقد أدركت أنها وقعت في حب عزت في اللحظة التي دخل فيها إلى البيت، لكنه طالما جاء ليتودد إلى أمينة، لم يكن بوسعها فعل أي شيء.

بعد أن سارت بهم السيارة فترة معقولة، قالت لرجب بهدوء "آمل أن يكون صديقك هذا يعرف "الخابزه"".

"لا تقلقي يا زكية، إذا كان لا يعرفها فسوف نعلمه. سيتم عمل كل شيء حسب تقاليدنا. لن يكون لدى عائلتك ما تقلق بشأنه".

لم تستطع زكية أن تكبت ابتسامتها، وعندما شاهدها عزت، شعر بالاطمئنان على مستقبله، عرف أنه كان محظوظاً، فقد قام بالاختيار الصحيح.

***

كان عزت يذرع الغرفة الأمامية لبيت رجب جيئة وذهاباً، ينتظر عودة صديقيه. فهذا يوم زفافه، ويفترض فيه، باعتباره العريس، أن يتوارى عن الأنظار، حسب التقاليد الشركسية. كان يتعجل تحريك العملية كلها، حتى يتمكن من العودة إلى وحدته. وكان كذلك نافذ الصبر على رؤية زكية مرة أخرى. لاحظ أن وجهها الجميل يقتحم أفكاره على الدوام، حتى عندما ظل يحاول أن يفكر في أمور أخرى. لولا إصرار كل من يونس ورجب، لتجنب كل الإجراءات الطويلة التي تقتضيها تقاليد الزفاف الشركسية، لكنهما لم يسمحا له بذلك. فقد كان كلاهما يعرف، لأنهما مرا بنفس التجربة بنفسيهما، أن هناك بعض الأمور التي يضطر المرء إلى مراعاتها، بعض التقاليد التي يتوجب احترامها. اندفع رجب إلى داخل الغرفة فهجم عليه عزت وألصقه بالجدار في خضم لهفته على سماع الأخبار "ما الذي يحدث؟ هل بدأت مراسيم الزفاف؟ إلى متى سأضطر إلى البقاء محبوساً هنا ولماذا؟"

ضحك رجب قائلاً "على رسلك يا هذا، كل شيء يسير على ما يرام" رافعاً يديه لتهدئة صديقه المتوتر.

"ماذا يقول والديَّ؟ هل ذهبت لزيارتهما؟"

"إن أباك وأمك سعيدان بهذا القران. ومن حقهما ذلك، فهي أفضل منك بكثير".

"من الذي قام بتسليم زكية؟" أراد عزت أن يعرف.

"لقد قام أبوها بذلك. إنهم فخورون وسعداء لدرجة أنهم يكادوا ينفجرون لشدة فرحهم. يبدو أنهم يعتقدون أنك "لقطة". لقد ظلوا يقولون لي ذلك ولم أستطع أن أخبرهم بحقيقتك حتى لا أخيب ظنونهم".

ضرب عزت صديقه بطيبة قلب "وهل ستقام حفلة رقص هذه الليلة؟"

"طبعاً، لقد قلت لك أن بإمكانك الاعتماد علينا في تحضير كل شيء. إن شباب وشابات الشراكسة قادمون من الأمكنة البعيدة مثل جرش ووادي السير للاحتفال بحظك الطيب. أمر مؤسف جداً أنك لن تحضر الحفلة."

سحب عزت صديقه وأجلسه على كرسي وظل ممسكا بسترته وكأنما صمم على جعله يصغي "اسمع يا رجب، يجب أن أراها الليلة. عليك أن ترتب الأمر".

"هذا مستحيل". ضحك رجب من لهفة صديقه وتشوقه إلى عروسه الفتية "هل جننت تماماً؟ لا بد وأنه الحب".

"اسمع يا رجب" وهزه من ياقة سترته، متلهفاً على جعله يفهم إلحاح أحاسيسه "إنني عائد إلى وحدتي غداً. يجب أن أراها وأنفذ زواجي منها هذه الليلة. لا أستطيع أن أنتظر لأسبوع. يجب عليك أن تساعدني".

قطع دخول يونس إلى الغرفة ضحكة رجب، سأل يونس "ما الذي يجري هنا؟ هل أنتما تتقاتلان على العروس؟"

"إنه يقول إنه مصر على رؤيتها الليلة"، شرح رجب "بعد أن أنتظر طيلة هذه المدة حتى يتزوج، لم يعد يطيق الصبر أسبوعاً آخر ليضعها في فراشه".

ضحك يونس بمكر ودهاء "لا تقلق يا عزت. يا أخي العزيز، سوف نرتب الأمر. فقط تأكد من أن لا تغفو قبل أن ننهي الترتيبات".

رفع رجب ذراعيه في الهواء "أنا أستسلم. أنتما مجنونان كلاكما. سوف يطلق أبوك النار علينا بمجرد رؤيته لنا".

قال يونس "لا تلق إليه بالاً، فقط إسأله من الذي عمل معه نفس الجميل يوم زفافه في السنة الماضية".

"آه نعم، لقد فعلت يا صديقي، لكن ذلك كان عرساً متمدناً، وليس خطيفة مثل هذه، سرقة في الليل!"

لوَّح يونس بذراعيه رافضاً اعتراضاته "نعم، نعم، سواء كان زفافاً متمدناً أو خلافه، هذا الوضع أكثر إثارة. سوف أشجع كل أبنائي الذين سأرزق بهم في المستقبل على عمل الشيء نفسه. أول سبب أن هذه الطريقة أرخص. فقد اضطررت إلى التخلي عن أفضل مسدس لدي إلى شقيق زوجتي الغبي حتى يسمح لها بمغادرة البيت، بطريقة متمدنة! تخيل! أعرف أنه كان يجب علي أن أخطفها. لقد فعلت عين الصواب، يا صديقي". ضرب عزت على ظهره تحبباً. "فلا تندم على شيء أبداً".

حذره رجب "لا تتسرع إلى هذه الدرجة، فإن لدى زكية شقيق هي الأخرى. وسرعان ما سيحضر ليطالب بجائزة. ولديه كل الحق".

قال عزت بفخر: "سأمنحه أفضل جواد في حظائر أبي. إن زكية تستحق هذا التكريم".

"حسناً، حسناً" وجلس رجب وكأنه استسلم "ربما نتمكن من أن نجعل منك رجلاً متمدناً متزوجاً في نهاية الأمر".

خيم الصمت على الأصدقاء الثلاثة للحظة بينما غرقوا في التفكير بما قد يحمله المستقبل لهم.

* * *

المؤلف في سطور

محي الدين عزت قندور هو شركسي هاجر أجداده من القفقاس إلى تركيا العثمانية ثم إلى الأردن، قرابة مطلع القرن الماضي. سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في فترة مراهقته وأتم دراساته الجامعية الأولى والعليا في ولايتي أنديانا وكاليفورنيا حيث حصل على شهادة الماجستير في الدراسات الدولية والدكتوراه في الاقتصاد والتاريخ.

عمل قندور في حقل إدارة الأعمال مع عدة شركات متعددة الجنسيات في نيويورك وفي لندن لحوالي خمسة وعشرين عاماً كمدير تنفيذي و/أو مستشار.

قضى أربع سنوات في أوائل السبعينات يعمل كاتب سيناريو ومخرج/منتج في هوليوود. كتب عدة أعمال غير روائية وله إحدى عشرة رواية تاريخية.

يوم الحادي والثلاثين من أيار عام ٢٠٠٤، منح الدكتور قندور وسام الصليب الذهبي (فوزرايديني روسِّي) من وزارة الثقافة الروسية على مساهماته الأدبية في روسيا.

رواية
NOVEL

M. I. Quandour

محي الدين قندور

الثورة

هذه رواية تاريخية ذات قوة ونفاذ بصيرة غير عاديين. انها تكشف العديد من الحقائق غير المعروفة حتى الان حول الثورتين الرئيسيتين أوائل القرن العشرين: الثورة الروسية وتفتت الامبراطورية العثمانية، بأسلوب قصصي متوازن.

وسط هاتين الثورتين، هناك قصة مؤثرة عن المأساة والتضحيات الانسانية: قصة الشراكسة والدور الذي قاموا به للحفاظ على كيانهم خلال هذه الاحداث المؤثرة.

هذا الكتاب يجب أن يقرأ من قبل كل المهتمين بحياة الأمم. فهو يكشف تزييف الأنظمة المستبدة للتاريخ.





المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي،
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨

ISBN 00953-36-831-7